الطبعة الثانية

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

طريق الصين

رحلة في مستقبل قوة صاعدة

روب غيفورد

نقله إلى العربية
محمد محمود التوبة

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION

العبيكان
Obeikan

www.ibtesama.com/vb

طريق الصين

رحلة في مستقبل قوة صاعدة

روب غيفورد

نقله إلى العربية

محمد محمود التوبة

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

العبيكان
obeikan

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

Original Title:

CHINA ROAD

A JOURNEY INTO THE FUTURE OF A RISING POWER

ROB GIFFORD

Copyright © 2007 by Robert Gifford

Map copyright © 2007 by David Lindroth, Inc.

ISBN 978-1-4000-6467-0

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition

Published by: Random House, an imprint of The Random House Publishing Group, a division of Random House, Inc., New York (U.S.A.)

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع راندوم هاوس - نيويورك - الولايات المتحدة.

© العبيكان **2008 ـ 1429**

ISBN 8 - 061 - 503 -603 -978

الناشر

شركة العبيكان للأبحاث والتطوير

المملكة العربية ا لسعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب.

هاتف: 2937581/ 2937574، فاكس: 2937588 ص . ب: 67622 الرياض 11517

الطبعة العربية الثانية **1432هـ ـ 2011**م

ⓒ مكتبة العبيكان، 1430هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

غيفورد، روب

طريق الصين. / روب غيفورد؛ محمد محمود التوبة - ط٢. - الرياض 1430هـ

407 ص؛ 17×24 سم

ردمك: 8 - 061 - 503 - 603 - 978

1 ـ الصين - تاريخ - العصر الحديث

أ. التوبة، محمد محمود (مترجم) ب. العنوان

ديوي 951,04 رقم الإيداع: 9314 / 1431

صدرت هذه الطبعة باتفاقية نشر خاصة بين الناشر العبيكان و MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف وليس بالضرورة عن رأي المؤسسة؟

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 / 4654424 - فاكس: 4650129 ص . ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكيـة، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

www.ibtesama.com/vb

المحتويات

مقدمة: الطريق الأم 11

1. الأرض الموعودة 25

2. الاقتلاع من الجذور 39

3. الأشياء تنساب 55

4. الثورة غير المنتهية 71

5. «شرارة واحدة تستطيع أن تشعل النار بالمروج» 83

6. وادي السيليكون 99

7. «النساء يرفعن نصف السماء» 113

8. «ضعوا الشعب أولاً» 125

9. السلطة 139

10. «ناسك الجبل المزهر» 155

11. إلفيس يعيش 171

12. آخر إمبراطورية كبيرة 205

13. رهبان وبدو رحل 221

14. لم يبق معتمداً على السماء 235

15. «نريد أن نعيش!» 249

16. الاحترام 271

www.ibtesama.com/vb

17. نهاية الجدار 285

18. كهوف ألف بوذا 297

19. قوة التحمل 311

20. الجدار الكبير للعقل 323

21. «الصين قوة استعمارية» 337

22. من بحر إلى بحر ساطع 351

23. طريق مطروق 369

شكر 397

مسرد كتب مختارة 401

المراجع 405

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

مقدمة:

الطريق الأم

ينطلق الطريق البالي الأسود كالسهم عبر صحراء مفتوحة انفتاحاً واسعاً حتى يحط ويرتطم في جرف منحدر منخفض من الصخور، التي ترتفع من المنظر الطبيعي القمري من أرض صحراء غوبي الصفراء المغطاة بالنباتات البرية والشجيرات الكثيفة القصيرة. وهذه الصخور الخشنة تشكل وادياً ضيقاً يحيط بالطريق بعد قليل من كل الجهات وهو ينعطف لأول مرة في مئات الأميال، ثم يلقي بالمسافر في بلدة صغيرة لم تكن مرئية من الطريق العام. ويعطي الوادي اسمه للبلدة، وهو شينغشينغشيا، ويعني وادي النجوم.

وادي النجوم بلدة حصانين*، واسعة الشوارع، والمقيمون فيها بضع مئات فقط. وهي تقدم التموين والخدمات لأصحاب الشاحنات، ولسيارات ركاب المسافات الطويلة، ومن حين إلى آخر لمسافر مجنون يختار أن يعبر صحراء غوبي براً على هذه الطريق. وتدين البلدة في وجودها لبئر صغيرة من الماء العذب، وهي البئر الوحيدة لعدة أميال في محيطها، وقد استطاعت أن تمون الإنسان والحيوان طوال قرون في رحلاتهم على طول هذا القسم الذي لا يعرف الرحمة من طريق الحرير القديم. وبلدة شينغشينغشيا تؤشر إلى دخول المسافر إلى ما كان يسمى عادة تركستان ولكنه الآن المنطقة الصينية شينكيانغ. والوادي الواقع إلى الشرق منها وبوابة الرسوم الضخمة الواقعة إلى الغرب منها يوفران الدعامة لهذا الموقف الرث المشوش للشاحنات، ولمساكن المقيمين، ولمحطة البنزين الوحيدة الكبيرة التي تظهر من أرض الصحراء المحروقة وتعلو إلى سماء بلد في آسيا الوسطى زرقاء صافية. والشمس المعادية عالية، تذيب زفت الطريق تقريباً، وأنا واقف إلى جانب الطريق، أحاول أن أتطفل لأتدبر ركوباً مجانياً في الرحلة في السيارات المارة في الطريق العام.

---

* كناية عن سعة الشوارع التي تسير فيها عربة يجرها حصانان بالمقارنة ببلدات لا تسير في شوارعها إلا عربات يجرها حصان واحد. (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

وهذا الطريق ليس مجرد أي طريق قديم. فهو الطريق الأم للصين، واسمه هو الطريق 312. لقد كنت أرتحل بسيارات الركاب، والشاحنات، وسيارات الأجرة على طول كل هذا الطريق من بدايته في شنغهاي، وهي على بعد ألفي ميل إلى الشرق من هنا تقريباً. وفي المدينة القديمة شيان، يجتمع الطريق الأم مع مسار طريق الحرير القديم، الذي كان في الأزمنة القديمة يسير عبر صحراء غوبي، وعبر وادي النجوم، إلى آسيا الوسطى، وباتجاه الغرب إلى بلاد فارس وإلى أوروبة. وأنا الآن في حوالي الثلثين من الطريق على طول رحلتي التي تبلغ ثلاثة آلاف ميل، وبقي منها ألف ميل لأركب وأصل إلى نهاية الطريق، الواقعة عند حدود الصين مع كازاخستان.

أنا غير حليق ومحترق من شمس الصحراء الشديدة، ومرهق ولكنني مبتهج، بعد ستة أسابيع من السفر، ومرهق ولكنني مازلت أتمتع بحيوية بعد ستة أعوام من العيش في الصين صحافياً. وهذه هي آخر رحلة لي عبر البلاد قبل أن أغادرها وأنتقل إلى أوروبة.

كانت مجموعة من سائقي الشاحنات قد اجتمعت عند محطة البنزين لتتبادل أطراف الحديث. وكنت أتجول حول المكان لأرى إن كان أي واحد منهم سيمنحني ركوباً معه إلى الغرب. وقد سرَت بينهم كلمة تقول إن هناك، على الطريق 312 أمامهم تماماً، دورية سيارات من المركز الصغير لشرطة وادي النجوم تجلس، وتنتظر. وجميعهم محملون حمولة زائدة وسوف يغرمون إذا أوقفتهم الدورية. ونحن نقف ونتبادل حديثاً قصيراً لمدة عشر دقائق. ومعظمهم حذرون بشأن منح الركوب لرجل غربي. وأخيراً، تأتي الكلمة وتنتشر بأن سيارة الشرطة قد ذهبت، وتتفرق الجماعة، ويتوجه كل سائق إلى شاحنته الخاصة. وأنا متروك واقفاً حتى نظر إلي واحد منهم، وبهزة قصيرة من يده، يؤشر لي لأتوجه نحو شاحنته. وأنا أتبعه، وأقفز إلى مقصورة السائق. ويشعل محركه، ويدرج الوحش الأزرق الكبير على الطريق وإلى الخارج في صحراء غوبي الذهبية القاحلة.

وأسأله: «من أين قدمت ؟»

«شنغهاي».

www.ibtesama.com/vb

«وإلى أين أنت متجه؟»

«أورومجي».

«ما هذا الشيء الضخم المحمول على ظهر شاحنتك؟»

«إنه مرشح صناعي، ذاهب إلى شركة في أورومجي. وفي الأسبوع الماضي كنت أسوق سيارتي من أورومجي إلى شنغهاي، مع شاحنة محملة بالبطيخ».

إنه تبادل له رمزيته. المنتجات الطازجة تنساب شرقاً من أجل المستهلكين في مدن الصين الساحلية. والمعدات الصناعية تنساب غرباً للمساعدة في بناء أقل المناطق تطوراً في داخل البلاد.

أورومجي هي عاصمة شينكيانغ، قلب آسيا الوسطى، وهي أبعد مدينة في العالم عن البحر المحيط.

واسم السائق ليو شانغ. وهو يسافر جيئة وذهاباً على طول الطريق 312 من شينكيانغ إلى شنغهاي في كل العام، ويسوق بالتناوب ليل نهار مع زميله، وانغ، الذي يرقد نائماً على السرير الضيق الموضوع خلف مقاعدنا. جميع الشاحنات فيها سائقان، كي يستطيعا السفر أربعة وعشرين ساعة في اليوم، ولكيلا يتوقفا إلا حين يحتاجان إلى استخدام مواقف الاستراحة الموجودة على طول الطريق الممتدة ثلاثة آلاف ميل.

وأساله: «كيف الحياة بصفتك سائق شاحنة في هذه الأيام؟ هل تستطيع كسب المال؟»

«إنها صعبة» فهو يتفجع، وهو يشعل الأولى من سجائر عديدة ويرمي بولاعته على لوحة أجهزة القياس أمامه. «يجب علينا أن نحمل حمولة زائدة على شاحناتنا لنكسب أي مال، ولكن الشرطة تكمن وتنتظر وتغرمنا».

ويدخن سلسلة لا تنقطع من السجائر وهو يسوق ويتحدث بسلسلة من الكلام بشكل متقطع كمن ينقر نقراً.

www.ibtesama.com/vb

«يُدفع لي ثمانية عشر ألف يوان (حوالي 2.200 دولار) لآخذ حملاً من أورومجي إلى شنغهاي أو عائداً ثانية. وعلي أن أدفع حوالي خمسة عشر ألف يوان رسوماً، وتكاليف، وغرامات للشرطة. وهكذا فأنا أكسب، من رحلة أسبوع واحد، حوالي ثلاثة آلاف يوان (وهي تقريباً 380دولاراً).

وأقول: «ذلك دخل ليس سيئاً». والعديد من الصينيين لا يكسبون ذلك في شهر.

«نعم، ولكن هناك البلى في استعمال شاحنتي، وإنهاك لي أنا. ويدفع لي أقل لأن التنافس يزداد. إضافة إلى حقيقة أن غرامات الشرطة ترتفع باستمرار».

لا أستطيع أن أفكر في رفيق سفر أفضل. فليو هو ذلك المزيج الرائع من التواضع ومن إظهار الشجاعة التي تميز الكثير من الرجال الصينيين. وجسمه مبني مثل جسم ملاكم، وهو قصير وذو عضل، وعلى الرغم من أنه لم يتلق من التعليم إلا إلى مستوى المدرسة المتوسطة، فهو قسم فلسفة من رجل واحد، وله رأي في كل شيء. في دقيقة يتفجع من الانحطاط الأخلاقي للصين، وفي الدقيقة التالية يخبرني عن بيوت الساقطات الموجودة على جانب الطريق التي يزورها على طول الطريق. إنه نابض حلزوني في قوة طاقته، مع الضحك والغضب ينفجران في مقادير متساوية. الضحك على الحياة نفسها تماماً، في كل جنونها الصيني الحديث. والغضب في معظمه على مسؤولي الحزب الشيوعي الفاسدين وعلى رجال الشرطة. فهو، مثل الكثيرين جداً من الناس العصريين من الصينيين، ممزق بين حب عميق لبلاده وبين غضب عميق على الناس الذين يحكمونها.

ونسافر طوال ساعات عبر غوبي التي لا ترحم، متحدثين حديثاً شديداً في البداية، ولكن مع فترات طويلة من الصمت تسود بعدئذ، وهو يسوق في أثنائها فقط، وأنا أجلس فقط، ووانغ يشخر فقط خلفنا في السرير. والجمال الطبيعي للصحراء، الصحراء الشَّموس التي لا تُسترضى، التي كان من عادة عواصفها الرملية الشرسة أن تبتلع قوافل كاملة من الجمال وحمولاتها الثمينة، الصحراء التي لا سبيل إلى إطفاء أوارها وكان من عادتها أن تقاوم الجميع باستثناء أشد المسافرين صبراً على المشاق والجهد، الجمال الطبيعي للصحراء ينبسط ماراً في الخارج.

www.ibtesama.com/vb

وعلى الرغم من أنها ما زالت قفراً، يجري الآن قهرها ببطء بجيش من الشاحنات الزرقاء الصينية الصنع من نوع ريح الشرق. ومع ازدياد النشاط على الطرق مثل الطريق 312 حتى صارت أكثر انشغالاً، وحتى صارت المدن البعيدة مثل مدينة أورومجي أقرب إلى المراكز الرئيسية للسكان الواقعة على مسافات أبعد إلى الشرق، تبدو الصحراء أقل خطراً بقليل الآن. ومن حين إلى آخر تقابلنا وتمر بنا شاحنة بهسيسها في الاتجاه المعاكس، فتهزنا بالتيار الهوائي المنبعث عن مرورها. وتندفع سيارات الركاب مارة بنا كذلك، وسيارات من حين إلى آخر، ولكنها لم تكن كثيرة.

يتحدث ليو شيانغ عن التطورات التي يراها في كل يوم، وعن تحول بلاد تغيرت بتخفيف الضوابط الحكومية وإرخائها، وبتدفق المال الأجنبي، وبأهم من ذلك جميعاً بحركة الناس غير المرتبطين بماضيهم الشيوعي. ولكن الحراك والحرية الأكبر غيرا طبائع الناس، كما يقول، ولكن ليس إلى الأفضل دائماً.

ويقول ليو: «في الماضي، كان كل واحد فقيراً، ولكن كل واحد كان مستقيم الأخلاق. والآن، كل واحد أكثر حرية، ولكن هناك فوضى. المال جعل كل شخص فاسداً». وهو يستخدم التعبير الصيني، وهو تعبير أوضح مئة مرة من مكافئه الإنجليزي الحاد كالأنياب، ويقول: «إن الإنسان الآن هو الذي يأكل الإنسان».

هذا كتاب عن الناس من أمثال ليو شيانغ، عن الناس العاديين من الصينيين وقد علِقوا في لحظة غير عادية في الزمان. فالصين في مطلع القرن الحادي والعشرين هي، فوق كل الأشياء، أمة في حالة حركة، والملايين من الناس من الريفيين يغادرون قراهم ويتوجهون إلى المدن، يبحثون عن العمل. والكثيرون من الناس ما زالوا يسافرون بالقطار، ولكن الناس يسافرون براً بشكل متزايد. ومن الصعب قياس الأرقام الدقيقة، ولكن معظم الخبراء يقدرون أن 150 مليوناً من الناس (ويحتمل أن يكون الرقم 200 مليون) قد غادروا قراهم الوطن للبحث عن العمل في المدن في كل أنحاء الصين. إنها أضخم هجرة في التاريخ الإنساني.

www.ibtesama.com/vb

هذا الجيش من المهاجرين، وقد دفعه الفقر السرمدي في الريف وجذبته الأنوار المتألقة في المدن، هو الجيش الذي يقدم الوقود للازدهار الاقتصادي الذي يضع الدمى الرخيصة، والملابس الرخيصة، وشاشات التلفاز المسطحة الرخيصة، والحواسيب الرخيصة على أرفف متاجر العالم.

يُعرف عامة الناس في الصين، الريفيون منهم والحضر على حد سواء، في اللغة العامية بأنهم حرفياً «الأسماء المئة القديمة»، وهم الذين كانوا حسب الأسطورة الصينية مكونين من مائة اسم للعائلات لا غير. وحياة الأسماء المائة القديمة اليوم يجري تحويلها كما لم يحدث من قبل في التاريخ الصيني أبداً.

بعد خمسة آلاف سنة من الحضارة المستمرة، وبعد القرون التي كانت فيها الصين أول قوة اقتصادية في العالم، أُخرجت الصين فجأة من عزلتها الإمبراطورية بوصول المستعمرين الأوروبيين في القرن التاسع عشر. بعد ذلك، بعد قرن من الإذلال على أيدي القوى الأوروبية واليابان، تبنت الصين الماركسية المقاتلة، التي طردت الإمبراطوريين المستعمرين (الإمبرياليين) وانتزعت البلاد من ماضيها الذي أضفى عليه الزمان جلالاً وانتزعتها من تقاليدها القديمة. وبعد العام 1949، انطلق الحزب الشيوعي ليعيد صياغة الروح الصينية ونجح في تغيير الكثير في المجتمع الصيني. ولكن الروح العسكرية للرئيس ماو في النهاية دمرت البلاد تقريباً، وأخفقت التجربة الشيوعية. وبموت ماو في العام 1976، انطلق القادة الجدد للصين في التخلي عن النموذج الاقتصادي الماركسي بالسرعة التي كانوا قد تبنوه فيها.

والآن، بعد ثلاثين عاماً من إصلاحات السوق منذ العام 1978، تقف الصين في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين على حافة شيء ما كبير جداً، شيء ما مختلف جداً عن أي شيء مضى من قبل. إنها رأسمالية فريدة من نوع «الإنسان يأكل الإنسان» (وما زالت تعرف رسمياً باسم «الاشتراكية بخصائص صينية») جلبت تغييراً غير مسبوق لمجتمعها. الصين أدركت بريطانيا بوصفها رابع أضخم اقتصاد في العالم، وراكمت احتياطيات من القطع الأجنبي تساوي تقريباً تريليون دولار وصارت ورشة العالم. وإن توقها إلى الطاقة وإلى الموارد يؤثر في أسواق العالم في النفط وفي السلع.

www.ibtesama.com/vb

ومن الناحية الدبلوماسية فهي تتنامى في الأهمية أيضاً، مع سياسة خارجية ملتزمة بقضيتها تحكمها الذرائعية بدلاً من الإيديولوجية. وباختصار، إن الصين مهمة أكثر مما كانت في السابق مهمة في كل الأوقات في الأزمنة الحديثة. وكثيرون يأخذون الأمر قضية مسلماً بها وهو أن الصين سوف تكون هي القوة العظمى الكونية القادمة.

ولكنك إذا نظرت عن قرب أكثر قليلاً، فسوف ترى أن خطوط التصدع الخطرة تظهر أيضاً، خطوط التصدع التي توحي أن البلاد قد لا تكون مستقرة مثلما تبدو، وأن صعود الصين الذي يجري التبجح به كثيراً قد لا يكون سلساً مثلما يتخيل كثيرون. وإن رحلة باتجاه الغرب على طول الطريق 312 هي رحلة إلى مواطن الضعف في الصين. هناك فجوة متنامية بين الحضر الأغنياء والريفيين الفقراء، وهذا ما أدى إلى الكثير من حوادث الاضطراب في المناطق الريفية. وقد انهارت شبكة الأمان القديمة من الرعاية الصحية المجانية ومن التموين الذي تقدمه الدولة من المهد إلى اللحد، وهذا قد ترك الكثيرين من الناس في حال أسوأ بكثير مما كانوا عليه من قبل. وإضافة إلى ذلك، فإن نمو الصين الانفجاري قد دمر البيئة، فست عشرة مدينة من المدن العشرين التي تعد أكثر المدن تلوثاً في العالم تقع في الصين. وهناك مشكلة مزمنة من نقص الماء، والعديد من أنهار البلاد ملوثة تلوثاً خطراً. وعلى قمة كل ذلك، فإن كل المجتمع مرهق بالفساد من أوله إلى آخره، وهو تركة دولة الحزب الواحد الذي لن ينفذ الإصلاح السياسي وبالتالي فهو لا يملك الزواجر والضوابط التي تطبق على مسؤولية أصحاب السلطة المطلقة.

ومعظم الغربيين، ومنهم الذين يفكرون بشأن الصين أيضاً، لا يبدو أنهم ينظرون في إمكانية أن تؤدي الضغوط التي تتعاظم هناك إلى انفجار نحو الداخل وفق الأسلوب السوفييتي. ولكنني أعتقد أن على الغرب أن يبذل المزيد من الانتباه الموجه إلى مشكلات الصين، وذلك لأن من الممكن إلى حد كبير أن يكون هناك لحظة حرجة قادمة في الصين. وكلما تعامل الحزب الشيوعي الآن مع مشكلاته الاجتماعية والسياسية تعاملاً أقل، كانت اللحظة الحرجة أكبر إن جاءت. فمجتمع الصين المتحرك في القرن الحادي والعشرين يتململ غاضباً أكثر فأكثر ضد نظامه السياسي

www.ibtesama.com/vb

الستاليني المتصلب. وإذا لم تفعل الحكومة في بكين المزيد لمعالجة مشكلات عدم المساواة المتنامية والمشكلات البيئية التي تلوح نذرها للعيان، فأنا أعتقد أن الصين يمكن أن تكون في اضطراب حقيقي.

وهكذا فحين كنت أعد للانطلاق على طول الطريق 312، كان هناك سؤال واحد كبير في ذهني: أيهما سيكون للصين، العظمة أم الانفجار إلى الداخل؟ أتستطيع البلاد فعلاً أن تصير القوة العظمى في القرن الحادي والعشرين التي يتنبأ بها كثيرون؟ أم أنها ستنهار كلها، مثل الاتحاد السوفييتي،تنوء بمواريث الماضي المقعدة، وتغرق من تناقضات الحاضر المفكّكة؟ وإذا ذهبت الصين فعلاً إلى العظمة، فأي نوع من البلاد ستكون؟ هل ستقدر مطلقاً على التحول إلى دولة حديثة، مع وجود الزواجر والضوابط الموضوعة على سلطة الحكومة؟

خطتي هي أن أجيب عن هذه الأسئلة في أثناء سفري على طول الطريق 312، وفي أثناء مقابلاتي مع سائقي الشاحنات والساقطات، وسكان المدن والضواحي من ذوي المهن التي تدر دخلاً جيداً، والفنانين، والفلاحين وباعة الهاتف الجوال الذين تعكس حياتهم تعقيد الصين الحديثة. وفي الوقت الذي أحاول فيه أن أجيب عن أسئلتي حول مستقبل الصين، آمل أن أذهب في طريق ما للإجابة عن بعض الأسئلة المهمة على نحو مساو حول حاضر الصين اليوم: من بالضبط الشعب الصيني؟ وماذا فعل كل هذا التغيير الشديد الأثر في النفس الصينية، وللروح الصينية؟ إن منظر أرض الصين الطبيعي المادي يتغير في الوقت الذي تنقلب فيه البلاد رأساً على عقب بفعل التطور. ولكن هكذا يتغير أيضاً منظرها النفسي، وعالمها الأخلاقي، أي، ما يفكر فيه الناس، وما يؤمن به الناس. بالنسبة إلى الغرب، كان هناك أكثر من مائة عام من أجل أن يستقر غبار الثورة الصناعية من قبل أن تظهر الثورة التقانية وتتقدم. في الصين، الثورتان تحدثان في وقت واحد. والإزاحة أو الاقتلاع من الجذور، المادية والنفسية، هائلة وهي تمزق نسيج المجتمع، في الوقت الذي تقوم فيه الطرق الجديدة وسكك الحديد، مع ذلك، بشبك البلاد معاً على نحو أكثر قرباً.

وعلى الرغم من كل التغيير في الصين، ما زال العالم الغربي متمسكاً برأيه المتقادم العهد بشكل خطر، والذي يرى البلاد بالأبيض والأسود، والذي يتعثر فوق

www.ibtesama.com/vb

مبالغات صيغ التفضيل العليا التي تحبس الأنفاس الخاصة به عن النمو والتقدم غير المسبوقين، أو التراجع إلى أنماط الحرب الباردة القديمة وعن التحذيرات من «خطر الصين». والصور التي يتخيلها الغربيون عن الشعب الصيني هي أيضاً متقادمة العهد. فقد كان الصينيون دائماً جماهير غفلاً لا وجه لها في الذهن الغربي. وسواء كانوا هم الحمالين بضفيرة شعر مسترسلة من القفا على الظهر من الستينيات من 1860 أو الحرس الماوي الأحمر من الستينيات من 1960، فإن الغرب لم يرهم أبداً أفراداً. والآن، فإن الفردية تبرز في الصين، مع ذلك، في الوقت الذي يتولى فيه الشعب القيام بالمزيد من السيطرة على حياته الخاصة. فالشعب الصيني، وخصوصاً في المدن، يملك خيارات، وهذه الخيارات تخلق جيلاً كاملاً جديداً غير معروف لكثير من الناس في الغرب. هؤلاء الناس هم الذين أريد أن أقابلهم، الأفراد، والشعب الصيني الجديد الذي يبني الصين الجديدة، والتنويعة الهائلة من الناس الذين يعيشون ويعملون ويسافرون على طول طريق صيني واحد.

ومغامرتي على طول الطريق 312 هي أيضاً نهاية فصل في حياتي الخاصة. فأنا بريطاني تخصصت بالدراسات الصينية في كلية في إنجلترا في الثمانينيات من 1980. وجئت لأول مرة إلى الصين وأنا طالب في العشرين من العمر في العام 1987، لأقضي عامي الثاني الجامعي دارساً للغة الصينية في بكين. وبعد التخرج، صرت صحافياً وقضيت الكثير من التسعينيات من 1990 مراسلاً عن القضايا الآسيوية. وفي أحدث عمل لي أقمت في بكين لمدة ست سنوات، بصفتي مراسل الصين للراديو الوطني العام. والآن أنا أغادر الصين، وفي غضون أشهر قليلة سأتوجه إلى أوروبة، لأكون مراسل الراديو الوطني العام في لندن. كان بإمكاني أن أمكث لمدة أطول، ولكن ست سنوات بدت هي المدة الزمنية الصحيحة تقريباً لمنصب صحافي في مكان واحد، وقد اخترت أن أغادر في الوقت الذي مازلت فيه أستمتع بالصحبة. طوال عشرين عاماً، انضفرت حياتي مع الصين، وخبراتي هنا شكلت شخصي الذي صرت عليه، على الرغم من أنها، بالنسبة إلي الآن، قد انتهت تقريباً. ورحلة هذه الطريق هي وسيلة لأقول وداعاً.

www.ibtesama.com/vb

وكنت قد سافرت لأول مرة على قطعة من الطريق 312، من دون معرفته، في العام السابق، وذلك في الوقت الذي كنت أقوم فيه بعمل المراسلة الصحفية في براري مقاطعة غانسو، وهي ليست بعيدة جداً عن وادي النجوم. وقد علّقت على الطريق مع مرافقي في السفر وقلت كم كان طريقاً جيداً لمثل هذه المنطقة النائية، فأخبرني أن الطريق يسير على طول المسافة من شنغهاي إلى كازاخستان.

وحفظت الفكرة في ذهني، منتظراً الوقت المناسب لأقوم بالرحلة، والآن جاء ذلك الوقت. وكنت قد حزمت أمتعة بيتنا في بكين وودعت زوجتي وأطفالي إلى المطار. وطاروا إلى لندن قبلي، للانتقال إلى بيت جديد وإقامة حياتنا الجديدة. ولدَيَّ الآن الصيف ممتداً أمامي، شهران لاستكشاف الصين في كل تناقضاتها، قبل أن أصعد أنا نفسي إلى طائرة متوجهاً إلى لندن وأغادر الصين كلها خلفي.

يسحب ليو شيانغ نفَسه من سيجارة أخرى.

ويقول مع تكشيرة، وهو يعكس رأياً واسع الانتشار بين الشعب الصيني، ويتناقض مع الصورة الصاعدة عن البلاد في الغرب: «الصين ضعيفة، ونحن نحتاج إلى عقود وعقود قبل أن نستطيع أن نُدعى بلاداً قوية، قبل أن نستطيع أن نتنافس مع أمريكا».

وأنا أقول له: «ولكن الصين قد صارت بلاداً مختلفة تماماً عما كانت عليه منذ عشرة أعوام».

ويقول ليو: «ذلك صحيح. ولكن لا تهتم بما كانت عليه منذ عشر سنوات مضت، مقارنة بما كانت عليه منذ خمس سنوات، إنها بلاد مختلفة. ولكننا ما زلنا في الخلف على بعد مسافة طويلة».

زميل ليو، وانغ، كان قد استيقظ الآن وهو يجلس خلفنا على سريره. سيكون بعد قليل دوره ليتولى السياقة، وأما ليو فسيأخذ غفوة. وسوف ينزلانني في المخرج الذي يؤدي إلى المدينة الواحة، مدينة هامي.

وأنا أسأل ليو إن كان يعتقد أن الصين تستطيع أن تقوم بالتحول من دولة حزب واحد إلى ديمقراطية.

www.ibtesama.com/vb

ويقول بلا تردد: «لا، لا أعتقد أن الصين تستطيع أن تصير ديمقراطية في أي وقت. انظر إلى التاريخ الصيني. كان هناك دائماً تغييرات في الحكومة، ولكنه تاريخ إمبراطور واحد فقط يجري استبدال آخر به. النظام لا يتغير أبداً. الناس الموجودون على القمة فقط يتغيرون. ذلك هو كيف تكون الصين».

وأسأله: «وماذا سيحدث إذاً؟»

ويقول، وهو يهز كتفيه، ويرفع صوته فوق صوت الريح التي تندفع من خلال النوافذ المفتوحة في الشاحنة: «لا أعرف، نحن الأسماء المائة القديمة، لا نعرف عن هذه الأنواع من الأشياء. ولكنني أعرف أن الصين لن تصير أبداً مثل بلادكم».

وبعد قليل من ذلك، نصل إلى مخرج مدينة هامي. وأصافح السائقين، وأشكرهما على الركوب، وأقفز نازلاً إلى الزفت الباهت القذر الأسود. وأقف على قارعة الطريق أبحث عن سيارة أخرى تمنحني ركوباً إلى هامي، وكلمات ليو شيانغ مازالت ترن في أذني. وأنا أراقبه وهو يدير شاحنته الكبيرة الزرقاء من نوع ريح الشرق وتتصاعد سرعته ببطء مبتعداً عبر الصحراء.

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

طريق الصين

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

1
الأرض الموعودة

قطار التعويم المغناطيسي الذي يربط مطار شنغهاي اللامع الجديد، مطار بودونغ، مع مركز المدينة ينساب خارجاً من محطة المطار، وفي غضون دقيقتين تقريباً وصل إلى سرعة 270 ميلاً في الساعة. وتلمع لوحات الإعلانات مارة بسرعة تجعلها غير قابلة للقراءة تقريباً. والقطار معلق مغناطيسياً على طول سكة تسير على ارتفاع خمسين قدماً فوق الأرض، وهو يحصد الأرض نحو مركز أحدث مدينة في الصين. المناظر الطبيعية الأرضية أمريكية على نحو مدهش ـ منبسطة، ومنخفضة مرتفعة، ومبنية حديثاً. ويميل القطار الطلقة الرمادية ميلاً كسولاً نحو اليسار وهو ينطلق فوق واحدة من الطرق الحرة الرئيسية في بودونغ، ويمر بالأسواق الكبيرة (السوبر ماركت) كالكهوف وبصفوف من مجمعات بناء الشقق المصقولة الجديدة الزهرية والبيضاء.

قطار التعويم المغناطيسي، كما هو معروف، كلف 1.2 بليون دولار لبنائه وهو أول قطار من نوعه في العالم يشغل تجارياً.

قبل ستة أسابيع من وصولي إلى بلدة وادي النجوم (ستاري غورج) وصحراء غوبي، كنت قد وصلت بالطائرة إلى شنغهاي قادماً من بكين لأبدأ رحلتي البرية لمسافة ثلاثة آلاف ميل على الطريق 312. وكنت حتى الآن أكثر انشغالاً من أن أقوم بعمل العديد من التحضيرات ولم أملك إلا فكرة باهتة عمن قد أتحدث إليهم حين أصل إلى هنا.

ورحلة قطار التعويم المغناطيسي، وهي لمسافة عشرين ميلاً، كانت قد انتهت تقريباً قبل أن تكون قد بدأت. فالقطار يخفف بهدوء وهو يدخل المحطة النهائية، وهي ليست بعيدة عن الغابة الجديدة من المباني التي ترتفع عالية التي تكوّن مركز مدينة شنغهاي التجاري. وانظر إلى ساعة يدي وأنا أرفع حقيبة ظهري وأطرحها في

www.ibtesama.com/vb

الخارج على المنصة. وأقول باللغة الصينية، وأنا أومئ إلى جابية التذاكر المرأة التي تلبس لباساً أنيقاً وتقف إلى جانب الباب: «ليس سيئاً. ثماني دقائق».

وترد من دون تبسم، «سبع دقائق وعشرون ثانية».

الشوارع في خارج المحطة النهائية خليط متنافر من الضجة والحركة. وهناك إحساس في شنغهاي غير ملموس، هو الاستعجال، أمل وتفاؤل يتعلقان في الهواء حولك من كل الجهات ابتداءً من الدقيقة التي تصل فيها. الناس يدفعون إلى الأمام، بأقدامهم، وفي رؤوسهم، يبنون مستقبلاً، ويبنون بلداً، ويتحركون نحو غاية ما بعيدة غير مرئية.

وكنت قد اخترت أن أقيم في فندق رث الحال قليلاً ولكنه فندق تاريخي بشكل مجيد هو فندق آستور هاوس، فهو أول فندق أجنبي تأسس في شنغهاي، في العام 1846. ويقوم الفندق على إحدى نهايتي شارع البند، وهو الشارع العام الرئيسي الأصلي للمدينة، وهو يسير على طول نهر هوانغبيو. وكان شارع البند طوال أكثر من 150 عاماً هو المكان الذي يشكل الحد المشترك بين شنغهاي وبين الناس القادمين، ناس المحيط، أو شعب المحيط مثلما كان يعرف الأجانب دائماً.

لقد شهد فندق آستور هاوس النجاح الكامل لبروز الصين إلى العالم الحديث، من إدارة الأفيون الإنجليزية في الأربعينيات من 1840 وصولاً حتى رقصات الشاي في المجتمع المهذب في العشرينيات من 1920، إلى الأعمال المفرطة للصين الماوية في الستينيات من 1960. السقوف المزخرفة بفن الديكور، المتميز بتصاميم الهندسة المستوية، والألوان الجريئة، سقوف عالية، وألواح أرضية الحجرة ذات الصرير أصلية، وكنت تستطيع أن تقود سيارة صغيرة حتى تصل إلى درج الفندق مع الدرابزين. هنا أقام يوليسيس اس. جرانت* في جولته العالمية في السبعينيات من 1870. وأقام هناك أيضاً تشارلي شابلن وجورج بيرناردشو وألبرت آينشتاين، حين كانت شنغهاي هي المكان الذي يزار في آسيا في القسم الأول من القرن العشرين. وبحسب الأسطورة

* يوليسيس سيمبسون غرانت (1822-85) قائد جيوش الاتحاد عند نهاية الحرب الأمريكية الأهلية ، ورئيس الولايات المتحدة 1869-77. (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

الحضرية، فإنَّك في القرن التاسع عشر، كنت تستطيع أن تطلب الأفيون من خدمة الحجرة في فندق آستور هاوس، وأن شو إن لاي، الذي كان سيستمر حتى يكون رئيس وزراء الصين، اختبأ في آستور هاوس حين كان مشاغباً شيوعياً في العشرينيات من 1920. شنغهاي، أكثر من معظم المدن، مشبعة بالأساطير الحضرية.

والإقامة هنا هي أيضاً حنين إلى الماضي بالنسبة إلي شخصياً. فقد كان أول فندق أقمت فيه في الماضي في شنغهاي، في صيف العام 1988. وبعد دراستي اللغة لمدة عام، التحقت بي زميلة جميلة من صفي من الجامعة في إنجلترا. وكنا سنسافر في أنحاء الصين لمدة ثلاثة أشهر بالقطار قبل أن نركب قطاراً عبر سيبيريا عائدين إلى أوروبة من خلال الاتحاد السوفييتي.

أقمنا في غرف نوم دولار للسرير لحملة حقائب الظهر في فندق آستور هاوس (وهي ما زالت موجودة) في ذلك الصيف الشديد الحر. تجولنا في الشوارع، نتلمس الحصول على إحساس لشنغهاي الجديدة بوصفها المدينة التي زحفت زحفاً بطيئاً خارجة من شرنقتها الماوية. وبقينا ساهرين حتى ساعات متأخرة من الليل، في الخارج على شرفة الفندق المغطاة بالخشب القديم، محاولين أن نفهم الصين، والكون، وأن نفهم أنفسنا طبعاً. وتلك الزميلة الجميلة من صفي هي الآن زوجتي وكانت قد أمضت من مدة قريبة آخر ست سنوات معي في الصين. وحين كنت أرفع حقيبة ظهري إلى غرفتي وحيداً، لم أستطع أن أتمالك نفسي عن الابتسام لها في المرآة الباهتة للمصعد القديم المتداعي.

وقبل الذهاب إلى العشاء، ألبس بنطالي القصير وحذاء الجري وأتجه خارجاً من أجل القيام بالهرولة. فإذا كان هذا وقت التغيير بالنسبة إلى الصين، فأنا آمل، أنه أيضاً وقت للتغيير بالنسبة إلي، وعلى نحو أكثر تحديداً بالنسبة إلى خط وسط جسمي. فأنا أحاول أن أتخلص من عشرة أرطال إضافية (حسناً، الأقرب خمسة عشر رطلاً) كان الطعام الصيني قد أودعها في ستة أعوام حول شخصي. وصارت هذه الحاجة أكثر إلحاحاً بسبب ما كان يحدث حتى الآن ـ أو لا يحدث ـ في أعلى رأسي. فبعد شباب كثير الشعر، فإن آلهة الشَّعر الحقودة، عليها اللعنة، بدأت تسحب

www.ibtesama.com/vb

البساط من تحتي (ومن فوقي). وهكذا، فقد عزمت على ألا أصل إلى الأربعين بديناً وأصلع معاً. فقد سجلت بتهور لأقوم بالجري في ماراثون بكين، بكل طوله الذي يبلغ 26.2 من الأميال، في الخريف. وقد بدأت التمرين بالجري لأميال قليلة في اليوم قبل الانطلاق مغادراً بكين وأنا آمل أن أزيد المسافة اليومية حين أسافر طوال الصيف، ثم أجري الماراثون قبل المغادرة في النهاية إلى لندن.

بدأت بنوايا عظيمة، على الرغم من القيظ، ولكن بارتكاب غلطة الجري على طول ممشى المشاة العام الواقع بين شارع البند وبين النهر. فالمنطقة مزدحمة جداً إلى درجة أن الهرولة بسرعة تصير لعبة الكرة والدبابيس الإنسانية. أحد المخاطر الوظيفية للعيش في الصين هو أنه لا يوجد هناك حيز كثير كافٍ للحركة في أي مكان (حتى تصل إلى صحراء غوبي). وأنا أحاول رياضة تسبب التعرق وتشبه التزلج المتعرج من خلال الجمهور لمسافة تصل إلى عشري الميل تقريباً، ثم أقرر أن أترك الستة والعشرين ميلاً الباقية إلى الصباح وأترنح في مشيتي خجلاً عائداً إلى الفندق للاستحمام.

انقضى مسائي الأول في شنغهاي على شرفة مطعم يسمى نيو هايتس (المرتفعات الجديدة). وهو يقوم على قمة الثلاثة على شارع البند، وهو واحد من صف المباني الاستعمارية التي تستحق التقدير التي كان قد تم تجديدها حديثاً، ويقع على بعد مئات قليلة من الياردات على طول الواجهة المائية من فندقي. والثلاثة على شارع البند تحتوي على سفينة القيادة الجديدة متجر جيورجيو أرماني، ومعرض فن، وفندق إيفيان سْبَا، وأربعة مطاعم عصرية على الموضة، ومن جملتها مطعم المرتفعات الجديدة، في القمة نفسها، وشرفته المفتوحة في الهواء الطلق معلقة بارتفاع سبعة أدوار فوق الطريق. ومن الشرفة ترى منظراً من أشد مناظر المطاعم أسراً للب في العالم، يطل على الطريق العام بمساراته العشرة من شارع البند، ويطل عبر نهر هوانغبيو على مقاطعة بودونغ غير العادية التي بنيت حديثاً.

وتأتي كلمة البند من كلمة هندية قديمة تعنى رُصافة، أي، حاجز ترابي، وجلبها معهم البريطانيون من الهند. والمنطقة الموجودة حول البند كانت هي المكان الذي

www.ibtesama.com/vb

بنيت فيه أول مستودعات (دعيت «مخازن الجملة») وبناها تجار الأفيون الذين جاؤوا جماعات إلى الصين في منتصف القرن التاسع عشر ليصنعوا ثرواتهم.

الشمس التي راقبها تجار الأفيون وهي تغرب فوق نهر هوانغبيو، تغرب الآن لي وأنا أصل إلى الشرفة مع مشروبي من البيرة. وتهب نسمة رقيقة، دافئة متصاعدة إلى الداخل قادمة من النهر، مطلقة في الهواء رائحة الفرصة نفسها التي أطلقتها منذ أكثر من 150 عاماً. واستسلمت مخازن الجملة، والخردة المطروحة جانباً، والسفن الشراعية السريعة وأوكار الأفيون، استسلمت للزجاج وللمعدن اللامعين من مدينة القرن الحادي والعشرين. ويرفرف من عدة مبان استعمارية مجاورة العلم الأحمر للحزب الشيوعي الصيني، وقد أخفاه المنظر الرأسمالي الذي يضج بالأزيز أسفل منه. وبرج الساعة في الواجهة المائية القديمة لبيت الجمارك، الذي بني في العام 1925 ووفق نموذج ساعة بغ بن لندن، يدق الساعة باللحن المفضل لدي ماو، وهو، «الشرق أحمر». ولكن الشرق لم يبق بعد اليوم أحمر. وريش الرأسمالية متعدد الألوان، والمنظر على طول شارع البند شعلة من النور الأخضر، والأزرق، والأبيض يصرخ بقصيدة رثاء للاقتصاديات الماركسية. وتقول تقارير الأخبار إن الصين تعاني نقصاً حاداً من الكهرباء، ولكنك لن تعرفه من كمية الطاقة التي تئز في سماء ليل الصيف الحار هنا.

ويعبر النهر بنفسه طريقه من خلال وسط هذا كله، إنه نهر هوانغبيو الأسود، والبطيء الحركة جداً، والمتدفق تدفقاً ضئيلاً أسفل ذقن دلتا يانغسي من مصب النهر الأم نفسه. ثلاثة مراكب ضخمة لنقل البضائع، محملة بالفحم، تندفع صاعدة ضد مجرى النهر، وهي منخفضة جداً في الماء حتى تكاد تظهر مثل غواصات تقريباً. وأطلقت سفينة شحن كبيرة بوقها، وكأنها تذكر الذين يتناولون عشاءهم من أهل ما بعد الحداثة في المطعم العالي فوق شارع البند أن الثورة الصناعية مازالت تحدث في الأسفل تحتهم.

وبين رجال الأعمال الأجانب العديدين يجلس الأثرياء الصينيون الذين يتناولون عشاءهم في مطعم المرتفعات الجديدة وهم النخبة الجديدة، وهم الذين اكتسبوا ذوقاً للتونة الميزو ـ غليز، والزابليونية (طبق حلو من البيض والسكر والخمر) وخمور

www.ibtesama.com/vb

العنب الأسود. وهم ناس يتحدثون عن الاندماجات، وشراء معظم حصص الشركات، والتطبيقات البرامجية القاتلة، وتلفاز بث البيانات الإعلامية المتعددة من الإنترنت إلى الحاسوب، في جوالاتهم الخليوية. ناس يبينون كم المسافة التي قطعتها الصين في ثلاثين عاماً من الإصلاح الاقتصادي. ناس صينيون حسب الموضة الدارجة، وأثرياء، وعصريون، ويحيي أحدهم الآخر في تناول الكوكتيل، وهم ينكتون ويضحكون بكل الثقة لغرفة مليئة بأثرياء من نيويورك يتناولون العشاء. انتقلوا من السجود على الأرض احتراماً إلى قبلة الهواء في أقل من قرن.

اسأل أي واحد من هؤلاء الناس عن مستقبل الصين، ولن يكون هناك أي سؤال. فإن تواضعهم الصيني الطبيعي قد يمنعهم من التبجح أو الشعور بالعظمة مع التشفي بشأن العظمة الممكنة للصين، وأما بالنسبة للأغنياء الجدد من شنغهاي فالمستقبل مشرق.

وتقدم مدينة نيويورك مقارنة جيدة. بكين هي واشنطن دي.سي، المدينة العاصمة، وهي أكثر إفراطاً بالانشغال بالسياسة من أن تكون في مقدمة التجارة. شنغهاي هي مانهاتن، على الرغم من أنها من عدة وجوه مانهاتن في حوالي العام 1910 بلدة ازدهار والمهاجرون يتدفقون إليها. يوجد 13 مليون نسمة تقريباً في شنغهاي (وكان في نيويورك في العام 1910 خمسة ملايين نسمة تقريباً). وكما كان في نيويورك منذ مائة عام، كان كثير من هؤلاء الناس قد وصلوا قبل قليل من مكان ما آخر.

ليس هناك تمثال للحرية ليرحب بهم هنا، ولكنني وأنا أقف مطلاً عبر النهر المتعرج وناظراً إلى الحقول الإليزية* من بودونغ، يبدو لي أنه يجب أن يكون هناك تمثال. أو على الأقل تمثال للفرصة. فمنذ أن بدأت شنغهاي تنمو بوصفها مركزاً للتجارة الخارجية في الأربعينيات من 1840، كانت المدينة دائماً أم المنفيين. والاختلاف عن نيويورك هو أن المنفيين هنا داخليون، لم يأتوا من عالم قديم ليبنوا عالماً جديداً، وإنما هم يحاولون أن يقلبوا العالم القديم إلى عالم جديد، وذلك واجب أصعب بكثير. إنهم

* في الأساطير اليونانية تمثل الحقول الإليزية مسكن السعداء في العالم الآخر بعد الموت ويعمها السلام. (المترجم).

www.ibtesama.com/vb

لاجئون لم يأتوا من الأراضي القديمة عبر المحيط، من دبلن أو كييف أو باليرمو، وإنما جاؤوا من الأرض الداخلية. إنهم جماهير محتشدة من هافيه وشينكيانغ، ولانجو، وهي المدن التي سأزورها في رحلتي على طول الطريق 312.

برج مكاتب جديد مشرق قائم على الجانب الآخر من النهر صار شاشة ضخمة للتلفاز، وتتناوب عليه الإعلانات ودعايات الحكومة التي تضيء كل جانب المبنى، وإحدى الرسائل تستبدل بعد خمس ثوانٍ بأخرى.

أهلاً بكم إلى شنغهاي. وغداً سيكون أجمل.
1746 يوماً أخرى إلى أن يحين معرض شنغهاي العالمي
المساواة الجنسية سياسة أساسية في بلادنا
كلوا شوكولاته دوف

بعد العشاء، أتجول ببطء عائداً باتجاه شارع البند، متجنباً العدد الكبير من المتسولين الذين يتسكعون عند باب المطعم، ومتوجهاً عبر الطريق إلى الممشى الموجود على الواجهة المائية التي حاولت أن أهرول فيها في وقت أبكر في المساء. تستطيع أن تحفظ الشارع الخامس، وبيكاديللي، والشانزيليزيه. هذا هو المشي الحضري المفضل لدي في كل العالم. ليس هناك شيء يشبهه تماماً، وخصوصاً في مساء صيفي حار. فالطاقة، والجو، والأمل، والإمكانات، والماضي، والمستقبل، كلها هنا. قلب مدينة شنغهاي يجعلك تشعر أن الصين أخيراً، بعد قرون من المحاولة، قد تكون على حافة العظمة مرة أخرى.

آلاف من السياح، الصينيين والغربيين، يتحركون على ممشى المشاة ومصابيحهم الومضية لأخذ الصور تطقطق فجأة مثل ضوء الحُباحب في ضوء أغبش. الغربيون يفعلون ما يفعله الغربيون دائماً في شنغهاي، فهم يحاولون أن يعيدوا خلق الماضي وهم يخطفون صور المباني الاستعمارية القديمة. والصينيون أيضاً يفعلون ما يفعله الشعب الصيني دائما، فهم يحاولون أن يهربوا من الماضي وهم يخطفون صورهم في الاتجاه المعاكس، وهم يحدقون عبر النهر نحو زقورات * بودونغ الباهرة.

* إشارة إلى تشبيه المباني بأبراج المعابد العالية وكانت تسمى زقورات في سومر وبابل وآشور في بلاد ما بين النهرين. (المترجم).

www.ibtesama.com/vb

كانت شنغهاي بطيئة في الظهور من نومها الاشتراكي في الثمانينيات من 1980. وهي لم تقلع في الواقع إلى أن تولت مجموعة من سياسيي المدينة السيطرة على القمة في الحزب الشيوعي بعد سحق المظاهرات المنادية بالديمقراطية في ميدان تيانانمين في شهر حزيران/ يونيو من العام 1989. بعدئذٍ، في التسعينيات من 1990، حلّق اقتصاد شنغهاي، حين استُهلِك الأمل والمثالية في الثمانينيات من 1980 على نار كبيرة من العدمية والمال النقدي.

كانت بودونغ أحواضاً قديمة فقط للسفن وحقول الأرز حتى مطالع التسعينيات من 1990. والآن وصلت إلى أن تجسد روح عصر الصين الحديثة، مئتا ميل مربع من المكاتب، والشقق، ومتاجر التسوق لتضيف إلى المبالغات من صيغ التفضيل إلى مدينة تتبجح من قبل ذلك بأسرع قطار في العالم، وبأعلى فندق في العالم، وببعض أعلى المباني في العالم. حين تنظر بعناية إلى بودونغ، من السهل أن تعتقد أن أقوى تسعة رجال في الصين (الذين يكونون اللجنة الحالية للمكتب السياسي للحزب الشيوعي) هم جميعاً مهندسون.

أمشي طول شارع البند، ثم أعبر عائداً تحت الطريق، ماراً بالمغنين الدوّارين وبالمتسولين تحت التقاطع، متوجهاً نحو مدخل السيدة الجليلة نقيبة شارع البند، وهي فندق السلام. وكان يعرف سابقاً باسم كاثي، وكان قد بناه في العام 1929 وريث لإحدى عائلات شنغهاي المشهورة قبل الحرب من يهود العراق، وقطب العقارات فيكتور ساسون. وتحول مركز الثقل الاجتماعي في الثلاثينيات من 1930 من فندق آستور هاوس الموجود حول ركن الشارع إلى فندق كاثي. والجاز فيه أكثر قفزاً كذلك، وحجراته أكثر أخذاً من فن الديكور لناد ليلي لرقص سريع وحيوي. وحين أصابت الأنفلونزا نوئيل كووارد* في أثناء إقامته في العام 1930، كتب(حيوات خاصة) في واحد من الأجنحة في كاثي.

«روليكسو، روليكسو»

---

* نوئيل كووارد (1899-1973) كاتب مسرحي، وممثل، ومؤلف موسيقي، ومخرج إنجليزي. (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

يبرز صوت من الظلال، يلفظ التحية المعتادة للباعة المتجولين الذين يتسكعون خارج فندق السلام وهم يضيئون ساعاتهم المزيفة من جيوبهم لتطلع عليها. الصين، طبعاً، هي مركز العالم للسلع المزيفة. حقائب غوشي، ساعات روليكس، قمصان رالف لورين كلها لك مقابل دولارات قليلة. فإذا كان من الواضح أنك لا تريد أياً من هذه، يتغير اتجاه الرمي فجأة.

ويهمس الرجل بإنجليزية مكسرة ومن دون إشارة التملك «بار سيدات، بار سيدات، هل تريد أن تذهب إلى بار سيدات؟»

الإيمان الشيوعي الصحيح قد رُفِع، ومعه رفعت الأخلاقيات الشيوعية، وأي شيء الآن يمشي. وفي العادة، تقنعُ الباعةَ المتجولين كلمات مختارة قليلة في اللغة الصينية أنك كنت هنا من قبل وأنك في الحقيقة لا تريد أياً من سلعهم المزيفة ونواديهم الليلية السيئة السمعة. ولكن في هذه الليلة، وهذا الرجل الملحاح على وجه الخصوص يستعرض القائمة التي يمتلكها، فأنا أجيب بالصينية بحزم (لا أريد) لكل واحدة من سلعه، وفي النهاية وصل معي إلى سلعة لم يسبق لي أن سمعتها من قبل.

ويقول: «غولفو، غولفو».

وأتوقف قليلاً لأنظر إليه مباشرة في وجهه وأنا أستطيع أن أشم رائحة الثوم في نفَسه.

«ماذا؟»

وهو يكرر، «غولفو، غولفو»، وقد تشجع باهتمامي، وهو يشير باهتمام إلى صديقه، الواقف إلى جانب المدخل المؤدي إلى الفندق.

وعلى الجدار اصطفت ثلاثة أطقم كاملة من مضارب نوع كول أواي. ويخبرني أصدقائي من لاعبي الغولف أنك لا تكاد تستطيع أن تعرف الفرق بين المضارب المزيفة مثل هذه وبين المضارب الحقيقية. وسعره ؟ ألفا يوان لكل المجموعة، وتساوي 250 دولار تقريباً لمجموعة من المضارب التي يمكن أن تكلف 2000 دولار على الأقل في الغرب.

www.ibtesama.com/vb

وأتجاوز فندق السلام وأتجه مباشرة نحو فندق آستور الواقع خلفه. وفي مقابله يقوم المتنـزَّه العام الذي كان معلقاً على مدخله حسب ما يفترض لوحة أسطورية من العصر الاستعماري تقول: غير مسموح لا للكلاب ولا للصينيين. (أو أن تلك أيضاً أسطورة حضرية أخرى؟)

وبعدئذ، وأخيراً، ألحظ وأنا أمشي إلى نهاية شارع البند، مدخلاً لم يسبق لي أن رأيته من قبل في أي وقت. وهو محجوب قليلاً في ظل الشارع السريع المرتفع الذي يصعد الآن من الطريق، وهو يلقي بظلاله تقريباً على جدار ما يبدو بوضوح أنه مجمّع كبير. لا ترى أي مبان في الداخل من الطريق، ولكن لوحة صغيرة إلى جانب البوابة تعلن أن هذا هو رقم 33، البند، موقع القنصلية البريطانية السابقة. وهناك طريق خاص يوصل إلى الخلف منطلقاً من البوابة ويختفي في مجموعة من الأشجار. إنها مظلمة ظلاماً كاملاً، وليس هناك أي إشارة إلى الحياة باستثناء حارسين ليليين في كوخ صغير بالقرب من البوابة.

وأسألهما: «هل أستطيع الدخول؟»

ويجيب واحد منهما، وهو رجل نحيل له كتلة كثيفة من الشعر الأسود، وشامة كبيرة على خده: «لا، آسف».

«أريد أن ألقي نظرة فقط. أنا إنجليزي».

وعلى الرغم من أننا سممناهم بالأفيون، وسرقنا أرضهم، وقطعنا أوصال بلادهم، وعاملناهم بغطرسة، وأذللناهم، واستعبدناهم تقريباً، فإن الناس الصينيين العاديين، الأسماء المائة القديمة، مهذبون نحو الأجانب وخدومون لهم على نحو مذهل، نعم، حتى للبريطانيين منهم. وهذا موقف لا يتوقف قط عن إثارة تعجبي. ويقتنع هذا الرجل. ويجيب: «حسناً، إذاً، سوف أريك بشكل سريع جداً».

هناك مبنيان محجوبان في نهاية الطريق الواصل من البوابة خلف مجموعة من الأشجار: مبنى القنصلية ومبنى إقامة القنصل. كلاهما بني في العام 1872، وهما مترابطان بممشى متعرج مغطى. وكان هذا طوال عقود واحداً من مراكز الحكم الاستعماري في شنغهاي في أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين.

www.ibtesama.com/vb

والمبنيان الآن يظهران بحالة سيئة وباليين في ظل شنغهاي الحديثة. ويتراقص ضوء مصباح الجيب الكهربائي مع الحارس على هيكلي المبنيين الجاثمين، المكونين من طابقين، بشرفاتهما ذات الطراز الاستعماري والمصارع الخضراء للنوافذ التي تغطي النوافذ المقوسة الضخمة. وأنا أطلب منه أن يشعل مصباحه في الداخل، على الغبار وفراغ الحجرات. وفجأة كانت لحظة من تلك اللحظات فوق الواقعية السريالية، في كل الأرجاء حين أستطيع، مع الطنين المنبعث من مساء من القرن الحادي والعشرين في كل الأرجاء، أن أسمع تقريباً ضحك القرن العشرين ومحادثته، ورنين كؤوس الشمبانيا وصراخ الفكتوريين، وأشباح شنغهاي الاستعمارية. فالكثير جداً مما هو الصين اليوم مرتبط بحاجتها إلى أن تمسح إذلال تلك الأعوام، وبشكل أخص الإذلال الذي لقيته على أيدي البريطانيين.

لقد تصادمت الأمتان لأول مرة في العام 1793، حين وصل مبعوث بريطاني اسمه اللورد ماكارتني إلى الصين مع حمولة سفينة من الهدايا ليطلب وضع نهاية للقيود الصينية التي كانت مفروضة على التجارة. وقد أزعج ذلك المبعوث الصينيين فوراً برفضه أن يؤدي السجود أمام الإمبراطور شيانلونغ، وهو ما كان يعني السجود بنفسه تسع مرات ولمس الأرض بجبهته. وأخيراً منحت له المقابلة، فطرده الإمبراطور من دون تأخير مع رسالة إلى الملك جورج الثالث قالت الكثير حول الكيفية التي كانت الصين ترى نفسها بها في ذلك الزمان:

لقد اطلعنا على نص رسالتكم الرسمية، وصياغة الكلمات فيها تعبرعن إخلاصكم. ويمكن منها رؤية تواضعكم المخلص وطاعتكم بشكل ظاهر. إنها محل الإعجاب، ونحن نوافق موافقة كاملة... والآن، أيها الملك، أنت أهديت أشياء مختلفة إلى العرش... ونحن لم يسبق لنا قط أن قدرنا الحاجيات البارعة، ولا نحن بحاجة أدنى حاجة إلى صناعات بلدكم.

مثل هذه الوثيقة، طبعاً، كانت مثل خرقة حمراء للثور البريطاني، وأمضى التجار البريطانيون السنوات الأربعين التالية وهم يحاولون فتح السوق الصيني. وقد فعلوا ذلك عن طريق إحضار الأفيون من الهند للمتاجرة به في مقابل الشاي، والخزف

www.ibtesama.com/vb

الصيني، والسلع الترفية الأخرى التي كانوا يريدونها. والأفيون البريطاني سمم المجتمع الصيني، مضيفاً توتراً جديداً إلى التوترات الداخلية العديدة التي كانت تتطور من قبل ذلك في كل أنحاء الإمبراطورية. واعتراضات بكين على التجارة البريطانية أشعلت شرارة حرب الأفيون الأولى، التي انتهت بهزيمة الصين هزيمة كاملة. وأجبرت بكين على توقيع معاهدة نانجينغ في العام 1842، وتنازلت فيها الصين عن جزيرة هونج كونغ إلى البريطانيين، وأجبرت على فتح خمسة موانئ أمام الأجانب. وكان أحد هذه الموانئ ميناء قرية صغيرة لصيد السمك اسمها شنغهاي. في هذه المدن، تم التنازل عن الأرض لشعب المحيط، وهي الأرض المعروفة باسم الامتيازات، ليبني عليها هؤلاء الأجانب بيوتهم وقنصلياتهم وكنائسهم، ولا يطبق فيها القانون الصيني. والمنطقة التي تقف عليها القنصلية البريطانية كانت جزءاً من امتياز شنغهاي الدولي.

ومعاهدة نانجينغ كانت البداية الرمزية لطريق الصين الطويل وطريق العذاب إلى التكامل مع بقية العالم، حين بدأت القوى الغربية ببطء تقدر الباب المفتوح. ووصلت موجات من شعب المحيط، من المبشرين والفجار، ومن المغامرين ورجال الأعمال، إلى الموانئ، يبحثون عن مستقبلهم أو يهربون من ماضيهم. ونمت شنغهاي على صورة مدينة غربية. واسمها في العقل الغربي يفوح بالفرص وبالمبالغات المفرطة، وبحسية الشرق وغموضه. وعلى عكس ذلك في العقل الصيني، حملت شنغهاي رائحة كريهة من الإذلال والتلوث من قبل الغرب. لقد كانت طفل السفاح للصين.

وكل شيء فعله الصينيون بعد العام 1842، من الجهود المعتدلة الأولى للإصلاح إلى الثورة التي أطاحت النظام الإمبريالي في العام 1912 إلى تبني الشيوعية ونصرها النهائي في العام 1949، كان يدور حول استعادة الأرض الصينية من المستعمرين واستعادة عظمة الصين. والآن، بعد أكثر من قرن ونصف تلت، ذلك هو ما يبدأ أخيراً بالحدوث.

ويبتسم الحارس ابتسامة عريضة كالتكشيرة من اهتمامي بالتاريخ الذي يقطر من القنصلية القديمة. وهو لا يعبأ بهذا المكان. وما يمثله بالنسبة إليه هو أنه مجرد

www.ibtesama.com/vb

مبان بالية مثلت الإذلال في ماضي الصين؟ وربما يرى أن هذه المباني يجب أن تهدم. ولماذا لا يقام شيء أفضل منها، شيء حديث؟ وبعد أشهر قليلة سمعت أن الموقع يجري استصلاحه وترميمه من مجموعة فنادق محترمة من هونغ كونغ، ليقلب إلى فندق شبه جزيرة شنغهاي.

ونتجول، ونتبع حزمة ضوء مصباحه الكهربائي، عائدين عبر الطريق الطويل نحو البوابة.

وأقول له: «آسف بشأن كل ذلك الموضوع المتصل مع الأفيون، وكل الأشياء الاستعمارية. لسنا فخورين جداً بكل ذلك، وأنت تعرف».

فيقول وهو يضحك: «لا تقلق. ذلك تاريخ. لا تستطيع أن تغير التاريخ».

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

2
الاقتلاع من الجذور

لا بد أن العفاريت في مناجم نيون بورنيو تعمل وقتاً إضافياً كي تبقي شنغهاي مضاءة.

وباستثناء لاس فيغاس (ومن الممكن طوكيو)، نادراً ما رأيت لوناً أنبوبياً حاراً جداً مثل ذلك. امش على طول شارع نانجينغ في قلب مدينة شنغهاي، وستصاب بالعمى من كل نوع من لوحات النيون، وكلما كانت أعلى صوتاً، وأشد إشراقاً فهي أفضل بالنسبة إلى الحد الذي يهم شركات الأعمال الصينية.

وبصرف النظر تماما عن الأنواع العديدة من السلع والأطعمة التي يجري الإعلان عنها، كان كل ذلك النيون يلمع ليوصل رسائل مهمة جداً عن الصين الحديثة. وأول كل شيء، واضح وبسيط، هناك الازدهار الاستهلاكي المثير للتعجب الذي يجري في المدن الكبيرة والصغيرة. وحين وصلت أنا لأول مرة، في العام 1978، كان العديد من المواد اليومية ما زال يُشترى بتذاكر توزيع الطعام فقط، ولم تكن تستطيع أن تشتري الحليب مباشرة أيضاً. والآن، فإن أي شيء تستطيع أن تشتريه في الغرب تستطيع أن تشتريه في مدينة صينية مثل شنغهاي. هل تريد مسجل إم بي 3 (MP3)؟ أو آي بي أو دي (IPOD)؟ أو أي علامة تجارية أخرى متوافرة لكل متجر مقسم إلى إدارات؟ معالج طعام؟ دراجة تمرين؟ كلها موجودة هنا. كافيار؟ شمبانيا؟ كعك أوريو؟ فطور حبوب من نوع كي (K) خاص؟ سمِّها. المتاجر في مدن الصين الساحلية تخزنها كلها.

الشيء الثاني الذي يمكن ملاحظته وأنت تسير في أنحاء مدينة مثل شنغهاي هو أمر واضح نوعاً ما ولكن يجب ألاّ يقلل من قيمته في السياق الأعرض من تاريخ الأمة. الصين في سلام. فطوال النصف الأول من القرن العشرين، كانت في فوضى، وتنهار داخلياً ويجري افتراسها من الذئاب الاستعمارية. وبدأ السلام أخيراً يصل مع تولي

www.ibtesama.com/vb

الشيوعيين السلطة في العام 1949، ولكن البلاد حينئذٍ ابتدأت بافتراس نفسها، وسط جنون حملات ماو السياسية. ومع ذلك، فكلمات السر للحزب الشيوعي الآن، هي السلام على المستوى الدولي والاستقرار على المستوى المحلي. وسياسة الحزب للاستقرار تتسبب في خلق مشكلات عديدة، ولكنها أيضاً توفر بيئة يستطيع الكثير فيها أن يزدهر.

وأخيراً، فالشيء الثالث الذي أضاءه كل هذا النيون هو أن الصينيين الحضر الآن يملكون السلام ليعيشوا من دون تدخل الحكومة في العديد من نواحي حياتهم. وبعد قتل الطلاب في ميدان تيانانمين في العام 1989، عقد قادة الحزب الشيوعي صفقة غير مكتوبة، وغير محكية مع شعب الصين: ابقوا خارج السياسة، وتستطيعون عمل أي شيء تريدونه. وفي أثناء التسعينيات من 1990، ولأول مرة في أكثر من أربعين عاماً (أو ربما أربعة آلاف)، بدأت الحكومة الصينية تتراجع من الحياة اليومية للناس.

كانت هذه الحركة ذكية جداً من الحزب. فالقفص الصغير للطائر الذي كان قد عاش فيه الصينيون سابقاً صار قفصاً كبيراً. فأنت لا تستطيع بعدُ أن تطير في السماء الزرقاء الصافية، وهم يستطيعون أن يمسكوا بك إن أرادوا ذلك، ولكن هناك حيز وافر للطيران حول المكان. وبعد أكثر من أربعين عاماً من كون المواطنين مجبرين على المشاركة بالسياسات، فقط كانت الأكثرية سعيدة جداً في الانفكاك منها انفكاكاً كاملاً وأن يتوجه الناس نحو أعمالهم في كسب المال.

والآن قف للحظة فقط، وانظر في هذه التطورات الثلاثة من زاوية مختلفة.

أولاً وقبل كل شيء، نعم، هناك ازدهار استهلاكي، ولكن أكثرية الناس لا يملكون الوصول إليه. وإذا كنت في الولايات المتحدة تحتاج إلى المال للحصول على السلطة، فأنت تحتاج إلى السلطة لتحصل على المال في الصين. رفاهية الصين اليوم هي مجرد بريق الثروة، وهو متاح ليصل إليه بشكل رئيس الفاسدون والمحظوظون جداً المتربعون على القمة، وهو بريق يموّه جماهير تغلي من المشكلات الاجتماعية الحضرية، مثل البطالة، والجريمة، والإسكان القديم. وهي لا تذكر أيضاً الريف. ابتعد ميلاً واحداً

www.ibtesama.com/vb

فقط عن النيون في شارع البند وفي طريق نانجينغ، فسوف تجد آلافاً من الناس يعيشون على أربعين دولاراً في الشهر، مكافأة الفصل من أعمالهم السابقة في المصانع غير الموجودة الآن. وهم لا يملكون تأميناً صحياً، وإذا وقعوا في المرض حقيقة، فكل مايستطيعون عمله هو الذهاب إلى البيت والموت فيه.

وأقسام من المتاجر الكبيرة المتخصصة فارغة بشكل دائم، مثل الكثير من مجمعات المكاتب الجديدة وأسواق التسوق، التي بنيت نتيجة لصفقات الفساد، معطية طبقة سطحية من الوفرة التي تجعل المدينة تبدو أكثر ازدهاراً مما هي عليه. ومقابل كل عضو من الطبقة الوسطى البارزة التي تسوق عائلتها إلى محل بيتزاهت في سيارة فولكس فاجن سيدان، ربما يوجد مائة عائلة لا تكاد تستطيع أن توفر لنفسها دراجة عادية.

وثانياً، نعم، الصين في سلام مع معظم جيرانها وفي الوطن، ولكنه سلام قلق. وبتقديرات الحزب نفسه، هناك أكثر من مئتي حادث في كل يوم من عدم الاستقرار الريفي، وكثير منها نتيجة لعدم المساواة الاقتصادية التي برزت منذ أن بدأ الإصلاح. وبعدئذ هناك الغضب الذي يشعر به كثيرون من المواطنين الصينيين على ردود الفعل وعلى الاغتصاب الذي يستمر في كل أنحاء دولة الحزب الواحد، من دون أن يكون للمواطنين ضده أي ملجأ يعينهم لأنه لا يوجد أي نظام قانوني مستقل.

ولدى النظر إلى مسافة أبعد في الميدان، فهناك أكثر من سبع مئة صاروخ، بالإضافة إلى البلاغة المعادية الصادرة من بكين، موجهة إلى جزيرة تايوان، التي تزعم الصين أنها تخصها. وتحافظ الصين على التِّبت وعلى شمالها الغربي المسلم من الانفصال من خلال القوة الوحشية المجردة بشكل كامل فقط. والصين تفرض مزاعم عن جزر في بحر الصين الجنوبي عن طريق بناء مراكز أمامية عسكرية على حواجز مرجانية ليست قريبة في أي مكان من الأرض الصينية وتقيم علاقات مع أمم مثل إيران، وكوريا الشمالية، والسودان وهي دول مدانة من العديد من البلاد الغربية بسبب نشاطاتها الذرية وسجلاتها في حقوق الإنسان.

www.ibtesama.com/vb

وثالثاً، مرة أخرى إن من الصحيح أنه كان هناك بعض الإرخاء للضوابط الاجتماعية، ولكن الشعب الصيني ما زال لا يتمتع بأي حماية من حكومته الخاصة، وليس هناك أي شيء يقترب مجرد اقتراب من نظام عامل من الزواجر والضوابط على سلطة الحزب الشيوعي في الصين.

والجماعات الدينية، مثل «كنيسة البيت» المسيحية، التي ترفض أن تكون جزءاً من الكنيسة التي تكفلها الحكومة، وأعضاء الجماعة الروحية فالون غونغ، ما زالت تضطهد بلا رحمة من الحزب الشيوعي، وأي قضية لو كانت تُنظر داخل غرفة المحكمة لتم التلاعب بها من الحزب، الذي يعين كل القضاة. والمحاكم الصينية تملك نسبة إدانة تصل إلى أكثر من 99 بالمائة. ومازالت بكين تدير نظاماً لمعسكرات العمل، يمكن أن يرسل إليه أي عضو من المجتمع، في أي وقت. وعشرات الآلاف من الناس مازالوا محكومين «بالإصلاح من خلال العمل» في كل عام.

كل شيء كتبته قبل قليل، من وجهتي النظر كلتيهما، صحيح. إنه يعتمد فقط على الكيفية التي تنظر بها أنت إلى الصين. هل الكأس نصف فارغ؟ أم هل هو نصف ملآن؟ الكيفية التي يرى بها الأجانب الصين لها علاقة في الغالب بشخصياتهم الخاصة وبانحيازاتهم الخاصة (أو بشخصية وبانحيازات المراسل الذي يكتب المقالة أو الكتاب الذي يقرؤونه) بالقدر الذي لها به علاقة مع الواقع الحقيقي على الأرض. وبالنسبة إلى كل حقيقة صحيحة عن الصين، فإن عكسها هو أيضاً صحيح دائماً تقريباً، في مكان ما من البلاد.

أدى هذا الانشطار إلى انقسام بين مراقبي الصين بين معانقي حيوان البندا، الذين يقولون إن الصين تقوم بعمل عظيم ولن تكون تهديداً لأحد (في الوقت الذي يوافقون فيه، طبعاً، على أن هناك مشكلات حدودية طرفية)، وبين قاتلي التنين، الذين يقولون إن الصين تهديد لكل واحد وتدعو الحاجة إلى احتوائها (في الوقت الذي يلاحظون فيه أن هناك بعض التحسينات القليلة الصغيرة التي حدثت).

ماذا تعتقد أنت؟ يعتمد الجواب على اليوم الذي تسألني فيه. الصين تتدخل في رأسي وتزعجني على أساس يومي. في يوم من الأيام أعتقد أنها فعلاً سوف تستولي

www.ibtesama.com/vb

على العالم، وأن الحكومة الصينية تقوم بعمل أقصى شيء غير عادي سبق أن شهده كوكب الأرض في أي زمان. ويقول البنك الدولي إن الصين قد انتشلت 400 مليون نسمة من الفقر منذ العام 1978. وذلك الرقم أكبر من كل سكان أمريكا الجنوبية.

وفي اليوم التالي سوف يبدو كل شيء مبنياً على الرمل وأنا أتوقع أن كل شيء سيصل إلى السقوط من حولنا. سأكون مشمئزاً من الطريقة التي يعامل بها الحزب الشيوعي شعبه، وسأكون مصدوماً من التكلفة الحادة لكل هذا، التكلفة الإنسانية، التي تبدو مقبولة للحكومة في كل شيء تفعله.

وفي رأيي، مع ذلك، أن أحد الأشياء ذات الأهمية الحاسمة هو الاختيار. فنحن، ومهما تكن انحيازاتنا، لا نستطيع، ببساطة، أن ننكر أن هناك، في الصين الآن، اختياراً أكبر مما كان يوجد فيها سابقاً في العادة. وأنا مع الرأي القائل إنه أينما يوجد الاختيار، يوجد في الغالب تغيير نحو الأفضل، وذلك يشمل إمكانية التغيير السياسي. فأنت الآن تستطيع أن تختار أين تعمل في الصين. وأنت تستطيع أن تختار من تتزوج. وأنت تستطيع أن تختار الورق أو البلاستيك لتصر به التموينات المنزلية والطعام الذي تشتريه، وأن تختار حليباً كامل الدسم أو منزوع الدسم لقهوتك الكابتشينو. إنها لا تحدث غدا، ولكنني أعتقد أنك بعد أن تسمح للناس باختيار ما يوضع على وجه البيتزا الخاصة بهم، فهم عاجلاً أو آجلاً سوف يرغبون في اختيار قادتهم السياسيين.

«شنغهاي تملك ثلاث مئة ميل من الطرق السريعة المرفوعة» وكان سائقي في سيارة الأجرة يمتلك وميضاً في عينيه وهو يضرب بمنحدر المزلق الذي يقود صعوداً إلى واحد من أحدث طرق المدينة. «كم ميلاً من الطرق السريعة المرفوعة يوجد في نيويورك؟»

وأخبره أنني لا أملك تلك الحقيقية جاهزة فوراً. ويصل هو إلى ما وراء المرور البطيء الحركة في مركز البلدة ويرفع السرعة إلى مستوى جنوني باتجاه الغرب، نوع مما يفعله فو مانشو لفيلم بليد رنر، وهو ما جعلني أصل إلى حزام في المقعد الخلفي لم يكن موجوداً. وألاحظ، مثلما يلاحظ المرء أشياء خيالية في أزمنة الخطر، أن هناك على ظهر مسند الرأس الخاص بالمقعد الأمامي إعلاناً عن جراحة تكبير الصدر.

ويصرخ إلى الخلف نحوي، بابتسامة عريضة، «لا تقلق، السلامة أولا».

www.ibtesama.com/vb

إذا بقيتَ حياً بعد السواقة، فإن طرق شنغهاي غير عادية. سباق سلسلة من الطرق السريعة المرفوعة عبر المدينة على ارتفاعات متنوعة فوق الأرض. وكان يجب تدمير صفوف من الدارات (الفلل) الاستعمارية الجميلة لإفساح الطريق لبعض من هذه الطرق. وبعض الدارات الباقية الآن تقف على بعد ياردات فقط، وأحياناً إنشات بعيداً عن الطريق العام السريع من ستة مسارات، تقبِّل الطريق وهو يضرب وجوهها.

أنا متوجه لأقابل مضيفة لعرض يشارك فيه الجمهور بمهاتفة البرنامج واسمها بيه شاه. وعرضها يسمى: حالة العقل في شنغهاي، ويظهر من منتصف الليل حتى الساعة الثانية، في كل ليلة وصار مشهوراً بين المقيمين في المدينة طوال سنوات.

وتستطيع أن تهاتف بيه شاه عن أي مشكلة وتطلب نصيحتها، حياً على الهواء، وآلاف الناس يفعلون ذلك.

وأنا أريد أن أتحدث معها حول الاختلال الضخم الذي يجري في عقول الناس. فشنغهاي قد تجعل الزائر يشعر أن الصين على حافة العظمة، ولكن سرعة التغيرات قد تركت اضطراباً نفسياً وروحياً في عقول الكثيرين من الناس. فبعد اضطرابات السنوات الماوية، والآن اضطرابات رد الفعل ضدِ السنوات الماوية، لا يمكن أن توجد إلا بلدان قليلة قد تكون في حاجة إلى العلاج أكثر من حاجة الصين إليه. ومع ذلك وبالنسبة إلى معظم الصينيين فهناك أماكن قليلة كي يعودوا إليها من أجل طلب اللجوء والنصيحة وسط عاصفة التغيير الثلجية. وكثيرون من الشباب، غير المقيدين بالأخلاقيات الكونفوشية والشيوعية، يجدون بيه شاه أقرب شيء يملكونه للوصول إلى صوت موجه غير مثقل برفض الوالدين (على الرغم من أنها تعرف كيف توزع بعض ذلك حين يكون ضرورياً). وكان قد أعطاني رقمها صديق، وهكذا هاتفتها لدى وصولي إلى شنغهاي وحددت مقابلة على العشاء.

نتقابل في بيتزا هت ونطلب كوكا للحمية وفطيرة بيتزا سجق خنزير ولحم بقري مبهرة كثيراً. ويحتمل أن تكون هي في أواخر الثلاثينيات، ولها وجه مستدير، وعينان متأملتان، وتلبس قميصاً مزيناً بالأزهار، وبنطالاً أبيض من الكتان. وتخبرني، ونحن

www.ibtesama.com/vb

نجلس نلوك فطيرتنا، أنها تخطط للقيام بأول رحلة لها إلى أوروبة، وأسألها عن عرض برنامجها الإذاعي.

وتقول: «على العموم، فإن المهاتِفين لبرنامجي لديهم ثلاثة أنواع من المشكلات، الأول، مشكلات عاطفية، وبشكل رئيسي لها علاقة بالحب. والثاني، مشكلات عمل وعلاقات في العمل. والثالث، علاقات داخل الأسرة».

«وقد بدأت بتقديم البرنامج حالاً بعد أن تخرجت في الجامعة، في العام 1992. وفي ذلك الوقت، كانت المسألة العاطفية الرئيسة، هي أن الناس كانوا قد بدؤوا يقيمون علاقات حب خارج الزواج. كانوا يعرفون أن ذلك خطأ، وكانوا يريدون أن يعرفوا ماذا كان عليهم أن يعملوا بعد أن حدث ما حدث. والآن، هناك المزيد من الناس الذين يقيمون علاقات أيضاً، ولكن الكثيرين من هؤلاء الناس لا يعتقدون فعلياً أن ذلك خطأ. إنهم يعتقدون أن ذلك معقول، وقابل للفهم».

نبرتها محسوبة وناضجة، وأنا أستطيع أن أتخيل، وهي تقضم فطيرتها، لماذا يود الناس أن يهاتفوها على الهواء طلباً للنصيحة.

«كان هناك تغيير ضخم، وخصوصاً بين النساء، فالنساء يردن استقلالهن، وهن يعتقدن أنهن يملكن الحق في أن يفعلن مايردن، وهن، الآن، يملكن اختيارات كثيرة جداً من أساليب الحياة، وخيارات من أشياء ليتمتعن بها».

وتقول ييه شاه: إن الكثيرين من الناس الآن يعتقدون أن ذلك إذاً صواب مقبول، مالم يكن هناك قانون ضده. وتقول: بالنسبة إلى الكثيرين في المدن، فإن الأخلاقيات،أي، الإحساس بما هو صواب أو خطأ، لم يبق مهماً بعد الآن. «وأنا أعتقد أن كثيراً من الشباب مشوشون ببساطة بكل ذلك التغيير. فهم يهاتفون ويقولون إنهم غير سعداء، ولكنهم لا يستطيعون أيضاً أن يسهبوا ليبينوا لماذا؟»

وهذا مهم بالنسبة إلى ييه شاه أهمية كبيرة، فهي فجأة تصير عاطفية تماماً. وشفتها السفلى ترتعش. وتتأتىء وهي تتكلم كما لو كانت تتحدث عن موت شخص ما كان قريباً إليها، وبطريقة غريبة ربما كانت تتحدث فعلاً عن موته.

www.ibtesama.com/vb

«الناس، وخصوصاً الشباب، ضائعون» قالتها بالصينية، وكررت كلمة ضائعين بالإنجليزية.

وسادت وقفة عن الكلام في الوقت الذي كانت تستجمع فيه نفسها.

وتسأل: «لماذا، بعد كل ما فعله ماو لتدمير حياة الناس، تسمع أحياناً بعض الناس كبار السن يتذكرون العصر الماوي بمحبة؟» «لأنه كان ما زال هناك، على الرغم من المشكلات، أخلاقيات، وإطار أخلاقي للحياة. كان هناك صواب، وكان هناك خطأ. الآن... ما الصواب؟ وما الخطأ؟»

لا تملك بيه شاه أي أجوبة سهلة، ولكنها تحاول أن ترفع الأسئلة إلى جيل مقتلع من جذوره، جيل تقول إنه ينجرف في فراغ أخلاقي. فالشباب في مدن الصين، بعد صراع دامٍ لمدة قرن للهرب من قيود روابط الأسرة والالتزامات الاجتماعية، هم الآن يغرقون في عزلة الفردية.

وتقول، ونحن ننهي فطيرتنا، ونستعد للمغادرة: «والشعب لا يستطيع أن يتماشى مع خطى الآلات. الخطوة السابقة للحياة كانت أبطأ مما يجب، بالتأكيد. ولكنها الآن أسرع مما يجب. في الصين التقليدية، كان الناس يتعلمون، كيف يجب أن يكون الإنسان شخصاً. وفي الحقيقة نحن أكدنا الأخلاقيات، والطقوس، والواجبات كثيراً جداً. والآن، هي ليست مؤكدة بما يكفي. لا أحد يعرف كيف يكون شخصاً بعد الآن. نحن ندرب الفنيين، نحن لا ندرب الناس».

بعد شهور، صادفت اقتباساً من التسعينيات من 1990 قاله عالم مشهور متخصص بالصين هو مايرون كوهين من جامعة كولومبيا، ويبدو أنه يلخص ما تقوله بيه شاه تلخيصاً جيداً جداً.

> بالنسبة إلى كثيرين من سكان الصين، فإن كون المرء صينياً اليوم هو من الناحية الثقافية أسهل بكثير من أي زمان في الماضي؛ وذلك لأن هذا التماهي في الهوية لم يبق بعد اليوم يتضمن معايير السلوك المقبولة عموماً. وعلى كل حال، من الناحية الوجودية، أصبح كون المرء صينياً أكثر إشكالاً إلى حد بعيد؛ وذلك لأنه الآن مطلب منشود بقدر ما هو مشروط.

www.ibtesama.com/vb

وتستهلكني شنغهاي أربعة أيام كاملة. وكنت أستطيع أن أقيم أربعة أسابيع. وأنا أقابل المحامين الذين يعملون على بناء نظام الصين القانوني، وأقابل رجُلات* (نساء) الأعمال اللواتي يعملن كل صفقاتهن في ملعب الغولف، وأقابل رجال الأعمال الشباب في مشروعات إنترنت حديثة. وأقابل فلاحاً سابقاً بلغ الخمسين من عمره وأمضى أول خمسة عشر عاماً من حياته الراشدة يزرع الرز، ثم سافر على طول الطريق 312 في العام 1986 وكسب الملايين من صناعة الإنشاءات. وهو يملك الآن أربع شقق، وابنته تذهب إلى الكلية في الخارج. وأزور مصنعاً، نموذجاً لمصانع كثيرة جداً على طول شاطئ الصين، مزدحمة بمئات النساء الريفيات اللواتي يعملن في ظروف ديكينزية. لن يكن مليونيرات، ولكنهن يرسلن نصف رواتبهن إلى بيوتهن في قراهن ويساعدن على انتشار بعض الثروة داخل البلاد.

وأزور حياً يهودياً (غيتو) قديماً، هرب إليه أكثر من عشرين ألف يهودي أوروبي في أواخر الثلاثينيات من 1930 لأن شنغهاي ـ شنغهاي المفتوحة، الدولية ـ كانت هي المكان الوحيد في العالم الذي لم يتطلب منهم أن يملكوا تأشيرة دخول. وأقابل دبلوماسياً يخبرني أن المدينة الآن تقوم بتحويل نفسها ثانية، وتتحرك مبتعدة عن الصناعة لتصير اقتصاد خدمة أكثر من ذي قبل. وفي كل مكان، يبدو أن الناس قد وضعوا رعب الماوية خلفهم. ونادراً ما تذكر تلك الأيام. في كل مكان، هناك طاقة وتركيز على المستقبل الذي يبدو أنه ينبع من معرفة عدد السنين التي أهدرت، وعدد الأرواح، التي أزهقت.

في يوم الأحد، أحضر صلاة في كنيسة مو ـ إن في طريق التِبِّت، كانت قد بنيت في العشرينيات من 1920، حين كانت شنغهاي ماتزال مركز النشاط التبشيري. وأنا أتسلق الدرج لأجد مقعداً في الشرفة، حيتني سيدة صينية مسنة بشعر فضي وعينين متألقتين، تقولي لي: «صباح الخير» بلغة إنجليزية قوية وواضحة. وأود أن أوقفها وأسألها، «ماذا عبرَت في حياتك؟ وماذا، باسم الله، رأيت؟» ولكنني أبتسم رداً عليها فقط وأستمر صاعداً الدرج. الكنيسة مزدحمة بالناس.

* الرَّجُلَةُ: المرأة. انظر الوسيط مادة رجل. (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

أجلس في محلات ماكدونالد وأراقب أفراد الطبقات الوسطى الجديدة وهم يحضرون أطفالهم الوحيدين الممتلئين ليلتهموا حتى التخمة شطائر ماكدونالد الكبيرة مع قطع الدجاج. ويجلس الآباء، يراقبون أبناءهم وهم يأكلون، وكل واحد منهم ربما يأمل لاشعورياً أن الطفل الذي يأتي هنا قد ينجرف إلى تيار الثقافة المعولمة التي تجري عبر الصين الحضرية، وينتهي بطريقة ما في مدرسة هارفارد للأعمال.

وأتجول عبر الأزقة الخلفية في أفقر الأجزاء من البلدة، وأبحث عن الجانب المقابل لكل التفاؤل وعن الجانب المعاكس لكل العولمة، أبحث عن بعض الناس الغاضبين، عن بعض الخاسرين في سلسلة الطعام الاقتصادي. وأجد الكثيرين من الناس الذين يتفجعون من فجوة الثروة، وهم يكدحون في كسب العيش في أعمالهم المنخفضة الرواتب في مواقع البناء، وفي المطابخ، وفي أسواق المدينة. ولكنك تسمع، وفي أكثر الأزقة إهمالاً، التي يعيش فيها الناس مكدسين في غرف صغيرة، وقذرة، تسمع القصة مرة تلو المرة: «نعم، الحياة صعبة، وعملنا صعب، ولكنها أفضل مليون مرة من الحياة في الريف».

تلك هي المشكلة مع شنغهاي: فأنت لا ترى في الحقيقة الكثير من مشكلات الصين. أنت تلاحظ، طبعاً، أن القطار المرفوع مغناطيسياً المنطلق من المطار ليس ممتلئاً أكثر من ربع امتلاء على أفضل الأحوال. وتلاحظ أن هناك بعض المتاجر الفارغة في الأسواق الجديدة اللامعة وأن هناك عدداً متزايداً من المتسولين في الشوارع. ولكن السرعة والروعة المظهرية ومجرد الابتهاج من كون المرء في المدينة الأسطورية يعني أن شنغهاي تعمي الزائر عما يثوي في الخلف. فإذا زرت شنغهاي فقط، فسوف تغادر الصين وأنت تعتقد أنها بلا شك متجهة نحو العظمة.

في أصيل أحد الأيام أزور متنزّه لو شون في شمالي شنغهاي، وهو واحة خضراء جميلة تكرِّم أشهر كاتب في الصين من مطالع القرين العشرين. لو شون مدفون هناك في ضريح مشيَّد كبير. منذ مائة عام تقريباً، كان هو في الطليعة في محاولة لتشخيص مشكلات الصين ووصف العلاج، وكتب بأسلوب حارق عن نواحي الضعف في الثقافة الصينية وعن الطبع الصيني. وكتب عن القدماء وعن الحداثة وحاول أن يجد مساراً بين الاثنين.

www.ibtesama.com/vb

وكانت الأداة الأدبية المفضلة لدى لو شون هي القصة القصيرة، وصدرت أشهر مختاراته في العام 1921، وهو نفس العام الذي تشكل فيه الحزب الشيوعي في الصين. وكان عنوان المجموعة «دعوة إلى السلاح» - ولم تكن دعوة عسكرية، ولكنها دعوة مجازية، دعوة ثقافية، دعوة إلى اليقظة من التبجح ومن المحافظة التي جسدها الإمبراطور شيانغلونغ في رده إلى اللورد ماكارتني، وتلك مازالت، طوال أكثر من مائة عام بعدها، تمنع الصين من اليقظة والتنبه إلى الحاجة إلى تغيير نفسي وثقافي عميق. وفي مقدمة مجموعة «دعوة إلى السلاح» كتب لو شون هذه الفقرة، يصف وطنه وثقافة وطنه:

> تخيل بيتاً حديدياً من دون نوافذ، لا يمكن تدميره مطلقاً، مع وجود كثير من الناس يغطون في نوم عميق في الداخل وسوف يموتون في الحال من الاختناق. ولكنك تعرف، أنهم لن يشعروا بألم الموت نظراً إلى أنهم سيموتون في نومهم. والآن إذا أنت صرخت عالياً لتوقظ قلة من أصحاب النوم الخفيف، جاعلاً بذلك تلك القلة غير المحظوظة تعاني الألم المبرح للموت الذي لا رجعة عنه، فهل تعتقد أنك بذلك تقدم لهم معروفاً؟ ولكن إذا استيقظت قلة، فإنك لا تستطيع أن تقول إنه لا يوجد أي أمل في تدمير البيت الحديدي.

وهكذا أعطى لو شون شكلاً أدبياً للدعوة إلى السلاح وكان لها صدى خلال القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين أيضاً. والقصص في دعوة إلى السلاح التزمت كلها هذا الموضوع، وهو أن الصينيين عاشوا في بيت حديدي من الكونفوشيوسية واحتاجوا إلى الهرب. لقد احتاجوا إلى أن يستيقظوا، وإلى ألاَّ يغيروا النظام السياسي فقط، بل إلى تغيير كل طريقة التفكير.

هناك العديد من المشكلات والنقائص في تطور الصين الحضري الحديث. ولكن حقيقة أن شنغهاي تمتلك قطاراً مرفوعاً مغناطيسياً، وهو أول قطار تجاري مرفوع مغناطيسياً في العالم، هي حقيقة يمكن تتبعها والرجوع بها إلى الدعوة إلى السلاح التي أصدرها لو شون في العام 1921، وإلى كتاب آخرين مثله كتبوا عن حاجة الصين

www.ibtesama.com/vb

إلى ثورة نفسية. إنه التقدم المنطقي لتلك الدعوات. إن كل تطور شنغهاي، والطرق، وناطحات السحاب، والإنترنت بسرعة عالية، كلها أجوبة لتلك الدعوات. وأخيراً، أخيراً بعد قرن، شنغهاي تصعد، مثلما الصين تصعد، على ظهر قرن من الإذلال قبل العام 1949، ثم بعدئذ، بعد نصف قرن من الفوضى الشيوعية التي جاءت بعد ذلك العام. والسؤال هل كانت الصين ستنفتح للعالم؟ يبدو سؤالاً قد أجيب عنه إلى الأبد بكلمة «نعم» رنانة. ولكن يا له من طريق كان معذِّباً، مؤلماً، ملتوياً لتصل إلى هناك، ويا له من طريق ما زال موجوداً هناك لترتحل عليه.

في اليوم السابق لمغادرتي شنغهاي، أقابل شابتين من أعضاء الحزب الشيوعي، وأريد أن أسألهما عما يعنيه في هذه الأيام أن تكونا عضوتين في الحزب، وأريد أن أتحقق من أنهما كانتا مضطربتين بالقدر الذي توحي به ييه شاه مضيفة برنامج الراديو ومقدمته أم لا.

ونتقابل في مقهى ستاربكس، وهي ليست بعيدة عن البيت الذي كان الحزب الشيوعي الصيني قد تأسس فيه في العام 1921. وقد حول الشيوعيون البيت القديم إلى متحف، وهو بالفعل أقرب إلى أن يكون مزاراً للحزب الشيوعي، ولكنه على العموم فارغ، وهو قائم كما هو في موقع مجاور لواحد من أشهر المزارات الحديثة في شنغهاي، وهو سوق للتسوق يسمى «السماء والأرض الجديدتان».

عضوتا الحزب الشيوعي، كلتاهما شابتان في العشرينيات، ونموذج للجيل البارع المرتبط بالناس النافذين، وعلى بعد مليون ميل من أعضاء الحرس الأحمر من جيل آبائهم. وكلتاهما اختارت اسماً إنجليزياً.

تعمل لوسي في شركة كبيرة متعددة الجنسيات. ولها شعر أسود طويل، ومظهر مؤدب، ومسؤول يوحي بأنها قد تكون شغلت منصب رئيس لمجلس الطلاب في مدرستها الثانوية. وهي مستغرقة في التفكير في الثقة والنجاح الحضريين الحديثين. وهي تتحدث لغة إنجليزية ممتازة وتفكر بوضوح تفكيراً عميقاً بالموضوعات المهمة.

www.ibtesama.com/vb

وهي تقول: «نعم، الشيوعية انهارت في أوروبة الشرقية، ولكن ذلك حدث لأنهم لم يكونوا يعملونها على الوجه الصحيح. وأنا أعرف. أنتم الغربيون تعتقدون أنه، بعد الرأسمالية، ستكون هناك الرأسمالية مع ذلك، ونحن الصينيين، نعتقد أنه بعد هذه المرحلة من الرأسمالية، قد يكون هناك في نهاية المطاف شيوعية».

وأفتح عيني واسعتين. «فعلاً؟ أنت تؤمنين بذلك حقاً؟»

وهي تومئ بالموافقة.

وتنظر إيميلي متفحصة. وهي أضأل، ولها شعر كثيف أسود وعينان واسعتان. وتقول: «كثير من الناس ينشؤون في هذه البيئة التعليمية». وأفهم أنها تعني بكلامها أن لوسي قد تعرضت لغسيل الدماغ. وتقول: «أنا أؤمن بأقل من إيمان لوسي، أنا غير متأكدة تماماً بشأنها كلها».

وأسألهما: «لماذا التحقتما بالحزب الشيوعي الصيني؟»

وتقول لوسي: «كانت علاماتي جيدة. وكنت طالبة مسؤولة. ليس لدي ما آسف عليه قط. وأعتقد أن هذا الحزب يستطيع أن يأتينا بمجتمع مستقر».

وتشرح إيميلي: «الآن، ليس لأعضاء الحزب الشيوعي أي علاقة مع الإيديولوجية، إنهم ببساطة أفضل الطلاب. ويُعد شرفاً أن تلتحق بالحزب، ويطلب من أفضل الطلاب جميعهم أن يلتحقوا. وذلك نفسه حدث معي».

وأشير إلى المفارقة في هذا، التي سبق لإيميلي أن رأتها. ولكن لوسي مازالت جادة. إنها المثال الكامل الذي يبين كيف أن أفضل الناس المتعلمين هم في الغالب أكثر الناس موالاة للحكومة.

وتقول هي: «نحن نحتاج إلى أن ندرس ما يفكر فيه القادة. نحن نشعر بالارتياح في دراسة هذا. إنه جيد. وأما بالنسبة إلى الشيوعية، فيجب عليك أن تفهمها بطريقتك الخاصة. إنها تعني أن عليك أن تكون عضواً جيداً ومساعداً للمجتمع».

www.ibtesama.com/vb

وبعدئذٍ تروي لوسي كيف تم في اجتماع حديث لأعضاء الحزب الشيوعي داخل الشركة الأمريكية الكبيرة المتعددة الجنسيات التي تعمل فيها، توزيع كتابين. كتاب منهما نشره الحزب الشيوعي واحتوى على كل توجيهات الحزب الأخيرة. والكتاب الآخر كان كتاباً للشركة عن كيف تكون بائعاً أفضل.

لوسي وإيميلي عضوتان نموذجيتان من الطبقة الوسطى الجديدة، والشابة والحضرية. إنهما ليستا في الشوارع تطلبان المزيد من الديمقراطية، مثلما كان يفعل أسلافهما في أواخر الثمانينيات من 1980. إنهما تستمتعان بثمار الازدهار. وهما تساندان الحزب لأنه، كما تقولان، منحهما الفرص التي لم تكونا تحت ظروف أخرى قادرتين على الحصول عليها. وعلى الرغم من أنهما وطنيتان جداً، فهما ليستا إيديولوجيتين ولا بأقل حد من ذلك. كلتاهما فردى*. وتؤمنان بالحب الرومانسي. لقد اختارتا عمليهما، وصديقيهما، ولهما أسلوب حياتهما. وكان السعي إلى السعادة مغروساً بعمق كالمقدس في ذهنيهما، إذا لم يكن مغروساً مقدساً حتى الآن في دستور بلدهما. وباختصار، فهما ليستا مختلفتين عن أي شابتين في أي بلد في العالم الغربي. وعرضت عليهما ما تقوله ييه شاه مضيفة برنامج الراديو ومقدمته، وهو أن الجيل الشاب الجديد من الصين ضائع، ومضطرب ولا يعرف ما يؤمن به أو كيف يتصرف.

وتسأل لوسي: «لماذا تقول ذلك عن الصين؟ ماذا عن الغرب؟ هل لدى الناس الغربيين أي شيء يؤمنون به؟»

وتتابع: «أنا لست ضائعة. أنا لا أؤمن بالمسيح أو بوذا، ولكني أؤمن بالكفاح الذاتي، وهو جهد من أجل تحسين نفسي وبلدي. فأنت لا يجب عليك أن تمتلك إيماناً لتمتلك معنى للحياة».

ومرة أخرى تكون إيميلي، وهي أكثر الفتاتين تفكيراً وتأملاً، غير متأكدة جداً. وتقول: «كان لدي فترة شعرت فيها أنني كنت ضائعة، ومضطربة، حين كنت في الكلية. الآن اجتزت تلك الفترة. ولكن هناك بعض الاضطراب على وجه العموم بين الشباب.

---

* مؤنث فرد، ويجوز فردة. انظر مادة فرد في الوسيط (المترجم).

www.ibtesama.com/vb

فعلى سبيل المثال، كل واحد يشاهد برامج التلفاز الغربي، مثل برنامج أصدقاء، ومثل زوجات يائسات، ونحن واعون وعياً كاملاً بالكيفية التي يعيش فيه الناس في الغرب. فكثيرات من الفتيات، على سبيل المثال، يرغبن في العيش مع أصدقائهن من الشباب، ولكن ذلك يتصادم مع رغبات والديهن».

وتقول لوسي: «ولكن جيلنا مختلف اختلافاً كاملاً عن جيل والدينا. إنه عالم مختلف الآن. يجب علينا أن نعتني بأنفسنا».

وتومئ إيميلي بالموافقة. وتقول: «نحن جيل الأنا». وتقولها بشكل متأمل حزين. «نحن نؤمن بأنفسنا فقط».

والتفاعل النهائي لي مع جيل الأنا من شنغهاي يحدث في ذلك المساء. ففي الوقت الذي كنت أبحث فيه عن المقبرة الدولية في غرب المدينة، أعثر بالصدفة على أول فرع في شنغهاي لسلسلة مطاعم هوترز.

وهوترز، لمن تنقصه الخبرة، سلسلة من المطاعم في الولايات المتحدة الأمريكية تميل النادلات فيها إلى أن يكن لابسات بشكل غير رسمي نوعاً ما، وهل نقول ممتلئات الجسم كذلك؟ ولكن للتأكد من أن لا أحد يظن أن الاسم يشير إلى أي شيء غير محتشم، فإن رمز المطعم بومة كبيرة.

وبالتالي، فقد ترجم الاسم في اللغة الصينية ليكون «مطعم البومة الأمريكي» (هناك بعض الكلمات التي تحمل أكثر من معنى ولا تقبل الترجمة حين يكون أحد المعاني الممكنة غير محتشم).

ونظراً إلى أنني لم يسبق لي في أي وقت من الأوقات أن تعشيت في مطعم هوترز في الولايات المتحدة، شعرت بأنني محرج قليلاً وأنا أخطو إلى الداخل، معتقداً أنه سيكون بيت حفلات الذكور والرجال المنفردين الحزينين. والناس الوحيدون الذين يبدون محرجين مثلي، مع ذلك، كانوا هم الرجال البيض المنفردين الآخرين، الذين لم يكن يوجد منهم الكثيرون. وكل واحد آخر كان يستمتع بوقت رائع. كان هناك ثلاث نساء يابانيات مع أطفالهن. ويبدو أن بعض الرجال الصينيين قد أحضروا النساء

www.ibtesama.com/vb

اللواتي واعدوهن، ويظهر أن عدداً من رجال الأعمال يناقشون نوعاً ما من الصفقات، التي لا تعيها فتيات هوترز، في بنطالاتهن البرتقالية القصيرة جداً وفي قمصانهن البيضاء العارية على شكل حرف تي. ويبدو أن وجود المسحة الجنسية كان أقل بكثير مما قد تجده في مطعم هوترز أمريكي. وبشكل ما، فالشيء كله قد تحول إلى خبرة عشاء عائلي صحية إلى حد ما.

إنه عيد ميلاد شخص ما، وهكذا فبنات هوترز يقدمن رقصة صغيرة، ويدعون إلى مشاركة بعض جمهور الحضور، وهو ما عملت على تجنبه، وفي الحال كان هناك رجلان راشدان، من رجال الأعمال الصينيين ببزتيهما يقفان على الكراسي ويلوحان بأذرعتهما في الهواء إلى جانب بنات مطعم هوترز اللابسات لباساً قصيراً.

وتظهر لي المرأة الشابة التي تخدم طاولتي وكأنها الفتاة الوحيدة، من عشر فتيات أو ما يقارب ذلك من النادلات، التي لا تبدو مرتاحة، وتبتسم بعصبية للزبائن الذين تخدمهم. وبدأنا بالحديث وهي تقدم لي البرغر والمقليات. فهي من مدينة ووهان، وهي على بعد أربع مئة ميل داخل البلاد.

وأسألها: «هل يعرف والداك أنك تعملين هنا؟»

وتجيب بضحكة عصبية: «لا، لا يعرفان. إنهما لن يفهما».

وأقول لها: «لا تقلقي، فزوجتي لا تعلم أنني هنا. فهي كذلك لن تفهم».

www.ibtesama.com/vb

3
الأشياء تنساب

في الصباح التالي أصعد إلى سيارة أجرة في فندق آستور هاوس، وأطلب من السائق أن يأخذني إلى بداية الطريق 312، في أقصى غرب المدينة. وشنغهاي ضخمة وممتدة، وتستغرق الرحلة أكثر من ساعة، ولو كانت على طول الطريق السريعة المرفوعة. وأشعر بذلك الحزن الذي ينتابني دائماً حين أغادر أكثر مدينة في آسيا حركة وديناميةً، ولكن من المثير أخيراً أن أكون على الطريق.

الطريق 312 يشكل بداية غير ميمونة. فالطريق يزحف خارجاً من تحت ظل الطريق الخارجي الدائري لشنغهاي، وهو طريق سريع ضخم مرفوع يدور حول المدينة. وهناك مخرج من مزلق منحدر يأتي بالمرور نازلاً من الطريق الدائري إلى أن يكون على الطريق 312 وهو يبرز من بين غابة الأعمدة الإسمنتية المسلحة التي تدعم الطريق السريع. وعلى جزيرة المرور الموجودة حول الأعمدة يقف رجلان يلبسان معطفين أبيضين ويقدمان حلاقة للشعر في مقابل خمسين سنتاً.

أخرج من سيارة الأجرة، وأربط حقيبة الظهر على ظهري، وأبدأ بالمشي. وفي أثناء تجولي على طول الممشى الجانبي من أول قطعة من الطريق، تقترب مني ثلاث نساء، من الواضح أنهن من الريف، وكل منهن معها طفل صغير مربوط على ظهرها.

«دي في دي «يتمتمن وهن يتجمعن حولي. «دي في دي». الأقراص المدودة نحوي هي مجموعة مختارة من أقراص أشرطة الصور الرقمية وعليها مناظر إباحية مطبوعة فوقها. وأهز رأسي وأستمر في الحركة. امرأة شابة أخرى تحمل طفلاً وتتسول، وقصة بلائها مكتوبة على قطعة ورق موضوعة أمامها وهي تجلس على الممشى الجانبي. زوجها يعاني من سرطان الدم ولا يملك المال للعلاج. وما من أحد يرمي النقود في فنجان ورقتها.

www.ibtesama.com/vb

يفتخر الطريق بوجود مسارين في كل اتجاه، ويستجمع الطريق الثقة بشكل سريع وهو يبرز من ظل الطريق السريع، وإلى جانبه يسير خط للدراجات العادية، منفصلاً عن الشارع الرئيس. وإلى جانب مسار الدراجات العادية يقع ممشى جانبي عريض، وخلف ذلك يقوم صف طويل من المتاجر، التي تستمر على طول جانب الطريق إلى أبعد مدى تستطيع العين أن تراه. وهناك متجر سجاد، ومعرض سيارات يبيع الفولكس واجن، ومتجر أثاث ضخم يسمى هوم مارت، وهناك، طبعاً، فرع من كنتاكي للدجاج المقلي. (يوجد من قبلُ ألف فرع من كنتاكي للدجاج المقلي في الصين. ويفتح فيها فرع في كل يوم بعد يوم).

الطريق نفسه مزيج مجنون من الإنسانية المتحركة. فكل نوع من النقل الأرضي الإنساني موجود هنا، ومتجه في كلا الاتجاهين، وكأن مؤتمراً عن تاريخ النقل البري على الطريق يجري انعقاده في مكان ما، ويسرع ممثلون من كل عصر إلى الحضور. إنه مثلٌ واحد من تلك المخططات عن نشوء الإنسان وارتقائه، يبرز من حمأة تخص النقل. الناس يمشون ومفاصل أصابعهم تقاتل الأرض (ليس بالضبط)، فالكناس يجر عربة بثلاث عجلات، ويقرع جرساً ويصيح بصوته من دون أن يقصد أحداً بعينه. ورجال ونساء على دراجات بسيطة تكاد تتكسر، ويسيرون بسرعة لا تكاد تكون أسرع من سرعة المشاة. ورجال ونساء، من دون خوذة، يمرون بأزيز على دراجات بخارية صغيرة. ورجال ونساء يضعون الخوذ، وهم بشكل واضح في مكان أعلى في سلسلة النشوء والارتقاء، يئزون داخلين وخارجين من المرور على دراجات بخارية كبيرة. وهناك سيارات عادية، وشاحنات، وخلاطات إسمنت، وحافلات ركاب محلية، وحافلات ركاب للمسافات الطويلة، وحافلات ركاب مترفة عالية النوعية كلها موجودة هنا أيضاً. ثم، يقف عند إشارة المرور الإنسان المنتصب القامة من هذا المنظر الدارويني. سيارة بي إم دبليو بيضاء لامعة من السلسلة 7. إلى أين أنت ذاهب يا سيد يا رَجُلَ بي إم دبليو؟ ومن أين حصلت على المال لتشتري تلك السيارة؟

كان الطريق 312 في العادة هو الطريق الرئيسي غرباً من شنغهاي، ولكنه وطوال عقود كان مستخدماً استخداماً قليلاً، وذلك لأن المسؤولين الحكوميين فقط هم الذين

www.ibtesama.com/vb

كانوا يمتلكون سيارات، ومعظم الشحن يسافر باتجاه الغرب بالقطار. وهو ليس طريقاً حراً سريعاً، مثل طريق أمريكي بين الولايات، ولكنه ما يعرف باللغة الصينية بالطريق القومي، وفيه انعطافات إلى مناطق سكنية أو متاجر مثل طريق مدينة عادي تماماً، طريق مشغول في المدينة. ونظراً إلى أن الهمة الشديدة في بناء الطريق بدأت في التسعينيات من 1990، فإن ما يعادل الطرق الأمريكية بين الولايات، قد تم بناؤه الآن، وواحد منها، وهو المعروف باسم 11آ يسير موازياً تقريباً للطريق 312. ولكن رسومه عالية، وهكذا فإن الطريق 312 مازال إلى حد بعيد هو الطريق الأكثر انشغالاً.

إلى جانب المدخل المؤدي إلى سوق خضروات للبيع بالجملة تبيع امرأتان تيبتيّتان المجوهرات من حقيبة. وبالقرب منهما، صيني مسلم ينتمي إلى المجموعة العرقية من الويغور من شمال غرب الصين واقف إلى مدافىء فحم طويلة، يقلب خطوطاً من كباب الخروف، المرشوشة بالبهارات الحمراء اللامعة. وطبعاً التجار من العرق الصيني موجودون هنا أيضاً، يسيطرون على هذا المنظر، ويديرون المتاجر الصغيرة على جانب الطريق أو يبيعون الأحذية أو الملابس أو الأحزمة أو الربطات، الملقاة على قطع من القماش على الممشى الجانبي، ويبيعون الآيس كريم والحلوى، وشرائح الأناناس الموضوعة صحياً داخل أكياس بلاستيكية صغيرة لحمايتها من أدخنة الطريق. وهناك لافتة على المسار المتجه شرقاً تقول ميدان الشعب على بعد 15 كم. وهو على بعد تسعة أميال إلى مركز شنغهاي. وفي اتجاه آخر تعلق لافتة عن أول مكان لي أتوجه إليه، كونشان على بعد 48 كم (30 ميلاً).

وتمر عابرة عني شاحنة عليها اسم شركة مطبوع على الجانب بأحرف صينية كبيرة تقول: «الشؤون الإدارية في الميدان(لوجستك) لشركة روي شون». وبعد دقائق قليلة، أرى شاحنة أخرى، وهذه تعود إلى الشؤون الإدارية في الميدان لشركة وانغ جنغ. وكل دقائق قليلة تمر عابرة عني شاحنة «الشؤون الإدارية في الميدان» لشركة. إنه ازدهار الأعمال في صين اليوم: أعمال الإزالات، وإعادة التموضع، ونقل أي شيء من أي نوع كلها مغطاة بكلمة الشؤون الإدارية في الميدان. والكلمة في اللغة الصينية، مثل هذه اللغة المنطقية الرائعة، تعني بالترجمة الحرفية «الأشياء تنساب».

www.ibtesama.com/vb

في العقل الغربي، تستدعي رحلة الطريق صوراً للخمسينيات من 1950 والستينيات من 1960، عن جاك كيرواك*، والمتمردين على المجتمع والهبيين الذين ينطلقون في السفر على الطرقات ليجدوا أنفسهم، أو ليخسروا أنفسهم، أيما الأمرين أرادوا فعله. والسفر على الطرق العامة في الصين ظاهرة جديدة جداً، ولم يقع الشعب الصيني بعد في حب الطريق المفتوح، بل هو بالأحرى زواج مصلحة. إنهم يسافرون عليه بالدرجة الرئيسة للضرورة، ليجدوا عملاً، من أجل إطعام أنفسهم وعائلاتهم. ولتأتي بمقارنة أمريكية أكثر تلاؤماً هنا، عليك أن تسافر إلى الوراء إلى الثلاثينيات من 1930 وإلى المهاجرين من أوكلاهوما (الأوكيز) في روايات جون شتاينبك، هارباً باتجاه الغرب من منطقة دست باول إلى كاليفورنيا. ومعظم رحلات الطريق في الصين في هذه الأيام مازالت رحلات جون شتاينبك أكثر مما هي رحلات جاك كيرواك، واحتفاء بالحقيقة، فقد أحضرت معي نسخة من رواية جون شتاينبك الرائعة (عناقيد الغضب)**، المحفوظة في الجيب العلوي من حقيبة ظهري.

تيان يابين لم يقرأ قط شتاينبك أو كيرواك. فهو مدير إعلانات يبلغ من العمر 27 عاماً ويقول إنه يكسب نحو ستة آلاف دولار أمريكي في الشهر. وهذا يساوي تقريباً ستة أضعاف أجور عامل المصانع المتوسط في شنغهاي. له رأس حليق وصوت حاد قليلاً، ويدخن الغليون، وهو ما يعطيه جواً من الغرابة الشاذة غير المعتادة في المجتمع حتى في صفوف الأغنياء الجدد في شنغهاي. وأصدقاء تيان ينادونه تنتن، على اسم الشخصية الفرنسية في أفلام الكارتون. وهو متعلم تعليماً جيداً وله اتصالات جيدة، وقد ازدهر تيان في الصين الجديدة. لقد اشترى شقته الخاصة، ويسافر إلى الخارج لقضاء الإجازات، يحافظ على مسايرة آخر التقانة. ولكن عاطفته الحقيقية هي في سيارته الجيب اليابانية الصنع.

---

* جاك كيرواك(1922-1969) كاتب أمريكي يعرف بأنه يمثل الجيل المنهوك، وأشهر أعماله روايته: على الطريق. (المترجم).

** جون شتاينبك(1902-1969) روائي أمريكي، نال جائزة نوبل للأدب في العام 1962، مؤلف عناقيد الغضب، وهي رواية سرد فيها الكاتب مأساة رحيل العمال الفلاحين وصغار الملاك من ولايات أوكلاهوما، وآركنساس، وشرق تكساس مما صار يسمى منطقة دست باول، نتيجة الجفاف، وعواصف الغبار، والكساد الكبير. وعرف المهاجرون باسم الأوكيز من اختصار اسم ولاية أوكلاهوما. (المترجم).

www.ibtesama.com/vb

وجدت تنتن من خلال نادي سائقي جيب الطرق الوعرة في شنغهاي، والذي انتسب عضواً فيه، وقد ارتبطت معه قرب بداية الطريق 312 تماماً. وفي كل نهاية أسبوع يجتمع أعضاء نادي سيارات الجيب معاً ويسوقون سياراتهم إلى خارج المدينة لمدة يوم أو يومين مستكشفين المنطقة المحيطة. وقافلتنا اليوم ثلاث سيارات فقط. في الأسبوع الماضي كان هناك ثمانية. وبالإضافة إلى تنتن تضم المجموعة مالك جيب آخر في العشرين وبعض السنوات من عمره اسمه ليو الصغير، وهو مبرمج برامج حاسوبية يسميها كل واحد باسم الجمل، وتضم شخصاً آخر في الخمسين وبعض السنوات من عمره وهو رجل أعمال يسمى تشانغ الكبير. ويعاني جيب ليو من مشكلة في المحرك، ولذلك فهو يركب مع تنتن ومعي.

معظم الحركة على طول الطريق 312 تتجه شرقاً، نحو شنغهاي، لأن المهاجرين يتدفقون إلى المدن ليجدوا عملاً. هؤلاء الأربعة المتازون الممثلون للطبقة الوسطى الصينية سائرون عكس التدفق، فهم متجهون إلى الغرب.

تنتن يسوق متعرجاً داخل حركة المرور وخارجها، وكأنه يحاول أن يفقد الآخرين، لا أن يقودهم. وكلما تحركنا أبعد خارج شنغهاي، كانت المصانع تصطف على الطريق. هذه هي المنطقة الصناعية الخلفية لشنغهاي، وهي التي تزود نمو المدينة، وتلوث هواء المدينة، وتحافظ على سعر السلع الاستهلاكية حول العالم منخفضاً انخفاضاً مضحكاً. كل شيء يصنع هنا، كل شيء تشتريه أمريكا، من دمى باربي وأضواء شجرة الميلاد، ومن الأحذية الخفيفة والملابس، إلى حواسيب الحضن (اللابتوب) والهواتف الخليوية الجوالة.

والمداخل إلى المصانع، وغرف العرض، والأسواق تومض، وهي تمر، في غشاوة باهتة من اللون الصناعي الرمادي. سوق شيجياو للخشب، وسوق دونغوا لمواد البناء، وقرية فينغ بانغ لفلاحة البساتين كلها تبيع كل شيء قد تحتاج إليه لبناء بلد من البداية. أحد المتاجر يبيع ببساطة الأعمدة. العمود الأيوني، أو الدوري، أو الكورينثي، أحمل ما تختار.

www.ibtesama.com/vb

على طول كل الطريق تفغر فاها واسعاً مواقع البناء في الأماكن التي سينشأ فيها قريباً المزيد من المصانع. وهناك الكثير من التربة التي يجري نقلها فوق هذه المواقع الشاسعة للإنشاء وإن من العجيب أن العالم غير مائل عن التوازن نتيجة لذلك. والممثلون عن السيارات من كل شركة معدات لنقل التربة موجودة على كوكب الأرض قد أرسلتهم شركاتهم ليسهموا بذلك.كوبلكو، وكوماتسو، وهونداي، وسوميتومو، وكاتربلر، كلها موجودة هنا، وهي تفوق بعددها السيارات العادية تقريباً، وكلها تلتهم التربة الغنية الموجودة على جانب الطريق التهاماً نهماً. وترتفع الرافعات من مواقع البناء أيضاً، متصارعة مع الأبراج الكهربائية الثقيلة على طول الطريق، ومتنافسة معها لتشكل أقبح خلفية في المنظر.

بالنسبة إلى الأجنبي المنتمي لما بعد الحداثة، يكون السفر باتجاه الغرب على طول هذا الطريق رحلة إلى الخلف في الزمان، إلى ماض صناعي خلفته بلاده الخاصة خلفها إلى حدٍ كبير. المنظر كله يعطي الشعور بالتدنيس. وأما بالنسبة إلى المهاجرين الصينيين الذين ينتمون إلى الزمان قبل الحديث، والذين يسافرون نحو الشرق إلى مستقبل صناعي لم يعرفوه قط، فإن المداخن والمصانع تعلن الخلاص، وهي رموز جاءت إليهم أخيراً من الحداثة وفرصة ليكتسبوا أكثر مما سبق لهم أن اكتسبوا من قبلُ في أي زمان.

أقول لتنتن، «أنا أحب سيارتك،» على نحو متأثر تأثراً حقيقياً.

يضبط نظارته الشمسية، وينظر إلي في مرآته الخلفية، ثم يستشعر الرضا في الثناء الموجه من الراكب الأجنبي معه. ويوافق بالقول: «إنه ركوب ناعم»، وذلك بصوته الحاد، مستشعراً بوضوح أنه لا يلزم أن يقال أي شيء أكثر من ذلك.

ويتحدث مع تشانغ الكبير على راديو موجة المواطنين ويلامس النظام الكوني لتحديد الموقع الموجود في السيارة. ويقول: «معظم الطرق في الصين الآن موضوعة على النظام الكوني لتحديد المواقع. لقد كانوا ينشئون الخرائط لها طوال سنوات حتى الآن. وإذا وجدت الوقت، فأنا أود أن أتابع الرحلة إلى الشمال الغربي المسلم في الصيف القادم، وأستفيد منها فعلاً».

www.ibtesama.com/vb

سمع تنتن عن تلك الرحلة من صديقه، ليو الصغير، الذي ساق سيارته إلى هناك في العام الماضي. ويتحمس ليو ويقول:»تستطيع أن تقوم بالرحلة في خمسة أيام إذا سقت السيارة من دون توقف».

الشمال الغربي المسلم من الصين، في النهاية القصوى من الطريق 312، وفيما وراء صحراء غوبي، هو المكان الذي أتوجه إليه. ومن الواضح أيضاً أنه هو المحطة المقصودة الباردة لأي شاب مهني حضري ناجح يعيش في مستوى عال يحترم نفسه ويمتلك سيارة خدمات رياضية (اس يو في) في هذه الأيام، وهو مثلما كان الاتجاه،في أمريكا، نحو كاليفورنيا في الطريق 66 في الخمسينات من 1950. الكثيرون من أغنياء الصين الجدد مفتونون بالأركان البرية القفر من بلادهم، وذلك في وجه من الوجوه بسبب أن تلك المناطق مختلفة للغاية عن شرقي الصين. وإذا كنت تستطيع أن تقول إنك سبق أن ذهبت إلى سينكيانغ، أو التيبت (أو وهو أفضل، إلى تايلند أو أمريكا)، فإن جيرانك يعرفون أنك تمتلك المال للسفر.

ويشرح ليو الصغير، «هناك عدد كبير من الجماعات العرقية المثيرة للاهتمام الذين يعدون جزءاً من بلادنا ولكنهم ليسوا مثلنا، منهم الويغور المسلمون، التيبتيّون. إنهم بعيدون جداً، كما تعرف».

الطريق 312 هو واحد فقط من طرق عديدة تتجه إلى الغرب، ولكنه الطريق الوحيد الذي يستمر حتى النهاية إلى كازاخستان. وهناك شيء مرضٍ إلى حد ما في معرفة أنه يمتد ثلاثة آلاف ميل، وأنني في بداية شيء طويل جداً وهو من الناحية الرمزية ضخم. وتظهر إلى جانب الطريق أعمدة إسمنتية صغيرة بيضاء، وقد كتبت عليها الطريق القومي 312 باللون الأحمر، وعدد الكيلومترات من شنغهاي مكتوب تحت ذلك.

فجأة يتسع الطريق. وهو الآن ثلاثة مسارات في كل جانب، ولكن الحاجز الإسمنتي الموجود في الوسط يختفي، ويتبخر النظام المفروض. فالسيارات تخرج من أبواب المصانع من دون إنذار. وآخرون يقومون بالاستدارة إلى الخلف في عرض الطريق.

www.ibtesama.com/vb

ويظهر رجل مسن على دراجة فجأة، وهو يسوق دراجته عكس المرور في المسار السريع أمامنا. تنتن لا يعلق ولو مجرد تعليق على ذلك ويقوم ببساطة بالانحراف لتجنبه، وكأن هذا حدث عادي.

وألمح له، «هذا لا يبدو شيوعياً جدا». وأنا أحدق في الخارج في المصانع ميلاً بعد ميل. وهي تظهر لي مثلما أتخيل كيف كانت بيتسبيرغ (أو مانشستر، إنجلترا) قد بدت في العام 1890 تقريباً.

ويضحك تنتن، وكأنه بذلك يقول، «ومن يهتم؟» ونتحدث عن الصينيين وكيف أنهم عمليون وغير إيديولوجيين. وأحدثهم عن مرة زرت فيها مضمار سباق في خارج بكين وكان الناس فيه بوضوح يضعون رهانات على الخيل. وكنت مندهشاً حين اكتشفت أن هذا كان يحدث، نظراً إلى أن القمار غير قانوني في الصين. وفكرت أنني كنت أستطيع أن أجرب أيضاً، وهكذا اقتربت مما ظهرت لي مثل نافذة للمراهنة وقلت إنني أريد أن أضع رهاناً. فأخبرتني المرأة أنني لا أستطيع أن أضع رهاناً (فالمراهنة غير قانونية في الصين، كما أكدت)، ولكن إذا أردت، فأنا أستطيع أن أضع تخميناً على واحد من الخيل.

تخمين! كنت أستطيع أن أضع تخميناً! وهكذا وضعت عشرين يوان (دولارين ونصف)، ووقفت أشجع الحصان، آملا أن يكسبني تخميني بعض المال. ولم يكسب الحصان، ولكن ذلك لم يكن مهماً. وكان يمكن أن أدفع أكثر من دولارين ونصف لاكتساب الخبرة وما أعلمتني به عن الصين الحديثة. فأن يكون مضمار سباق للخيل (وليس مكاناً سيئاً للقمار في قبو سري ما بل مكان على مرأى من الجمهور وعلمه، في مضمار سباق يستطيع كل إنسان أن يراك فيه) قادراً على العمل علانية، ويأخذ رهانات على الخيل، وذلك ببساطة بأن يسمى الرهانات شيئاً ما آخر هو أمر غريب تماماً لا يكاد يصدق. والأمر مثل ذلك مع نظام الصين السياسي أو الاقتصادي. سمّه «اشتراكية بخصائص صينية». سمّه ما شئت. فإذا كان الحزب الشيوعي يحتاج ورقة تين لغوية، فذلك حسن، على الرغم من أن كل واحد يعرف أنها في الحقيقة، في أجزاء عديدة من الصين، رأسمالية صناعية فجة.

www.ibtesama.com/vb

كونشان مدينة يسكنها أكثر من مليون نسمة بما لها من مؤهلات خاصة، فهي في الأصل موطن واحد من أشهر أساليب الأوبرا القديمة في الصين. والآن، مع ذلك، تكوّن كتلة ممتدة من المصانع والتطور، متصلة اتصالاً كاملاً إلى شنغهاي في الشرق وإلى مدينة سوجو في الغرب. وفي نهاية المطاف، فالدلائل تؤكد أن كونشان قد وصلت، وأسحب هاتفي الخليوي الجوال وأقوم بإجراء مكالمة مع مدير مصنع تايواني، صديق لصديق كنت قد كلمته حتى اليوم السابق. ونسوق السيارة حول المكان لبعض الوقت في محاولة لمعرفة المكان. وفي كل مكان تنظر إليه، هناك المصنع تلو المصنع فقط، وكلها متشابهة على نحو مزعج: بوابة ضخمة معدنية قابلة للسحب أمام مبنى طويل، متكتّل مغطى بالآجر الأبيض، ينبعث من صوت أزيز الآلات.

وأخيراً نجد المصنع الذي نبحث عنه، ويخرج المدير لمقابلتنا. وهو من النوع الودود، وغير الرسمي في سلوكه اسمه السيد يانغ، وقد ترك زوجته وأسرته في تايوان والتحق بعشرات الآلاف من رجال الأعمال التايوانيين المستثمرين في كونشان. والمدينة معروفة محلياً باسم تايبيه الصغيرة، على اسم العاصمة التايوانية.

وأقفز من الجيب أشكر ليو وتنتن على الركوب، وأتجه إلى الوراء إلى المكان الذي يقف فيه الجمل وشيانغ الكبير لأصافحهم أيضاً، وأتمنى لهم الخير في يومهم الخلوي، متجهين إلى الغرب. ثم يسوقون سياراتهم عائدين نحو الطريق 312، ليتابعوا مغامرتهم.

مصنع السيد يانغ يصنع تلك الصادرات الأساسية جداً للغولف، وهو العشب الاصطناعي لملاعب السواقة في كل أنحاء العالم. وهو المصنع العادي للإنتاج الكبير الموحد، والذي يوجد منه الآلاف على طول الساحل الصيني، من شنغهاي نزولاً حتى هونغ كونغ. وهناك طبعاً بعض الإساءات المروعة لحقوق العمال في المصانع الصينية، التي يغلق فيها على العمال ويجبرون على الكدح في ظروف قريبة مما يشبه العبودية. والظروف في هذا المصنع نموذجية أكثر: أساسية ولكنها ليست سيئة. العمال كلهم سافروا إلى هنا من داخل البلاد، براً بالطريق أو في القطار، وهم يستلمون 120 دولاراً في الشهر، زائداً إمكانية الدوام الإضافي.

www.ibtesama.com/vb

قف عند أي مصنع، وسوف تسمع نفس القصص. «أنا مزارع. وأكسب هنا في الشهر أكثر مما كسبته في سنة أزرع فيها الرز. نعم، إنه عمل شاق، ولكنه يستحق العناء. وأنا أضع أخي لينهي المدرسة الثانوية. أجوري تساعدني على دعم والديّ في البيت».

ضاعف هذا المصنع بآلاف فوق آلاف، وأنت تحصل على بداية التحول في أمة. والمنطقة معروفة باسم دلتا يانغسي، أو أحياناً باللغة الصينية باسم الدلتا الذهبية لأنها تنتج الكثير جداً من «الذهب» وتضم مئات من بلدات المصانع مثل كونشان التي تغطي معاً مساحة حول شنغهاي تساوي حجم ولاية كنتاكي تقريباً (أو أكبر قليلاً من البرتغال). وتقول الإحصاءات الصينية إن هذا البحر المحدد من المصانع ينتج سلعاً تكون 20 بالمائة تقريباً من قيمة الاقتصاد الصيني. وذلك يعني أنه لو كانت دلتا يانغسي بلداً مستقلاً، لكان اقتصاده وصل إلى رتبة يكون فيها الاقتصاد السابع عشر من بين أكبر اقتصادات العالم، تحت إندونيسيا وأستراليا مباشرة، وفوق جنوب إفريقية، ونيوزيلندا، وتايلاند.

السيد يانغ لا يفكر في مثل هذه الاقتصاديات الكبيرة. إنه يحاول فقط أن يحصل على المزيد من الطلبات من ميادين الغولف في أمريكا الشمالية. ويبدو أنه يملك علاقات ممتازة مع موظفيه. فنحن جميعاً نجلس ضاحكين ومتندرين بالطرائف على عشاء أساسي في مطعم المصنع ولكنه طيب المذاق. وكنت قد خططت أن أتوجه إلى نانجينغ في هذه الليلة. ولكن السيد يانغ يقترح أن نذهب لنغني بعض الكاريوكي وهو غناء كلمات أغنية وفق موسيقاها المسجلة، وهي دعوة تبدو لي أفضل من أن ترفض. وهكذا، ومع عدد من العمال الذين تركوا في المطعم، نقفز إلى سيارة السيد يانغ المغطاة (فان) ونتوجه إلى مركز كونشان.

في الصين، في أي مكان فيه ناس، توجد فيه غرف الاستقبال لمؤانسة الزوار. وفي الحقيقة، وفي المكان الذي لا يوجد فيه ناس، توجد فيه غرف كاريوكي. ويحتمل أن توجد غرف الكاريوكي على الجانب الصيني من قمة إيفرست.

www.ibtesama.com/vb

ويقود السيد يانغ السيارة بنا إلى مكان كاريوكي خيالي ممتاز جداً قريب، وأدفع المال لغرفة منجّدة ومؤثثة بالمخمل البنفسجي. الأغاني المفضلة تايوانية، وهي ليست لمجرد إرضاء رؤسائهم فقط. تماماً مثلما يحب الباكستانيون الأفلام الهندية، فهكذا الأسماء المائة القديمة، فالموسيقى تقوم بجسر الانقسام السياسي مع العدو الرئيسي عبر مضيق تايوان. وكل العمال يغنون أغنية واحدة، وبعضهم يغني أغنيتين، وأنا أحاول أن أؤجل مشاركتي بنفسي. وفي الحال، مع ذلك، لم يوافقوا على أن يتركوني أؤخر مشاركتي أطول، وهكذا أنقر بإصبعي عبر القائمة، ماراً على أغنية الكاربنترز، وباك ستريت بويز، وجاكسون5، وماراً على أغنية جورج مايكل «آخر عيد ميلاد» (وهي التي كنت أحب في سري أن أغنيها فعلاً)، إلى أن أجد أغنية تناسب المناسبة. وهتف العمال يستحسنون بأدب مع الأداء الحزين، النشاز الخارج عن اللحن، ولكنه الأداء المناسب على نحو فريد لأغنية «ديسبيرادو» من نعيق الإيغلز وهم يخرجون إلى ليل صيف حار من غرب خشن قفر.

وفي الصباح التالي أجد لي سيارة أجرة وأتوجه نحو جونجيانغ، وهي مدينة على بعد ثلاثة أرباع الطريق من شنغهاي إلى نانجنغ. سيارات الأجرة في الصين رخيصة ومريحة وهي، طبعاً، تمتلك ميزة على حافلات الركاب من ناحية السماح لك أن تقف حين تشاء. وأنا أخطط أن أقوم بوقفة قصيرة فقط في جونجيانغ. وهي نوع من حج شخصي لزيارة تذكارين لاثنين من شعب المحيط كان لحياتهما تأثير على حياتي.

المدينة الكبرى الساحلية شنغهاي، التي تمددت إلى أن ضمت إليها كونشان وضمت بعد ذلك المدينة القديمة سوجو، قد قضت على الماضي الزراعي لمنطقة جيانغسو الجنوبية. ولكن حين يترك الطريق 312 سوجو خلفه، يبدأ القليل من الخضرة بالظهور بين البلدات. ونمر على المدن الصناعية الوسخة يوكسي وشانغجو قبل الوصول إلى جونجيانغ التي يتبين أنها مكان جميل رائع مليء بالمفاجآت. وهي مشهورة بإنتاجها من الخل، الذي تتبقى رائحته في كل مكان، وهناك متحف جيد على نحو مدهش للفن الصيني التقليدي، والخزف، والبرونزيات. وهذا هو أيضاً المكان الأول الذي تستطيع أن ترى فيه نهر يانغسي، الذي كان قد جرى موازياً للطريق 312

www.ibtesama.com/vb

منذ شنغهاي، ولكن خارج مرمى البصر. النهر منظر جميل لتراه من أرض عالية في مركز جونجيانغ، وهو هنا واسع مثل بحر داخل البلاد، يلمع لمعاناً خالداً إلى ما وراء المدينة المتغيرة.

جونجيانغ (وكانت تلفظ سابقاً شينكيانغ) كانت في الموجة الثانية من موانئ المعاهدة التي فتحتها القوى الأوربية قسراً بعد حرب الأفيون الثانية، في العام 1860. واسمها يعني «الحامية على النهر» وهي ما زالت ميناء من أكثر الموانئ انشغالاً على نهر يانغسي.

وكانت المدينة موطن اثنين من شعب المحيط كانا حاسمين في تشكيل آراء الأجانب عن الصين، وخصوصاً في جلب حياة الأسماء المائة القديمة، حياة الناس الصينيين العاديين، إلى انتباه العالم الغربي. وقد قرأت كتاباتهما كليهما وأنا طالب وكلاهما جذبني جذباً أعمق إلى إعجابي بالصين.

كان الأول هو المؤلفة الأمريكية بيرل بك، التي انتقلت إلى هنا وهي طفلة في العام 1892 وكبرت في جيونجيانغ، وهي ابنة مبشرين من الكنيسة المشيخية البروتستانتية. وبيت الآجر الرمادي الذي عاشت فيه مع والديها، أبسالوم وكارولين سايدينسترايكر، مازال قائماً، ومحفوظاً بوصفه متحفاً بفضل جهود حكومة المدينة. وله منظر رائع يطل إلى الخارج على المدينة إلى يانغسي القوية. تستطيع تقريباً أن تتخيل بيرل سايدينسترايكر وأخاها يلعبان في الحديقة، ويتحادثان بعيداً عن مربيتهما الصينية. وذهبت بيرل إلى مدرسة داخلية في شنغهاي من 1907 إلى 1909، ورجعت بعدئذ إلى الولايات المتحدة لتدرس في كلية في فيرجينيا، وتتخرج في 1914. ثم عادت بعد ذلك إلى الصين وأمضت معظم العشرين سنة التالية هنا.

كتابة بك عن الصين جلبت البلاد إلى العقل الغربي بطريقة لم تكن قد وصفت بها الصين من قبل. والكتاب الصينيون في العشرينيات من 1920 وفي الثلاثينيات من 1930 قد انغمسوا في السياسات الداخلية للبلاد، محاولين أن يثيروا الصين لتجدد نفسها، ولذلك لم يكونوا مقروئين على نطاق واسع في الغرب. وكثيرون من الكتاب

www.ibtesama.com/vb

الغربيين في ذلك الوقت كانوا مازالوا يملكون نغمة استعلائية، استعمارية نحو الصين. أما رواية بك (الأرض الطيبة) بالمقابل، فرسمت صورة متعاطفة إلى حدٍ كبير لمزارع عادي صيني مع أسرته، ورسمت ارتباطهم بالأرض. ومثل كثير من الناس، حين قرأت الرواية لأول مرة، تأثرت بالكرامة التي صورت بها بيرل بك الشعب الصيني، مع نغمة واقعية لم يسبق لي أن قابلتها من قبل في الكتابات الغربية عن الصين. فهنا كانت مؤلفة تملك حباً عميقاً للشعب الصيني. ورواية الأرض الطيبة هي قصة حياة الأسماء المائة القديمة وحبها وآمالها ومخاوفها، ولكنها رواية شاملة أيضاً ربطت حياتهم مع الغربيين العاديين بطريقة جديدة. وباع الكتاب 1.8 مليوناً وثمانية أعشار مليون نسخة في عامه الأول وأكسبت بوك جائزة بوليتزر للرواية في العام 1932. ثم استمرت إلى أن نالت جائزة نوبل للآداب في العام 1938.

والغربي المرموق الآخر المرتبط مع جيونجيانغ هو جيمس هدسون تايلور، وهو إنجليزي جاء إلى المدينة مبشراً قبل أربعين عاماً تقريباً من عائلة بيرل بك. شعر تايلور بدعوة إلهية إلى الصين في عمر مبكر جداً. ووصل إلى شنغهاي في العام 1854، وعمره اثنتان وعشرون سنة، واستمر ليمضي معظم الخمسين سنة التالية هنا، مؤسساً بعثة الصين داخل البلاد في العام 1865، وكان يحدوه الأمل بتنصير داخل الصين بالتبشير. كان تايلور شخصية ثورية في مجتمع تبشيري من العصر الفيكتوري. وقد أحدث ضجة في الخمسينيات من 1850، حين قرر أن لا يسكن في مجمعات الأجانب، مثلما كان يفعل المبشرون حتى تلك الفترة، وأن يسكن بين الشعب الصيني. كان تايلور واحداً من أوائل المبشرين الغربيين في اتخاذ الملابس الصينية، وأصر على كل أعضاء بعثة الصين داخل البلاد أن يفعلوا الشيء نفسه. وهو أيضاً اهتم اهتماماً عميقاً بشأن الأسماء القديمة، وبشأن جلب كل من بلائهم الروحي والمادي لوضعهما أمام ملاحظة الغرب.

وعلى الرغم من أنه كان يُنتقد أحياناً، بوصفه «الذراع الروحية» للمستعمرين، كان العديدون من المبشرين ملتزمين التزاماً عميقاً بالصين وكان لديهم حب عظيم للبلاد. وكان تأثيرهم ضخماً، وليس مجرد تحولات إلى المسيحية. كانوا قوة تقدمية،

www.ibtesama.com/vb

تجلب معها التعليم الحديث والخبرة الطبية إلى الصين، وتؤكد الحاجة إلى تعليم البنات، اللواتي كن على وجه العموم محرومات من التعليم في الصين التقليدية.

زوجة تايلور، ماريا، ماتت في جيونجيانغ من مرض الكوليرا في العام 1870، حين كانت في الثالثة والثلاثين من عمرها. ومات اثنان من أطفاله هناك أيضاً. ولكن تايلور بقي مقيماً في الصين طوال معظم حياته. ومات في العام 1905 في مدينة شانغشا، وجيء بجثمانه بالسفينة نازلاً في النهر إلى جيونجيانغ، ليدفن إلى جانب محبوبته ماريا. وفي أثناء جنون الثورة الثقافية في الستينيات من 1960، حين كان أي أجنبي يُهاجم، فقد جرى تدنيس المقبرة الدولية الصغيرة في جيونجيانغ على أيدي أفراد الحرس الأحمر، وجرى تحطيم شواهد القبور. وبقيت المقبرة الدولية مهملة إلى وقت قريب، حين وجد مسيحيون محليون شاهد قبر تايلور، وأصلحوه، ووضعوه في ضريح صغير بني بشكل خاص له بالقرب من كنيستهم.

وقبل أن أغادر جيونجيانغ، أقوم بزيارة قصيرة للكنيسة الجميلة الصغيرة من القرن التاسع عشر وأطلب من القسيس الشاب راعي الكنيسة، إن كنت أستطيع، أن أرى ضريح تايلور الذي أعيد بناؤه. كان القسيس لطيفاً ومرحباً، وذهب وأحضر المفتاح. ويخبرني أن أناساً عديدين جداً يحضرون إلى الكنيسة في أيام الآحاد لكي يقيموا العديد من الطقوس الدينية.

كان يا ما كان، في سالف العصر والأوان، منذ زمن طويل وبعيد جداً، في أول نضرة الشباب وأول نضرة الإيمان، كان أنني قد قرأت سيرة تايلور، وأثرت بي تأثيراً عميقاً. وكنت من قبلُ أدرس إن كنت سأدخل كاهناً في سلك رجال الدين المعينين، وقد جعلتني قراءة الكتاب أفكر في أنني ربما سأكون منغمساً في نوع ما من عمل الكنيسة في الصين. وذهبت للحديث مع قسيس كنيستي في إنجلترا حول ذلك. وهو مازال الشخص الذي أعجب به، خارج أسرتي، أكثر من أي شخص على كوكب الأرض، وبعد أن عرف اهتمامي بالقضايا الدولية، قال لي: «أعتقد أنه قد يثبت أن ذلك النوع من اللوحة صغير قليلاً عليك». أتذكر كلماته بالضبط. لقد فاجأتني، لأنني فكرت دائماً أن الروح الإنسانية كانت لوحة واسعة بقدر السعة التي تستطيع أن تجدها. وفي

www.ibtesama.com/vb

النهاية، مع ذلك، ولأسباب عديدة ومتنوعة، ثبت أن تصور قسيسي صحيح، وقد تغير تدفق حياتي تغيراً كاملاً. ولكن، مثل حبك الأول، فأنت لا تنسى قط في الحقيقة بطلك الأول. ولا تنسى قط الطريق التي لم تطرقها. وأنا أنظر دائماً إلى الخلف إلى الفرع من الطريق الذي أقف عليه، وإلى الخيار الذي اخترته، وما كان يحتمل أن يكون. وأنا أقف لوقت طويل جداً في ذلك اليوم الصيفي الحار، أنظر فقط إلى شاهد قبر جيمس هدسون تايلور.

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

4
الثورة غير المنتهية

يلوح التاريخ معلقاً ثقيلاً فوق الصين، مثل بخار كان في العادة حلواً ولكنه تحول بشكل ما لا يمكن إدراكه إلى بخار سيئ، إنه يتغلغل في كل ركن ويشق طريقه بصمت إلى داخل عقل كل شخص صيني. وأنت تشعر أحياناً أن الصينيين لا يعرفون تماماً ماذا يفعلون بتاريخهم الممتد إلى خمسة آلاف سنة.

ونحن، في العالم الغربي، نحب التاريخ. وإن زيارة إلى ولياموزبيرغ الاستعمارية، أو فيلادلفيا، أو كاتدرائية القديس بطرس في لندن، أو المدرج الدائري (الكولوسيوم) في روما هي خبرة إيجابية تملؤنا برضى لا ينكر. وهناك بلا ريب أسباب عديدة، ولكنني أعتقد أن السبب الرئيسي هو ببساطة أننا ربحنا. التاريخ بالنسبة إلى شعب المحيط أدى إلى أهم عنصرين من عناصر مجتمعاتنا: الديمقراطية، والازدهار.

وفي الصين، في المقابل، يبدو أن هناك توتراً كبيراً في أذهان الشعب عن التاريخ. فكل الشعب الصيني يعرف أن تاريخهم كان في العادة رائعاً. فالحضارة الصينية بدأت بالصعود إلى الهيمنة العالمية في القرنين السابع والثامن، ووصلت أوجها في القرن الثاني عشر، في الوقت الذي كانت فيه أوروبة ما زالت في عصور الظلام والعصور الوسطى، ناس كثيرون في الغرب يعرفون عن الاختراعات الأربعة الكبيرة، التي اكتشفتها الصين قبل وقت طويل من الغرب: الورق، والطباعة، وملح البارود، والبوصلة. ولكن الصينيين كانوا مسؤولين أيضاً عن مجموعة كنز كاملة من الاختراعات الأخرى التي وجدت طريقها إلى الحياة الغربية: دفة عمود مؤخرة السفينة، جسر معلق بسلسلة حديد، أساليب الحفر العميق، وأقفال القنوات، والطائرة الورقية، والعرادة، وهي قوس ونشاب على شكل المنجنيق، إذا لم نسم إلا القليل من الاختراعات. في ذلك الوقت كانت الصين أكثر قوة على نحو ضخم، وكانت أغنى، وكانت أكثر تقدماً تقانياً من أوروبة أو أي مكان آخر غيرها. وفي الحقيقة، كان تقدم الصين، والرغبة التي

www.ibtesama.com/vb

خلقها هذا التقدم لدى الأوروبيين من أجل الحصول على أنواع الترف التي رأوا أنهم كانوا يفتقرون إليها بوضوح، كان واحداً من الشروط المسبقة لصعود أوروبة. حين وصل المبعوث البريطاني اللورد ماكارتني في العام 1793، كانت الصين هي القوة العظمى في التصدير، فحريرها، وشايها، وخزفها كانت سلعاً مطلوبة في كل أنحاء العالم (وخصوصاً في أوروبة). وكانت القوى الأوروبية التي ستجعلها الثورة الصناعية قريباً قوية، كانت هي، مع ذلك، التي تدفع نقداً وتدفع بالمخدرات مثل الأفيون في مقابل السلع الترفيهية الصينية في ذلك الوقت.

يقول المؤرخون إن المشكلة كانت في أن الصين وصلت إلى الذروة مبكرة جداً. لقد أسست نظاماً كونفوشيوسياً ناجحاً جداً من البيروقراطية تحت إمبراطور مطلق السلطة وهي بالنسبة إلى المجتمع ما قبل الحديث، حققت درجة مدهشة من الاستقرار والازدهار النسبي. ولكن عدد سكان الصين، بحلول أواخر القرن الثامن عشر، كان قد نما إلى درجة كبيرة جداً، وكان بذلك يضع توتراً على الأرض. وكان هناك فساد بيروقراطي كذلك، طبعاً، وإفراط في فرض الضرائب، ومع نهاية القرن الثامن عشر، بدأت الصين تغطس تحت وطأة وزن نجاحها الخاص. وعندئذ، مثلما رأينا، ظهر البرابرة الخطرون، وجاؤوا من المحيط، وفجأة صار كل شيء رآه الشعب الصيني في السابق رائعاً وعلامة ثقافة متفوقة صار رمزاً للتخلف وللإذلال، لأن شعب المحيط قام بما يشبه استعمار الصين. وما زالت تركة هذا التوتر النفسي تلعب في أذهان الشعب الصيني، وهي أحد الأسباب التي تجعلهم مشغولين بجعل بلادهم قوية اليوم. وليس هناك مكان أفضل لترى فيه الطبقات المختلفة من التاريخ الصيني الحديث، ولترى فيه الدليل على انحطاط الصين، من العاصمة القديمة نانجينغ.

لو سقت سيارتك، مثل معظم الناس المدركين، على طول الطريق السريع الجديد اللامع من شنغهاي إلى نانجينغ، لكانت الطريق استغرقت معك ساعات قليلة ولوضعتك على البوابة الشرقية القديمة للمدينة. أما لو كنت مصمماً، على كل حال، على أن تأخذ الطريق البطيء، لرأيت قبور المبشرين، وأخذت لمحة من نهر يانغسي، ولاشتريت إبريق شاي لم تكن بحاجة إليه، ولكن سيتوجب عليك أن تكون قد تحركت في الضواحي الشمالية الشرقية لبعض الوقت قبل أن تصل إلى نانجينغ نفسها.

www.ibtesama.com/vb

الطريق 312 من جيونجيانغ قد اتسع اتساعاً كبيراً حين يتصل مع نانجينغ، وهو الآن ليس الطريق البطيء قطعاً ولكنه طريق بسعة أربعة مسارات في كل اتجاه. وأنت تستطيع أن تتهم الحكومة الصينية بأشياء عديدة، ولكن إهمال بناء الطرق ليس واحداً منها.

نانجينغ مدينة ممتعة، على الرغم من كونها معروفة بأنها واحدة من الأفران الثلاثة،من الصين الوسطى، على أساس درجة المائة لحرارة فصول صيفها. وموقعها في معظمه على الضفة الجنوبية من نهر يانغسي، وفيها من السكان أكثر من 6 ملايين نسمة، وكما هو الحال مع شنغهاي، فإن الجو العام هو جو الطاقة، وجو أناس يتحركون وينظرون إلى الأمام. واقتصاد السوق يكسب اليد العليا على الاقتصاد المخطط له هنا أيضاً. الشوارع مزدحمة والمتاجر مليئة بالطعام والملابس، بالألعاب وبالكتب، بالمعدات الإليكترونية وبكل صنف من الهاتف الخليوي الجوال. كثيرون من الناس في نانجينغ برزوا الآن، في خمس وعشرين عاماً قصيرة، من استبداد الفقر، إلى استبداد الاختيار (مع الاعتراف بأنه أكثر قابلية للإدارة).

والمدينة أقل تصنيعاً ثقيلاً من البلدات التي تصطف على الطريق 312 حين يغادر هذا الطريق شنغهاي، مثل كونشان، وفي الشوارع الرئيسية في نانجينغ تصطف الأشجار الجميلة (الشمسية الصينية). جذوعها الفضية تنقسم انقساماً موحداً إلى قسمين، وأغصانها ممتدة فوق مسارات الممشى الجانبي من الشارع، موفرة بذلك الظل من شمس صيفية حارقة.

الاسم نانجينغ (وكان يهجى سابقاً نانكنغ) يعني لا شيء أروع من «عاصمة الجنوب «(وبكين تعني «عاصمة الشمال». وطوكيو تسمى دونغجينغ، وهي تعني «عاصمة الشرق». وليس هناك عاصمة غربية). وتستقر المدينة على طبقة فوق طبقة من التاريخ الصيني داخل جدارها المتداعي المبني من القرن الرابع عشر.

وطوال قرون، كانت نانجينغ رمز قوة الصين. كانت عاصمة أسرة مينغ، التي تأسست في العام 1368، وطردت جموع المنغول إلى خارج الصين. وبعد ذلك بقليل،

www.ibtesama.com/vb

أنشئ جدار المدينة ذلك، وهو واحد من أطول الجدران التي بنيت في أي زمان في العالم، ويصل إلى عشرين ميلاً في المجموع.

وفي العام 140، انطلق من نانجينغ الأدميرال جونغ هوه في أول رحلاته البحرية غير العادية إلى جنوب شرق آسيا، وجزيرة العرب، وإفريقية. وكانت تلك الرحلة قبل تسعين عاماً تقريباً من إبحار كولومبس متوجهاً إلى أمريكا. وتقول المصادر الصينية إن أسطول جونغ هوه تكون من ثلاث مئة سفينة ومن ثمانية وعشرين ألف رجل تقريباً. والمصادر نفسها تقول إن سفينة قيادته كانت أكثر من أربع مئة قدم طولاً، على الرغم من أن بعض الخبراء يشكّون فيما إذا كان من الممكن بناء مثل هذه السفينة الضخمة في ذلك الوقت. في العام 1492، أخذ كولومبس ثمانية وثمانين رجلاً فقط في سفنه الثلاث الضئيلة إلى العالم الجديد. وكانت سفينة قيادته، سانتا ماريا، أقل من مائة قدم طولاً فقط.

ناقش المؤرخون طويلاً احتمالات رحلة جونغ هوه. ماذا لو كان الصينيون قد استمروا في الاستكشاف؟ ماذا لو كانوا قد صاروا هم شعب المحيط واستمروا ليقهروا أراضي أخرى؟ ولكنهم لم يفعلوا. فالإمبراطور الذي دعم جونغ مات في العام 1424، وتصاعد الاضطراب في الوطن، ووقعت الحملات البحرية في نزاع مع التنافس الداخلي في البلاط. وفي انتكاسة غير عادية، أمر إمبراطور تال بتدمير كل السفن العابرة للمحيط. وانخفض أسطول أسرة مينغ الذي وجد في مطالع القرن الخامس عشر من ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة إلى لا شيء تقريباً، وهي حركة ثبت في ما بعد أنها قاتلة.

نقدم شريط الأحداث سريعاً إلى الأمام لنصل إلى العام 1842، حين صارت نانجينغ على نحو سريع رمز ضعف الصين. أبحر الأسطول الملكي البريطاني صاعداً في نهر يانغسي، ومع عدم وجود أسطول حديث ليحميها، استسلمت العاصمة الجنوبية بسرعة، مؤذنة بذلك بمجيء ما يدعوه المؤرخون «قرن المذلة» للصين على أيدي القوى الغربية. ودام ذلك القرن حتى انتصار الحزب الشيوعي، في العام 1949. وتحتل نانجينغ مغزى خاصاً في قرن المذلة هذا، بسبب ما حدث هناك طوال سبعة أسابيع

www.ibtesama.com/vb

ابتداء من كانون أول/ ديسمبر1937. وكانت واحدة من أشد الحوادث ترويعاً في حرب القرن العشرين وصارت تعرف باسم مجزرة نانجينغ.

مباشرةً بعد أن رفض الصينيون أن يفتحوا بلادهم لشعب المحيط في الثلاثينيات من 1830، كان اليابانيون قد اتخذوا القرار المعاكس تماماً. انطلقوا في إصلاحات كبيرة سياسية، واقتصادية، واجتماعية، دافعين التعليم، والتصنيع والمشاركة النشيطة مع العالم الخارجي. ونظراً إلى أن اليابان كانت قد استعارت ثقافياً في الماضي (ليس أقله من الصين)، فربما كان القرار بالاستعارة ثانية (هذه المرة من الغرب) قراراً ليس إشكاليا جداً. فاليابان لم تر نفسها مركزاً ثقافياً للكون، مثلما رأت الصين نفسها، ولذلك كانت اليابان قادرة على أن تغير جلدها. أما الصين، في الجهة الأخرى، فقد أجبرت على أن تغير روحها.

حتى العام 1895، كان ينظر إلى اليابان بالفعل من قبل كثيرين من المصلحين الصينيين بوصفها مثالاً. في ذلك العام، هزمت اليابان الصين عسكرياً وفرضت شروطاً مهينة على بكين، تماماً مثلما كانت القوى الغربية قد فعلت قبل عقود من ذلك. وكانت الهزيمة صدمة هائلة للصينيين، الذين رأوا (وما زالوا يرون) الثقافة اليابانية بوصفها مشتقة من الثقافة الصينية، وهي لذلك أدنى منها. وكانت الهزيمة واحدة من عدد من الإهانات المذلة التي أقنعت البلاط الصيني أخيراً بعد العام 1900 أن عليه أن يقوم بالإصلاح. ولكن الثوريين الصينيين كانوا في ذلك التاريخ يكسبون الدعم بقدر ما يكسب الإصلاحيون، وفي الواقع أن موجة الإصلاحات بعد العام 1900 أدت لا إلى دولة إمبراطورية مُصلَحة بل إلى الثورة وإطاحة الإمبراطور في العام 1912.

كان قائد الثوريين طبيباً غربي التعليم يسمى سون يات سن، أراد أن تصير الصين جمهورية حديثة، ليبرالية. وقد وضع سون أهدافه في ما دعاه مبادئ الشعب الثلاثة. وتترجم هذه المبادئ في الغالب كما يلي: قومية الشعب (أي، جعل الصين قوية)، ومعيشة الشعب (أي، وضع الطعام في معد الشعب)، وحقوق الشعب (أي، إعطاء الشعب حقوقه). كانت هناك مشكلة واحدة فقط. لا أحد في البلاد امتلك

www.ibtesama.com/vb

الخبرة في حكم جمهورية حديثة، ليبرالية. وكما وجد الاتحاد السوفييتي بعد ثمانين عاماً، ووجدت الولايات المتحدة في العراق في العام 2003، فإن إطاحة نظام قديم أسهل بكثير من تأسيس نظام جديد. وهكذا فحين تنازل الإمبراطور عن مسؤولياته، في العام 1912، لم يكن سون وغيره من الثوريين قد امتلك أياً من آليات الحكومة الحديثة ليحكم بها الجمهورية الجديدة. في العام 1916، قامت المناطق، واحدة واحدة، بإعلان الاستقلال عن العاصمة، وبكل بساطة انهارت البلاد.

وهكذا فإن الثورة التي قادها سون يات سن كانت في الحقيقة نصف ثورة فقط. لقد أزيح النظام القديم تماماً، ولكن بناء النظام الجديد فشل. وانحدرت الصين إلى الفوضى، مقدمة لليابان الفقيرة بالموارد فرصة للتوسع في جارتها الغنية بالموارد. وهذا هو بالضبط ما حدث.

وتقول مرشدة الجولة السياحية بلهجة من يقرر الحقيقة، «كان من عادة الجنود اليابانيين أن يجروا منافسات ليروا من كان يستطيع أن يقتل أكبر عدد من المدنيين الصينيين في يوم واحد».

وهي تقف أمام ما يقارب الخمسة عشر سائحاً صينياً، مشيرة إلى حفرة معزولة عن الزوار بلوح من الزجاج. ويرقد في هذه الحفرة، عشرات من الهياكل العظمية الإنسانية، التي ما زالت مغلفة بالتربة التي سقط فيها المواطنون.

وتشير المرشدة، «أترون ذلك الهيكل العظمي هناك، تلك امرأة في متوسط العمر ورصاصة في جمجمتها. وهنا طفل قد تهشمت جمجمته».

يقع تذكار مذبحة نانجينغ في جنوب غرب المدينة، وهو قريب من الضفة الجنوبية من نهر يانغسي. وهو مبني على واحد من المواقع التي نفذ فيها الجنود اليابانيون، في عربدة من العنف، القتل لبعض ضحاياهم. ويعرف الموقع باسم حفرة عشرة آلاف جثة، والموقع لا يترك أي تفاصيل عن أعمال القتل. ويسود الصمت من حشد الزوار الصينيين.

www.ibtesama.com/vb

بعد خمسة عشر عاماً من انهيار الحكومة المركزية في الصين ووسط فوضى داخلية مستمرة، غزا اليابانيون منشوريا، أي شمال شرق الصين، في العام 1931، وصار هذا الغزو غزواً كاملاً في العام 1937، مع نزول القوات اليابانية في شنغهاي في ذلك الصيف. وكانت نانجينغ حينها العاصمة الصينية، ولذلك كانت المدينة جائزة خاصة للجنود اليابانيين، الذين شرعوا، حين وصلوها في كانون أول/ ديسمبر، في سبعة أسابيع من القتل، والتعذيب، والاغتصاب. وكان من الصعب إحصاء الضحايا، والعدد قد يكون أقل، ولكن الرقم الذي يحرق كالختم في أذهان كل الشعب الصيني هو 300.000 قتيل على أيدي اليابانيين. والرقم محفور بأرقام ضخمة في ساحة تذكار المذبحة.

والمتحف مزعج لي بشكل خاص، لأنني قبل تسعة شهور فقط، كنت قد زرت اليابان وقابلت عمدة طوكيو سيئ السمعة من الجناح اليميني، شينتارو إشيهارا، الذي أنكر مباشرة في وجهي أن تكون مذبحة نانجينغ قد حدثت في أي زمان.

وبعد الحفرة يأتي معرض يحتوي على صور القوات اليابانية وهي تدفن الضحايا الصينيين أحياء وتستخدم السجناء الصينيين لممارسة التدريب على الطعن بالحربة.

كان هناك رجل في الثلاثين تقريباً يتلكأ في مشيته خلف المجموعة التي تجري قيادتها عبر المعرض. وهو يلبس جاكيتاً، برغم الحر، ويضع نظارات كبيرة، ويقف قريباً من الصور، ينظر بنظرة جانبية قليلاً، ويبدو أنه يبحث تفاصيل كل صورة منها.

وأسأله، «ماذا تظن باليابانيين الآن؟»

وقد يكون الرجل قد تأثر بالمعرض، ولكنه عملي ذرائعي. ويتوقف، ثم يهز كتفيه، ويقول: «طبعاً يجب ألا ننسى الماضي، ولكن من المستحيل أن نتجاهل اليابانيين في هذا العالم المعولم».

«ولكن هل لك أصدقاء يابانيون؟ أتستطيع أن يكون لك أصدقاء يابانيون؟»

ويقول ببطء، «أستطيع أن أكون صديقاً مع ياباني إذا أقر بماضيه. فإذا لم يفعل، فسيكون ذلك صعباً». ويقول لي إن اسمه وو. وهو هنا في عمل من بكين واغتنم الفرصة لزيارة المتحف.

www.ibtesama.com/vb

جروح المذبحة ما زالت حية لم تندمل بالنسبة إلى الشعب الصيني لسببين. الأول، هو أن معظم الضحايا كانوا مدنيين. والثاني، هو أن الصينيين لا يعتقدون أن اليابانيين قد اعتذروا اعتذاراً كافياً عما فعلوه. واليابانيون في الحقيقة عبروا عن الأسف والندم عدة مرات، ولكنهم بالتأكيد لم يكونوا تائبين مثل الألمان بعد الحرب. وحقيقة أن رئيس الوزراء الياباني السابق جونيشيرو كوازومي وسياسيون كبار آخرون قد استمروا في زيارة مزار يوسوكوني في طوكيو، وهو مزار يحتفظ فيه بعدد من مجرمي الحرب من الطبقة أ من الحرب العالمية الثانية، هي حقيقة تجعل الصينيين غاضبين إلى حدود الإصابة بأعراض السكتة. وهم يسألون»، ماذا لو أن القادة الألمان قدموا احتراماتهم على ضريح هتلر؟»

وليس مصادفة، مع ذلك، أن التصاعد في عاطفة معاداة اليابان في الصين تطابقت مع انحدار الشيوعية بوصفها إيديولوجية. إن قوة الربط الإيديولوجي التي أمسكت بالشعب الصيني معاً تحت ماو قد اختفت، وصارت شرعية الحزب الشيوعي شرعية اقتصادية إلى حد كبير. والآن، توفر القومية، وخصوصاً القومية المعادية لليابانيين معاداة ضارة، رابطاً آخر بين الشعب الصيني، وتوفر شرعية جديدة للحكومة، التي تعرض نفسها بوصفها بطل القومية الصينية.

الحزب الشيوعي جيد جداً في ضبط الذاكرة الصينية الرسمية، فهو يشدد على جرائم اليابانيين ضد الشعب الصيني ويقلل من جرائمه الخاصة هو ضد شعبه الخاص. إنه لا يسمح قط بالمظاهرات في الشوارع على قضايا أخرى، ولكنه سمح بالاحتجاجات في ربيع العام 2005 في معارضة لنشر كتاب مدرسي ياباني يقول عنه الصينيون إنه يخفي تاريخ الحرب. والسماح بالغضب على اليابان طريقة مفيدة لتوجيه الإحباط حول القضايا المحلية بعيداً عن الحزب نفسه ونحو عدو خارجي.

ويقول، وهو يقف أمام صورة رهيبة بشكل خاص، «هذا هو السبب الذي يجب من أجله أن تصير الصين قوية، لكيلا يحدث هذا قط مرة أخرى».

حين ترى المعرض، فإنك تستطيع أن تفهم الوسواس المستحوذ على الصينيين في أن يصيروا أقوياء. وتستطيع أيضاً أن تفهم لماذا يشارك كثيرون الحزب الشيوعي.

www.ibtesama.com/vb

هناك جبل من المشكلات في الصين الحديثة، والعديد منها سبّبه الحزب الشيوعي نفسه. ولكن بعد كل المذلة، فإن من الواضح أن الحزب، مع كل أخطائه، أكسب الصين احتراماً أكبر بكثير في العالم.

والحوار حول اليابان هو حوار حول المستقبل بقدر ما هو حوار حول الماضي. آسيا لم تمتلك في أي زمان صيناً قوية ويابانا قوية. واليابانيون يتحدثون عن صيرورتهم الآن بلداً «عادياً»، وهم يعدلون دستورهم المسالم الذي وضع بعد الحرب للسماح لهم بقوات عسكرية عاملة تستطيع أن تلعب دوراً أنشط في مهام قوات حفظ السلام الدولية. وحافزهم الرئيسي هو قلقهم طويل الأمد من صعود الصين. والصين، من جانبها، تصر على أن صعودها سيكون سلمياً، ولكنها قلقة على نحو متساو من عودة الروح العسكرية في أرض الشمس المشرقة.

وأقول لو، «بعض الناس في آسيا، وفي الغرب، خائفون من أن الصين يمكن أن تصير مثل اليابان في الثلاثينيات من 1930. وأنت تعرف، أن الصين بعد التصنيع، ومع كل هذا النمو للقومية، والحاجة إلى النفط والموارد الأخرى، يمكن أن تغزو جيرانها مثلما فعلت اليابان تماماً».

ويقول «و» بهدوء، وهو يردد صدى كلمات كل شخص صيني سبق لي في أي زمان أن تحادثت معه في هذه المسألة: «ذلك ليس ممكناً. الشعب الصيني لا يستطيع أن يفعل هذا. الطبع الصيني مختلف اختلافاً كاملاً عن الطبع الياباني. إنهم محاربون، ساموراي. نحن نحب الرحمة. نحن نحب السلام. وإلى جانب ذلك، نحن نعرف ماذا يعني أن تكون محتلاً وأن تُقتَل».

أشكر «و» على المحادثة معي، وأنتقل ببطء نحو المخرج، متوقفاً لأنظر إلى المزيد من الصور في طريقي إلى الخروج. إنها كلها رهيبة بالنسبة إلى الكلمات، ولكنها، بالإضافة إلى أنها تقول الكثير عن اليابان، تقول أيضاً بعض الشيء عن الصين، وخصوصاً في النبرة التي يجلّيها المتحف ويوصلها. إنها نبرة تسمعها كثيراً في الصين، حين يناقش التاريخ أو يناقش دور البلاد في العالم، وهي نبرة الضحية.

www.ibtesama.com/vb

الصين كانت هي الضحية، لا شك في ذلك، وكانت الضحية لمدة طويلة جداً. والقوى الغربية واليابان مذنبون لأنهم متهمون بالعدوان العسكري المزعج. ولكن الصين الآن تتحول إلى قوة أعظم. فهي اقتصادياً، ودبلوماسياً، ودولياً على حافة العظمة. ومع ذلك فهي مازالت تميل إلى التفكير والتحدث مثل ضحية.

أنا لا أعرف ما الذي سيغير ذلك. ماذا يلزم لتغيير هويتكم النفسية بوصفكم أمة، في الوقت الذي كنتم فيه لمدة طويلة جداً أمة خاسرة ثم فجأة تصير أمة رابحة؟ إنه مثل أن تكون مشجعاً متحمساً لفريق بوسطون رد سوكس لكرة القاعدة (البيسبول) حين يربح رد سوكس أخيراً بطولة دوري الأبطال في سلسلة العالم*.

أعود إلى فندقي، وألبس بنطالي القصير وأحذية الجري، وأتوجه صاعداً في التلة نحو ضريح سون يات سن. وهي تلة شديدة الانحدار، وامتحان حقيقي لنظام لياقتي الجديد. وأتمايل في كل الطريق صاعداً من دون توقف، حتى وصلت إلى التوقف خارج المدخل المؤدي إلى الضريح. وتجتمع مجموعة من السياح الصينيين، الذين لم يسبق لهم بوضوح أن رأوا أجنبياً وهو يزفر أنفاسه في الوقت الحقيقي، ليحدقوا بي، وأنا أنحني ويداي على ركبتي.

في حالتي المتعرقة، أقرر ألا أدخل، لأتجول حول المكان، موفراً الدخول إلى اليوم التالي. فأنت تستطيع أن تزور ضريح سون في قمة سلسلة رائعة من الدرجات الحجرية البيضاء اللامعة، المحاطة ببعض الحدائق الجميلة نوعاً ما. وهناك معارض ولوحات تاريخية تناقش ثورة 1912 ومثُلها العليا، ولكن هناك القليل عن إخفاقاتها، وهو ما يبدو حذفاً خطيراً نوعاً ما.

بعد مائة عام تقريباً، ما من أحد قد تعلم دروس ثورة 1912 على ما يبدو (أو، بالنسبة إلى تلك المسألة، دروس ألفي سنةٍ قبلها أو دروس مآسي القرن العشرين التي تبعتها)، أي: أن دولة الحزب الواحد الفاسدة لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، وأنك إذا

---

* تأسس فريق بوسطون رد سوكس للعبة القاعدة في العام 1901، واستمر في الازدهار حتى العام 1918، ثم استمر في الخسارة طوال 86 عاماً حتى كسر ذلك الإخفاق في العام 2004. وهي أطول مدة معروفة في تاريخ لعبة القاعدة أو البيسبول. (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

لم تكن تريد الثورة والانهيار التالي لها، فإن من الأفضل لك أن تبدأ بالتخطيط لبعض التحول السياسي المناسب. وأن الصين الحديثة اليوم ترجع فيها أصداء من الحالة التي كانت في الصين منذ مائة سنة.

وأستدير وأتجه راجعاً إلى الفندق، تاركاً ساقي تدرجان بحرية نزولاً من التلة في الحر، مرجِعاً موجات المجموعات المقهقهة من السياح الصينيين وهم يكافحون صاعدين في التلة. وركضت عابراً إلى جانب ضريح أول إمبراطور من أسرة مينغ (وهو الرجل الذي لم يحاول قط بالتأكيد تأسيس جمهورية)، ثم عبرت مدخل حدائق نانجينغ النباتية. الوقت متأخر بعد العصر، وفي الوقت الذي أدور فيه راجعاً نحو الفندق، أرى في أثناء ذلك بوابة حديدية صغيرة في ظلال جدار المدينة القديمة تقريباً، وأرى لافتة كبيرة إلى جانبه. ولا أتوقف تقريباً، ولكن شيئاً ما حول المكان يبدو غير عادي. ومن البوابة يلتف ممر حول طرف الحديقة مع وجود درابزين يمر إلى جانبه. وقد زُرِعت إلى جانب الممر كل أنواع الأشجار والشجيرات والزهور، بطريقة يستطيع معها شخص أعمى أن يمشي، ممسكاً بالدرابزين، ويشعر بالأوراق والأغصان والبراعم في كل منها. وتقول اللافتة مشجرة العميان.

وأقف، وما زلت ألهث منقطع النفس، أتصبب عرقاً ومتعجباً من مثل هذا التصور الجميل، في الصين، من بين كل الأماكن، التي مازال الناس العجزة يعدون في الغالب أناساً ناقصي الصفات وفائضين عن الحاجة. لم أر أي شيء مثل هذا أبداً، ولا في الولايات المتحدة أو أوروبة أيضاً، ومع ذلك فهنا، حمل أحدهم الجهد والتكلفة ليزرع هذه الحديقة الجميلة، المعانقة للأشجار، المخفية بعيداً على حافة مدينة صينية صاخبة، ومنشغلة، وتقوم بالتحديث، إنها جزيرةُ «توقَّفْ واسترحْ» في بحر «هشِّم واخطف».

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

5
«شرارة واحدة تستطيع أن تشعل النار بالمروج»

ثلاثة سائقي سيارات أجرة يقفون وهم يدخنون خارج فندقي وينتظرون الذهاب مع مسافر يدفع الأجرة.

وأقول للأول، «أريد أن أذهب إلى الغرب إلى منطقة آنهوي».

«آنهوي؟» وتنزل الكلمة من لسانه إلى المشى الجانبي، وقد أثقلها احتقار حضري طوال خمسة آلاف سنة.

«نعم، آنهوي».

وهو يكرر الاسم، ثم يستنشق ليدخل النفَس بشكل مسموع من خلال أسنانه، وهو نوع الصوت الذي تتبعه رؤية الدولار ورؤية عدد كبير.

«أين في آنهوي؟»

«هفّي».

ويأخذ الأمر بجدية أقل. عاصمة المنطقة حضرية على الأقل.

«ثماني مئة رينمينبي». مائة دولار تقريباً.

«غال جداً» التعبير المكرور من المسافر الأجنبي.

والسائق التالي في الصف يقول السعر نفسه، وكذلك يفعل السائق الذي بعده، وهكذا أقرر أن أتجاوز الاتحاد الصغير للرجال الثلاثة وأؤشر لأوقف سيارة أجرة من الشارع. كان مستعداً أن يقوم بالرحلة مقابل خمسمائة. أرخص، ولكن هناك شرطاً واحداً. صديقه يجب أن يأتي معه، وفي معظم البلدان، ذلك علم أحمر فوري للمسافر، إشارة تحذير، ولذلك سألته عن السبب.

www.ibtesama.com/vb

«لأنها خطرة جداً».

«ولكن لا يوجد قطاع طرق على الطريق. الصين آمنة بشكل كامل!» ويشرح، «أنا لست قلقاً من قطاع الطرق. أنا قلق من الشرطة».

«الشرطة؟»

«نعم. إنهم شريرون. وهم يوقفون أي سيارة من خارج الولاية، ويكون من الأسلم فقط إذا كان يوجد اثنان في السيارة».

ويبدو هذا مقبولاً بشكل غامض، وهكذا، فأنا أوافق، وقد أتعبني التجول والوقوف. وبعد أن انعقدت الصفقة الآن، ننطلق في شوارع نانجينغ الجميلة، المحفوفة على جانبيها بالأشجار، ونسوق السيارة لنأخذ صديقه، ونتوجه نحو نهر يانغسي.

كان الوقت في الصباح البكر. والشمس المشرقة الصاعدة تعانق نانجينغ في حرها وضوئها، وهي تنظر إلى كل العالم وكأن ملكيته تعود إلى الصين وليس إلى عدوها القاتل عبر البحر إلى الشرق. الصباح هو أفضل وقت في الصين، قبل أن تكون كل طبقات المستحيل قد كومت نفسها الواحدة على الأخرى. كل شيء يبدو ممكناً وشمس الصيف الحارة تشرق وتصعد فوق مدينة صينية حديثة.

الطريق 312 يغادر نانجينغ عبر جسر نهر يانغسي الضخم. وكان الجسر قد اكتمل في العام 1968، ومكن القطارات (والسيارات إن كان قد وجد أي منها) أن تسافر في خط مستقيم بين بكين وشنغهاي لأول مرة. والمستوى المنخفض، الذي يحمل السكة الحديدية، كانت دائماً أكثر انشغالاً من الطابق العلوي الذي يحمل السيارات. أما الآن فقد انعكس ذلك، وهناك عنق زجاجة ونحن ننتظر لنصل فوق الجسر.

نعبر نهر يانغسي المنساب العَكِر، الذي انحدر بعيداً أكثر من ألفين وسبع مئة ميل من هضبة التيبت. وضد مجرى النهر أقيم سد على نهر يانغسي من خلال أضخم مشروع في العالم لتوليد الكهرباء، ولكن جريان النهر هنا يبدو خالداً، لا يتغير، يعبر إطاراً فإطار، في حركة بطيئة تقريباً، على بعد مئات الأقدام تحت الجسر المتصاعد. وفي المقابل، يبدو النشاط على الأرض متحركاً في اتجاه سريع إلى الأمام.

www.ibtesama.com/vb

ويشرح سائقي، مشيراً إلى موقع البناء الضخم على الضفة الشمالية، «العقارات في جنوب النهر غالية جداً، والجميع يشتري الآن شققاً في شمال النهر».

وينقشع الضباب الدخاني الصناعي انقشاعاً كاملاً حين تغادر نانجينغ خلفك. ويبدأ الهواء بإظهار رائحة مختلفة، إنها مزيج من رائحة السماد العضوي ودخان الخشب. السماء أصفى زرقة، والأوراق أشد خضرة. وفجأة هذه هي الصين الريفية، وبالنسبة إلى الزائر، تكون ألوانها وروائحها وإيقاعاتها مهدئة بعد الفوضى المنظمة للمدن الساحلية ولضواحيها.

ويسير الطريق 312 تماماً جنوب خط غير مرئي يقطع عرضياً عبر الصين الشرقية والوسطى. ويسير الخط تقريباً على طول خط العرض الثالث والثلاثين ويقسم البلاد إلى منطقتين جغرافيتين مختلفتين جداً: مناطق شمال الصين التي تزرع القمح والدُّخن ومناطق الجنوب الرطبة التي تزرع الرز. والمنطقتان مختلفتان اختلافاً لافتاً للانتباه من حيث سقوط المطر، ودرجة الحرارة، والتربة، واستخدام الأرض. ونفس الطريق ينقسم حين يدخل مقاطعة آنهوي، مثل نهر يتدفق في عكس مجراه ضد التيار ليعود إلى روافده. والطريق 312 اللامع الجديد، بمساراته الأربعة قد اجتذب معظم المرور بعيداً عن الطريق القديم، والطريق 312 القديم، وهو يبعد ميلاً واحداً إلى الجنوب، طريق ضيق وأخدود حفرته السيارات، بُني لعصر أسبق، يبدو مرتاحاً لأن كل الشاحنات المتوجهة إلى الغرب هي الآن تسلك الطريق السريع ويجب على الطريق القديم أن يعالج المرور المحلي فقط.

والطريقان من عدة وجوه رمزان للصينَين اللتين تبرزان في كل أنحاء البلاد. فالطريق السريع الجديد، الذي يشق مساره عبر الحقول الخضراء من دون أن يتعارض معها في أي وجه، هو الطريق الذي تريد الحكومة من كل واحد أن يراه ويستخدمه ويتعجب منه. والطريق القديم، وهو الطريق المرتبط ارتباطاً حميمياً مع حياة الفلاحين، هو الطريق الذي يقص القصة الحقيقية للصين الريفية، وهي قصة مختلفة جداً عن التمويه الباهر للبصر في شنغهاي ونانجينغ.

www.ibtesama.com/vb

آنهوي هي ما يسميه الصينيون «مقاطعة زراعية كبيرة،» وهي عادة مجرد طريقة مؤدبة عن قولهم إن المكان فقير جداً. وكانت قد سميت أبلاشيا* الصين.

وبعد الانعطاف مباشرة إلى السير على الطريق 312 القديم، نمر على رجل يركب دراجة عادية مع وضع علم أحمر طويل مربوط إلى مقعده، ويرفرف في الهواء وهو يركب، مع وجود لافتة صفراء كبيرة مربوطة إلى دولابه الخلفي. وأطلب من سائقي في سيارة الأجرة أن يتوقف، وأقفز إلى خارج السيارة للتحدث مع الرجل. ويخبرني الرجل أن اسمه هووانغ يونغكانغ. والعنوان الموجود على لافتته الصفراء الكبيرة تعني: رحلة عبر الصين ضد الفساد. ويقول انه استثمر مائة ألف دولار أمريكي في فندق في جنوب الصين ولكنه خدع في صفقة من طرف مسؤولين حكوميين فاسدين. والفندق لم يبن قط. ويقول، ومع عدم وجود طريقة لاستعادة نقوده، لا يوجد أي شيء يستطيع أن يفعله إلا الاحتجاج بهذه الطريقة. وانغ يسافر على الدراجة من نفس الساحل الجنوبي للصين إلى بكين، وتصادف أن مسارينا تقاطعا. ويقول إن الناس يدعمونه في أي مكان يذهب إليه وغالباً ما يوقفونه ليقدموا له التشجيع.

وهو يقول، «كل أسرة مثل غيرها. إنها تنطلق انطلاقة جيدة ولكنها بعدئذٍ تصير أسرة فاسدة. ويعاني منها الجميع. وذلك هو السبب الذي نحتاج من أجله إلى الإصلاح السياسي».

«وإلاّ؟» قلتها وأنا أرفع حاجبي، مندهشاً من صراحته.

«وإلاّ، فإن الحزب والبلاد سوف ينهاران في عشر سنوات تقريباً». قالها وهو يهز إصبعه جيئة وذهاباً نحوي ليشدد على نقطته التي أبداها.

ويقول، «في الغرب، كما تعرف، يمتلك الناس معياراً أخلاقياً موجوداً في داخلهم. إنه مبني فيهم. الشعب الصيني لا يملك ذلك المعيار الأخلاقي داخله. فإذا لم يكن يوجد أي شيء خارجي يوقفهم، فهم يفعلون تماماً ما يريدونه لأنفسهم، بصرف النظر عن الصواب والخطأ».

---

* منطقة في الولايات المتحدة اشتهرت بالزراعة ، والتعدين ، والأخشاب، ولكنها فقيرة وبقيت معزولة حتى العام 1964 حين شكل أحد رؤساء الولايات المتحدة هيئة خاصة لتطوير الولايات الواقعة في أبلاشيا.(المترجم).

www.ibtesama.com/vb

هذا شيء يشعر به الأجانب في العالم في جو الغرب النائي للصين في زمن الازدهار، على الرغم من أنهم حريصون على التأكيد لمن يقولون ما يشعرون به. ونقف ونتبادل أطراف الحديث لمدة أطول. ثم يركب وانغ دراجته، وأركب أنا في السيارة، ونتوجه كلانا نازلين في الطريق.

وانغ يلعب دوراً معيناً في التاريخ الصيني. فعلى مر العصور، كان هناك أناس أمناء، لم يكونوا يرغبون في اتباع طرق الفساد التي تنحدر إليها كل أسرة في نهاية المطاف. إنهم يحاولون الوقوف ضد الفساد، وهم حتماً يخسرون. إنهم لا يغيرون ثقافة الصين السياسية، هم ينسحقون بها. إن إحدى العلامات في كل التاريخ الصيني على أن نهاية أسرة ما قادمة، أو أن ثورة مختمرة وشيكة، كانت دائماً وجود المسؤولين الأمناء أو المواطنين الذين يؤدون احتجاجات شجاعة ولكنها بلا جدوى ضد الدولة. والعلامة الأخرى كانت دائماً هي الفلاحون الغِضاب.

في العام 1926، غادر فلاح غاضب اسمه ماو زيدونغ المدينة المركزية من ووهان وسافر راجعاً إلى مقاطعته الوطن من هونان، في جنوب آنهوي. وكان قد ولد لعائلة فلاحين غنية غنى متوسطاً في العام 1893، ماو (الذي كان اسمه سابقاً يهجأ ماو تسي تونغ) رأى محاولات الصين لإقامة حكومة جمهورية تصل إلى لا شيء وشهد انهيار البلاد بعد ثورة 1912. وأغضبته حالة الصين المستمرة بوصفها رجل آسيا الضعيف. ونظر ماو غرباً إلى روسيا، وفي العام 1921، صار واحداً من الأعضاء المؤسسين للحزب الشيوعي الصيني، ولكنه بعدئذٍ رأى الحزب يصارع ليكسب الدعم من شنغهاي ومن المدن الأخرى، وذلك في جزء منه بسبب وجود قلة من المواطنين الحضريين من البروليتاريا أو المسحوقين لحشدهم، وفي جزء آخر بسبب أن المصالح الصينية والأجنبية الراسخة لم تكن ترغب في أن ترى نشاط عامة الناس في شوارعهم وفي مصانعهم. وفي أثناء سفره في أنحاء هونان الريفية في مطلع العام 1927، رأي ماو الظروف البائسة الموروثة جيلاً بعد جيل من الفلاحين الصينيين، وأدت به إلى أن يعيد التفكير بشكل كامل بالكيفية التي يطلق فيها شرارة الثورة الشيوعية.

www.ibtesama.com/vb

وأدرك ماو أن الشيوعية سوف تعمل في الصين إذا هو أخذها إلى الفلاحين فقط. حين عاد من تلك الزيارة، كتب تقريراً تنبّئياً، صارت أجزاء منه أسطورة في تاريخ الشيوعية الصينية:

> في غضون وقت قصير، سوف يهب مئات الملايين في الصين الوسطى، والجنوبية والشمالية بالانفجار الغاضب لبركان. وما من قوة، مهما تكن قوية، تستطيع أن نكبحهم. وسوف يكسرون كل القيود التي تقيدهم ويندفعون نحو طريق التحرير.

أخذ ماو بالماركسية وكيّفها مع الواقع الحقيقي الصيني. كان هناك القليل من العمال، ولكن كان هناك الكثيرون من الفلاحين. كانوا مضطهدين من ملاك الأرض من الطبقات الحاكمة القديمة، وكانوا جياعاً ومضطهدين وناضجين للثورة. وكتب ماو في العام 1930: «شرارة واحدة تستطيع أن تشعل النار بالمروج».

لم تكن هي الماركسية الكلاسيكية من ثورة الحضر، ولكنها عملت ونجحت. فمن العام 1927 وإلى اليوم الذي وقف فيه في ميدان تيانانمين في العام 1949 وأعلن تأسيس الصين الشيوعية،كان كل شيء عن الفلاحين. وفي أثناء الثلاثينيات من 1930 والأربعينيات من 1940، وحين كان الشيوعيون يقاتلون الغزاة اليابانيين أيضاً، صار الفلاحون هم قاعدة الدعم للثورة.

بعد العام 1949، سارت ثورة ماو الريفية سيراً حسناً طوال بضع سنوات. أطيح بملاك الأرض، وسط ابتهاج عام. ولكن الأرض لم تُعط قط للفلاحين. والحزب الشيوعي، الذي كان يصر على أنه مثَّل الشعب، صار هو المالك الجديد للأرض، حاشداً الفلاحين في كوميونات.

بعدئذٍ، في أواخر الخمسينيات من 1950، أطلق ماو مخططه الأحمق لتصنيع الصين بسرعة البرق في الحركة المعروفة باسم القفزة العظيمة إلى الأمام. بضعة وثلاثون مليون نسمة (30 مليون إنسان!) يعتقد أنهم ماتوا ببساطة لأن كل واحد قد حُشد ليعمل في مشروعات البنية التحتية الضخمة وإنتاج الفولاذ وهكذا كان

www.ibtesama.com/vb

الفلاحون غير قادرين على جمع المحصول. ومعظم الفولاذ المنتج كان من نوعية سيئة إلى درجة كان معها غير قابل للاستعمال. ثم أطلق ماو، في العام 1966 الثورة الثقافية العظيمة للبروليتاريا، وفيها شجع هو الشباب ليثوروا ويهاجموا كبار السن، والأجانب، والبورجوازية. والمزيد من ملايين الأنفس أزهقت، ولكن أهمية الفلاحين بوصفهم نماذج للولاء وللتضحية بالنفس حوفظ عليها طوال الثورة، وأُرسل ملايين المثقفين الحضريين إلى الريف ليتعلموا منه.

والآن، مع ذلك، بعد أكثر من ثلاثين سنة من إصلاحات السوق منذ موت ماو، في العام 1976، دارت دائرة التاريخ الصيني مرة ثانية. ففي التسعينيات من 1990، بدأ الحزب الشيوعي يتخلى عن المزارعين ويتحالف بنفسه مع الطبقات الجديدة التي تملك المال، ومع رجال الاستثمار ورجال الأعمال، مع النخبة الحضرية، التي يكون فيها المزارعون مجرد علف مهاجر لمصانعها. والآن، في القرن الجديد، بلغ الأمر بالناس حتى سائقي سيارات الأجرة الحضريين إلى النظر نظرة دونية إلى الريفيين مرة أخرى.

تعطي بلدة ووغانغ شعوراً بأنها فارغة، وكأن سكانها قد سمعوا ولابد بأننا قادمون فهربوا قبل بضع ساعات فقط، تاركين كل شيء في مكانه ولكن غير معتنى به. إنها بلدة نموذجية على طول الطريق القديم 312. إلى جانب الطريق يوجد لافتة باهتة مدهونة على جدار في العصر الماوي وتقرأ فيها: اخدموا الشعب. وفوق الشارع، توجد راية لامعة حمراء معلقة وعليها حروف بيضاء تقول: على وجه الدقة خذوا بالشدة والضبط الأطباء المزيفين. وتهب القمامة وتتحرك على طول الممشى الجانبي حين يتعثر الطريق داخلاً من خلال مركز البلدة وخارجاً منها مرة ثانية إلى الريف.

هنا، كما في الكثير من الصين الريفية، هناك بيوت جديدة مثلما هناك بيوت قديمة من طين ومن آجر، ومحلات الإقامة الجديدة مبنية في الغالب بتمويلات من أقارب يعملون في المدن. وهي عادة مبانٍ من دورين مستقبليّين قليلاً، وهي مغطاة دائماً تقريباً من القمة إلى القاعدة بالآجر الأبيض، وأحياناً بنوافذ ملونة تلويناً خفيفاً بالأزرق للتباهي، وهذه المساكن تقف ظاهرة مثل سفن فضائية وسط الألوان الخضراء

www.ibtesama.com/vb

والبنية من الصين الريفية، معلنة رفاهية وجدت حديثاً وانقطاعاً رمزياً جداً يفصلها عن العمارة الريفية التقليدية. وإيماءتها الوحيدة إلى التقاليد الصينية هي وجود تنّينين اثنين يواجه أحدهما الآخر على ذروة كل سطح، وحدبتا جسميهما الطويلين ترتفع وتنخفض مثل زوج من الوحوش الصينية من نوع وحش بحيرة لوخ نيس.

ويقول سائقي: «إذا لم تبن بيتاً جديداً، فلن تستطيع أن تجد زوجة».

وفيما وراء ووغانغ تماماً، أطلب من السائق أن يتوقف حين أرى رجلاً يربط جاموس ماء إلى محراث على بعد بضعة ياردات عن الطريق.

اسمه «وو فاليانغ» وعمره ستة وستون عاماً وعاش هنا كل حياته. ويبدو جسمه المشدود، والمجدول أصغر من عمره بعشرين عاماً، وهو تراث عقود في الحقل. ويظهر وجهه المتغضن، والمرهق أكبر من عمره بعشرين عاماً، وهو تراث كفاحه اليومي ليجعل الدخل والمصروفات يتقابلان. وأمشي معه صعوداً ونزولاً نتحادث وهو يحرث حقله. لا تهتم بالثورة الصناعية، فهذا المنظر لم يتغير منذ قرون. وقميص وو مهترىء ومشبّع بالعرق. ويداه سميكتان خشنتان. حين سيتوجب عليه أن يفكر بالتقاعد سيكون مازال عليه أن يخرج إلى أرضه البالغة نصف فدان ويزرع ويجمع محصول الفاصولياء الصفراء.

أشفق على الفلاحين الصينيين الفقراء الذين عانوا طويلاً. فهذه الثورة كانت حسب ما يفترض ثورتهم. وهم يشكلون غالبية السكان الصينيين (حوالي 750 مليون نسمة)، وهم الذين عانوا معاناة أطول، وعلى نحو أعمق من أي واحد. لقد وعدوا بالكثير جداً. وكان يفترض أن يكونوا محررين بفضل هذه التجربة الكبيرة في المساواة الاجتماعية التي دعيت الشيوعية، ولكنهم انتهوا عائدين إلى قاع الكوم. إنها خيانة من نسب مذهلة، مع الأخذ بالاعتبار جذور الثورة الشيوعية وأهدافها الأصلية، خيانة كان يمكن أن تنتهي بأن يكون لها عواقب ضخمة للحزب الشيوعي.

ويقول وو: «الحياة هنا فقيرة، فأنت لا تستطيع أن تكسب المعيشة من الأرض هذه الأيام. وكلا ولدَيّ وزوجتاهما ذهبوا إلى المدينة. وتُركت هنا لأعتني بأحفادي». واحد منهم في عمر يناهز السابعة، يقف بالقرب منا، يراقب جده وهو يتحدث إلي.

www.ibtesama.com/vb

وو فاليانغ يسوط جاموس الماء وهو يمشي به صعوداً ونزولاً في الحقل ويقول: إن هناك مسألتين هما أكثر ما يميز خيانة الفلاحين على أيدي الحزب: فرض الضرائب الساحقة واغتصاب الأرض بالقوة على أيدي المسؤولين الرسميين المحليين. فلأن الصين تتحضر بسرعة كبيرة تتوسع مدنها توسعاً سريعاً. ولكي تتوسع المدن، فإنها تحتاج إلى الأرض. الفلاحون يستأجرون الأرض على أساس طويل الأمد، ولكن كل الأرض الصينية من الناحية الرسمية تعود ملكيتها للدولة. وهكذا، فإن المسؤولين المحليين، بوصفهم ممثلين للدولة، يملكون القول النهائي فيما يحدث للأرض ضمن سلطتهم القضائية. وهم، الآن يأخذون الأرض بالقوة من الفلاحين ويبيعونها إلى المطوِّرين. ومسؤولو الحزب الذين جاؤوا إلى السلطة بوعد بإعطاء الفلاحين الأرض يأخذون الأرض من الفلاحين من أجل مكاسبهم الشخصية الخاصة بهم.

الحكومة المركزية معارضة للممارسة، وتعرف أنها تخلق الغضب نحو الحزب في صفوف الشعب الريفي. ولكن من دون أي زواجر وضوابط في النظام، يكون من الصعب عليهم أن يلجموا المسؤولين المحليين النهّابين. وليس من دون سبب سبق للصينيين أن قالوا: إن «التنين القوي ليس نداً للأفعى المحلية».وتطلق بكين من حين إلى آخر حملات لمحاولة إقناع المسؤولين ليكونوا أمناء، وهي تختار أحياناً المسؤولين الفاسدين على وجه الخصوص للمعاقبة، ولكن فيما عدا ذلك، يستمر اغتصاب الأرض في ضواحي كل مدينة في الصين تقريباً.

يُعرض على المزارعين تعويض عن أرضهم، ولكنه عادة تحت معدلات السوق إلى حدٍ بعيد، وإذا اعترضوا، فإن المسؤولين المحليين والمطوِرين يستأجرون سفاحين لضرب المزارعين وإرغامهم على ترك الأرض. في العام 2005، سلّم نشيط ريفي مراسلَ واشنطن بوست في بكين شريطاً مصوراً أظهر معركة عنيفة بين مجموعة من الفلاحين وعصابة من السفاحين.

وظهر الفيلم وكأنه معركة من ميدان المعارك في القرون الوسطى، وكلا الطرفين المتقاتلين يستخدم المجاريف، والمشاعيب، والأدوات الأخرى في المزرعة. لقد قاوم الفلاحون الأوامر المحلية لتسليم أرضهم إلى معمل للطاقة تملكه

www.ibtesama.com/vb

الدولة، واتهموا المعمل باستئجار عصابة السفاحين لإجلائهم عن الأرض. وقد قتل عدد من الناس في المعركة.

ولكن أكبر مشكلة من مشكلات وو فاليانغ، ليست اغتصاب الأرض بل الضرائب. ضريبة طرق، وضريبة سكان، وضريبة حبوب، وكل نوع من الضريبة، تطبق تطبيقاً جامداً وتنفذ بلا رحمة. إن إرخاء الضوابط المباشرة من بكين على المقاطعات منذ مطالع التسعينيات من 1990 عنى تقديم إعانات نقدية أقل من الحكومة المركزية إلى المسؤولين المحليين، وهكذا فإنهم إذا لم يستطيعوا تكملة دخلهم من خلال اغتصاب الأرض، فهم يفعلون ذلك بطريقة معروفة على مر الزمان وهي انتزاع المال من الفلاحين بفرض المزيد من الضرائب.

ومن حين إلى آخر هنا في آنهوي، ينتفض الفلاحون الذين لم يغادروا متوجهين إلى المدن. وإحصاءات الحزب الشيوعي الخاصة تقر أنه كان هناك أكثر من ثمانين ألف حادثة من الاضطراب الريفي في العام 2005، وهو أربعة أضعاف الرقم المروي قبل عشر سنوات. فمن قلة من الجدّات اللواتي طلبن دفع رواتب تقاعدهن إلى عشرات الآلاف من الناس المحتجين على بعض مشروعات الإنشاء الضخمة المقامة على أراضيهم، وهي احتجاجات تحدث في جميع أنحاء الصين. وفي العام 2006، نقص العدد لأول مرة في مدة طويلة، وهو ما يوحي بفرض تحديدات على المظاهرات الريفية، لأن قادة الحزب صاروا أكثر فأكثر قلقاً بخصوص الحالة المتفجرة المحتملة من السخط في الأرياف.

يأخذ وو فاليانغ استراحة من عمله، ويستند على محراثه، ويشير بإصبع وسخة نحو بلدة قريبة خلف ووغانغ. ويقول: إنه في العام الماضي سارت مجموعة من المزارعين إلى مكتب رئيس البلدية، مطالبين بتخفيض الضرائب المفروضة عليهم. والحكومة، وقد خافت من احتمال قيام الاضطراب، استخدمت المدخل المعتاد من الجزرة والعصا مع المحتجين. ترضخ لبعض الطلبات ولكنها تعتقل قادة الجماعة بعد أن تكون الحالة قد هدأت. ويقول: «مازال القادة في السجن».

www.ibtesama.com/vb

وأعلنت بكين، وهي واعية أن انتزاع ضرائب عالية كان قد بدأ يسبب مشكلات كبيرة في الأرياف، أعلنت مع الكثير من الجعجعة أن الضريبة الزراعية المكروهة، وهي المال الذي يدفعه الفلاحون إلى الحكومة المركزية بالاستناد إلى مساحة الأرض التي يشغلونها وعدد الأفراد في عائلاتهم، سوف تلغى. وكانت هذه السياسة توضع قيد التنفيذ قبل قليل حين كنت أقوم برحلتي على طول الطريق 312، وكان بعض الفلاحين الذين تحدثت إليهم مسرورين جداً بها. ويعترف وو فاليانغ أنه كان هناك تخفيض في الضرائب، ولكنه يمسح العرق عن وجهه المتغضن وصرف السياسية من ذهنه بنقرة من يده البنية الخشنة. ويقول: «تستطيع أن تخفض بعض الضرائب، ولكن سيكون هناك دائماً ضرائب أخرى لتدفعها. ليس هناك فترة تأجيل».

ويستمر القول بسخرية، «ونحن، الشعب، الأسماء المائة القديمة، لا نحصل على منافع من الحزب الشيوعي. إنه لا يأتي بشيء طيب، وإن أنت شكوت إلى المسؤولين المحليين، فسوف يحبسونك».

بالنسبة إلى الأمريكيين، فإن الكثير عن بلادهم ملخص في السطر الأول من الدستور: «نحن الشعب... نأمر فعلاً بهذا الدستور للولايات المتحدة الأمريكية ونؤسسه». «نحن الشعب» هي ما تدور حوله أمريكا. فعلى الرغم من كل مسألة الديمقراطية القذرة المخلة بالنظام، المشبعة بالمال، فإن السلطة في الولايات المتحدة موجودة في أيدي الشعب. ويمتلك الصينيون مكافئاً مباشراً من «نحن الشعب». وأنت تسمعها في كل يوم من حياتك في الصين. فهم يقولون: «نحن، الأسماء المائة القديمة». ولكن «نحن، الأسماء المائة القديمة» لا يتبعها بيانات فخمة من تمكين الفرد، إنها متبوعة عادة بالتفجع من العجز الذي يعبر عنه وو فاليانغ.

إن محنة أسرة وو هي محنة نموذجية للأسرة الصينية الريفية في مطلع القرن الحادي والعشرين. لقد كان هناك انهيار كامل تقريباً في الإعانات المالية الحكومية للخدمات الأساسية في الصين الريفية. ويقول وو: «إذا أردت أن تعلم أطفالك، وجب عليك أن تدفع، وإذا احتجت إلى الرعاية الصحية، وجب عليك أن تدفع أيضاً».

www.ibtesama.com/vb

والحزب الشيوعي الآن لا يعطي أي شيء تقريباً إلى الشعب الذي يزعم أنه يمثله. الحزب يأخذ فقط. من كلٍ حسب قدرته، وإلى كل... لاشيء. وفيما يتعلق بالرفاهية الاجتماعية، فمن الإنصاف أن نقول إن المجتمع الصيني اليوم أقل اشتراكية من أوروبة.

الإصلاحات الأولى في الثمانينيات من 1980، التي سمحت لوو فاليانغ أن يبيع بعضاً من محصوله في السوق المفتوح، رفعت الفقر قليلاً، ودام ذلك التحسن إلى التسعينيات من 1990. وأما في السنوات الحديثة، فهو يقول، إن الحالة صارت أسوأ بكثير لأن الأسعار التي تقدم لمحصوله قد ركدت في حين أن تكلفة المعيشة (وخصوصاً التعليم والرعاية الصحية الأساسية) ارتفعت كالصاروخ إلى عنان السماء. تقرير عمل ماو للعام 1927، الذي تنبأ فيه أن الفلاحين الصينيين سوف يهبون مثل إعصار، يبدأ في الظهور بأنه ذو علاقة هنا بشكل متزايد في الوقت الذي تدور فيه دائرة التاريخ الصيني مرة أخرى.

بالعودة إلى العام 1989، نجد أن أحد الأسباب التي جعلت مظاهرات ميدان تيانانمين تخفق في الانتشار إلى ما وراء المدن، وتخفق كذلك في إحداث مشكلات كبيرة للحزب الشيوعي، هو أن الفلاحين لم يكونوا غِضاباً. كانت الاحتجاجات حركة حضرية، حركة من المثقفين الذين التحق بهم بعض العمال. وكان الفلاحون قد برزوا من حطام الماوية الريفية في فقر يبعث على القنوط، وفي العام 1989 كانوا مازالوا يتقدمون إلى مستوى أعلى. والآن، هم غاضبون ثانية، مع ذلك، والحزب يعرف أن مئات الملايين من الفلاحين الغاضبين هي مشكلة أكثر جدية من بضعة آلاف من المثقفين الحضريين. وبتخفيض الحزب للضرائب وبمحاولته أن يكبح المسؤولين المحليين الفاسدين، يقوم الحزب بعمل كل شيء يستطيعه لمنع قيام نفس النوع من الثورة الريفية التي سبق للحزب أن قادها في الماضي.

هناك الآن مسألتان رئيسيتان للحزب الشيوعي في الريف. الأولى، هل يستطيع أن يحسن نصيب الفلاحين قبل أن يصيروا غاضبين جداً؟ بعد أن أدركت بكين إلى أي مدى قد تقدم غضبهم نحو الحزب الشيوعي، أعلنت بكين في العام 2006 الإصلاح

www.ibtesama.com/vb

الريفي هدفاً كبيراً لبرنامجها الاقتصادي الجديد لخمس سنوات. فبالإضافة إلى إلغاء الضريبة الزراعية المكروهة، وعَد الحزب بتعليم مجاني في المدارس العامة لأطفال الريف وبنظام تأمين ريفي جديد لمساعدة إعانة الرعاية الطبية لأولئك الذين هم أفقر من أن يدفعوا لرؤية طبيب.

والثانية، هل يستطيع الحزب أن يمنع المزارعين الغاضبين من تنظيم أنفسهم والارتباط مع عناصر أخرى محبطة من المجتمع، مثل المثقفين الحضر الساخطين المتمردين وعمال المصانع الذين فقدوا عملهم؟ فهذا النوع من التعاون قد بدأ من قبل. لقد سبق لي أن تحدثت إلى مثقفين ومحامين يتجهون خارجين إلى الأرياف ليقدموا النصيحة إلى المزارعين في قضايا منازعاتهم بشأن الأرض والضرائب، ولمحاولة استخدام القانون لكسب ملجأ للأسماء المائة القديمة. الدولة مازالت قوية، ولكن العشب في المروج جاف، جاف جداً.

وأسأل وو، وأنا أشير إلى حفيده: «ماذا سيفعل؟ أي نوع من الصين سيعيش فيها؟»

ويجيب وو: «سوف يذهب إلى المدينة، طبعاً، ليعمل وليكسب النقود».

«ولا يعود إلى هنا قط».

«هذا سيكون دائما وطن أجداده. ولكن لا يوجد مستقبل هنا».

بالنسبة إلى الصين الريفية، هناك وسيلة واحدة حقيقية فقط للتمكين، ومصدر واحد للأمل، وذلك هو الهرب. لديهم مخرج، على طول الطريق 312 إلى الساحل، أو بشكل متزايد إلى المدن في داخل البلاد التي تبدأ بالازدهار.

قبل عدة أيام، قرأت في نسختي من كتاب جون شتاينبك (عناقيد الغضب) التي صارت مهترئة لكثرة ما طويت صفحات الكتاب لتكون علامة على موضع معين، قرأت مقطعاً عن منطقة دست باول في الولايات المتحدة في الغرب الأوسط في الثلاثينيات من 1930: «نصف مليون نسمة يتحركون على البلاد، ومليون آخر، يتململون، جاهزين للتحرك ـ عشرة ملايين أخرى، يشعرون بأول توتر أعصاب مفرط». وتلك الأرقام أصغر أيضا من أن تصف مقاطعة آنهوي الوحيدة، وجيشها من المهاجرين

www.ibtesama.com/vb

المتحركين، أو الذين يعدون للحركة، إلى المدن. هناك سبع وعشرون مقاطعة و«مناطق حكم ذاتي» في الصين، ويجب عليك أن تضرب أرقام شتاينبك لأوكلاهوما بعشرين أو بثلاثين أو بخمسين ضعفاً لتصل إلى عدد الذي هم في حالة حركة في الصين. وبعض القضايا في آنهوي مختلفة، طبعاً، عن قضايا الثلاثينيات من 1930 في أوكلاهوما، ولكن ما مثله الطريق 66 بالنسبة إلى المهاجرين من أوكلاهوما سوف يظهر مألوفاً بقوة للفلاحين الذين يسكنون إلى جانب الطريق 312.

> 66 هو طريق لشعب في حالة هروب، لاجئيون من الغبار والملكية المنكمشة، من غزو الصحراء البطيء شمالاً، من الرياح المتلوية التي صاعدة من تكساس، من الفيضانات التي لا تجلب أي ثراء للأرض وتسرق ما يوجد فيها من الثراء القليل. من كل هذه الأشياء الناس في حالة هروب، وهم يأتون إلى الطريق 66 من الطرق الجانبية الرافدة، ومن مسارات العربات التي تجرها الخيول ومن طرق الريف المخددة.
> 66 هو الطريق الأم، وطريق الهروب.

وو فاليانغ كبير في السن. ولن يغادر قريته الوطن الآن قط. لقد رأى كل شيء: الحرب الأهلية والفوضى في الأربعينيات من 1940، حين كان فتى، والأمل بالإصلاح الشيوعي للأرض في الخمسينيات من 1950، واندفع مع الملكية المشتركة، وآمال الإصلاح الاقتصادي في الثمانينيات من 1980، التي دمرها الفساد والركود في مطلع القرن الحادي والعشرين. وحياته تعكس كالمرآة اضطرابات الصين في القرن العشرين، التي جاءت لتستقر بعد دورة ستين عاماً، من وجودها، في المكان الذي بدأت فيه. الناس لا يموتون من الجوع، وهذا ما لا يجب أن ينسى، ولكن الحياة فلاحاً صينياً هي كفاح مستمر.

حفيد وو الذي يبلغ السابعة من العمر يقف إلى جانبه، يعبث بقطعة حبل قصيرة. حياة جده كلها كانت قد قُررت له من طرف الحزب. والآن، في وسط العديد من مشكلات الصين الريفية، وربما لأول مرة في تاريخ الصين، يجري فك رباط أطفال الفلاح في الحقول في كل أنحاء الصين من أوطان أجدادهم، ومن سيطرة الدولة على

www.ibtesama.com/vb

أساس يومي، ويستطيعون أن يقرروا لأنفسهم ماذا يعملون حين يكبرون. الخيارات ليست كبيرة، والظروف الموجودة أساسية، ولكنها شيء مرموق. وربما يكون ذلك هو الثورة الحقيقية الجديدة، على الرغم من أنها ضئيلة وبطيئة.

وحين أتوجه عائداً إلى السيارة، يبدأ قرص ضخم أحمر من الشمس يغرب، جاراً اليوم خلفه. ويتبع الفتى على بُعد مسافة، وبعد أن أدخل في السيارة نسوق مبتعدين، وأنظر إلى الخارج من النافذة الخلفية. وو فاليانغ رجع إلى حراثة حقله. ولكن الصبي واقف، بلا حركة، يراقب ونحن نسوق مبتعدين على طول الطريق المغبر.

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

6
وادي السيليكون

يوجد تسع مدن في الولايات المتحدة يسكن في كل مدينة منها أكثر من مليون نسمة. أما في الصين فيوجد تسع وأربعون مدينة. يمكنك أن تكون مسافراً عبر الصين، وتصل إلى مدينة تساوي حجم مدينة هيوستن مرتين. وتظن وتقول في نفسك، أنا لم أسمع ولا مجرد سماع قط بهذا المكان. تلك هي الكيفية التي تظهر بها الأمور بالنسبة إلى الزوار الأجانب لمدينة هوفاي (وسكانها 4.2 من الملايين). كنت أسافر إلى الصين طوال عشرين سنة تقريباً وكنت قد زرت المدينة هنا لأول مرة في العام الفائت فقط. ولم يكن يوجد في الحقيقة أي سبب قط للمجيء. ولكن، ومثلما هو الحال في العديد جداً من المدن في الصين، تحاول الحكومة المحلية أن تغير ذلك. بعد قرون من فقر المناطق الداخلية، تفتح مدينة هوفاي، مثل كل المدن الصينية، للعالم

مثلما يتغلغل صباغ قَطَر على قطعة قماش، يتغلغل الآن مستوى معتدل من الثروة إلى المدن الداخلية من البلاد. وكان الطريق 312 جزءاً من التغيير، وهو يخفض تخفيضاً مؤثراً زمن الرحلة للناس وللسلع الذاهبة إلى نانجينغ، وشنغهاي، والساحل. ومما ساعد على هذه النتيجة أيضاً انتشار المصانع والشركات في المناطق الداخلية من البلاد بحثاً عن تكاليف أخفض، مثلما ساعدت أيضاً التحويلات المرسلة من المهاجرين العاملين بالقرب من الساحل. وهذه الثروة المتنامية بدورها تغير بعض أنماط هجرة المناطق الداخلية. وما زالت شنغهاي هي الأرض الموعودة بالنسبة إلى الفلاحين المهاجرين، ولكن هناك الآن المزيد من الأراضي الموعودة المصغرة في أنحاء البلاد، وفي عواصم المقاطعات مثل هوفاي، ومثل مدن أبعد في المناطق الداخلية، مثل شيان ولانجو، التي يسافر إليها الناس ليبحثوا عن عمل، وذلك ببساطة لأن العمل الآن متوافر. ولأول مرة، تقول بعض المصانع الموجودة على الساحل إنها تعاني من نقص العمال، وأحد الأسباب لذلك هو أن الناس الآن يستطيعون إيجاد أعمال لهم في الصين الداخلية (على الرغم من أنها أعمال لا يدفع لها أجور جيدة جداً).

www.ibtesama.com/vb

هذا الظهور للمدن الداخلية هو في الواقع إعادة ظهور. فالأرياف كانت دائماً فقيرة، ولكن المدن الصينية طوال قرون كانت أكثر ازدهاراً إلى حد بعيد من نظيراتها في أماكن أخرى في العالم.

والحكومة تعمل كل شيء لتشجيع هذه المعاودة للظهور. وفي السنوات الحديثة أدخلت الحكومة مفهوماً كونفوشيوسياً قديماً إلى دعاياتها. واللفظة التي تستخدمها هي «الرفاهية المعتدلة». ومن العسير أن نتخيل عشرات الآلاف من الحراس الحمر وهم يمشون عبر ميدان تيانانمين ويتغنون باسم «الرفاهية المعتدلة». ولكن ذلك هو لب الموضوع. فالشعارات الثورية القديمة ميتة. والشعارات الجديدة التي تروج للرفاهية المعتدلة موجودة في كل مكان، وهي علامة أخرى على تحول الحزب الشيوعي وانقلابه من المضطهد للبورجوازية إلى المروج الشديد الحماسة لها. ويقول الاقتصاديون يجب علينا أن لا نشير إلى ما يجري في الصين بوصفه «رأسمالية» وإن التعبير المناسب لها بشكل أفضل هو «الشركاتية اللينينية (Leninist corporation)». وهم يقولون، إنه ليس اقتصاد سوق حقيقي، ولكنه مازال موجهاً توجيهاً كبيراً جداً ومداراً من قبل الحزب الشيوعي، وعلى أي الطريقين، فالحزب في هوفاي، مثلما هو في كل أنحاء الصين، يعرف أن اقتصاد السوق، مهما يكن فيه الكثير من العمل الجاري، يستطيع أن يكون خاصاً للحزب. ولكن الحزب يعرف أيضاً أن تفاوتات اقتصاد السوق البازغ يحتمل أن تكون سقوطاً للحزب أيضاً.

إن موت مبدأ القيام بالرعاية الطبية، وبالتعليم، وبالتوظيف من المهد إلى اللحد قد خلق مجموعات ضخمة من الخاسرين ومن الرابحين كذلك في صين عصر الإصلاح، من الفلاحين الذين قابلتهم قبل قليل إلى العمال المفصولين عن العمل في مصانع مدن الصين. وهكذا فإلى جانب الحملة التي تروج «الرفاهية المعتدلة». أُطلقت حملة أخرى تروج لشيء يمكن ترجمته إلى «الانسجام». فاللافتات التي تشجع المواطنين على بناء مجتمع أكثر انسجاماً قد نشأت في كل أنحاء هوفاي ومعظم المدن الصينية الأخرى، وهي موجودة أحياناً على بعد ياردات فقط من اللافتات التي تروج «الرفاهية المعتدلة». وقد ضاع التناقض في أهدافهما على ما يظهر في دوامة التطور.

www.ibtesama.com/vb

تقع هوفاي على بعد 250 ميلاً فقط غرب شنغهاي، وهي أول مدينة من أي حجم تصل إليها حين تدخل قلب الأرض الداخلية الريفية من الصين. وفي الثلاثينيات من 1930 كان سكانها ثلاثين ألف نسمة فقط، ولكن في العام 1949 جعل منها الحزب الشيوعي عاصمة لمقاطعة آنهوي. وصارت المدينة جزءاً من المحاولة الشيوعية للتصنيع بسرعة عالية في أواخر الخمسينيات من 1950، وهو ما تركها بشعور صناعي ليس جذاباً جداً.

وفي العام 1986 اكتسبت هوفاي درجة من سوء السمعة بوصفها واحداً من أول مواقع اضطرابات الطلاب بعد ماو. والمظاهرات التي قامت في سبيل المزيد من التغيير السياسي سوف تنتشر إلى المدن الأخرى قبل أن يتم إيقافها (سلمياً) من قبل الحزب، ولكنها كانت بادرة تنذر باحتجاجات أكبر من سابقتها في العام 1989، التي قمعتها الحكومة قمعاً وحشياً مع فقد مئات الأرواح. وكانت مظاهرات العام 1986 قد لقيت التشجيع من نائب رئيس أعلى مقعد تعليمي، في جامعة العلوم والتقانة، وهو عالم فضاء فيزيائي وليبرالي سياسي معروف جداً اسمه فانغ ليجي. وبعد سحق احتجاجات تيانانمين بعد ثلاث سنوات، التجأ فانغ إلى سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في بكين واكتسب في نهاية المطاف حق اللجوء في أمريكا.

لا الإصلاح السياسي ولا الاحتجاج السياسي رجع على جدول الأعمال، في هوفاي أو في أي مكان آخر، منذ حولت الصين تركيزها إلى الاقتصاد. هوفاي كانت تقليدياً بعيدة جداً عن معدل سرعة التغيير فلم تستفد مجرد الفائدة من ازدهار التسعينيات من 1990. قال لي أحد معارفي وكان قد عاش هناك مدرساً في مطالع التسعينيات، «يا لها من مزبلة». وقال صديق آخر، كان قد سافر هناك ليتبنى ابنة صغيرة في 1996: « مكان رهيب».

الآن، تبدو الأشياء، مع ذلك، أفضل قليلاً. فبعد رحلة ثلاث ساعات من نانجينغ عبر بحر من الفقر الريفي، تشعر هناك وكأنك قد تسلقت لترقى على جزيرة أخرى من الرفاهية المعتدلة حين تصل إلى هوفاي. العملاق البريطاني يونيليفر قد نقل حديثاً كل قاعدته الصناعية إلى هنا من شنغهاي. وتحاول حكومة المدينة أن تقنع

www.ibtesama.com/vb

شركات أخرى لتفعل الشيء نفسه. وإيقاع الحياة يتزايد في سرعته. وهناك مواقع بناء في كل المكان، والمتاجر المليئة بكل أنواع السلع الاستهلاكية، وبعض المواطنين من ذوي اليسار بدؤوا بشراء سيارات. ومن دون شك فإن أكثرهم طموحاً هو حكومة هوفاي، وهي تقول إنها تحاول أن تحول هذه المدينة المجهولة في وسط الصين إلى مركز كبير لشركات التقانة العالية الكونية.

في اليوم التالي، قابلني في بهو الفندق الذي أنزل فيه انسيد وانغ والآنسة جو من مكتب الشؤون الخارجية من حكومة هوفاي.

من البداية حتى هوفاي، كنت أمر تحت الرادار بشكل كامل بقدر ما يكون المسؤولون الرسميون الصينيون معنيين. فأنا لم أنشد أحداً ولا أزعجني المسؤولون من أي نوع. ومن السهل جداً أن تفعل ذلك في الصين في هذه الأيام. انطلق فقط، وتحدث مع من تريد طوال الطريق. ولكن هنا في هوفاي، ولأنني آمل أن أزور، على كل حال، مشروعاً حكومياً عالياً في تعرضه تحت نظر الجمهور، فقد اتصلت بالحكومة مقدماً.

كل مقاطعة، وكل مدينة، وكل بلدة في الصين تملك ما يدعى مكتب الشؤون الخارجية. ويفترض بالزوار، وخصوصاً الصحافيون الأجانب، أن يتصلوا بالمكتب إذا زاروا المكان، على الرغم من أن قلة من الناس تفعل في أي وقت. وأنا أسافر في كل أنحاء الصين في كل الوقت وأتحادث مع كل أنواع الناس ونادراً ما اتصلت مع مكتب الشؤون الخارجية ما لم أكن أريد إجراء مقابلات رسمية. وليس هناك أي ضمان في أنك لن تقع في مشكلات إذا أمسكت بك الشرطة، ولكن قفص العصفور بالنسبة إلى المراسلين الأجانب صار أيضاً قفصاً كبيراً.

السيد وانغ، أو رئيس القسم وانغ مثلما أنا حريص على تسميته، ربما كان في أواخر الأربعينيات ولا يتحدث الإنجليزية. وهو رجل دمث، وليس مثل أنواع الناس الذين ينافقون، ويندفعون ممن يشيع وجودهم كثيراً في التسلسل الهرمي في الحكومة الصينية. والآنسة جو ربما تكون في أواخر العشرينيات من عمرها وهي تتحدث الإنجليزية بشكل جيد جداً. وكلاهما نموذج لمسؤولي مكتب العلاقات الخارجية في عاصمة مقاطعة، وهما حذران قليلاً فيما يقولان ولكنهما ودودان ومساعدان.

www.ibtesama.com/vb

وكلاهما يدعواني باحترام الصحافي تشي، باستخدام اسم العائلة الصيني الذي أعطاني إياه منذ زمن طويل أول أستاذ صيني لي. الأجانب يمتلكون هويات عديدة في الصين. فأنا أدعى باحترام لاو تشي (تشي العجوز) من قبل أصدقائي الصينيين الذين هم أصغر مني سناً. وأنا أدعى أيضاً بمحبة شياو تشي (الصغير تشي) من قبل الأصدقاء الصينيين الذين هم أكبر مني سناً. وأنا أدعى تشي ديشيونغ (الأخ تشي) من قبل أصدقائي داخل الكنيسة الصينية. والكلمة الصينية المقابلة «للصحفي تشي» تعني أنه «هو الشخص الذي يدون الأشياء واسمه هو تشي». وهو الاسم الشخصي الذي أحبه كثيراً جداً.

رئيس القسم وانغ كان قد أعد دليلاً للرحلة ليبين للزوار كيف ستتولى مدينته السيطرة على العالم تقانياً. فالتقانة هي الدين الجديد للصين الحضرية، ولم يبق ذلك موجوداً في المدن الساحلية فقط. وبعد أن أهدروا عقوداً من الزمان، بل قروناً تقريباً، وهم يتغلبون على الاعتراضات التقليدية ضد التقدم، وأهدروا بعدئذ ثلاثين عاما وهم يهتزون وفق لحن الثورة الماوية، بعد كل ذلك وضع الصينيون أخيراً أنفسهم في الموقع الذي يستطيعون منه أن يطوروا التقانة وأن يبدؤوا بالسيطرة على العالم. ففي كل مكان ترى لافتات تقول: أحيوا الأمة من خلال العلم والتعليم.

وسواء أكان السفر في الفضاء، أو برمجيات الحاسوب، أو البحث الطبي، فإن التقدم العلمي هو الوسواس الوطني. وكثيرون من العلماء الذين ولدوا في الصين عادوا من الخارج ليتابعوا بحوثهم، لا انطلاقاً من الوطنية فقط بل لأن تسهيلات البحث الصينية صارت في موقع أعظم تقدماً. وان إعدام الثورة الشيوعية للتفكير التقليدي أيضاً ناسب مدخلاً حراً بشكل مدهش لمجالات مثل البحث الطبي، فالعلماء يستطيعون أن يجربوا الأشياء التي تعد ممنوعة في الغرب بموجب القوانين الأخلاقية الصارمة. (وأنا لن أفاجأ إذا كان أول مخلوق بشري مستنسخ قد صار موجوداً من قبل الآن ومستتراً على طول ضفاف نهر يانغسي).

ومركز نشاط هوفاي، مع ذلك، ليس شيئاً مثيراً للجدل إلى حدٍ بعيد. فالمدينة تهدف ببساطة إلى أن تصير مركزاً لشركات التقانة العالية. ويصطحبني السيد وانغ

www.ibtesama.com/vb

والآنسة جو أولاً إلى أرض منطقة صناعية تقدم فيها حكومة المدينة حيزاً مجانياً للمكاتب لشركات التقانة العالية في المرحلة الأولى من عملياتها، ويوجد الآن من هذه الشركات العشرات. ونزور شركة تطور برنامجاً للتعرف على الصوت، وشركة أخرى تعمل على موضوع عقد المؤتمرات على الخط المباشر. والشركة الثانية كانت قد بدأت عملياتها في الولايات المتحدة على يد طالب متخرج صيني. وحين عاد إلى الصين، لم يختر شنغهاي، ولم يختر بكين، بل اختار هوفاي موقعاً لمقر قيادة الشركة الصينية. فالتكاليف أقل بكثير، ويوجد كثيرون من المهندسين المدربين تدريباً جيداً متخرجين من جامعة العلوم والتقانة ومن الجامعات الأخرى هنا، والإنترنت تعني أن من غير المهم أين يجلسون بالفعل. المبنى لامع وحديث، والمكتب المرتب من الداخل بشكل مفتوح بلا حواجز يعج بالهمهمات الهادئة مع الصوت اللطيف المنبعث من مهندسي البرمجيات الذين يملؤون الغرفة.

وأنا لست تقنياً إليكترونياً متخصصاً مهما اشتط بي الخيال. وفي الحقيقة، إن جل ما أستطيع أن أفعله هو أن أدخل على الخط المباشر في الإنترنت وأدقق في بريدي الإلكتروني. ولكني حين مشيت عبر ذلك المكتب في بلدة في الصين الوسطى لم يسمع بها أحد في الغرب، تأثرت بالشعور القلق الذي يعتريك أحياناً في الصين. وشعرت للحظة أني كنت أستطيع أن أرى المستقبل. هاهنا ثلاث مئة مهندس برمجيات، ويحتمل أن يكونوا كلهم على نفس الدرجة من الامتياز مثل نظرائهم في الولايات المتحدة، ولكنهم ربما كانوا يكسبون أقل منهم بعشرين أو ثلاثين مرة.

وهذا لا يعني أن نقول إن هوفاي سوف تحقق أحلامها فوراً. مازال لديها طريق طويل، طويل لتسيره، والتفكير بالتمني والهواء الحار، أو الكلام الفارغ المبالغ فيه، مرتبطان بمقادير متساوية بجهود الحكومة في تحويلها إلى مدينة بنغالور جديدة. ولكن الأشياء هنا تتحرك بخطى مدهشة، وطموحات بعض هذه الحكومات في الإقليمية لا تكاد تصدق.

ويقترح رئيس القسم وانغ أنني لم أر أي شيء حتى الآن، وبعد غداء قصير، نتجه خارجين إلى الجانب الغربي من هوفاي. على حافة المدينة، وعلى الطريق 312 تماماً

www.ibtesama.com/vb

وهو يدرج خارجاً من المدينة، يوجد تطور يعرف اسم مدينة العلم، وهي مثال آخر على الاستثمار الضخم من الدولة. فالموقع سوف يغطي في نهاية الأمر عشرين ميلاً مربعاً، ويأمل المخططون له أنه سيصير منطقة من أكبر مناطق التقانة العالية في الصين، ويجتذب الشركات الصينية والدولية. وجزء من مساحة المنطقة التي جرى تنظيفها بالجرافات لتفسح الطريق لأول المباني كانت سابقاً مزرعة تربية حيوانات تملكها الحكومة، ولكنها الآن سوف تحتضن شركات التقانة العالية، لا صغار الحيوانات. وجميعنا ضحكنا ضحكة جيدة من ذلك.

وهنا أحصل على عرض كامل باستخدام برنامج باور بوينت، مع وجود سلسلة باهرة من الخرائط، والأرقام، والخطط. ويقول مدير شاب بأسلوب مناسب اسمه جن روي: «نحن نريد هوفاي أن تصير وادي السيليكون في الصين، من خلال العمل المجتهد طوال الخمس عشرة سنة القادمة، ونحن نعتقد أننا نستطيع أن نفعل ذلك. والمشروع قد اجتذب من قبلُ بليوني دولار من استثمار الحكومة».

ولست مازحاً. هذا هو الرقم الذي يعطيه. وهو يعطيه بالدولارات الأمريكية. ولديه مزيد من الأرقام الكثيرة ـ الكثير جداً من الإحصاءات، وأفعال التفضيل، في الحقيقة، إلى الدرجة التي أجد معها صعوبة في حفظها.

«مرحلة البدء بالعمليات من 2004 إلى 2007». ويطفئ جن روي عرض الباور بوينت. «ومرحلة التنفيذ من 2007 إلى 2010. ومن 2011 إلى 2012 هي مرحلة التحسين والاستكمال».

ودونت التواريخ في دفتر ملاحظاتي وأنا أتعجب إلى أي مدى سيكون من المحتمل أن يتم الوفاء بها. ومن المؤكد أن الحكومة الصينية، حين تضع في ذهنها مشروعاً إنشائياً، فإنها تستطيع عموماً أن تنجزه مع توفير بعض الوقت. ولكن هناك أيضاً الكثير من البناء المبني على المطمح الإنساني في الصين، نوع من مدخل «ابنها وسوف يأتون» في مشروعات مثل هذا وفي الموقف نحو إنشاء نظام الأمة غير العادي من الطرق الجديدة. هناك الكثير من الدخان والمرايا ،أو أوهام التسويق. ابنِ مباني لامعة كافية، وارْجُ أنها سوف تعكس إحداها الأخرى وتجعل المكان يبدو مثل وادي السيليكون.

www.ibtesama.com/vb

هل ستملأ هوفاي مبانيها؟ أم هي قد أفرطت في البناء، مثل مدن أخرى أفرطت في بناء الأسواق ومباني المكاتب في أعلى البلاد وأدناها؟ هل ستريد الشركات الدولية أن تأتي هنا؟ هل مهارات مهندسي البرمجيات الصينية فعلياً على نفس مستوى الجودة لنظرائهم الأمريكيين؟ هل هناك إضافة إليها أكثر من مجرد آخر الأجهزة؟ ماذا عن البرمجيات في أذهان الناس؟ هل تستطيع أن تصير لاعباً في «اقتصاد المعرفة» إذا أنت حددت التعليم وتدفق المعرفة؟

أعتقد أن هذه الأسئلة مهمة لا بالنسبة إلى هوفاي فقط بل بالنسبة إلى كل البلاد. فإذا كانت الحكومة تستطيع أن تحسن حياة الناس الريفيين في أثناء الوقت الذي تدعم فيه النمو الاقتصادي للمدن الداخلية مثل هوفاي، فهي قد تكون قادرة على المحافظة على الصين في مَحركٍ صاعد. ولكن الأسئلة تلمس ما هو أكثر من النمو الاقتصادي. إنها حول الخلق والتجديد وحركة الفكر التي تغذيها، وهي ما لن تسمح به الصين في الوقت الحاضر. إنها تستطيع أن تبني ناطحات السحاب التي تحبها، ولكنها إذا أرادت أن تعبر من كونها قوة اقتصادية تنمو إلى كونها قوة عظيمة خلاقة، فسيكون عليها أن تسمح بشيء أكثر من مجرد إنشاء مبانٍ جديدة لامعة.

الجري الذي أقوم به قبل العشاء يأخذني إلى داخل مركز هوفاي تماماً، وهو مركز ممتع على نحو مدهش. وهناك نهر ضيق ينساب عبره، وبحيرات صغيرة وعدد من المتنزّهات الجذابة. وكما هي العادة فأنا الوحيد الذي أقوم بالتمرين. ربما يكون ذلك بسبب الحرارة فقط، ولكن بالنسبة إلى بلاد تصل بانتظام إلى مرتبة في صف الثلاثة الذين يأتون في قمة الرابحين للميداليات في الألعاب الأولمبية، كان يبدو هناك دائماً وجود نشاطات رياضية عفوية قليلة ثمينة تجري في الصين. ويقول المسؤولون عن الرياضة إنهم يأملون أن يسيطروا على العديد من التخصصات الأولمبية الأخرى في المستقبل. لقد أعلنوا، على سبيل المثال، أنهم يدفعون ليصيروا رابحي الميداليات الذهبية في ميدان هوكي النساء. ولا يخامرني شك في أنهم سوف يربحون الذهب في كل لعبة ميدان هوكي النساء من الآن حتى تأتي مملكة اليوم الآخر، ولكنني لم أقابل أي شخص صيني واحد يعرف مجرد معرفة ما هو هوكي الميدان. الألعاب الرياضية في

www.ibtesama.com/vb

الصين، مثل الرأسمالية، هي نشاطات تقودها الحكومة على نحو ملحوظ. في المتنزّه، جريت من جانب مجموعة من الجدّات يقمن بتنويعة من «هزي ردفك خطوتين» على وقع أصوات يبثها مسجل محمول للأقراص المدمجة، ولكن ذلك يلخص الحالة.

بالنسبة إلى العشاء، كنت قد خططت أن أجرب المطعم الدوار على سطح فندق هوليداي إن، ولكنني اكتشفت أن الفندق يضم أيضاً مطعماً هندياً. وكما يتوقع المرء بالتأكيد، هناك مدير هندي عند الباب والعديد من كبار الطهاة الهنود الذين يصنعون الخبز التنوري خلف نافذة زجاجية كبيرة في المطبخ. وألوِّح لهم، وهم يردون بابتسامة عريضة. كان المطعم نصف ممتلئ تقريباً، وحين كان المدير يوصلني إلى طاولة، أسأله عن مدى قبول صحن قطع الدجاج المبهر المطبوخ بصلصة الكاري عند مرتادي المطعم من الصين الوسطى.

«نعم، الشعب الصيني صار متعوداً على الطعام الهندي».

أدعوه ليجلس معي في أثناء انتظاري للطعام.

وأسأله: «ما رأيك بالصين؟»

ويبتسم ويقول: «إنها تتطور تطوراً سريعاً جداً».

«أسرع من الهند؟»

ويقول: «أوه نعم».

«ولكن هل تعتقد أنها تحسّن حياة الشعب هنا بأكثر مما تحسّن الحكومة الهندية حياة الهنود؟»

«حسناً، في الهند هناك ديمقراطية». يقول ذلك، وهو يضع إصبعه على النقطة المقصودة من سؤالي.

وأسأله: «ولكن هل ذلك يجعل كون المرء فلاحاً هندياً أفضل من أن يكون فلاحاً صينياً؟»

www.ibtesama.com/vb

ويبتسم ثانية «أنا أعتقد أن الديمقراطية مهمة».

وأضغط عليه: «ولكن هل الديمقراطية الهندية تساعد على رفع مستوى معيشة الشعب في مستوى قاع المجتمع؟»

ويقول بلهجة دفاعية: «نعم، أنا أعتقد ذلك»

وهو لا يريد في الواقع أن يدخل في النقاش، وهو شيء مخجل، لأن هذا النقاش هو الذين أريد فعلاً أن أناقشه، وخصوصاً هنا في هوفاي، المكان الذي يوضع فيه النموذج الذي تقوده الحكومة الصينية للعرض بشكل كبير جداً. الصين والهند كلاهما بلدان ضخمان، وسكان كل منهما أكثر من بليون نسمة، يحاولان انتشال عشرات الملايين من المزارعين من الفقر. هل النموذج الأكثر تنظيماً، والمدعوم من الحكومة، والذي يسير بمعدل نمو سريع جداً، نموذج صين الحزب الواحد، أفضل للبلاد النامية من نموذج الهند الديمقراطي الفوضوي قليلاً، نموذج دعه يعمل، وبمعدل نمو أبطأ؟

يبدو أن معظم الغربيين يصطفون إلى جانب الهند، وأنا أعتقد أن ذلك ببساطة بسبب تلك الكلمة «الديمقراطية». ومن المؤكد، أن الديمقراطية وفرت زواجر وضوابط في الهند منعت الحملات السياسية والاقتصادية المجنونة التي دمرت الصين في الخمسينيات من 1950 وفي الستينيات 1960. وتلك في حد ذاتها كانت كافية لكسب المناقشة لصالح الهند في بعض المناطق في أثناء تلك السنوات.

ولكنني أشعر وكأن كلمة ديمقراطية تقودنا إلى أن نعزو ميزات معينة إلى الهند هي غير موجودة بالضرورة. وبشكل مشابه، فإن كلمة ديكتاتورية تقودنا إلى أن نعزو أشياء رهيبة إلى الصين هي غير موجودة هناك بالضرورة. نحن نحكم بسبب الصور في أذهاننا وليس بسبب الحقيقة الواقعة على الأرض.

إذا كان وجود الديمقراطية في الهند عنى أنه كان يوجد هناك ديمقراطية حقيقية، مع كل الزواجر والضوابط، وتخفيض الفساد، وحرية الاختيار، وتقديم الخدمات الحاسمة، مثل التعليم والرعاية الصحية، فسيكون من المحتمل آنئذٍ أن الهند مازالت تكسب المناقشة. ولكن الهند، مثل الصين، فاسدة فساداً ضخماً، على الرغم من أن

www.ibtesama.com/vb

الفلاحين الهنود يستطيعون المساعدة في طرد أعلى القادة إلى خارج السلطة، ويبدو أن القادة الجدد الذين يدخلون في السلطة في كل مرة يخفقون عموماً في انتشال الملايين من الفقر.

هناك تحسينات مؤكدة في الحياة تذهب إلى ما بعد النظام السياسي، مثل الفرصة المتمثلة في أن طفلك سيعيش ليرى سن الرشد، واحتمال أن ابنتك سوف تحصل على التعليم، واحتمال أنك أنت نفسك تستطيع أن تجد عملاً لا يشمل الخوض حتى ركبتيك في حقول شتلات الرز طوال بقية عمرك. والإحصاءات الصينية غير موثوقة بشكل سيئ السمعة، ولكن في العديد من هذه المجالات، ولو مع السماح بنسبة مبالغة من 10 - 20 بالمائة، فإن الصين مازالت تسجل معدلات أفضل من الهند.

فأنت في الهند معرّض لاحتمال أكبر مرتين لفقد طفل قبل سن الخامسة من عمره. إذا كنت هندياً، فهناك فقط 60 بالمائة من الفرصة بأنك تستطيع أن تقرأ. إذا كنت صينياً، فالفرصة هي 93 بالمائة. إذا كانت المرأة بالغة في الهند، تنزل نسبتها إلى 45 بالمائة، في حين أن النسبة في الصين، وفقاً لإحصاءات الحكومة الصينية، 87 بالمائة للنساء البالغات اللاتي يستطعن القراءة. والدخل لكل فرد هو في الصين ضعف ما هو في الهند. والطول المتوقع للحياة في الهند أقل من الصين (ثلاث وستون سنة إلى سبعين). وتستمر القائمة.

في الصين في الأيام الأولى من الإصلاح في الثمانينيات من 1980، كان من عادة الناس أن يقولوا: «لتصير غنياً، ابن طريقاً أولاً»، والتوجيه، على الرغم من أنه تبسيط مفرط فج، يمتلك الكثير من الحقيقة فيه، مثلما أجد أنا ذلك على طول كل الطريق 312. إن البنية التحتية في الصين متقدمة عقوداً عن بنية الهند التحتية. في العام 2005، استثمرت الصين سبعة دولارات في البنية التحتية في مقابل كل دولار تصرفه الهند.

باختصار، قامت الحكومة الصينية حتى الآن، في بعض مجالات الحياة، وبشكل لا ينكر بتقديم الخدمات الأساسية والتموينات بطريقة أكثر اكتمالاً من الحكومة الهندية. (هامش واحد قصير، لا يكاد يكون له قيمة إلى جانب مناقشة الحياة أو

www.ibtesama.com/vb

الموت لوفيات الأطفال: ينطبق النموذج أيضاً على الألعاب الرياضية. برنامج الألعاب الرياضية الذي قادته حكومة الصين حقق ثلاثاً وستين ميدالية في أولمبياد أثينا، اثنتان وثلاثون منها ذهبية. والهند ربحت ميدالية واحدة في أثينا، وفضية في الرماية).

هناك الآن، مع ذلك، سؤالان كبيران للصين. الأول: هل كل ذلك ينهار؟ الفلاحون من أمثال وو فاليانغ، الذي كنت قد تحدثت معه في اليوم الفائت، يقولون إنه لكذلك، إن الأسماء القديمة المائة الآن يجب عليهم أن يدفعوا من أجل الرعاية الطبية والتعليم، وأن الحكومة قد أوقفت توفير الخدمات نفسها التي تمتدح نموذجها في التطور. والازدهار الريفي في الثمانينيات من 1980 والتسعينيات من 1990 قد انتهى، واليأس يزحف عائداً. وإحدى العلامات له ازدياد معدل الانتحار، وخصوصاً بين النساء الريفيات. الصين الآن لديها أعلى معدلات الانتحار النسائي في العالم، والانتحار هو السبب رقم واحد للموت في صفوف النساء في الأعمار بين الثامنة عشرة والرابعة والثلاثين.

والسؤال الثاني هو هذا: هل كلها تستحق ذلك؟ تكلفة حكومة تمتلك سلطة مطلقة لتدفع قدماً بسياساتها هي تكلفة هائلة. طبعاً، من المثير للإعجاب أن الحزب الشيوعي كان قادراً على تنفيذ برامج تطعيم واسعة وحملات تعليم، على الرغم من أنها قد يجعل إحصاءاتها تبدو أفضل مما هي عليه. ولكن الجانب الخلفي من الصورة هو أن الحكومة تستطيع أن تدفع قدماً بسياسات ليست بالضرورة في صالح الشعب الصيني العادي. وتستطيع مع ذلك أن تقرر كم من الأطفال يمكن لمواطنيها أن ينجبوا. وتستطيع أن تدمر أجزاء تاريخية من المدن القديمة من أجل إعادة التطوير. وتستطيع أن توافق على مشروعات مثل مشروع سد نهر يانغسي وتبنيه وهو الذي يستدعي إعادة إسكان أكثر من مليون نسمة. وبشكل أكثر إثارة للجدل، فالحكومة تستطيع أن تنهمك في حملة قتل لإخماد مجموعة روحية غير مؤذية نسبياً، مثل فالون كونغ. في معظم مجالات الحياة الصينية، هناك القليل من القيود على سلطة الدولة إذا هي أرادت أن تتدخل، وهكذا فكل شيء يتوقف على كون السياسات التي تريد الدولة أن تتابعها مفيدة للشعب أو غير مفيدة.

www.ibtesama.com/vb

في الهند، تكلفة بعض التقييد الموضوع على الحكومة هو معدل نمو أبطأ، وكثيرون من الهنود مستعدون، على ما يبدو، أن يسهموا في ذلك، إذا كان يعني أن من الممكن تجنب حكومات سياسية مجنونة مثل الثورة الثقافية. قد لا تكون الديمقراطية الهندية كاملة، ولكنها على الأقل تسمح بوجود اتحادات عمال مستقلة، وبعضها تملك الأسنان. والهند تملك أيضاً صحافة حرة، تستطيع أن تتصرف بصفة كلب حراسة على السلوك السيئ للدولة. والصحافة الآن في الصين، أكثر حرية في القضايا الاجتماعية والاقتصادية، ولكن الحكومة تستطيع أن تكممها بسهولة في أي قضية حساسة.

في النهاية، هناك، مع ذلك، اختلاف واحد حاسم بين الصين والهند، والمثال الكامل فيه مغطى بالزفت الأسود ويمتد شرقاً وغرباً من خلال هوفاي. الصين مكان متوحش للعيش إذا كنت في مستوى القاع من المجتمع، ولكن هناك مخرج. وهناك ما يساوي ذلك في الأهمية تماماً، وهو وجود إمكانية حقيقية للحصول عمل في الطرف الآخر. سكان الهند البالغ عددهم 1,1 من البلايين من الناس يلحقون بسرعة مع عدد سكان الصين البالغ 1,3 من البلايين من الناس، ولكن الهند تمتلك 10 ملايين وظيفة صناعية فقط، مقارنة مع 150 مليون وظيفة تقريباً في الصين. وهكذا فهناك ببساطة فرص أكبر في الصين لتحسين حياتك (وأنا لم أذكر أيضاً نظام الهند المحدد للطبقات ولو مجرد ذكر). إن قطاع الخدمة المتنامي في الهند، في تطوير البرمجيات، في مراكز الاتصالات ومراكز الخدمة، قطاع عظيم إذا كنت أنت من قبل من الطبقة الوسطى وتتكلم الإنجليزية. ولكن ماذا عن الإمكانات من أجل مئات من الملايين من الفلاحين الأميين؟ يبدو لي أن الهند تحاول أن تصل إلى الحداثة من دون المرور في الثورة الصناعية.

والآن، وتكلفة التصنيع ترتفع في الصين، فإننا قد بدأنا نرى بعض التصنيع يعيد التموضع في الهند. وقطاع البيع بالمفرق في البلد يبدأ بالعمل أيضاً، والهند في وسط تغيرات اقتصادية كبيرة أخرى. وهكذا فقد يحدث، في المستقبل القريب، أن يتوافر المزيد من الفرص للهروب من الفقر الريفي، وفي هذه الحالة فإن الميزان سيرجح لصالح الهند.

www.ibtesama.com/vb

وأنا في الحقيقة محبط من أن واحداً من الهنود الوحيدين في الصين الوسطى لا يريد أن يقوم بهذه المناقشة معي. وهكذا في النهاية، أكملت المناقشة مع نفسي على العشاء، واستنتجت أنني لا أريد أن أكون فلاحاً صينياً أو فلاحاً هندياً. ولكن إذا كان علي أن أفضل جانباً على آخر، فأنا أفضل، على الرغم من كل المشكلات الهائلة في الصين الريفية، اللحم الحلو الحامض على برياني الدجاج في أي يوم من الأسبوع.

www.ibtesama.com/vb

7
«النساء يرفعن نصف السماء»

الشرطي يسأل: «كم عمرك أيها الشاب؟»

ويجيب وانغ الصغير: «عشرون».

«دعني أرى رخصتك، رخصة السائق».

وخرجنا كلانا من السيارة، والشرطي ينظر إلي نظرة شك ويانغ الصغير يستند إلى الخلف ليجد وثائقه.

ويقول الضابط: «سيكون عليك أن تأتي إلى مركز الشرطة، ارجع إلى سيارتك واتبعني».

وينظر وانغ الصغير إلي، ولكننا ندرك أننا لا نملك خياراً.

على بعد مائة ميل إلى الغرب من هوفاي، صارت المسارات الأربعة من الطريق 312 مسارين حين يعبر الطريق إلى مقاطعة هونان ويتضاءل المرور. وهناك الكثير من حافلات الركاب للمسافات الطويلة والشاحنات الزرقاء على الطريق، زائداً سيارات النقل المغلقة الصغيرة (ميني فان) المستعملة في الأعمال التجارية المحلية التي تمر من حين إلى آخر مع بضع سيارات لامعة سوداء من نوع أودي آ4اس، وهي محفات الحمل الحديثة اليوم لمسؤولي الدولة. ولكن قلة من السيارات الشخصية موجودة. والمنظر الطبيعي على الأرض أخضر وسهل.

كان وانغ الصغير يحاول أن يوصلني إلى مدينة شينيانغ، وهي على بعد 250 ميلاً عن هوفاي، ويعود إلى هوفاي في يوم واحد، وهكذا فحين دخلنا هونان، وضع قدمه على الأرض، وأسرع، وفي الحال أعولت صافرة وظهرت خلفنا سيارة شرطة، وتومض لنا بأن نقف.

www.ibtesama.com/vb

وهو يلوم نفسه لكسر حدود السرعة. ويقول ونحن نتبع سيارة الشرطة على طول الطريق: «إن العبور إلى مقاطعة أخرى خطر دائماً. والشرطة يكمنون بانتظارك، وهم يعرفون أنهم يستطيعون أن يجدوا شيئاً ما خطأ في سيارتك ويغرموك».

وأشير إلى أنه كان يتخطى حد السرعة بشكل كبير تماماً، وهو يقر أنه فعل ولكنه يقول إنهم كانوا سيجدون شيئاً ما خطأ على أي حال. ويقول: «تلك هي الكيفية التي يستكملون بها راتبهم».

كان وانغ الصغير قلقاً جداً ونحن نقترب من مركز الشرطة. وأنا أخبره بألا يقلق، وأن يكون معبراً عن الندم للغاية، وأن يتركني أقوم بالكلام. لقد سبق لي أن اعتقلت عدة مرات في كل أنحاء الصين بسبب إرسال تقارير من دون إذن، والخط الأخير، أو النتيجة الرئيسية هو أن الشرطة قد يصرخون قليلاً، ولكنهم لن يؤذوا أجنبياً أو سائقه إذا كانا معاً. وهم هنا لا يعرفون أيضاً أنني صحفي.

حين وصلت إلى الصين مراسلاً، تخيلت نسيجاً كبيراً من المسؤولين، وأنهم جميعاً على اتصال أحدهم مع الآخر، فموظفو الجمارك في المطار الذين يدققون في حقائبك يتحدثون إلى موظفي الأمن العام الذين يراقبون هاتفك، والذين يتحدثون إلى المسؤولين المحليين في الأماكن التي تزورها. وفي الحقيقة، أن الأمن ليس قريباً من هذا التعقيد في أي مكان. فجهاز أمن الدولة الصيني غير مركزي جداً وغير مترابط تماماً. ويمكن أن يكون غير لطيف للأجنبي حين يريد ذلك ـ إذا أمسكوا بك وأنت تستقصي عن شيء ما حساس جداً ـ ولكن المسؤولين المحليين يختارون في الغالب، حينئذ أيضاً، ألا يرفعوا تقريراً عنك إلى مراتب أعلى في سلسلة القيادة الرسمية، وذلك خوفاً من أنهم سيظهرون سيئين لأنهم سمحوا لك أن تكون هناك في المقام الأول.

في مركز الشرطة، هناك مفاجأة أكبر لدى وصول الأجنبي بصندله المضحك وأقدامه الوسخة. ولا أستطيع أن أتخيل أنه كان يوجد الكثير من المرور هنا مؤخراً عبر هذا الطريق. ومن المؤكد أنه لا يكاد يظهر أي سبب للأجنبي ليأتي إلى هذا الجزء من الصين.

www.ibtesama.com/vb

ورئيس الشرطة، وهو الشرطي السيئ من المجموعة كما هو واضح، يتولى القضية من ضابطنا، قائلاً فوراً إنه قد يكون عليه أن يصادر الرخصة والسيارة معاً من سائقي الشاب. ووانغ الصغير يجلس قلقاً في الركن.

«تصادر السيارة؟» قلت ذلك متعجباً، ومحاولاً أن أوازن نبرة تقع في مكان ما بين قول من فضلك يا سيدي لا تفعل ذلك وقول أنا أجنبي فلا تفكر مجرد تفكير بأن تفعل ذلك.

ويبدأ بتدوين ما حدث في حين نجلس نحن ونراقب.

الشرطة الآخرون يريدون الحديث معي، وحين كان الرئيس يكتب، يسأل واحد منهم إن كنتُ أحب كرة السلة.

وأجيب، «نعم، أحبها»

ويسألني: «من هو لاعبك المفضل؟»

وأقول: «أوه، ياو مينغ، بالتأكيد».

ويقول الضابط: «إنه جيد، أليس كذلك؟ ونحن نحبه أيضاً».

وأقول: «إنه أفضل من أي من الأمريكيين». أقوله وأنا أدرك أن التملق قد يكون أسرع طريق للخروج من هذه الحفرة خاصة.

ويشترك زملاؤه، مع تحليلاتهم عن تغيرات رابطة كرة السلة الوطنية صعوداً وهبوطاً، ثم بعدئذٍ نغير إلى كرة القدم الأوروبية، وكيف يعمل نادي مانشيستر يونايتد، وكما هو الحال دائماً، فهم يريدون التحدث عن كابتن إنجلترا السابق ديفيد بيكهام، الذي يعرفون عنه جميعاً أنه متزوج من فيكتوريا، والمعروفة من ناحية أخرى باسم بُش من فرقة «فتيات البهارات».

ويخف المزاج قليلاً، ولذلك أشن اعتذاراً آخر إلى السيد الشرطي السيئ نيابة عن وانغ الصغير وأشرح كيف أن الأمر كان كله غلطة مني. فالأجانب يحصلون على كثير من هامش الحرية مع الشرطة الصينية. والناس الصينيون العاديون لا

www.ibtesama.com/vb

يحصلون على شيء. ويشير الشرطي السيئ مرة أخرى كم هي الإساءة خطيرة بل هو يفتح كتابه عن القواعد.

ويسأل: «هل تقرأ الصينية؟»

وأومئ. وهو يفتح الكتاب على الصفحة التي كتب فيها فعلاً، وبشكل محفوظ في القانون الصيني، أن الغرامة على السرعة هي «بين 500 إلى 2500 يوان» (70 دولاراً إلى 300 دولار)، وهكذا يترك التقدير بشكل مريح إلى كل رجل شرطة ليقدر كم يغرم ويرفع الغرامة؟ وكم يحتفظ من الغرامة لنفسه؟

وفي النهاية، تستغرق ساعتين من التواضع من ناحيتي، وملء الاستمارة من ناحيته، بله المناقشات الأخرى عن دفاع هيوستن روكيتس، قبل أن أخلي سبيلنا. ويجبر الشرطي السيئ وانغ الصغير على أن يوقع استمارة يقر فيها بذنبه ويقرر أن الغرامة هي ألف وسبعمائة يوان. وذلك مائتا دولار تقريباً، وهي أكثر من راتب شهر بالنسبة إلى وانغ الصغير. وأسحب محفظتي، وأدفع الغرامة، ونشكر الشرطة بأدب ونغادر قبل أن يغيروا رأيهم.

وعدنا إلى الطريق 312 ووانغ الصغير يسوق ببطء أكبر بكثير بعد ذلك. ولكن آماله في توصيلي إلى شينيانغ والعودة إلى هوفاي قبل هبوط الليل خابت.

قال الرئيس ماو مرة إن «الثورة ليست حفل عشاء،» ولم يكن مازحاً. ماو حطم الصين. بصرف النظر تماماً عن عدد الوفيات المذهل في القفزة الكبرى إلى الأمام، والأرواح التي أزهقتها الثورة الثقافية، فإن ماو قتل جزءاً كبيراً من المثقفين، وأعدم التراث الثقافي للصين، وشجع الآباء على إنجاب عائلات كبيرة، وهو ما نتج عنه انفجار سكاني مازال يتم التعامل معه حتى اليوم. وكان إحصاء العام 1953 قد وجد أن سكان الصين أكثر قليلاً من 580 مليون نسمة. والآن هم، حوالي 1.3 من البلايين من الناس، لقد ازداد العدد أكثر من الضعف.

ومع ذلك، ففي مجالين اثنين لا نكران للتحسين الإجمالي الذي صنعه ماو. الأول كان في الصحة العامة والعمر المتوقع. وهامش التفوق الذي تملكه الصين على الهند في

www.ibtesama.com/vb

إحصاءات الصحة الأساسية يمكن أن يعزى إلى حدٍ كبير إلى الحملات في السنوات الأولى للماوية. في العام 1949، كان العمر المتوقع المتوسط خمساً وأربعين عاماً فقط. وبحلول العام 1975، كان العمر المتوقع المتوسط ثلاثة وستين عاماً. واليوم، هو واحد وسبعون عاماً. ومعدل وفيات الأطفال كان قد صار في السنوات الخمس الأولى من حكم ماو نصف ما كان عليه سابقاً واليوم هو ثمن ما كان عليه في العام 1949.

والمجال الثاني الذي حسن فيه ماو الحياة كان مكانة النساء. لقد قال قولاً مشهوراً هو أن «النساء يرفعن نصف السماء» وانطلق يتحقق من أنهن يفعلن ذلك. وإلى أن جاء الشيوعيون إلى السلطة تماماً في العام 1949، كان النساء يشرين ويبعن بصفة زوجات، مثلما كان يفعل بهن طوال القرون. فلم يكن من غير المعتاد للرجال الأغنياء أن يمتلكوا ثلاث زوجات أو أربع زوجات، ولكن فجأة، تغير كل ذلك. فأعطيت النساء وظائف في المصانع. وبعضهن أحرزن مناصب من المسؤولية. وأشبعت آلة الدعاية المجتمع بملصقات للنساء وهن يقفن كتفاً لكتف مع الرجال في الثورة. ولم تكن الحقيقة الواقعة كاملة مثلما صنعتها الدعاية، ولكنها كانت تحسيناً ضخماً.

ومع ذلك، فالعجلة، الآن، تدور ثانية. فمن الواضح أن خمسة آلاف سنة من هيمنة الرجل تستغرق أكثر من ستين سنة للتغيير. فالثورة الشيوعية انتهت. ومكانة المرأة في الصين أعلى بكثير بالتأكيد مما كانت عليه منذ ستين عاماً، وبالنسبة إلى الزائر الغربي فهي تبدو بالتأكيد أعلى، وبشكل متناسب، من مكانة المرأة في الكثير من البلدان الآسيوية التي هي أغنى من الصين، مثل كوريا الجنوبية واليابان، التي تبدو فيها النساء أحياناً وكأنهن يعاملن مثل شكل أدنى من الحياة. ولكن في حين قد يكون فيه مكانهن في المجتمع أعلى، فإن موت المساواة الشيوعية قد عنى أن النساء الصينيات، مثلما كان الأمر في الاتحاد السوفييتي، يكافحن ليتمسكن ببعض مكاسب السنوات الشيوعية. وموت الإيديولوجية الشيوعية يعني أيضاً أن الأخلاقيات الصارمة التي نفذها الحزب فقدت قبضتها على سلوك الناس. وتقدر الدراسات أن بين 10 إلى 20 مليون امرأة صينية ينغمسن في تجارة الجنس في الصين.

www.ibtesama.com/vb

وهذا كله يقود إلى بار الكاريوكي في الطابق السابع من فندقي في شينيانغ، وهي مدينة غير مميزة نوعاً ما في الأرض الداخلية المنبسطة الزراعية من مقاطعة هونان الجنوبية. ويبدو أن كاريوكي هو أكبر صناعة مزدهرة في شينيانغ (وربما تكون الصناعة الوحيدة). والمكان الذي يوجد فيه كاريوكي، يوجد فيه بشكل ثابت ما يسمى باللغة الصينية حرفياً «السيدات الشابات للمرافقات الثلاث». ففي مقابل أجرة صغيرة، فهن يرافقنك لتشرب، ولترقص، ولتغني. وهناك، طبعاً، مرافقة رابعة، ولكن تلك المرافقة تكلف تكلفة إضافية.

يوجد مؤسستان في كل فندق متوسط الحجم أو كبير الحجم في الصين تظهران التغيرات الجذرية في أخلاقيات الجمهور. وإحداهما تعرف باسم منشأة «تدليك السونا»، وهي، مثلما يوحي اسمها، توفر كل نوع من السونا وكل نوع من التدليك، وفي الغالب، كما قيل لي في الوقت نفسه. والمؤسسة الثانية هي بار الكاريوكي. وكلتاهما يتم الإعلان عنها جهاراً، وبلا خجل، وكلتاهما عموماً واجهة للدعارة فقط. وعلى الرغم من وجود ضوابط منتظمة على مثل هذه المؤسسات، فإن الإدارة إذا كانت تقيم علاقات جيدة مع الشرطة المحلية (أو أنها تعرض على الشرطة، وهو أكثر احتمالاً، زيارات حرة)، فإن السلطات سوف تتركهم وشأنهم. وفي الحقيقة، من المعروف جيداً في كل أنحاء الصين أن الشرطة والعسكريين كانوا هم بعض أكبر رعاة أو مالكي بيوت الدعارة.

أجريت مقابلات مع العديدات من الساقطات الصينيات في أثناء سنواتي في الصين. وهؤلاء النسوة لديهن في الغالب أشد القصص قهراً وأفجعها عن الحياة في قاع المجتمع الصيني. ولكنني مازلت أشعر بالانزعاج لدى الذهاب إلى بارات الكاريوكي في الأماكن التي يعملن فيها. هناك شيء ما بشأن البحث عن ساقطة، ولو لمجرد إجراء المقابلة، ذلك يزعجني، لأن العمل على هذا الشكل يغذي فقط النمط السائد الصيني لدى الرجال الغربيين بوصف الصينين مفترسين جنسياً. وأنا دائماً أهاتف زوجتي في بكين لأخبرها ماذا أفعل («مرحباً، يا حبيبتي، أنا الآن خارج منذ قليل أبحث عن ساقطات»)، وذلك تحسباً لحالة قد تحتجزني فيها الشرطة.

www.ibtesama.com/vb

ومع ذلك، فحين جاء الوقت الذي انفتح فيه باب المصعد في الدور السابع، كنت قد حولت نفسي إلى نموذج الرجل الغربي، أبحث عن امرأة صينية لتلك الليلة. حيتني امرأة متوسطة العمر تبدو وكأنها تحاول أن تفي بالنموذج أيضاً. وهي تلبس عباءة صينية حمراء تقليدية كانت تناسبها تماماً منذ خمس سنوات، وهي تضبط المدخل بحضور امرأة تستمتع بكونها في موقع السيطرة. ابتسامتها جامدة بشكل مبالغ به قليلاً، وانحناءتها مؤدبة بشكل مبالغ فيه قليلاً. وهي السيدة التي تدير بار الكاريوكي. وهي تشير بأقل إشارة من رأسها إلى فتاتين تحومان خلفها بهدوء، ثم تشير لي بيدها، مع ابتسامة أكثر تصنعاً أيضاً، بأن علي أن أتبعهما. وتأخذاني نزولاً في ممر مظلم مغطى بورق جدران أخضر نحو واحدة من غرف الكاريوكي. والعديد من الرجال الصينيين في غرف مختلفة يصارعون مع نغمات عالية من أغنيات الحب، والممر يرجّع الأصداء مع النشاز والاختلاف. إنها علامة جيدة. فالقاعدة العامة في الصين، هي أنه كلما كان الكاريوكي أسوأ، فالقصة أمتع.

وحين كنا نمر، كان أحد الأبواب يدفع ليغلق قبل قليل من مرورنا، ولكنني استطعت أن أرى في الداخل غرفة مليئة بالنساء الشابات الجذابات الجالسات يتحادثن، والكثيرات بملابس قليلة، ويقمن بالتزيين. هؤلاء هن فتيات شينيانغ، يحضرن لعمل الليلة، وإذا أردت برهاناً على أن الثورة الشيوعية منتهية، فهو هنا.

وتم اقتيادي إلى غرفة كبيرة فيها أريكة خضراء وبنفسجية في شكل حرف ال L، ممتدة على طول جدارين. وهناك طاولة كبيرة، منخفضة في مقدمة الأريكة مع تلفاز ضخم على أحد الجدران. واختفت الفتاتان وتُركت وحدي، شاعراً أني أصغر جداً من الغرفة، وأنظر إلى قائمة الأغاني الموضوعة للكاريوكي الصيني.

وتظهر السيدة المبتسمة ثانية، تقود أربع فتيات إلى داخل الغرفة، وتطلب مني أن أختار واحدة لتغني معي. وتقف الفتيات كلهن، وهن ينظرن خجلات، متجنبات لقاء العيون معي، وأنا أشعر بأني محرج لأني أضعهن في محنة. وأشير إلى الفتاة في آخر المجموعة، وتخرج السيدة مع الثلاث الأخريات في صف إلى خارج الغرفة.

www.ibtesama.com/vb

وأقول لها: «من فضلك اجلسي»، أقول ذلك مع ابتسامة ودية تحاول أن تقول لها «لا تقلقي». وهي تلاحظ موقفي الودود وتجلس، وهي أقل عصبية نوعاً ما، على الأريكة الخضراء والبنفسجية.

وتعلق بعد أن سمعتني أقول كلمتين فقط: «لغتك الصينية جيدة جداً»

وتقول إن اسمها وو يان، وأنها في العشرين من العمر، على الرغم من أنها تحاول أن تظهر ثقة شخص أكبر عمراً. وهي ليست طويلة، وشعرها الأسود ينساب إلى كتفيها، وهي تلبس لباساً أسود قصيراً من الحرير المزيف. أظافرها مدهونة باللون الأحمر. وعملها أن تلعب النرد وتغني وتشرب مع الرجال الذين يأتون هنا، وأحياناً تقدم الصحبة الرابعة أيضاً.

وأشجعها أن تغني، وهكذا فهي تمسك بالميكروفون وتغني قصة شعرية صينية حلوة بصوت حزين، مرح، وهي تصب كل كيانها في الأغنية.

مراقبة الكاريوكي في الصين تسلية رائعة. وبصفتي مراسلاً إذاعياً، وجدت على مر السنين أن إقناع الشعب الصيني ليتكلم بصراحة إلى ميكروفون مشكلة حقيقية. لقد أرخت البلاد الكثير من القيود منذ الأزمنة الماوية، ولكن مازال هناك تردد بشأن التحدث بصراحة، وخصوصاً إلى أجنبي وبشكل أخص إلى مراسل أجنبي. طبعاً، هناك الخوف من قول شيء قد يقود إلى مشكلات سياسية، ولكن هناك أيضاً تكتم صيني، مبني فيهم تماماً، عن الكلام بصراحة إلى الأجانب.

ادفع بميكروفون كاريوكي إلى يد شخص صيني فهو أو هي، مع ذلك، لا يحتاج أي دعوة ثانية ليغني، بغض النظر عن مدى سوء الغناء. الكاريوكي هو الأداة النهائية المقبولة اجتماعياً بالنسبة إلى الشعب الآسيوي ليقولوا الأشياء المخبأة عميقاً بداخلهم. وو يان قالت تماماً الكثير جداً من الأشياء لي، وإلى الغرفة الكبيرة الفارغة، التي لم تفهم في الحقيقة.

معظم الغربيين (ومن جملتهم معظم الموجودين في الصين) يفضلون أن تغرز الإبر في عيونهم أكثر من الغناء أمام العامة. ربما نحن معتادون على التحدث بما

www.ibtesama.com/vb

في عقولنا، وعلى طرح الأسئلة بصراحة وعلى توقع الأجوبة الصريحة، ويبقى القليل مخبأ ليخرج في شكل محرج، غير مباشر مثل الغناء العام.

وصحة هذه النقطة تتوضح بشكل أشد حدة أيضاً حين يأتي دوري لأغني. فمن العسير على أب متزوج زواجاً سعيداً ووالد لاثنين أن يقول الكثير جداً من الأشياء المخبوءة لساقطة قد قابلها قبل قليل ولا يريد أن ينام معها، في بار كاريوكي في آسيا الوسطى، في الوقت الذي يغني فيه أغنية رود ستيوارت «أنا مبحر» في أعلى رئتيه، بصوت عال. وأنا أحاول ألا أحرج نفسي، ولكن أدائي الضعيف واضح جداً. وو يان تمسك الميكروفون وتغني رقماً آخر بنبض أبهج قليلاً، تسكب فيها ثانية كل أنواع العواطف السوداء، وربما بأشياء لم يسبق لها قط أن أخبرت بها بشراً، وها أنا هنا، أسمعها كلها تنسكب من قلبها ولا أفهمها.

بعد أن انتهت الأغنية الثانية، تخرج النرد. ومرة أخرى، أنا الأجنبي الأبكم. إنها لعبة لا أفهمها، وهي لا تستطيع أن تصدق أنني لا أستطيع. وهي تخشخش قطع النرد بيديها وترمي بها على الطاولة مع ضحكة واثقة، ومهما يكن ما يجب عليك أن تفعله لتربح، فأنا حاولت ألا أفعله عدة مرات. وفي أثناء قيامنا باللعب، أخبرها بالذي أفعله هنا وأسألها إن كانت ستجيب على أسئلتي. وتنظر إلى الباب لتتأكد أن المدام ليست قادمة ثم بعد صمت طويل، توافق على الحديث، طالما أنني لا أستخدم اسمها الحقيقي.

يدفع لها اثنا عشر دولاراً لمرافقة رجل للغناء والمحادثة والرقص، وإذا أراد الرجل المرافقة الرابعة في غرفته في الفندق، فيجب عليه أن يضاعف السعر ثلاث مرات، إلى أربعين دولاراً تقريباً. ويبدو ذلك مبلغاً كبيراً من المال بالنسبة إلى هذا الجزء من الصين. ولكن يجب عليها بعدئذ أن تعطي ثلث ذلك المبلغ إلى المدام التي تدير بار الكاريوكي.

منذ ستين عاماً، وطوال التاريخ الصيني قبل ذلك، كان هناك ساقطات مثل وو يان في كل شارع، وفي كل بلدة. وحين صعد الحزب الشيوعي، في الثلاثينيات من

www.ibtesama.com/vb

1930، والأربعينيات من 1940، بهدف إعادة توحيد الصين وجعلها قوية سياسياً، فقد شرع الحزب أيضاً في القضاء على القمار والأفيون والبغاء، وبعد أن جاء الحزب إلى السلطة، نجح في ذلك إلى حدٍ كبير، وبعد العام 1949، جرى تحويل المجتمع. وفي ذروة الماوية، كان يمكن لفتاة مثل وو يان أن تكون عاملة شابة في مصنع، تكد إلى جانب الشباب لبناء الاشتراكية، وتقدم لهم الدولة الرعاية من المهد إلى اللحد.

الآن، وعلى كل حال، الاشتراكية ميتة والبغاء قد عاد، ومثله كذلك القمار والمخدرات. لقد كانت الأخلاقيات الشديدة، المفروضة بالقوة من الشيوعية مجرد نقطة مضيئة في التاريخ الطويل للبلاد. وقد قتلتها قوات السوق المحضة وأفنتها.

وقصة وو يان،مع ذلك، أكثر إثارة للاهتمام، لأنها ليست لمجرد الحصول على المال. وكنت أتوقع ما تقوله عن والدها يموت حين كانت صغيرة، وكيف كان عليها أن تعيش مع جدتها، وكيف كان عليها أن تغادر المدرسة مبكرة بسبب عدم وجود المال، وكيف أنها لم تستطع أن تحصل على الوظيفة المناسبة حين غادرت المدرسة. الحياة قاسية عند مستوى قاع المجتمع في الصين الحديثة والفواجع جمة.

ولكن هناك ميل خطر لكل شيء في الصين الحديثة يتمثل في إعطائه دافعاً اقتصادياً، وكأنما الضغط المالي هو السبب الوحيد لأي شخص ليفعل أي شيء في كل زمان. ونحن نخفق في الغالب في أن نرى أن الشعب الصيني أفراد يعيشون، ويتنفسون، ويحبون، ويكرهون، ويفعلون أشياء لأسباب نفسية معقدة، مثلهم مثل الغربيين تماماً. وحين كانت وو يان تجلس وتتحدث عن حياتها، فإن قصتها لم تحتو على تلك النبرة النموذجية، التي تقول: «يجب علي أن أفعل هذا أو فلن أكون قادرة على أن أجد الطعام». إنها سكوت قليلاً، ومتهكمة وغاضبة.

وفي النهاية أسألها: «وإذاً لماذا تعملين هنا؟»

وكان هناك صمت طويل.

«كان هناك شاب..». وتتوقف ثانية لوقت طويل، تخشخش بالنرد في فنجان البلاستيك الرخيص. «... وأنا أحببته كثيراً». وهي تنظر إلى الأرض.

www.ibtesama.com/vb

«ولكنه أحب فتاة أخرى». تتوقف عن هز النرد، ثم تنظر إلى الأعلى نحوي بعينين واسعتين متألمتين. وساد صمت طويل وأنا أحاول أن أحسب ما تقوله.

«وهكذا... فأنت... تفعلين هذا لمعاقبته... أو لمعاقبة... نفسك؟»

لا تجيب ولكنها تمد ذراعها إلي، وراحة يدها إلى الأعلى. هناك ندبتان مقطوعتان على ذراعها الأدنى، وكأن رسغها كان قد قطع. وتنظر بشكل غاضب في عيني.

وتقول أخيراً: «من الصعب أن تكون شخصاً، أليس كذلك؟»

وأنظر إليها وأومئ ببطء. وهي تهز الفنجان بقطع النرد في الداخل وتضرب بها نازلة بعنف على الطاولة الزجاجية.

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

8
«ضعوا الشعب أولاً»

في الصباح التالي، أستيقظ مبكراً، وأنا أشعر بإحساس خفيف من الخوف. حتى الآن في رحلتي، لم أفعل في الواقع أي شيء لا ينبغي أن أفعله ولا كنت في أي مكان لا ينبغي أن أكون فيه. ومن السهل سهولة كاملة أن تفعل ذلك في الصين، أن تسافر متجولاً، وتعجب من التغيير غير العادي، وتتحادث مع كل أنواع الناس، ولا تكون في الحقيقة واعياً قط أن هناك أشياء مزعجة، كامنة تحت السطح، فمازال هناك بعض الأشياء الرهيبة المستمرة. وأنا ذاهب اليوم إلى تقصي واحد منها.

وبصفتي صحفياً في الصين لإذاعة، فقد قدمت تقارير عن عدد مرض من القصص الحساسة، وهناك قائمة من ثلاثة أشياء أتحقق دائماً من أنني أمتلكها قبل الانطلاق. الأول، دليل محلي ممتاز أو سائق ممتاز، يعرف الناس ويستطيع أن ينتقل بك بسرعة خاطفة داخل المكان المقصود وخارجه قبل أن تكتشف الشرطة أنك موجود هناك. والثاني، بطاقة سيم (وحدة هوية المشترك) اس آي ام لهاتف خليوي مأمون لا تعرف السلطات عنه. والثالث، الملابس الداخلية من النوع المناسب.

وأهم أجزاء في أي رحلة لتقديم التقارير الصحفية بالنسبة إلي هي أقراصي الصغيرة، الأقراص الرقمية من قياس ثلاثة إنشات في ثلاثة إنشات التي أسجل عليها كل مقابلاتي. فإذا عدت من رحلتي من دونها، فأنا عندئذ لا أمتلك شيئاً ليذاع. وحين تذهب إلى أماكن في الصين لا يفترض أن تكون فيها، فأنت معرض لخطر التوقيف والتفتيش من الشرطة المحلية، الذين لا يريدونك، كما هو غني عن القول، أن تتطفل على منطقتهم وتقدم عنها التقارير الصحفية عن أشياء تجعلهم يظهرون بمظهر سيئ. وإذا هم أوقفوك، فسوف يفتشونك بشكل ثابت ويفتشون حقائبك تفتيشاً كاملاً، ويأخذون أقراصك الصغيرة، وآلة التصوير، وشريط الصور (الفيديو)، ودفتر ملاحظاتك إذا اكتشفوا كل ذلك.

www.ibtesama.com/vb

وهكذا فقد طورت إستراتيجية، سأستخدمها اليوم (لأنني أنوي أن أسجل مقابلات)، وذلك يعني أنني مستعد استعداداً جيداً إذا صار من الواضح أنني على وشك الوقوع في الاعتقال. وتتضمن أن يكون معي في جيبي أقراص صغيرة للخديعة، أستطيع أن أبدّلها لدى سقوط غطاء كالقبعة مع الأقراص الصغيرة في آلتي (المحتوية على المقابلات الحساسة التي أكون قد قمت بها منذ قليل). ومع وجود القرص المزيف بأمان في الآلة، يختفي أنئذٍ القرص الحساس نزولاً في سراويلي التحتانية، في مكان من غير المحتمل أن يغامر في الوصول إليه أكثر الشرطة الصينية تمرداً كذلك.

والآن، إذا سبق أن حاولت في أي وقت أن تخبئ قرصاً صغيراً (أو أي شيء آخر لا ينبغي أن يكون هناك) في بنطال الملاكمين القصير، فسوف تجد أنه، عاجلاً أم آجلاً، ينزلق نازلاً على ساقك باتجاه عقبك، وإذا كنت سيئ الحظ، يندلق خارجاً على الأرض. وإذا تصادف أن تكون واقفاً أمام عدد من رجال الشرطة الصينية الشرسين، فإن إوزتك ستطبخ،تدمر فرصك، ويضيع أملك بالنجاح، وستقاد إلى الزنازين (ومثل ذلك، وهو في الصميم، سيُفعل بالصينيين الذين تقابلهم). ولذلك، خذ بنصيحتي.إذا كنت تخطط لأي مهام صحافية حساسة في الصين، احشد حيلك الماكرة.

تعاني مقاطعة هوهنان بالتأكيد من مشكلة الصورة. وهوهنان يجب ألا تختلط مع مقاطعة هونان وهي تقريباً بحجم (داكوتا الشمالية، ولكن في حين أن داكوتا الشمالية تضم 642.000 نسمة فإن سكان هوهنان تضم 93 مليون نسمة. ذلك حق. والمقاطعة الصينية المفردة من هوهنان تضم سكاناً هم أكثر تقريباً بـ 150 مرة من سكان داكوتا الشمالية، وفي الحقيقة أنها تضم عدداً من السكان أضخم من أي بلد في أوروبة.

وحيث توجد مزرعة في داكوتا الشمالية، توجد قرية (أو قريتان) في هوهنان. وهذا يعني أن قطع الأرض هنا صغيرة جداً، جداً وهوامش العيش هزيلة جداً، جداً. وربما يكون الضغط على الأرض هو السبب الذي يجد من أجله كثيرون من الناس طريقهم إلى احتيالات من كل نوع. هوهنان المقاطعة التي يحب الناس

www.ibtesama.com/vb

الصينيون الآخرون أن يكرهوها. إن من المثير للتعجب كم من المرات سوف تسمع الناس يقولون: «الناس من هوهنان سيئون جداً».

لم تكن سمعة هوهنان دائماً سيئة. بل على العكس تماماً. كانت المقاطعة في العادة مرادفة للمجد، بالإضافة إلى قوة الحضارة الصينية، ومن ثم كانت تعد مكاناً رائعاً على نحو ملحوظ، محتضنة في الأرض القلب من الصين، بعيدة عن الأخطار في أي حدود. وكانت أسرة شانغ (1750-1045 قبل الميلاد) قد اتخذت عاصمتها بالقرب من آنيانغ، في هوهنان الشمالية. وشانغ صبّت الأواني البرونزية الرائعة وطورت أول نظام صيني للكتابة. واللونغمين غروتوس (كهوف بوابة التنين) وتقع جنوب غرب آنيانغ، هي مشهورة على مستوى العالم بسبب 100,000 صورة بوذية منحوتة في وجوه الصخر في القرنين السادس والسابع بعد الميلاد. وصومعة شاولين الخاصة في هوهنان نفسها كانت منذ القرن الخامس، مركز الفنون القتالية في الصين. كل واحد في هوهنان كان يقاتل كونغ فو حين كان الأوروبيون مازالوا يعيشون في الكهوف. وأنا لم أذكر مع ذلك القصة غير العادية لليهود من كيفينغ، وهم الأحفاد المفقودون من وقت طويل من الإسرائيليين الذين وجدوا طريقهم بشكل ما إلى هوهنان في القرن الثاني عشر أو قبله.

ولكن يا للأسف، كل تلك الأماكن التي تلعق من أجلها الأصابع سينوجب أن تكون موضوعاً لقصة شخص آخر، لأنها تقع بعيداً جداً إلى الشمال من الطريق 312، وخارج نطاق وصول هذا المسافر بالذات، الذي يجب أن يحدد نفسه في الجنوب حيث توجد علامات أقل من مجد أسر الصين القديمة وتوجد دلائل أكثر من أنواع الرعب من الأسرة الحالية.

أنا متوجه إلى ما يعرف بقرى نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) من جنوب سوهنان. وتقدر المنظمات الأجنبية غير الحكومية أن هناك على الأقل 300.000 نسمة مصابين بفيروس نقص المناعة الإنسانية في مقاطعة هوهنان وحدها، وكان الوباء قد نتج بشكل كامل، وتفاقم، ثم غطت عليه وأخفته حكومة الحزب الشيوعي المحلية.

www.ibtesama.com/vb

الإيدز مشكلة، لم تكن، في الذهن الغربي، مرتبطة ارتباطاً كبيراً مع الصين. والوباء الذي دمر جنوب إفريقية لم يصل بعد مثل هذه النسب في آسيا، على الرغم من أن الأمم المتحدة قد حذرت من أنه قد يكون هناك 10 ملايين حالة في الصين بحلول العام 2010 ما لم تتخذ الإجراءات الجادة. الصين تعاني من مشكلات شبيهة لتلك التي تعاني منها بقية العالم حين يصل الموضوع إلى تجارات المخدرات والجنس، وكلتاهما تنمو نمواً سريعاً. ولكن مقاطعة هوهنان كانت المركز لمصدر آخر، ربما كان أكثر ترويعاً كذلك، مصدر لفيروس نقص المناعة الإنسانية ونقص المناعة المكتسبة وهو: مخططات تديرها الحكومة تشجع الفلاحين على بيع دمائهم.

حين وصلت المساعدات المالية التي كانت تقدمها الحكومة المركزية إلى نهايتها وكانت الصين قد تحركت من الاقتصاد المخطط له إلى المزيد من اقتصاد السوق في مطالع التسعينيات من 1990، كان يتوجب على الحكومات المحلية أن تفكر في طريق لزيادة مالها الخاص. وقدمت إدارة الصحة في هوهنان فكرة الدفع للفلاحين العاديين لإعطاء الدم، ومنه يمكن استخلاص البلازما وبيعها للشركات الصيدلانية الغربية والصينية، التي تستخدمها لصنع التطعيمات. وكانت المخططات قد أقيمت في مقاطعات أخرى أيضاً، ولكن مخطط هوهنان كان أوسعها نطاقاً، وبالنتيجة أسوأ المخططات تأثراً.

كانت مراكز بيع الدم قد أقيمت في بلدات صغيرة، وسافرت مستوصفات متحركة كبيرة إلى القرى، فاكتشف فيها الفلاحون أنهم كانوا يستطيعون أن يكسبوا مالاً أكثر مما كانوا يكسبونه في شهر في كل مرة باعوا فيها دماءهم. وانتشرت الأخبار انتشار النار الهائلة في الهشيم. ومثل ذلك، لسوء الحظ، انتشر فيروس نقص المناعة الإنسانية.

كان الفلاح يؤخذ إلى داخل عربة مغلقة للتبرع بالدم، وتوضع إبرة في ساعده. ويذهب الدم المستخرج مباشرة إلى وعاء في الوسط، حيث سيخلط وتستخلص منه البلازما. ونظراً إلى أن الصينيين لا يحبون تقليدياً أن يفقدوا الدم من أجسامهم فقد كان يتم، بعد ذلك، إعادة ضخ الدم إلى ذراع المتبرع.

www.ibtesama.com/vb

وحين بدأت تظهر، في أواخر التسعينيات من 1990، بقع غريبة على جلد الفلاحين، لم يكن لدى العاملين الصحيين المحليين أي فكرة ماذا كانت تلك البقع. وبعدئذ، في العام 2000 و2001، بدأ هؤلاء الفلاحون يموتون. ولم تسمح الحكومة المحلية بأي تغطية إعلامية لما كان يجري، ولكن في مناخ الصين الاجتماعي المنفتح على نحو أكبر، يكون من الأصعب بكثير في هذه الأيام على المسؤولين الحكوميين الاحتفاظ بالأسرار. ونُشرت بعض التقارير عن طريق أكثر المنافذ الإعلامية الصينية جرأة، وبعد ذلك مباشرة كان الصحافيون الأجانب، وأنا نفسي من جملتهم، يزورون القرى تحت غطاء ويحصلون على مقابلات مع الذين يعانون من الإيدز. وطوال العديد من السنوات، رفضت الحكومة المركزية أن تقبل أنه كانت هناك مشكلة، ولكن فجأة، في نهاية العام 2004، غير القادة في بكين موقفهم وأطلقوا مبادرة لمعالجة المشكلة وجهاً لوجه.ولكن ذلك، على كل حال، لم يحل مسألة الإيدز ولا بأي طريقة في هوهنان، بسبب الصعوبة الموجودة من قديم جداً في فرض سياسات الحكومة المركزية على المستوى المحلي. فسلطات هوهنان لا تريد أن تظهر بمظهر السيئ، ولذلك فالسلطات تفعل كل ما تستطيعه لتحدد أي نوع من الوصول إلى قرى الإيدز، بل تحاول أن توقف الأطباء والمسؤولين المرسلين من بكين وتمنعهم من أداء عملهم.

ولمساعدتي في التجوال في قرى الإيدز، رتبت أن أقابل رجلاً نشيطاً في موضوع الإيدز اسمه هيو جيا، وهو يسافر خصيصاً من بكين ليقابلني، وليساعدني في تجنب الوقوع في الاعتقال.هيو جيا هو واحد من جيل جديد من النشيطين الصينيين. بعد القتل الذي جرى في ميدان تيانانمين، في العام 1989، ذهب كثيرون من المنشقين إلى المنفى أو أودعوا السجن. وحين أطلق سراح المسجونين في التسعينيات من 1990، صار من الواضح لهم أن قضيتهم في الإصلاح السياسي بلا أمل. وبعضهم ترك النشاط السياسي تماماً ورموا بأنفسهم في الأعمال التجارية. النشيطون الشباب، مثل هيو (وهو في الثالثة والثلاثين) يعرفون أنهم سيعتقلون فوراً إذا قاموا بحملات من أجل الإصلاح السياسي، ولذلك تحولوا إلى النشاط في القضايا غير السياسية. وبعد سنوات من الحملات لحماية البيئة، يعمل هيو الآن متفرغاً كامل الوقت لصالح

www.ibtesama.com/vb

منظمته الخاصة غير الحكومية المتخصصة بالإيدز. وهو يملك بعض الحيز للمناورة، لأن أهداف منظمته منسجمة إلى حد كبير مع سياسة الحكومة، ولكنه مع ذلك مازال يمشي على خط دقيق.

وعلى الرغم من تخفيف الضوابط الاجتماعية في الصين، فإن أي نشاط يجتذب الانتباه من قوات الأمن العام، وهيو جيا موضوع تحت المراقبة المستمرة في بكين. فأنت لن توضع بالضرورة في السجن لكونك نشيطاً، ولكنك بالتأكيد ستجد الكثيرين من الناس يدخنون السجائر ويقرؤون الصحف تحت أنوار أعمدة الكهرباء الموجودة خارج شقتك. وبيت هيو وأرقام هاتفه الخليوي الجوال مراقبة، وفي كل مرة أريد أن أتصل به، يجب أن أكتب له رسالة نصية وأطلب منه رقماً مأموناً. ويجد هو هاتفاً عمومياً فيرسل لي الرد في رسالة نصية بالرقم. وأقوم أنا بتدوين الرقم، ثم أغير بطاقة سيم، اس آي ام، في هاتفي إلى رقم هاتفي المساند، الذي لا يعرف عنه مكتب الأمن العام، وأهاتف هيو على هاتف النقود العام الذي يقف إلى جانبه.

طوال عدة أيام، كنت أرسل الرسائل إلى هيو جيا مستخدماً كلمات غامضة مشفرة أسأله أين يمكن أن نتقابل ومتى. وكنا في السابق قد ناقشنا على هاتف مأمون، أسماء عدد من البلدات المصابة بفيروس نقص المناعة الإنسانية، وذلك لكي نوفر التغيير المستمر لبطاقات سيم، اس آي ام، والبحث عن هواتف عامة، وأنا أكتب له رسائل نصية مثل «أنا أستطيع أن أكون في س يوم الأحد حول الساعة 9 صباحاً، فهل تستطيع أنت؟»

وترد رسائله «كلما كان أبكر فهو أفضل».

وتجولت في أنحاء شينيانغ في الليلة الماضية لأجد سيارة أجرة يكون زجاج نوافذها مدخناً ويكون سائقها مستعداً للانطلاق مبكراً في الصباح التالي. ويقول هيو جيا إن عليّ أن ألبس قبعة ونظارة شمسية لكي لا أكون عرضة للانكشاف مباشرةً بأني أجنبي حين أقفز إلى داخل أو خارج السيارات وأمشي داخلاً وخارجاً من البيوت لمقابلة الناس الذين كانوا قد أصيبوا بفيروس نقص المناعة الإنسانية نتيجة لسياسات الحكومة المحلية.

www.ibtesama.com/vb

هناك على الأقل ثلاثون قرية إيدز في جنوب هوهنان، ومجموعة منها تقع تقريباً على بعد ساعتين في السيارة إلى الشمال من شينيانغ على الطريق 107. وذلك هو المعادل شمالاً وجنوباً لطريق 312، الذي يسير من بكين إلى الجنوب تماماً من الصين. ويتقاطع الطريقان في شينيانغ. وموقع هوهنان بوصفها تقاطع طرق في منتصف البلاد يسير بعض الطريق إلى تفسير الحالات الأولى من الإيدز. ويُعتقد أن المرض كان قد جلبه سواقو الشاحنات من منطقة المثلث الذهبي في جنوب غرب الصين، قرب الحدود مع لاوس وبورما، من الذين صاروا مصابين من خلال الجنس أو استخدام المخدرات ثم جلبوا الفيروس على طول نظام طرق الصين. وبعد أن صار قلة من الناس مصابين في هوهنان، تسبب البرنامج غير الصحي لبيع الدم في انفجار الوباء.

حين أخبر سائقي في سيارة الأجرة أن جهتي التي أتوجه إليها هي شانغتساي لا يكون سعيداً أبداً، على الرغم من أنني أقول وببساطة إنني ذاهب لمقابلة صديق.

ويقول السائق: «إنه مكان سيئ».

وأسأل: «لماذا؟»

ويقول، ولكن لا يعرض المزيد: «يوجد الكثير من الناس السيئين هناك ليس غير».

وصل هيو جيا من بكين في الليلة الماضية، وحين كنا نقترب من شانغتساي في الثامنة والنصف تقريباً في ذلك الصباح، يجري مكالمة ويخبر سائقي أين نتقابل، في محطة بنزين في خارج البلدة تماماً. وتقف إلى جانبنا عربة على دراجة بثلاثة دواليب (ريكشو)، ويقفز هيو جيا خارجاً منها، وهو يقتادني إلى خارج سيارة الأجرة. والعربة الريكشو عبارة عن دراجة نارية تجر مقطورة صغيرة مغطاة تستطيع أن تحشر فيها أربعة أشخاص. وكان هيو قد علق قطعة قماش على عرض العربة من الخلف قليلاً لكيلا يستطيع أحد أن يرى ما في الداخل. وأخبرت سائق سيارتي أن يرجع ويقابلني هنا بعد ثلاث ساعات.

www.ibtesama.com/vb

هناك العديد من سيارات الشرطة على الطرق، وهيو جيا يمسك بشدة الطرف الضئيل من قطعة القماش التي تغطي ظهر المقطورة. عند إحدى النقاط، نقف عند إشارة المرور، وأستطيع أن أرى من خلال الستارة الضئيلة أن سيارة شرطة وقفت خلفنا، على بعد خمس ياردات فقط. وأرفع حاجبي باتجاه هيو جيا وهو يكافح ليمسك قماشه الستارة الضئيلة في مكانها. وهو يبتسم ابتسامة عريضة متخابثة.

وترتج المقطورة على طول مسرب وسخ، ونحن نرتج ونرتد في الخلف، قبل الوصول إلى زقاق صغير في قرية تبعد بضعة أميال خارج شانغتساي. ويرفع السائق الدواليب على عتبة خشبية لباب دخول تقليدي وإلى فناء صغير، يلعب فيه عدة أطفال. وأصر على هيو أن يبعد الأطفال قبل أن أخطو خارجاً. طفل واحد يرى أجنبياً ويخبر أمه يستطيع أن يدمر أفضل الخطط الموضوعة. ويغلق هو بوابة الفناء، ويسود الصمت.

أخرج من العربة، وأصافح يد هيو، وأعطيه تربيتة قلبية على كتفه. إنني دائماً أحب أن أراه. فهو يعطيني الأمل للصين. هيو قصير وممتلئ، وله قصة شعر قصيرة عسكرية، ويلبس بنطالاً قصيراً، وهو أمر غير معتاد للرجل الصيني، مع حزمة كبيرة مستديرة حول خصره. وفي داخلها يمتلك آلة تصوير رقمية، وآلة تصوير فيديو صغيرة، وثلاثة هواتف خليوية جوالة. وهو مرتبط بشبكة من المصادر في كل إنحاء البلاد، يتحدث باستمرار إلى أصدقائه ومعارفه، يغطس ويغوص، ويبحر أحياناً قريباً جداً إلى الريح وفي اتجاهها، يوشك أن يكون على حافة فعل شيء غير قانوني أو غير مناسب، وفي مرات كثيرة يوضع تحت الاعتقال المنزلي، ولكنه يحاول في الغالب أن يبقى أسبق من قوات الظلام على بعد خطوة قبلها.

ويبرز ثلاثة رجال من بيت من آجر من طابق واحد متهدم. وتقدموني ليدلوني إلى الداخل، وأجلس على واحدة من الأرائك الوسخة في غرفة مظلمة، متعفنة لأسمع قصصهم. والرجال الثلاثة كلهم، وزوجاتهم، سبق أن باعوا الدم في مراكز دم نقالة في أواسط التسعينيات.

ويقول لي جينغدا البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة: «مرضت زوجتي في كانون ثاني/ يناير 2002، وماتت في آب/ أغسطس في السنة نفسها».

www.ibtesama.com/vb

لي له كتلة شعر أسود كثيفة، وشارب، ونمو ضئيل من شعر الوجه على ذقنه. وهو لم يقم باختبار نفسه حتى آب/ أغسطس 2004. وقال: «لم أرد أن أعرف،» قال ذلك، على الرغم من أنه كان يعلم في قرارة نفسه، كما قال، أنه سيكون حاملاً لفيروس نقص المناعة بشكل إيجابي.

وهو الآن يتناول خليطاً من الأدوية التي يجري توفيرها من الحكومة المحلية، بعد الضغط من المنظمات الغربية غير الحكومية في بكين. ويقول لنا: «أنا أتناول الدواء، ولكن له آثار جانبية سيئة تجعلني أشعر أنني مريض».

ويقحم هيو نفسه في الكلام ويقول: «ثمانون بالمائة من الفلاحين لا يتناولون الدواء في وقته، لأنه يجعلهم يشعرون أنهم مرضى جداً. إنها مشكلة حقيقية».

ويجلس إلى جانبه لي يونغلونغ، وهو في الثالثة والأربعين من عمره. (وليس له صلة قرابة مع لي جينغدا). (هناك أكثر من 90 مليون نسمة في الصين اسم عائلتهم هو لي). ويقول إنه هو وزوجته باعا الدم ثلاث أو أربع مرات فقط في أواسط التسعينيات من 1990، ولكنهما معاً يحملان فيروس نقص المناعة البشرية بشكل موجب.

ويقول: «لقد أعطونا خمسة وأربعين يواناً (6 دولارات تقريباً) في كل مرة بعنا فيها دمنا. وذلك مبلغ كبير من المال».

والرجل الثالث، جانغ هونغدا، له قصة مشابهة.

حين أسال عن الحكومة المحلية، يجلس الرجال الثلاثة فقط ولا يقولون شيئاً. ليس هناك أي شيء بالنسبة إليهم ليقولوه. ويهز لي يونغلونغ رأسه ببطء. ويقول في النهاية: «الحكومة الآن قد أجبرت على أن تعطينا شيئاً ما. فهم يعطوننا هذه الأدوية، ويعطوننا عشر يوانات (1.20 من الدولارات) كل شهر لتكون نوعاً من المال مقابل الصمت».

ويقول لي يونغلونغ، ولهجته القروية الهوهنانية تنتشر كثيراً عبر حروف العلة التي ينطقها: «السبب الرئيسي الذي جعلنا نبيع دمنا هو الفقر. ذلك هو السبب. والسبب الرئيسي لفقرنا هو أن الضرائب المحلية عالية جداً. والمسؤولون المحليون يفرضون الضرائب على كل شيء. وكل ما يريدون عمله هو جمع المال».

www.ibtesama.com/vb

ويشرح هيو جيا: «بالنسبة إلى المسؤولين المحليين، ينظر إلى كل شيء بوصفه طريقة إلى جمع المال، إنه التقليد الصيني. أنت تصير مسؤولاً، فأنت تجمع مالاً. المسؤولون يصيرون بدينين، والشعب يصير نحيفاً».

هنا في هوهنان، توجد مشكلة الإيدز وفيروس نقص المناعة البشرية. في أماكن أخرى في الصين، هناك قضايا مميتة (أو هي أقل إماتة). في كل مكان، مع ذلك، فإن المشكلة الأساسية هي نفسها: المسؤولون المحليون الفاسدون يخلقون مرجلاً من الصعوبة والغضب في الأرياف.

ويقول لي يونغلونغ إن المسألة هي نفسها في كل ناحية من حياة الفلاح. تخطيط الأسرة على سبيل المثال. ويقول إن كثيراً من القرويين يريدون أكثر من طفل واحد، وهم مستعدون لكسر سياسة الطفل الواحد. «ولكن إذا حملت زوجتك مرة ثانية، واكتشفوا ذلك، فسوف يجبرونها على الإجهاض. إذا هربت من مسؤولي تخطيط الأسرة وولد لك طفل، فسوف تغرم غرامة ضخمة. حين ولد طفلي الثاني، لم أكن أملك المال لأعطيهم، ولذلك أخذوا سيارتي التراكتور، التي تساوي أجور العديد من السنوات».

الرجلان الآخران جلسا ببساطة وأيديهم منعقدة.

وأسأل، «هل هناك أي شيء تستطيع أن تعمله لتقنع الحكومة، ولتجعلهم مسؤولين عما فعلوه هنا؟»

ويقول جانغ، «لاشيء. وإذا عارضتهم في أي شيء، فإنهم ببساطة يضعونك في السجن».

وعلي أن أسألهم سؤالاً آخر زيادة عما سبق، على الرغم من أنني متأكد من أنني أعرف الجواب.

«الحكومة المركزية بدأت بالحديث عن حكم القانون. وتقول إنها تريد أن تشجعه. ماذا عنك لو أنك ذهبت واستأجرت محامياً؟»

www.ibtesama.com/vb

يقول لي جينغدا، «لا يوجد هناك محام واحد في كل البلاد. ولو كان موجوداً، فالمحامون لن يعبروا عن الناس العاديين ويدعموهم. إنهم سيكونون مجرد يد في قفاز، على ارتباط وثيق، مع المسؤولين».

ويخبرني هيو جيا أن هناك المزيد من الناس الذين يريد مني أن أقابلهم، وهذا يعني عبور البلدة، وهكذا دخلت إلى خلف مرآة العربة الريكشو معه، وأنا لا أعرف بالضبط كيف أستأذن من الرجال الثلاثة الذين قد يموتون في غضون عام.

ونتوجه إلى بيت فلاح آخر، ويقفز هيو مرة ثانية ويدقق أن الشاطئ خال. هنا يوجد ملء الغرفة كاملة من المصابين بالإيدز. إنه منظر فاجع يبعث على الصدمة. خمسة عشر منهم تقريباً يجلسون في صمت. فلاحون عاديون هم تحت حكم الموت بسبب فساد المسؤول، والآن بسبب إهمال المسؤول. ويقدمني هيو إلى دينغ شياومنغ، رجل في الرابعة والثلاثين من عمره ماتت زوجته من الإيدز في العام 2000. وهو أيضاً مصاب. وابنته البالغة من العمر ستة أعوام ماتت في الأسبوع الماضي، كان محزوناً حزناً كاملاً لا يقبل العزاء. ويقول إن ابنته كانت مريضة جداً بالإيدز. في ليلة من الليالي بدأت تتقيأ. وفي ليلتها الثانية، ماتت.

جابه دينغ سلطات المستشفى، وفي عمل من أعمال اليأس والغضب على تدمير عائلته، لامهم على موت ابنته. ويقول إنه وضع جثتها في بهو أمام الناس ليراها الجميع. وطلب منه المستشفى أن ينقل الجثة أو أنه سوف يعتقل. واستدعى هو عائلته وأصدقاءه تعزيزات له، ويقول، ولكن بعد ذلك في ذلك المساء جاء خمسون شرطياً ليأخذوا جثمانها بعيداً لحرقها، كما قالوا. ويقول هيو جيا إنه كان هناك بالواقع حرب تجاذب على جثة الفتاة الصغيرة.

دينغ أشد اضطراباً بسبب هذه الخبرة من أن يكون منفعلاً عاطفياً بعد ذلك. وكان على هيو أن يكمل القصة. الحكومة المحلية ببساطة تنتظرهم ليموتوا. ويقول هيو، وذلك لكي يتوقفوا عن التسبب بالمشكلات وجعل شانغتساي تبدو سيئة.

www.ibtesama.com/vb

وأنا أجلس هناك كارهاً للصين ولكل شيء عنها، وأسأل هيو إن كان يجب علينا أن نذهب إلى المستشفى ونجابه السلطات تماماً، ولكنه ينصحني بأننا لن نصل إلى أي نتيجة. ويقول إن الفلاحين الذين نزورهم الآن سوف يعتقلون فوراً، وسوف ننتهي نحن إلى قضاء ليلة في مركز ما للشرطة. جميع الناس الآخرين الموجودين في الغربة لديهم قصص رعب من المجادلات مع المسؤولين، بصرف النظر عن غضبهم من الكيفية التي أصيبوا بها في المقام الأول.

ويقول رجل في منتصف العمر اسمه هيوانغ، «لا يستطيع أحد منا أن يجد عملاً، وهكذا فنحن لا نملك أي مال من أجل تعليم أطفالنا».

وتقول امرأة في الأربعين وأكثر من عمرها اسمها جانغ، «ومع ذلك، فحين يخرج أطفالنا ليبحثوا عن عمل، يكون من الصعب العثور على عمل. وحين يسمع أرباب العمل أنهم من شانغتساي، لا يريدون أبداً أن يستأجروهم، ولذلك عليهم أن يكذبوا بشأن مدينتهم الوطن».

ونتحدث لمدة أطول قليلاً، ثم إني أغادر القرية بالطريقة التي وصلت بها، في مؤخرة عربة ريكشو مغطاة، التي تقف إلى جانب سائق سيارتي المنتظر في ضواحي شانغتساي. وأدخل مسرعاً لأتجنب أن أُرى ولكني أنزل زجاج النافذة بما يكفي لأصل إلى الإمساك بيد هيو جيا. ويبتسم هو لي، ابتسامة متآمرة، مليئة بالنار وبالرحمة. ثم يقفز هو إلى عربة الريكشو ويذهب.

ومن باب الاحتياط فقط، أستخرج القرص الصغير الذي يحتوي على مقابلاتي من المسجل وأسقطه في لباسي الداخلي، وأضع مكانه القرص الوهمي. بعدئذٍ، بعد أن صرت خارج شانغتساي وخارج العاصمة المحلية، أرسلت رسالة نصية إلى هيو بأني بأمان خارج المنطقة. ويجيبني بأنه متجه إلى الشمال إلى العاصمة المحلية الإقليمية جينغجو، ليلحق بقطار عائد إلى بكين. بعد أيام قليلة، أرسل لي هيو بريداً إلكترونياً ليقول إن الأمن العام المحلي سمع عن زيارتنا بعد أن غادرنا وذهبت الشرطة لاستجواب الناس الذين قابلناهم. ولكن ما من واحد منهم اعترف بمقابلتنا، وهكذا كانت الشرطة عاجزة عن اتخاذ أي إجراء.

www.ibtesama.com/vb

وأركب عائداً إلى شينيانغ، وما زلت أستشيط غضباً. وسائق سيارة الأجرة يشكو مرة ثانية من تخلف المنطقة كانت. وهو يتمتم غير راض، «الطرق سيئة، وليس هناك مبان حديثة».

وبالتأكيد لم أفكر قط بأني سأكون سعيداً بالعودة إلى شينيانغ. وحين يتقاطع طريق 107 مع طريق 312 عند تقاطعه القديم جداً، هناك لافتة تقول بشكل يستثير الحزن والشفقة:

منع الإيدز مسؤولية كل واحد

ثم بعد ذلك، أبعد قليلاً على الطريق، الإهانة النهائية. شعار الحزب الشيوعي الصديق للاستهلاكية الجديدة:

ضعوا الشعب أولاً.

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

9
السلطة

في 15 حزيران/ يونيو، في العام 1215، اجتمعت مجموعة من خمسة وعشرين باروناً في حقل في إنجلترا الجنوبية. وكانوا بعضاً من أعلى الممثلين لطبقات إنجلترا الإقطاعية، كانوا رجالاً مُنحوا السلطة ليحكموا مناطق من البلاد في مقابل ولائهم للملك، والتزامهم لجمع الضرائب نيابة عنه. وقد جاء البارونات لإجبار جون، ملك إنجلترا، على توقيع وثيقة كانت ستضع قيوداً قانونية على سلطته بوصفه عاهل البلاد.

كان الملك يواجه مشكلة. ففي السنوات السابقة على ذلك، كان قد اختار أن يخوض قتالاً مع البابا وكان قد صدر بحقه حرمان من الكنيسة، وفقد قطعاً من الأرض الإنجليزية السابقة في فرنسا وكان في حاجة ماسة إلى الأموال التي ما كان يستطيع أن يجمعها إلا من خلال البارونات. ولكنهم كانوا غاضبين، ومن أجل ما كانت تستحق، دعم الكثيرون من عامة الشعب البارونات. مفلس ومنكسر تقريباً، عرف الملك أنه لم يكن يملك أي خيار، ولو فقط ليشتري لنفسه الوقت، إلا أن يضع ختمه على الوثيقة، التي ألفها البارونات.

كان اسم ذلك الحقل في جنوب إنجلترا رنيميد، وكانت الوثيقة التي وقعها الملك جون في ذلك اليوم الفاجع من شهر حزيران/ يونيو، طبعاً، هي الوثيقة العظمى، الماغنا كارتا.

وعلى الرغم من أنها عنت بالنسبة إلى الأقنان والمستأجرين للأرض في القرن الثالث عشر في إنجلترا أقل مما عنت بالنسبة إلى الرجال والنساء الذين جاؤوا في الأزمنة بعدها، فالوثيقة العظمى كانت قد دعيت بحق حجر الزاوية للحريات وللديمقراطية التي تمتع بها العالم الأنجلو سكسوني وما بعده. كانت هناك عناصر

www.ibtesama.com/vb

أخرى مهمة من الحياة الأوروبية أسهمت في ضبط السلطة المطلقة للملك، وبشكل ملحوظ السلطة الكبيرة جداً للكنيسة، ولكن الوثيقة العظمى صارت نقطة التجمع ضد الجور الملكي. والكثير من القوانين في المملكة المتحدة والولايات المتحدة، المطبقة بعد قرون، التي تحمي حرياتنا بوصفنا أفراداً، برزت مباشرة من بنود الوثيقة العظمى. وإذا أردت أن تتتبع في نهاية الأمر أصول حقوق الإنسان التي تمتع بها الغرب، وأصول النظام القضائي وفكرة أن الملك يمكن أن يكون مقيداً بالقانون، فإنه ليس من المبالغة القول أن كل الطرق تؤدي إلى رنيميد.

وهكذا فالسؤال الذي أقلقني دائماً هو هذا: إذا كانت الصين متطورة على هذا النحو ومتمدنة على هذا النحو ومتقدمة على هذا النحو قبل وقتها (وهو ما كانت)، فلماذا لم يكن هناك رنيميد صينية؟ وأنا أرفع هذا السؤال لا لكي أنتقد التقليد الصيني أو لكي أشجبه، أو لكي أسأل بتبجح لماذا لا تستطيع ثقافات أخرى أن تكون مثلنا. هناك نواح عديدة كانت الصين فيها متقدمة إلى بعيد أمام أوروبة، على أساس التطور التقاني والرفاهية. ولكن لسبب ما، لم يُطوِّر نظامهم قط أي ضوابط حقيقية تفرض على سلطة الدولة، ونظراً إلى أن هذه الضوابط ظهرت في الغرب، فقد صارت نقطة للنزاع بين الطرفين. فموضوع حقوق الإنسان، الذي يلقي بظلاله على الكثير من تعامل الصين مع الغرب، يؤول في لب الموضوع إلى السلطة غير المقيدة للدولة الصينية.

وبقدر ما أستطيع أن أستنبط، فإن أسباب هذه التركيبة السياسية المستمرة ثلاثية: أحد الأسباب سياسي، وأحد الأسباب أيديولوجي، وأحد الأسباب اجتماعي، ولها جميعها جذورها في العاصمة القديمة للصين، شانغآن، وهي المعروفة الآن باسم شيان.

في أثناء حكم أسرة تانغ، في القرنين السابع والثامن بعد الميلاد، وحين كانت أوروبة فوضى نكدة من ملوك وأمراء يتنازعون، كانت شانغآن (وكان اسمها يعني «السلام الدائم») أكبر مدينة في العالم وأكثرها تنوعاً وعالمية، وكان سكانها أكثر من مليون نسمة. وفي ذروة عصر النهضة كذلك، بعد ست مئة سنة، لم تكن المدن الأوروبية

www.ibtesama.com/vb

الكبيرة مثل البندقية تضم أكثر من 180.000. نسمة تقريباً. وفي أثناء حكم أسرة مينغ (1368 - 1644)، بعد أن نقلت عاصمة الصين إلى الشرق، أعيد تسمية المدينة باسم شيان، وهو يعني «السلم الغربي». وحديثاً أخذت حكومة شيان المركزية، وشيان تنظر إلى اجتذاب دولار السياح، ورقة من كتاب العمل الروماني، وبدأ المسؤولون يدعونها المدينة الخالدة. وحين تنظر حولك إلى تراث تخطيط المدن في الخمسينيات من 1950، تشعر كأنما ذلك قد مطها قليلاً. ولكن شانغآن من الناحية التاريخية، والسياسية، والفلسفية، والفنية، وطوال ألف عام، حتى القرن العاشر تقريباً، كانت هي أثينا وروما مجتمعتين.

وصلت إلى محطة حافلات الركاب في شيان متأخراً في الليلة السابقة، بعد ركوب لمدة تسع ساعات من هوهنان الجنوبية. وذلك تقريباً هو طول الزمن الذي تريد أن تمضيه في حافلة ركاب صينية مزدحمة، وخصوصاً حين يحاول السائق أن يحطم الرقم القياسي للسرعة الأرضية. وهو يسوق في الظلام، وعلى طرق ملتوية.

مقطع الطريق 312 الممتد بين مقاطعة هوهنان الجنوبية وبين شيان هو المقطع الذي تواجه فيه الطريق لأول مرة هضاباً من أي نوع. لا شيء جبلياً جداً، ولكنه هضبي بما يكفي لمدرجات الرز الأولى لتكون مرئية على الجانبين. وبعد مغادرة أزيز الشاطئ في الخلف، كان الطريق عبر قلب أرض الصين الزراعية رصيناً، وجامداً، ورفيقاً يبعث على السأم تقريباً عبر مناظر طبيعية ذات درجة حرارة منسجمة. في هذه المرحلة من الرحلة صارت الطريق أكثر مغامرة قليلاً واكتسبت بعض الصفة وهي تتسلق في هضاب مقاطعة شا آنسي الجنوبية الشرقية، متجهة نحو العاصمة القديمة.

سجلت وصولي في رابطة الشباب المسيحي في شيان، ودهشت لرؤية آية الإنجيل محفورة فوق المنضدة الأمامية، بل زادت الدهشة أن أجد رزمة من الواقيات الذكرية موضوعة إلى جانب سريري وهي مدرجة على قائمة تسعير البار الصغير. بعد نوم ليلة جيدة، نهضت وتوجهت لأرى مناظر شيان.

www.ibtesama.com/vb

بعدد من السكان يبلغ تقريباً 3 ملايين نسمة، تشكّل شيان اليوم، على السطح مجرد مدينة صينية كبيرة أخرى، تحاول أن تشد نفسها إلى الأعلى بمبادرتها الخاصة. وعبر المدينة، مع ذلك، لمحات من الماضي تطل من خلال المظهر الخارجي للحداثة: جدار المدينة الأصلي، الذي ما زالت تستطيع أن تُسيّر نحوه جيشاً، والمسجد القديم، المبني مع حافات السطح البارزة الممتد في الهواء، وممرات مقنطرة ومن دون مآذن، وبالطراز المعماري الصيني بشكل كامل. وفن العمارة الحديث في شيان هو نوعاً ما أقل إمتاعاً. فالمعماريون هنا، كما هو في كل مدينة صينية، قد تفوقوا على أنفسهم في صرف النظر عن تراثهم الخاص الرائع وبناء بعض الخليط من المقلدات الممسوخة مما يفكرون بأنه حديث. وعلى الرغم من ذلك، فإنها مدينة سارة بما يكفي، كذلك، لتتجول فيها، إنها جزيرة أخرى للرفاهية الحديثة في بحر من المشكلات الريفية. بعد تجوال الصباح، أتوجه لأرى الجاذب الرئيسي للسياح في شيان، وهو على بعد ركوب ساعة في حافلة الركاب إلى الشمال الشرقي من المدينة، وهو موقع يزوره آلاف الناس في كل يوم.

كان جيش تيراكوتا (التماثيل الجنائزية للجندي والحصان) قد أنشىء لحراسة قبر الإمبراطور شين شوهوانغ، وهو شخصية حاسمة في التاريخ الصيني. كان شين أول رجل يوحد الصين، في العام 221 قبل الميلاد، وهو يذكر بهذا الشكل بوصفه إمبراطور الصين الأول. وهو الذي وحد نظام كتابة الصين، وأوزانها ومقاييسها، وعملتها وبدأ يبني أجزاء من الجدار العظيم. ومن اسمه Qin (الذين كان يلفظ شين، وسابقاً كان يهجأ Ch`in) من اسمه يشتق الاسم الإنجليزي تشاينا، الصين.

وجيش محاربي تيراكوتا قد حوِّل ليكون واحداً من النواحي الكبيرة في الصين لجذب السياح وهو معروض في ثلاثة مبان ضخمة. هناك سياح من كل أرض، والكثير من الصينيين أيضاً، محشورون في الممشى المعدني الطويل الذي يلتف حول حافة أضخم قاعة للعرض. والقاعة هنجر بحجم ملعب كرة قدم، والأشكال بحجم طبيعي للجنود، وكلها مصنوعة من الطين، ومصفوفة في صفوف في منطقة ضخمة مفتوحة تحت الممشى.

www.ibtesama.com/vb

هناك ما يقارب ثمانية آلاف محارب في المجمل، وهم يشكلون منظراً هائلاً. وهم يقفون في الممرات الطويلة التي وجدوا فيها، ورؤوسهم على صف مع قمم الخنادق، التي يصل عرض بعضها إلى عشرة أقدام في عرضه. بعض الجنود سقطوا، وبعضهم سحقوا، ولكن الأغلبية منهم واقفة، وكأنهم في تشكيل عسكري. وهناك عدة أنماط من الأشكال ـ النبّالة، والمشاة، ورجال القوس والنشاب ـ وكل نوع مخصص له مكانه في الصفوف، وكل شكل له تقاسيم وجهِيّة مختلفة، وهو ما يؤثر بي بوصفه درجة مذهلة من الفردية بالنسبة إلى القرن الثالث قبل الميلاد.

اكتشفت أشكال جيش تيراكوتا في العام 1974، داخل غرفة تحت الأرض، على أيدي جماعة من الفلاحين الذين كانوا يحفرون بئراً. وبناء على ذلك وجد قبوان آخران، ووضعا في هناجر، مجاورة للمحافظة عليهما. وهناك خيل مع جيش تيراكوتا أيضاً، وعربات مزينة زينة غنية ومصنوعة من البرونز. ووجدت الأسلحة أيضاً، مصبوبة من خليطة معدنية غير معتادة من ثلاثة عشر عنصراً، وهو ما يعني أنها أسلحة مازالت حادة حتى اليوم. وهي كلها مؤثرة للغاية، مثل أعمال الفن الروماني التي تجعلك تفكر كم كان أولئك القدماء متقدمين، منذ كل هذه السنوات.

من ناحية الحديث من وجهة نظر علم الآثار القديمة كان جيش تيراكوتا مجرد فاتح للشهية. فالطبق الرئيسي من الوليمة هو المفترض أن يكون قبر الإمبراطور نفسه. ويقال إن القبر قصر واسع تحت الأرض استغرق ما يقارب 700.000 عامل مجند أكثر من ستة وثلاثين عاماً لإكماله، مع نماذج لقصور تحت الأرض وفسطاطات، بل أبحر من الزئبق لمضاهاة نهر يانغسي والنهر الأصفر. وأنا أقول «المفترض أن يكون» لأنه حتى الآن لسبب غريب ما، لم يتم الحفر عنه، على الرغم من أن السلطات تعرف معرفة دقيقة أين هو.

وعلى أي حال، فالموضوع ليس متصلاً إلى ذلك الحد بالكيفية التي يبدو عليها القبر، لأن الإمبراطور الأول للصين كان بوضوح سيعطي نفسه شيئاً ما أكثر من مجرد جنازة هادئة للأسرة وللأصدقاء الأقربين. الموضوع هو أن هذا الرجل شين نجح في تنفيذ واحد من الأعمال الحاسمة في التاريخ الصيني المبكر، وهو بالتحديد توحيد الصين لأول مرة.

www.ibtesama.com/vb

في العام 230 قبل الميلاد، كان هو الحاكم لمجرد واحدة من سبع دول كانت موجودة في شمال الصين، دول كانت هي نفسها قد تشكلت من عشرات من وحدات أصغر. والصين كما نعرف اليوم لم يسبق لها أن كانت موحدة، وفي الحقيقة فإن الفترة الممتدة من 403 قبل الميلاد إلى توحيد شين، في 221 قبل الميلاد، كانت تعرف بفترة الدول المتحاربة، وتوحيده لها مازال موضع ترحيب من الحزب الشيوعي.

وأنا لست مقتنعاً أنه كان حدثاً رائعاً، مع ذلك. فتوحيد شين هو السبب الأول، السبب السياسي، الذي من أجله لم يطور نظام الصين قط الزواجر والضوابط التي برزت في نهاية المطاف في أوروبة. فشين لم يوحد الدول من خلال المفاوضات البارعة أو الدبلوماسية الماكرة، وإنما بضرب الكثير من الرؤوس معاً بشدة نوعاً ما مع استخدام أقل من انتقائي لتلك الأسلحة المصنوعة من خليطة ثلاثة عشر عنصراً. والعقيدة التي احتضنها في الغزو وفي الحكم كانت معروفة باسم القانونية. وهي ليست عقيدة من القوانين، والمكافآت، والعقوبات التي جلبت الطاعة. إن عنف شين، ووسائل الغزو القاسية، على كل حال، لم تبرهن على أنها أفضل وسيلة لحكم البلاد الموحدة حديثاً، وحين مات فجأة، في التاسعة والأربعين، في العام 210 قبل الميلاد، انتهت أسرة شين بعد أحد عشر عاماً فقط.

ولكن شين شوهوانغ كان قد وضع سابقة مهمة جداً، استمرت حية إلى هذا اليوم وهي: أن الصين يجب أن تبقى موحدة. لقد تمزقت إلى أجزاء مرات عديدة بين ذلك الوقت وبين الآن، ولكن شخصاً ما قال في كل مرة، «يجب أن يعاد توحيد الصين»، وانطلق يفعل ذلك. والرئيس ماو كان هو أحدث واحد فقط في صف طويل من الموحدين، ولو كان قدر للإمبراطور شين أن يعود إلى الصين اليوم، لاعترف بطريقة الحكومة المستخدمة من الحزب الشيوعي.

يجب علي أن أقول إنني أجد هذه الفكرة مروعة نوعاً ما، وهي أن ألفي سنة من التاريخ قد لا تكون فعلت شيئاً لتغيير النظام السياسي للبلد. تخيل أوروبة اليوم وتخيل أن الإمبراطورية الرومانية تسقط، وأنها مازالت تغطي مساحة تمتد من إنجلترا إلى شمال إفريقية والشرق الأوسط وكانت تدار من شخص واحد يقيم في

www.ibtesama.com/vb

روما، وهو مدعوم من جيش ضخم. هناك لديك تقريباً، الصين القديمة والحديثة. وحقيقة أن هذه التركيبة لم تتغير، أو كانت قادرة على التغير، في ألفي عام حقيقة يجب أن يكون لها مضامين ضخمة للسؤال: أتستطيع الصين في أي زمان أن تغير نظامها السياسي؟

التشبيه الروماني تشبيه مناسب. فالاتجاه هو إلى التفكير بالصين الحديثة على أساس الولايات المتحدة الأمريكية، بسبب تشابههما بالحجم الجغرافي. وفي الحقيقة، أن أفضل مقارنة حتى الآن لفهم الصين اليوم، هي الإمبراطورية الرومانية منذ ألفي عام، أي: كثيرون من الناس بلغات ولهجات مختلفة، وعادات مختلفة، وأساليب فنية مختلفة، بل مطابخ مختلفة، كلها مع تراث مشترك ولكنها ممسوكة معاً في نهاية المطاف بالقوة. وليس هناك معنى في القول إنك خارج لتناول وجبة صينية أكثر من المعنى في قولك إنك ذاهب لتناول وجبة أوروبية.

والتفجعات التي تسمعها باستمرار من أن البلاد كبيرة جداً وأن هناك شعوباً عديدة جداً يمكن أن يقع اللوم فيها على شين شوهوانغ. ففي ضربة واحدة، لم يخلق فقط هاتين المشكلتين بل تحقق من أنهما ستكونان خالدتين عبر التاريخ الصيني. لقد «خلق بلاداً» كانت تحتاج إلى رجل قوي على القمة لكي يمسكها معاً، وذلك المتطلب استبعد وضع أي قيود على سلطته. وعلى القمة من ذلك، أحرق كل كتب العلماء، ثم قتل العلماء أنفسهم، وبهذا أطلق سابقة أخرى بالنسبة إلى الكيفية التي تعامل بها مع أي شخص تحدى سلطة الحاكم. هذا هو، طبعاً، الموقف نحو الانشقاق والذي مازال مستمراً اليوم. الأوقات الوحيدة التي كان فيها الاختمار الفكري والمناقشات الفكرية ممكنة هي الأوقات التي لم تكن فيها الصين موحدة (مثل فترة الدول المتحاربة قبل الإمبراطور شين، أو في أثناء العشرينيات من 1920 والثلاثينيات من 1930 بعد فشل ثورة 1912). وفي كل الأوقات الأخرى، ومن جملتها الآن، كان يفرض الرأي المعتمد بالقوة.

والسبب الثاني في أن القيود على سلطة الدولة الصينية لم تتطور قط هو سبب أكثر اتصالاً بالفلسفة برز في أثناء أسرة هان، التي تبعت شين. فأسرة هان كان

www.ibtesama.com/vb

لها أيضاً عاصمتها في شانغآن، وهي اليوم مدينة شيان، ودامت حتى العام 220 بعد الميلاد. قامت أسرة هان، وهي تعي المشكلات التي سببها الحكم بقسوة شديدة، بأخذ عناصر من فكرة شين القانونية، الضرورية للسيطرة، وأضافت إيديولوجية كانت تستطيع بشكل حاسم أن تشرعن سلطة الدولة. والإيديولوجية كانت هي الكونفوشيوسية. ففي العام 124 قبل الميلاد، تأسست أكاديمية إمبراطورية علمت الأساسيات الكونفوشيوسية الكلاسيكية وجعلتها الأساس الذي تؤخذ منه الامتحانات الكتابية المستخدمة لاختيار العلماء ليخدموا في الخدمة المدنية.

هذا العمل المضاعف من الكونفوشيوسية زائداً القانونية كان هو النسخة الصينية المبكرة من التحدث بلطف، ولكن مع حمل العصا الغليظة. لقد غرست هذه النسخة الصينية جذوراً عميقة طوال أسرة هان، بل غرست جذوراً أعمق في أثناء أسرة تانغ في شيان، في القرنين السابع والثامن ودامت لمدة ألف ومائتي عام أخرى بعد ذلك، حتى بداية القرن العشرين.

كانت إحدى العواقب الحاسمة لهذا الدمج الفلسفي، بخلاف ما كان في أوروبة، هي أن كل الرجال المتعلمين الصينيين تقريباً كانوا في الخدمة المباشرة للدولة. وكان قد تم إنجاز هذا التوظيف من خلال الامتحانات في كلاسيكيات الكونفوشيوسية ومن خلال إضعاف سلطة الكنيسة البوذية كذلك. (وجود الكنيسة المسيحية في أوروبة، وهي في الغالب خارج سلطة الملوك، كان حاسماً في تطور الزواجر والضوابط على السلطة الأوروبية الملكية. وهي أيضاً نشَّأت الرجال المتعلمين الذين لم يكونوا ملتزمين بالقسم بالولاء للملك).

من الناحية الفلسفية لم تثق الكونفوشيوسية بمفهوم القانون. وهي مستندة إلى تعاليم رجل اسمه كونغ فو زي، أو السيد كونغ، مات في العام 479 قبل الميلاد، قبل عقد من مولد سقراط، وكانت مقدمته المفترضة هي أن المجتمع يجب أن يُجعل في انسجام مع النظام الكوني عن طريق الالتزام بمبادئ أخلاقية معينة. وكان يفترض أن تكون هذه المبادئ متمثلة في سلوك الحكام والمسؤولين. وقد دعا المؤرخون الغربيون هذا باسم «الحكم بالفضيلة» أو «الحكم بالمثال والقدوة،» وكانت في تضارب مع

www.ibtesama.com/vb

المحاكم والقضاة والتركيز على «الحكم بالقانون»، وبعد ذلك «حكم القانون» الذي نما في الغرب. لقد قال كونفوشيوس: «حين يكون السلوك الشخصي للأمير صحيحاً، فإن حكومته تكون فعالة من دون أن يُصدر الأوامر. وإذا كان سلوكه الشخصي غير صحيح، فإنه قد يُصدر الأوامر ولكنها لن تكون قوانين متبوعة».

لقد كانت القيادة في الصين دائماً أكثر من أي شيء آخر حول محاولتك أن تعيش حياتك بوصفك قدوة أخلاقية وأقل من ذلك حول الوقوف ومخاطبة الناس وإخبارهم بما يجب عليهم أن يفعلوه. وكانت الكلمة المكتوبة تمتلك دائماً قوة أكبر من الكلمة المنطوقة. ويحتمل أن يكون هذا هو السبب الذي من أجله لم يكن هناك قط خطباء صينيون عظماء. وحتى هذا اليوم، تند الخطابات العامة أو الخطابات بالتلفاز من طرف القادة، واحتمال أن تبث السياسات المهمة من خلال افتتاحية في صحيفة يومية للشعب أكبر من احتمال بثها من خلال خطاب يوجهه الرئيس إلى الشعب.

وإحدى المشكلات الكبيرة مع الكونفوشيوسية بوصفها فلسفة حاكمة، مع ذلك، كانت إصرارها على أن الإنسان بطبيعته خيرٌ، ولذلك فهو قابل للتعليم وقابل ليكون كاملاً. ويجب على الفرد أن يراقب نفسه («يصحح نفسه» في التعابير الكونفوشيوسية) لكي يصير أكثر فضيلة. غاية تستحق الإعجاب، بلا شك، ولكن الطبيعة البشرية وكونها ما هي عليه، أدت مع فقدان الزواجر والضوابط الخارجية على السلطة إلى الفساد التدريجي للأسر على طول التاريخ، وصولاً إلى الحزب الشيوعي الحاكم في هذا اليوم. الحزب متعفن حتى النخاع بالفساد، ولكنه طبعاً لا يستطيع أن يفعل أي شيء بشأنه، لأنه إذا وضع أي زواجر وضوابط مستقلة، فسوف يخسر احتكاره للسلطة.

والمشكلة الكبيرة الأخرى كانت طبعة الكونفوشيوسية المعتمدة المستقيمة. فخلافاً للمسيحية، التي تنظر بأمل إلى يوم الحساب في وقت ما في المستقبل، تنظر الكونفوشيوسية إلى الخلف إلى عصر ذهبي في الماضي وتحاول أن تقلده وأن تعيد خلق ذلك الزمان. وفي حين تريد المسيحية، وخصوصاً المسيحية البروتستانتية، أن تقهر الشر وتعيد عالماً مختل النظام إلى المسار الصحيح، تميل الكونفوشيوسية إلى قبول العالم كما هو، وتحاول أن تنظم العلاقات الإنسانية داخل العالم. وهكذا فعلى الرغم

www.ibtesama.com/vb

من أن أسرة تانغ رأت العديد جداً من الاختراعات المدهشة، بقيت، على ما سماه العالم المختص بالصين جوزيف ليفينسون «عنقوداً رائعاً من الخلاصات العلمية، ولكنها ليست تقليداً منسجماً من العلم المتدفق إلى التيار العالمي». ولتفسير الأسباب التي من أجلها لم تزهر المكتشفات العلمية الصينية ولم تصر ثورة علمية، يكتب ليفينسون، «ليس السبب أن أجدادهم كانوا دستورياً عاجزين عن تنشئة تقليد نام للعلم، وإنما بسبب أنهم لم يهتموا بذلك». ويقول لم يكن للعلم مكانة اجتماعية، وما كان يمكن قط أن يخطر للعلماء الصينيين التقليديين أن الثناء كان يمكن أن يُكتسب من ادعاء الاكتشافات أو الاختراعات. والقدماء لم يوجهوا مثل هذه الاختراعات إلى تقانات تغيير العالم، فلماذا نفعل نحن؟

بل إذا كان من المسموح به أن نبحث عن بطانة فضية للغيمة السوداء من الشيوعية الصينية في القرن العشرين، فإنك تستطيع القول إن الشيوعية الصينية تصرفت بوصفها إصلاحاً دينياً وتنويراً للصينيين في تدمير قيود الفكر القديم المعتمد وتحريرهم ليتطوروا. ربما ليس من المسموح به أن نقول ذلك، لأن التكلفة كانت عالية جداً، ولكن كان من الأسهل على الصين أن تتخلص من فكرها القديم المعتمَد، أسهل، على سبيل المثال، مما على العالم الإسلامي أن يفعل، لأن الفكر الصيني القديم المعتمَد لم يكن يؤمن بأنه موحى وحياً إلهياً.

مع تخفيض سلطة الكنيسة والكونفوشيوسية الإمبراطورية في المكان المناسب، بقيت هناك مجموعة واحدة مشكلة فقط من الناس الذين قد يحاولون أن يقيدوا أسلوب الإمبراطور ونخبته الكونفوشيوسية، وهي مجموعة الأرستقراطية نفسها، وهي المكافئ الصيني للبارونات المزعجين الذين كانوا قد راقبوا الملك جون وأرغموه على توقيع الوثيقة العظمى (الماغنا كارتا) في حقل رنيميد. وهذا، أخيراً، هو السبب الثالث، السبب الاجتماعي الذي من أجله لم تنشأ الزواجر والضوابط على السلطة الإمبراطورية والبيروقراطية. الإمبراطور وكبار موظفيه دمروا الأرستقراطية.

كان البارونات يستطيعون تحدي الملك جون في حقل رنيميد لأنهم فقط كانوا يمتلكون قوة مادية، وذلك نتيجة للتركيبة الإقطاعية في إنجلترا في القرن الثالث

www.ibtesama.com/vb

عشر. الصين في القرن الثامن كانت في الحال نفسه، وكانت أسرة تانغ في الأصل طوال عصر مع أرستقراطية قوية. ولكن التمردات الإقليمية وسوء السلوك العام للأرستوقراطية أقنع الإمبراطور وبيروقراطيته في أسرة تانغ المتأخرة، وأسرة سونغ، التي تبعت (960 ـ 1279)، أقنعه بكسر قوة الأرستوقراطية، التي لن تستعيد القوة أبداً. ومن المثير للعجب بالنسبة إلى مثل هذا المجتمع المتدرج هرمياً، أن الحكومة أمرت بأن توزع أرض العائلة بالتساوي عند موت الأب لمنع دمج ممتلكات كبيرة من الأرض في أيدٍ خاصة. هذا هو السبب الذي من أجله لم يكن هناك بيوت كبيرة في الريف وممتلكات وعقارات ضخمة في الصين مثلما كان يوجد في كل أنحاء أوروبة. وبعد أسرة تانغ، لم يكن مسموحاً لمثل هذه العائلات ببساطة أن تظهر.

ولم يبن الأوروبيون بيوتاً ريفية فقط، ولكنهم بنوا كذلك طرقاً مختلفة للرفاهية والاحترام ـ الكنسية، والقانون، والأعمال التجارية، والقوات المسلحة. وأما في الصين مع نهاية القرن الحادي عشر، وعلى الرغم من الحقيقة المتمثلة في كون الصين هي أكثر الحضارات المُتَحَضِّرَة والمتحضرة على وجه كوكب الأرض حتى ذلك الوقت، فقد صار المسار الرئيس، والوحيد تقريباً إلى الرفاهية والاحترام هو أن يصير الشخص مسؤولاً من خلال نظام الامتحان الكونفوشيوسي.

وعلى الرغم من أن الصين انتُقِدت بالنسبة إلى تاريخها من حكم الفرد المطلق، فمن المثير للتهكم، أن تأكُّل سلطة الأرستقراطية ومؤسسة البيروقراطية الكونفوشيوسية عنت أنه كان هناك حراكية اجتماعية في الصين أكثر بكثير مما كان موجوداً في أوروبة القروسطية. السلطة لم تكن وراثية. كانت توزع من خلال الامتحانات، التي كان أي شخص يستطيع أن يدخلها.

ولا بد أن يكون هذا واحداً من الأسباب التي من أجلها ما زال يوجد الكثير من الانتباه الموجه إلى التعليم (والامتحانات) في الصين في كل المجتمعات المستندة إلى الكونفوشيوسية، تماماً مثلما يوجد في المجتمع المشابه في الولايات المتحدة المستند إلى المقدرة. وهذا مختلف جداً عن بريطانيا وأوروبة، حيث كانت الجامعة تاريخياً مجرد إعداد للكنيسة أو لإنهاء المدرسة من أجل الطبقات العليا (الوراثية). حين أخبرت

www.ibtesama.com/vb

الناس في إنجلترا بأني كنت ذاهباً إلى الولايات المتحدة لأدرس دراسات عالية، كان الرد عموماً «لماذا؟ ألم تذهب إلى المدرسة لمدة كافية من قبل؟» لا يوجد صيني أو أمريكي يمكن في أي وقت أن يسأل مثل هذا السؤال.

والسؤال الكبير الآن، مع ذلك، هو هل كانت الصين سوف تتغير وتسمح بالحكم المستقل للقانون أن يترسخ، بعد أن اصطدمت الحكومة الصينية مع حضارة تمتلك فعلاً حكم القانون، وبعد أن تم جرها وهي ترفس وتصرخ إلى عالم معولم تكون فيه العقود والمحاكم والاستقلال القضائي مهمة، هل ستبدأ الحكومة الصينية بالسماح ببعض القيود على سلطة الدولة؟.

أو، وهو أكثر أهمية، ومع كل ذلك الحمل التاريخي والفلسفي هل تستطيع أن تسمح بمثل هذه القيود؟ أنا لست متأكداً من أنها تستطيع. وأنا أعتقد أن القيود على سلطة الحكومة قد تكون مناقضة لكل مفهوم الصين، ولوجودها بصفتها دولة. وأعتقد أن الحاجة إلى حكم الفرد المطلق لمجرد مسك الصين معاً فقط ربما قد تجعل البلاد غير قابلة للإصلاح بشكل أساسي، وعاجلاً أم آجلاً فإن طاغوت الاقتصاد سوف يضرب بشدة ضد جدار التاريخ الصيني الذي لا يقبل التحرك.

ولكنني لست متأكداً. ولو وجد شيء من مثل هيئة المحلفين في القضاء الصيني، لاعتقدت أنه سيبقى في الخارج من ذلك القضاء.

سو جونغشو يفتح حاسوبه، حاسوب الحضن (لاب توب) ليريني بعض النسخ الرقمية من فنه الصيني المفضل. وينقر على نقطة اتصال، وتقفز فجأة صورة جثتين لطفلين صغيرين إنسانيين، مسندتين معاً مثل تماثيل المحلات التجارية، للمشاهدة في معرض في بكين.

وأتجنبها مبتعداً عن الصورة، متقززاً.

وهو يبتسم. وينتقدني: «أترى. أنتم، الغربيين، رقيقون جداً، وناعمون جداً».

سو فنان طليعي وهو يدرِّس الفن أيضاً في جامعة في شيان. ونحن نتقابل في غرفة شاي في مركز البلدة. وهو رجل طويل له ابتسامة مضحكة، ولكنك لن تعرف من مظهره العادي عن ذوقه المذهل في الفن الحديث.

www.ibtesama.com/vb

وصلت إلى شيان وأنا أفكر في أنني سوف أستغل الفرصة لاستكشاف المشهد الثقافي للمدينة، ومن خلال صديق لي، صادفت مجموعة من الفنانين والمصورين، ومن جملتهم سو جونغشو.

والفن، مثل أشياء أخرى كثيرة غيره في تاريخ البلاد، كان ضحية للفكر الصيني المعتمد التقليدي. ففي وقت ما يقارب أسرة تانغ من القرن الثامن، تم وضع الأسلوب الرسمي، وكان الفنانون الصينيون طوال الاثني عشر قرناً التي تلت قد حاولوا مضاهاته. وذلك لا يعني أنه كان أسلوباً سيئاً للرسم. فهو مثل نظام البيروقراطية الكونفوشيوسية للحكومة، كان جيداً جداً، وكان بالتأكيد متقدماً إلى حدٍ كبير أمام ما كان يجري في أي مكان آخر في العالم. ولكن المشكلة مع الفن مثلما هي مع البيروقراطية الحكومية، هي أنه بقي على تلك الطريقة لأكثر من ألف عام.

ومن المؤكد، كانت هناك فترات من إعادة القوة للتقاليد الصينية عبر العصور، ولكن يمكن القول على وجه العموم، إنه لم يكن هناك أي تصور للحاجة إلى عصر نهضة، وذلك لأن كل الحياة الصينية كانت من قبلُ واحدة من العمليات الكبيرة لإعادة إفراغ مادة قديمة في قالب جديد من الفن، والأدب، وتعليم القدماء.

الفن الصيني التقليدي قال الكثير عن رؤية العالم الصينية. وفي حين كان شخص المسيح قد ركز الكثير جداً من الفن الغربي على الشكل الإنساني، كان الفن الصيني دائماً عن المناظر الطبيعية بشكل أكبر - عن الجبال والأنهار - مع لعب الأشكال الإنسانية مجرد أدوار صغيرة في الدراما الطبيعية وفي عظمة الرسم.

الكونفوشيوسية التقليدية المعتمدة تحطمت، ووقع كل تقليدي تحت الهجوم، وتمتع الفن الحديث بازدهار مختصر في المدن الكبيرة في الأيام المتهورة في العشرينيات من 1920 وفي الثلاثينيات من 1930. ولكن الفن آنئذٍ، مثل كل شيء غيره، أخضع للاحتياجات التقليدية المعتمدة الشيوعية الجديدة، وخرج الفن من أجل الفن من النافذة.

www.ibtesama.com/vb

في الثمانينيات من 1980، في الفن مثلما هو الحال في مجالات عديدة جداً، ظهرت الصين من قوقعتها الماوية، وحاولت أن تجد حلاً لمسألة من أين تستأنف فنها من بعد ثلاثين عاماً من الهجوم على الثقافة الصينية التقليدية؟وكانت النتيجة خلطة من عودة إلى الأشكال الصينية الراسخة وتقدم سريع إلى الأمام إلى أسلوب ما بعد الحداثة بشكل كامل، وهو ما يدفع حدود الفن إلى أكثر مما هو بعد الحداثة الغربية كذلك. وإذا كان الفن الصيني التقليدي مغروس الجذور جداً في التراث، فإن الفن الصيني الحديث يواجه خطر الاقتلاع بالكامل من جذوره. وهذا لم يوقف الفن الصيني المعاصر من أن يصير دارجاً بشكل كبير حسب الطراز الحديث بين أغنياء الصين الجدد، وعالمياً أيضاً. ففي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2006، بيع رسم للفنان الحديث ليو شياودونغ في مزاد بكين بمبلغ 2.7 من ملايين الدولارات.

وسألني سو: «وهكذا فمن تحب أنت؟»

«إ إ إ... جاكسون بوللوك؟» وأنا أعرض للقبول، وأنطق وكأنني أصرخ في خمسين سنة متأخرة فيما بعد نقاش ما بعد الحداثة.

ويقول: «إنه وسط نوعاً ما. ماذا عن ديا ميان هي سي تي؟»

«من ؟»

«ديا ميان هي سي تي. لقد عمل ذلك الشيء مع سمكة القرش».

وهو يرفع حاجبيه. بالتأكيد أنا لا أستطيع أن أكون ذلك الخاسر بأني لم أسمع عن ديان ميان هي سي تي.

وأستنقذ صدقيتي «داميان هيرست !»

ويقول: «صحيح. أنا أحبه».

ويستمر سو قائلاً «أنتم، أنتم أيها الغربيون، جئتم لنا بتصور جديد للفن. هذه الفكرة، فكرة تحدي العيون. اعتاد فننا أن يكون كله عن الانسجام، مثل مجتمعنا، جبال، وماء، ومناظر طبيعية، والتوازن. اعتاد أن يكون منفصلاً عن العمل القذر

www.ibtesama.com/vb

للحياة الحقيقية. بعدئذٍ قال فنانوكم: نريد أن نتحدى الأخلاقيات الغربية بفننا، وقد فعلوا. وهذا طبعاً سبب عاصفة. لماذا؟ لأنكم، وبرغم أنكم أحرار في الغرب في أن تكونوا ملحدين، وأحرار في أن تكونوا هجوميين إن شئتم ذلك، فليس كل واحد منكم كذلك. مازال يوجد الكثير من المؤمنين المتدينين. وهنا، مع ذلك، لا يوجد دين، ولا حساسية بشأن ذلك النوع من الأشياء. كل شيء ممكن. والآن يقول الفنانون الصينيون: «نحن نستطيع أن نفعل هذا، نحن ماركسيون وملحدون، نحن نستطيع أن نفعل هذا، ونحن نستطيع! ونحن نفعل!»

وبدا هذا مشابهاً للمناقشة التي طرحتها بيه شا، مقدمة البرنامج الإذاعي للمقابلات في شانغهاي. والفكرة هي أنه لا يوجد أي شيء بعد الآن في الصين يحدد التقليد المتبع، في الأخلاقيات أو في أي شيء عداها، ولذلك فالناس يفعلون ما يريدونه لا غير.

«لقد أتقنا نحن الحداثة التي أدخلتموها، وهل تعرف لماذا؟» ويخفض سو رأسه ويرفع حاجبيه ثانية، وهو يتحدث مثل رجل نادراً ما كان لديه أي شخص ليصغي إلى نظرياته».لأن الحياة هنا في الصين قاسية. وهكذا فالفن مجرد مرآة للحياة. مرآة للحياة والموت، والحب والبغضاء، والجنس والعنف. الناس في البلدان الأخرى لا يواجهون الضغط للبقاء على قيد الحياة مثل الضغط الذي يواجهه الشعب الصيني. في الغرب، أنتم لا قضايا لديكم، لا مشكلات، ولديكم تعليم حر، لديكم رعاية صحية، تملكون كل شيء. وهكذا فإن فنكم مثير جداً للسأمة. هنا، يكون هدف الفنانين الحديثين هو التعبير عن أنفسهم. يريدون أن يخلقوا نوعاً من الحرية السياسية من خلال فنهم. نحن لا نستطيع أن نعبر عن آرائنا في الكثير من القضايا السياسية، ولكننا نستطيع أن نفعل ذلك من خلال فننا».

وأنا أسأل: «ولكن هل يهتم أحد بذلك ؟»

يتوقف مع ابتسامة وتنهد حسرات. «لا. وتلك هي النقطة. تلك هي المشكلة. الفن ترف. ولا يمكن تقديره إلا من أناس بلغوا مستوى معيناً من المعيشة فقط. الأسماء المائة القديمة يريدون فقط أن يكسبوا مالاً كافياً ليعشوا بسلام. ليس لديهم رغبة في أن يعبروا عن أنفسهم من خلال الفن، أو أن يقدروا الناس الذين يفعلون».

www.ibtesama.com/vb

وبعدئذٍ يحوّل سو الكلام ويربط ربطاً كاملاً الحاجة إلى الحرية الفنية والإبداعية مع مستقبل الصين. «لا تستطيع الصين أن تصير البلد القوي والغني الذي تريد أن تكونه إذا لم تسمح بالمزيد من التفكير الخلاق. طبعاً، الفن هو جزء من ذلك. الفن يساعد على تطوير خيال الناس وإبداعيتهم».

وهو يقول إنه، قبل أيام فقط، كان قد رأى قصة في الأخبار في الإنترنيت تروي أن الرجل الذي ساعد الصين على تطوير القنبلة الذرية، شيان هسوتش ـ سين، كان مريضاً. وكان قد زاره رئيس الوزراء، وين جياباو في المستشفى وسأله عما كان يريد أن يقول في نهاية حياته؟

ويروى أن شيان كان قد أخبر رئيس الوزراء وين: «نحن نحتاج إلى المزيد من التجديد. نحن لا ننشئ أي أناس خلاقين. نحن ننتج فنيين».

سو مبتهج يشعر بالنصر من فكرة أن أعلى عالم في الأمة له نفس الرأي الذي يراه، وأن الرجل البالغ من العمر أربعة وتسعين عاماً يختار ذلك الرأي ليكون كلمة النصيحة التي تقدم إلى رئيس وزراء الأمة من سرير مرضه.

ونحن ننهي كوب شاينا ونستعد للمغادرة، يقول: «هذا ليس فقط عن الفن. نحن نتحدث عما يلزم من أجل بقاء مجتمعنا على قيد الحياة. تريد الحكومة تعليماً متقدماً من دون أن تشجع الناس على التفكير».

ولا يمكن أن يكون هناك خلاصة أفضل للمأزق الصيني اليوم: التوتر بين الحاجة إلى فرض الفكر المعتمد لكي تُستبقى الوحدة وبين الحاجة إلى السماح بالحرية لكي تُشجع الإبداعية. وبالنسبة إلى اللحظة الحالية، وفي مدن مثل شيان على الأقل، رَشَت الحكومة الكثير من الناس بالتطور الاقتصادي. فإذا كنت تستطيع أن تجعل الناس يفكرون فقط بشأن الاكتساب والصرف، والاكتساب والصرف، فإن رغبتهم في أن يفكروا لأنفسهم تكون أقل احتمالاً. ولكن ماذا يحدث إذا تضاءل مخدر الرفاهية في المدن مثلما تضاءل في الأرياف؟ وفي عالم اليوم المعولم، كيف تستطيع أن تصير قوة كبيرة على أي حال ـ بلد سوف يتقدم وينجح ويحتمل ـ إذا كنت لا تسمح لشعبك أن يفكر؟

www.ibtesama.com/vb

10

«ناسك الجبل المزهر»

يقول جونغ ليانجيه: «أنا روح ضائعة، فأنا أشعر كأنني ضللت طريقي».

نحن نجلس في مقهى في شيان. جونغ فنان ومصور شاب جداً ويبلغ من العمر أربعين سنة ونيفا. وأنا أقابله لأنه متوجه في اليوم التالي إلى هوا شان (وتعني الجبل المزهر)، وهو واحد من جبال الصين المقدسة، ويبعد مسافة قيادة ساعتين في السيارة خارج مدينة شيان. وأنا أيضاً متوجه إلى هناك.

ويملك جونغ ليانجيه شعراً أسود طويلاً، وهو مربوط على شكل ذنب حصان، ويلبس قميصاً أسود بلا أكمام على شكل تي T ويلبس بنطال جينز. وكان قد ترعرع في بكين ووصل نضجه فناناً في الثمانينيات من 1980، كما يقول، حين: كانت المثالية مازالت موجودة، وكانت البطولة مازالت موجودة» في الصين. ويقول: ومع سحق المتظاهرين من أجل الديمقراطية على أيدي قوات الحكومة في العام 1989، تغيرت الصين كما يقول. خرجت السياسة، خرج التجريب، خرج كل شيء عدا جمع المال. وهكذا انتقل جونغ إلى نيويورك، التي مازال يقضي فيها قسماً من العام.

ونجلس لوقت طويل نناقش «موت البطولة» في الصين، وجونغ يقول إنه يفتقد شيئاً ما في حياته، في أعماق القلب.

ويقول «قررت أن أهرب من العالم الحديث لمدة أسبوع، وأذهب لأعيش مع ناسك طاويٍّ يعيش على الجبل المزهر».

وأرفع حاجبي وأقول «أيوجد ناسك طاويّ على الجبل المزهر؟»

«نعم. قابلته حين زرت هناك في العام الفائت. وأنا ذاهب للإقامة معه، في كهفه، لمدة أسبوع».

www.ibtesama.com/vb

«لماذا؟»

«لأستكشف نفسي ثانية. ولأعاود الربط مع... شيء ما. أنا لا أعرف ما هو».

«هل أستطيع المجيء؟» أعني، هل أستطيع مقابلة الناسك؟»

«حسناً..». ويتوقف عن الكلام.

وأسأله «حسناً، هل أستطيع على الأقل أن أزور الناسك لمدة وجيزة؟ ولن أتطفل على خططك الخاصة».

«لا بأس، إذا، لا أعتقد أنه سيمانع».

ومع ذلك الاتفاق، نرتب أن نلتقي في فندق كهف المرأة ذات الشعر، هيري وومن كيف هوستيل، في منتصف الطريق صعوداً في الجبل، في اليوم التالي.ويعطيني جونغ التوجيهات اللازمة للوصول إلى الفندق وبعدئذٍ يخبرني أين يقع المسار المخبأ الذي يقود إلى كهف الناسك.

يوجد تقليدياً خمسة جبال طاوية مقدسة في الصين، واحد في كل نقطة من النقاط الأربع في البوصلة، زائداً واحداً في المركز، وهي تصل رمزياً السماء بالأرض. والجبل المزهر هو الجبل المقدس في الغرب. ويقال إن قممه الخمس تشبه زهرة لها خمس بتلات، ومن هناك جاء اسم الجبل المزهر.

وكلمة داو أو طاو (التي كانت تهجأ تاو في العادة) تعني «الطريق» في اللغة الصينية وتشير إلى طريق الكون، والنظام خلف الطبيعة، والقوة داخل الطبيعة. وفي حين تعد الكونفوشيوسية نوعاً من الفلسفة الاجتماعية، وفي حين جاءت البوذية من خارج الصين، تستطيع الطاوية أن تزعم بأنها «الدين» الصيني المحلي الحقيقي. إنها كلها تدور حول إيجاد الإنسان مكانه في التوازن الكوني العظيم للأشياء. وعلى عكس الأديان التوحيدية، في تأكيدها على الخير يحارب الشر، ففي الطاوية هناك ما يعرف باسم وحدة الأضداد. فالخير والشر، والنور والظلام، والقوة والضعف، والفراغ والامتلاء، كلها جزء من الكل نفسه، وكل واحد منها ضروري للآخر. والطاوية أيضاً مرتبطة

www.ibtesama.com/vb

ارتباطاً وثيقاً بمفهوم فنغشواي (fengshui)، ويعني قواعد التنبؤ بالمكان التي يعتقد أنها تحكم الانسجام الكوني حين يتقرر أن توضع المباني والأضرحة. وكان يعتقد أن الفنغشواي للجبل المزهر متراصف تراصفاً كاملاً وأسهم بقدسية الموقع، الذي اجتذب الحجاج من كل أنحاء الصين.

كان يقال في الصين القديمة إن العالِم الصيني التقليدي كان كونفوشيوسياً حين يكون في المنصب، وهو طاوي حين يكون خارج المنصب، كانت الطاوية من عدة وجوه نقيض الكونفوشيوسية، على الرغم من أنها جاءت لتكمل الصفات الكونفوشيوسية داخل الشخصية الصينية. ففي حين شدد كونفوشيوس على النظام والواجبات وإيجاد الإنسان لمكانه في المجتمع، ركزت الطاوية تركيزاً أكبر على الأسئلة الماورائية، على إيجاد الإنسان مكانه في الكون. كان لها علاقات مع الأديان الشعبية. وكانت مرتبطة بالخيمياء والسحر، وبالتأمل وسيطرة الحمية. الكونفوشيوسية تبعت قواعد «السلوك السليم وفقاً للمكانة». أما الطاوية فاتبعت مفهوم «اللافعل».

والتحقت البوذية فيما بعد بالفلسفتين، وكانت البوذية قد وصلت من الهند في القرن الأول بعد الميلاد. وانضَفَرت الثلاثة معاً، واستعارت الواحدة من الأخرى، في عقول الناس على الأقل، وأنشأت هيكلاً سخياً للآلهة الصينية والمعتقدات. وغياب الإيمان التوحيدي الذي يدعي أنه موحى بوصفه حقيقة إلهية هو بلا ريب واحد من الأسباب التي تجعل الشعب الصيني يزعم أنه لم يقاتل قط حرباً باسم الدين، ولكن بعض المفكرين الصينيين يأسفون بشدة من أن فقدان أي مفهوم جازم من الحقيقة الموحى بها قد أدى إلى نسبية أخلاقية غير صحية في العقل الصيني. كانت الحقيقة دائماً نسبية في الصين، في حين لم تكن السلطة السياسية كذلك، كما يقولون، والشيء نفسه مازال صحيحاً اليوم.

وأنا أستطيع أن أرى لماذا دعا الأقدمون الجبل المزهر مقدساً. إنه مكان يوحي بالعالم الآخر على نحو خيالي. فأعلى قمة ترتفع سبعة آلاف قدم فوق السهل، ووجوهه الصخرية البيضاء تتألق مشرقة في ضوء الشمس. والأشجار الصنوبرية تلتصق

www.ibtesama.com/vb

بصفائح الصخر الحادة، وبطريقة ما تجد شقوقاً لتعلق فيها جذورها كالمخالب. والشجيرات الخضراء الأخرى والأعشاب تجد ممسكاً لجذورها أيضاً، وتتابع نازلة كالشلال في الصخر مثل ضفائر من الشعر على جبل هو فيما عداها أصلع.

حين وصلت القوى الغربية مع آلاتها ومدافعها في القرن التاسع عشر، وجدت البلاد مازالت مشربة بالبحث عن توازن الطاوية وانسجامها. ولكن الطاو برهن على أنه درع غير فعال ضد شعب المحيط المندفع، والمتطلع قدماً. وحين كانت الصين في القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين تتلمس طريقها من أجل أن تصد الغزوات الأجنبية، وصل الأمر بالمصلحين والثوريين معاً أن ينظروا إلى أنظمة الاعتقاد التقليدية بوصفها جزءاً كبيراً من المشكلة. وقد وضع الشيوعيون إيمانهم، وهم يجمعون الدعم في العشرينيات من 1920 والثلاثينيات من 1930، في قهر الطبيعة، لا في إيجاد الانسجام معها. لقد رأوا فلسفات الصين التقليدية بوصفها فلسفات ممسكة بالبلاد في التخلف. ولكن الشيوعيين، بدل أن يزيلوها بهدوء، شنوا عليها هجوماً على نطاق كامل، وبعد العام 1949 كان الكثير من المعتقدات الصينية التقليدية قد مسح، على السطح على الأقل.

ونتيجة لذلك، وبعد ستين عاماً من الهجمات الشيوعية، تستطيع الصين أن تظهر بوصفها مكاناً بلا روح على نحو غريب. فلا يوجد نساك هنا، من الرجال المقدسين الذين يُروْن في كل بلدة في الهند اليوم، وهم يلبسون أثوابهم الزاهية البرتقالية. وهناك قليل من الاحتفالات الدينية العلنية أو التقاليد التي تقارن، على سبيل المثال، مع غسل الذنوب والخطايا في نهر الغانج. وليس هناك ما يقارن مع حج المسلمين إلى مكة المكرمة، أو شعائر الصلاة وانضباطها خمس مرات في اليوم. في الصين، يحتمل أن تقابل بائعاً جوالاً يبيع الهواتف الخليوية الجوالة من بيت إلى بيت أكثر من احتمال أن تقابل رجلاً مقدساً يتنقل من مكان إلى آخر يوزع الحكمة.

الهند والشرق الأوسط استبقوا روحانياتهم الخاصة بهم، وهو ما لم تفعله الصين. وعلى الرغم من أنه يوجد الآن عودة لظهور الاهتمام ببعض الأديان الشعبية ونمو في النشاط الديني في أنحاء البلاد، تشعر الصين في التيار الرئيسي منها أنها علمانية

www.ibtesama.com/vb

جداً. وأنا لا أعتقد أنها صدفة أن تملك الصين أيضاً معدل نمو اقتصادي أسرع من مناطق العالم الأخرى. فالصين بتدميرها لطرقها التقليدية للتفكير، قد استأصلت أي قيود أخلاقية في مطاردة متهورة قدماً نحو الثروة والتطور.

وكأنما للتعبير عن هذه الفكرة، تقف محطة طاقة ضخمة تنفث الدخان غير بعيد عن المدخل إلى الجبل المزهر، محذرة الحجاج الذين يمكن أن يحجوا إلى ذلك الجبل، من أنه لم يبق بعد اليوم المكان المقدس الذي كان عليه في سالف الزمان. وقد بنيت طريق سكة حديدية على طول أسفل الجبل، أيضاً. ليس هناك شيء مشابه تماماً لقطار شيان بكين السريع ليهز بصليله رأيك عن الفنغشواي، قواعد الانسجام والتوازن.

بعد أن أُخِّرت في مغادرتي، أقرر مع الأسف أنني لا أملك الوقت لتسلق يدوم خمس ساعات إلى قمة الجبل إذا كان علي أن أعود وأهبط راجعاً إلى فندق هيري وومن كِيفّ هوستل مع غروب الشمس. ولذلك أركب عربة كبلية، يجرها كبل، إلى منتصف الطريق صاعداً وأتسلق في الحرارة إلى أخفض قمم الجبل، الذروة الشمالية. وهنا أيضاً منظر مذهل فوق الذرى المختلفة التي تكوّن الجبل المزهر. وفي كل المحيط توجد دوامات كبيرة من الحجارة، مثل دوامات ماء من صخر أبيض يختفي في الجبال، ووجوه صخرية كانت طوال آلاف السنوات تهمس للمسافرين: «ابقوا ساكنين». «أوجدوا التوازن». «اتبعوا الطاو».

اما الآن، فقد غطت أصوات السياح المتنافرة على الصمت. وقد يكون فلاحو الصين منطلقين على الطريق ليجدوا لهم عملاً، ولكن الطبقات الوسطى الجديدة خارجة تسافر، وتستكشف، وتسير إلى الأركان الأربعة من بلادها وما وراء ذلك. وأنا لا أكاد أستطيع التحرك على الجبل بسبب السياح الصينيين المتأثرين المنفعلين، وأتعرق على طول المسرب الجبلي الضيق معهم سائراً نحو الدرجات الشديدة الانحدار صعوداً إلى الذروة الثانية. وامرأة شابة، في إجازة مع أسرتها من بكين تريد أن تجرب لغتها الإنجليزية. وتطلب أن تلتقط لها صورة معي. («ها هي أنا مع أجنبي! انظروا كيف يتعرق مثل خنزير!») وأمكث عشرين دقيقة، وعقلي يهرب من الجماهير وينجرف راجعاً إلى قدسية الماضي، ثم أبدأ بالهبوط المنحدر جداً نازلاً في العودة.

www.ibtesama.com/vb

فندق هيري وومن كيف هستل صغير، وفيه غرف قليلة فقط مع بعض أسِرَّة منامة كالتي توجد في مدرسة داخلية. والفندق ليس داخل كهف، ولم تكن هناك امرأة ذات شعر (على الأقل لا أراها)، وعلى الرغم من أنه كانت على ما يبدو سابقاً في ضباب الزمن، فالنزل مبني بأسلوب صيني تقليدي، وهو يجثم بين واجهة الجبل الحاد وانعطافة في المسرب المتعرج الذي يؤدي إلى القمم. ومركزه في فناء تقليدي، وهو المكان الذي ألقي فيه حملي اليومي بعد المشي لعدة ساعات نازلاً من الذروة الشمالية. وقد قال جونغ الفنان الضائع إنه سيمضي اليوم يلتقط الصور في طريقه صاعداً في الجبل المزهر. وكنا قد اتفقنا ألا نستخدم هواتفنا الخليوية الجوالة على الجبل. فقد كان يبدو عمل ذلك منافياً نوعاً ما للقدسية، وخصوصاً بالنظر إلى أنه قادم إلى هنا ليبتعد عن كل ذلك.إن الوصول إلى الفندق يعطي شعوراً بالتحرر نوعاً ما وليس لدي أي فكرة متى سيصل، ولا أي طريقة لأكتشف ذلك. ربما ضاع على الجبل المزهر.

ويحضر لي صاحب النزل طاساً من حساء المعكرونة الطويلة. ثم أجلس فقط في الفناء أشاهد الجبل. وتغرب الشمس الذهبية القاسية، ويرتفع القمر الحليبي اللون اللطيف، ثم تنبسط سريعاً سجادة من النجوم الجميلة عبر السماء الصينية السوداء بلون الحبر.

أحياناً في الصين، وفي الحقيقة نادراً على نحو مثير للدهشة، تمسك بك روح المكان، المشرب بتلك الآلاف الخمسة من السنين من الحضارة المستمرة وتملؤك بالبهجة. فجأة تكون مرتبطاً مع التاريخ الصيني الرائع، وربما يكون هو السبب الذي من أجله قد جئت، وربما من أجله مكثت، وبالتأكيد هو الذي من أجله تتساءل بتعجب إن كنت تستطيع، أو كنت يجب أن تغادر في أي وقت. أنا لا أستطيع أن أتذكر آخر مرة في حياتي فقدت فيها مسار الزمان، ولكنني أجلس هناك في فناء فندق كهف المرأة ذات الشعر، هيري وومن كيف هوستل، طوال ساعات، أنظر إلى الجبل الذي يضيئه القمر، أركض عبر محفوظات عشرين سنة من أشرطة السينما العقلية في دماغي. وأحاول أن أستذكر قصائد أسرة تانغ تلك التي تعلمتها في الكلية.

www.ibtesama.com/vb

كأس من الماء، تحت الأشجار المزهرة،
وأنا أشرب وحدي، ما من صديق قريب،
وأرفع كأسي أومئ إلى القمر المنير،
لأنه هو، مع ظلي، سيصنع ثلاثة رجال.

يبدأ تيار مستمر من المتسلقين في الليل بالعبور بالقرب من النزل، فهم لا يستطيعون افتقاد بابه على مسرب المشاة الوحيد الصاعد إلى قمة الجبل. عشرات من الناس يختارون التسلق في الليل لكي يصلوا الذرى في الوقت المناسب لشروق الشمس. وهم يشترون الماء أو يجلسون لتناول طاس من حساء المعكرونة الطويلة، أو يأخذون قسطاً من الراحة من التسلق لا غير. كثيرون منهم طلاب، يستغلون عطلة الصيف ليأتوا للاستكشاف. والمحادثات هي دائماً نفسها، العوالم الصغيرة للنفس الصينية المتغيرة، عقول الشباب تندفع بسرعة في الاتجاه المعاكس لعقلي.

وأسأل «من أين أنت؟»

«هوباي، ولكنني أدرس في بكين».

«وماذا تدرس؟»

«علوم الحاسوب».

«هل تعرف ما هي الطاوية ؟»

«لا في الحقيقة. نحن لا نتعلم عنها في المدرسة».

«مرحباً. من أين أنت؟»

«هونان، ولكنني أدرس في شنغهاي».

«هل تعرف ما هي الطاوية ؟»

«شيء ما عن الطبيعة، أليس كذلك؟»

«وماذا تدرس؟»

«هندسة معلومات إلكترونية».

www.ibtesama.com/vb

في الصباح التالي أنطلق مبكراً إلى كهف الناسك. فصاحب النزل يقول إن صديقي جونغ وصل متأخراً جداً في الليلة الماضية، وهكذا أقرر ألا أوقظه. فهو سيشق طريقه صاعداً إلى الناسك اليوم، وهكذا فسوف أقابله إمّا على الطريق أو حين يصل هناك. انطلق في السابعة، ولكن الحرارة كانت قد تجمعت من قبل. ومدخل المسرب المؤدي إلى الكهف مخبأ، ولكن جونغ كان قد أخبرني كيف أجده. حين أصل إلى النقطة التي أعتقد أنه كان قد وصفها لي، أتسكع للحظة لأدقق أنه ما من أحد آخر قد رآني. فأنا لا أريد أن يتبعني حشد من السياح الصينيين في حجي. وحين يكون واضحاً أنه لا يوجد أحد في المكان، أندفع كالسهم في الفجوة الموجودة بين الأشجار وأدخل إلى الغابة. ويصير المسرب الحجري في الحال مسرباً بسيطاً في الغابة، تتبعثر فيه أوراق الشجر والتوت البري. هناك إحساس مفاجئ بالسرور، حال الابتعاد عن الجماهير على مسرب لا يعرفه إلا قليل من الناس.

إنه تسلق قاس، وسريعاً يصير قميصي مشبعاً بالعرق. وأصل إلى منعطف يوجد فيه صخرة ضخمة وجهها نحو مسرب السياح وتقدم منظراً رائعاً من جلال الجبل المزهر نفسه الجبل ذي اللون الأصفر الباهت. ويعطي شعوراً كأني فيه أنا الشخص الوحيد لعدة أميال مجاورة.

بعد استراحة قصيرة، أكافح صاعداً في المسرب ثانية، وأنزلق أحياناً على الوسخ الرطب، الأسود. والمفروض أن صحتي سليمة. والمفروض أنني أتمرن للاشتراك في الماراثون. وتزداد الحرارة وأبدأ باللهاث. يجب أن يكون هذا مستحقاً للتقدير. ويجب على هذا الناسك أن يمتلك شيئاً ليقوله لنفسه. بعض مؤشرات أسلوب الحياة الصحي على الأقل.

يوجد طحالب على الجبل المزهر. والطحلب واحد من الأشياء المفضلة عندي في كل العالم، وهو الطحلب الأخضر الغامق، والشديد الرطوبة والأسود ولدى الصين الشمالية القليل منه، لأنها لا تمطر قط. الجبل المزهر عليه الكثير، الملتصق بالصخور، والمتشبث بالأشجار، وبأي جذور وبأي لحاء يستطيع أن يجده. وأقف من حين إلى آخر كي ألمس الطحالب فقط.

www.ibtesama.com/vb

بعد ما يقارب الساعة والنصف من التسلق صاعداً في الجبل مع التعرق الشديد، تبيّنت أمامي مجموعة من الدرجات الحجرية، بعضها مكسور، ومعظمها صار أخضر مع الزمن، وتؤدي إلى قنطرة حجرية في القمة، أتسلق الدرجات وأنظر من خلال القنطرة إلى حديقة ضئيلة.

في خلفية الحديقة توجد بلاطة ضخمة بيضاء من صخر الجبل المزهر، مثل جُلجُثة صينية، أي، مثل التلة، بارزة من الجبل نفسه. وتوجد ثلاثة أبواب دخول إلى الكهف مقطوعة في الصخر.

وأمام الكهوف، في الأعلى إلى اليمين، خلف بعض زهور عباد الشمس الكبيرة وبقعة خضروات مفرطة في النمو، توجد درجات تقود إلى كوخ صغير. وأمشي ماراً على الكهوف وأنادي بلطف. «أيوجد أي شخص هنا؟»

صمت.

ثم فجأة ترفع الستارة المنسدلة على عرض باب الكوخ ويخرج منها رجل صغير في بنطال قصير أزرق وقميص علوي قطني أحمر بلا أكمام.

وعلى نحو ما لم أكن أتوقع أن يظهرالراهب، كما لو أنه كان ذاهباً ليقوم ببعض الجري.

وأسأل: «هل أنت الراهب الطاوي شيو؟»

ويجيب وهو يبتسم ابتسامة لطيفة: «نعم أنا هو». يبدو كأنه ربما في منتصف الثلاثينيات من عمره، وله وجه عريض وذقن صغيرة مشذبة طويلة بما يكفي لتكون خصلة رفيقة القوام بشكل لطيف في النهاية. وشعره الأسود الطويل مسحوب إلى الخلف في شكل كعكة.

وأشرح له من أنا، وأنني صديق الفنان جونغ الذي سيصل فيما بعد في هذا اليوم، وأنني أكتب كتاباً. وأسأله إن كان مهتماً في التحدث إلي لبعض الوقت.

ويقول: «ليس هناك أي مشكلة. فأنت موضع ترحيب».

www.ibtesama.com/vb

على الرغم من أنني أعمل (أو ربما بسبب ذلك) في أكثر المهن اتصالاً بالدنيا وتناغماً معها على ظهر هذا الكوكب، مهنة مربوطة بأسلاكها 24/7 مع ما يحدث في أنحاء الكون، يجب أن أعترف، أنني أمتلك نزعة رهبانية على نحو جاد. فأنا أحب عملي، والأخبار، والسفر، والكتابة، والاتصال الفكري مع العالم، ولكنني أشعر، على فترات منتظمة، بالحاجة إلى أن أخرج وأبتعد عنها كلها، بالحاجة إلى أن أتسلق جبلاً وأن أهرب لا غير. وحين نذهب في عطلة إلى إيطاليا الريفية، أتجول بعيداً كي أجد أديرة، وأحياناً تعجب زوجتي وتتساءل إن كنت عائداً. منذ سنوات قليلة وقعت بالصدفة على دير قديم رائع عاشت فيه مجموعة من الرهبان الصامتين. وأنا التحقت تقريباً بالمكان. أتحدث إلى الأخبار المتدحرجة عن الترياق الشافي.

وهكذا، فهناك بالنسبة إلي شيء ما مقنع إقناعاً كاملاً بشأن رجل منسحب من المجتمع ليعيش مع الطبيعة على سفح الجبل.

قميصي، وهو بشكل حرف تي T، مشبع بالعرق، ولذلك فأنا أسأل الناسك إن كنت أستطيع أن أعلقه لينشف في الشمس، ويشير إلى حبل غسيل خارج غرفة نومه في الكهف. وأجلس وأنا ألبس البنطال القصير والصندل فقط، شاعراً بأني أنا نفسي أرجع إلى الطبيعة عن وعي ذاتي.

طبعاً، أنا لدي أسئلة، وهكذا ألعق قلمي الرصاص وأبدأ بوضعها أمام الناسك شيو.

وأول ما يتقدم، ما هو الطاو بالضبط.

«الطاو هو....... باللغة الصينية».

وأكرر باللغة الصينية وأدون ما يقول، ولكن علي بعدئذٍ أن أترجم ما قاله ببطء لنفسي بصوت عال.

«... قانون أصل الأشياء العشرة آلاف».

همممم. وهكذا هل الطاوية دين؟

«نعم».

www.ibtesama.com/vb

وهكذا، هناك آلهة؟

«في الأصل، لم يكن هناك آلهة، ولكن حين مات سادة الطاوية، صاروا آلهة. وعبدهم الناس. وأولئك هم الذين تمثلهم التماثيل في الكهف الأدنى أسفل من هناك». قال ذلك وهو يشير إلى المكان.

«وإذاً ماذا تحاول أن تفعل هنا؟»

«أنا أحاول أن أنسحب من الشؤون المعقدة للعالم».

«وماذا ترى في كل هذا التطور حولك من كل النواحي؟ هذا التطور المجنون في الصين الحديثة؟»

«التطور جيد. ونحن لا نستطيع أن نأسف للتطور. ولكن الكثير جداً من التطور يضر بالطبيعة. إنه الآن مُفرِط قليلاً في هذه اللحظة. وبالتأكيد هناك الكثير جداً حالياً من الجري خلف النقود».

«وماذا عن علم الحاسوب؟ ماذا عن هندسة المعلومات الإلكترونية؟»

«الإيمان بالعلم لا بأس به. العلم هو أكثر الأشياء علاقة بالطبيعة. والسبب الوحيد الذي نملك العلم من أجله، هو أن أسلافنا، منذ آلاف السنين، تحدثوا عن الطبيعة».

وأسأله عن معمل الطاقة الضخم الموجود إلى جانب الجبل المزهر تماماً، والذي يبدو بالنسبة إلي مثل وحش فظيع.

«العلم تقدم. والتقدم جيد. ولكن العلم لا يستطيع أن يبتعد عن الماورائيات. وحين يسير التقدم ضد الطبيعة، لا يكون تقدماً بل هو نكوص. حين تحتاج إلى الكهرباء، يجب عليك أن تبني معامل توليد للكهرباء. فإذا كنت لا تحتاج إليها، وهي متجاوزة للحد الطبيعي، فهي آنئذٍ ليست حقاً».

مساندة لمعامل الطاقة بحرق الفحم. ذلك ما لم أكن أتوقعه تماماً.

«ولكن ماذا عن الشعب الصيني الحديث، وعن موقفه العقلي عموماً؟»

www.ibtesama.com/vb

«الناس يكافحون من أجل الحصول على طراز الحياة الحديث، ولكنهم يفقدون جذورهم. يجب علينا أن نعود إلى البساطة والحقيقة».

ونغوص في مناقشة طويلة عن التشابهات والاختلافات بين الطاوية والمسيحية، وخصوصاً عن قابلية الإلهي ليكون معروفاً.

الطاو في الطاوية، الطريق نفسها، هو بطبيعته غير قابل لأن يعرف. والسطر الأول من نص الطاوية الكلاسيكي يرسخ هذا على نحو واضح: «الطريق التي يمكن أن تُمشى ليست هي الطريق الصحيحة، والاسم الذي يمكن أن يُسمى ليس هو الاسم الصحيح».

وأنا أشعر دائماً أن هذا السطر المفرد كان قد امتلك تأثيراً على النفسية الصينية أكثر من أي تأثير آخر تقريباً. ليس هناك حقيقة روحية مطلقة. الحقيقة، إن وجدت، غير قابلة لأن تعرف.

قابل هذا مع اليهودية والمسيحية (أو، بالنسبة إلى تلك المسألة، مع الإسلام)، وهي أديان تؤكد أنها وحي من الحقيقة الإلهية.

قال المسيح: «أنا الطريق، والحقيقة، والحياة. وما من أحد يأتي إلى الأب إلا من خلالي». المسيحية تقول إن الحقيقة قابلة لأن تكون معروفة، وذلك التأكيد شكل التفكير الغربي. بل لو لم يكن كل شخص مؤمناً بالمسيحية، لاستمرت بثبات فكرة الحقيقة الأخلاقية الموضوعية، الموجودة استمرت ثابتة.

حين وصلت البعثات التبشيرية الغربية الأولى إلى الصين، عملت على خلط التفكير الغربي والشرقي بشكل جميل نوعاً ما في ترجماتها للكلمات الافتتاحية من إنجيل يوحنا. وهي باللغة الإنجليزية تقول: «في البدء كان الكلمة». وفي اللغة الصينية ترجم هذا النص بقولهم: «في البدء كان الطاو (الطريق)».

أنا أحب الناسك شيو. فهو يتكلم عن أشياء أحب أن أتكلم عنها أكثر من علوم الحاسوب وهندسة المعلومات. ونحن نتحدث ونتحدث، ويبدو أنه هو يستمتع بالمحادثة أيضاً. وأخيراً، أقول إن لدي سؤالاً أخيراً قبل أن ألبس قميصي الذي كان قد نشف الآن وأغادره وأتركه وحيداً. وهو يرفع حاجبيه متوقعاً للسؤال.

www.ibtesama.com/vb

وأساله: «وإذاً، ما الذي ترى أنه معنى الحياة؟»

وأنا أضحك حين أطرح السؤال، وهو يضحك حين يسمعه.

«معنى الحياة هو تحقيق الطاو».

«ولكن كيف تحقق الطاو؟»

«بالتعايش مع الطبيعة».

وأنا أدون ذلك بروح دينية.

وحين كان يمشي معي إلى القنطرة الحجرية عند مدخل حديقته، أسأله إن كنت أستطيع الرجوع إليه والإقامة معه لبعض الوقت، وهو يوافق.

«إذا أستطيع أن أحضر وحسب؟»

ويجيب: «بالتأكيد، أو فإنك تستطيع أن تهاتفني».

«أهاتفك؟»

«نعم، هاتفني بالهاتف الخليوي. ها هو الرقم».

هناك دخان قليل، رقيق معلق فوق الجبل المزهر وأنا أهبط المسرب من كهف الناسك. وكان يمكن لذلك المنظر أن يصنع صورة صوفية روحية رومانسية كاملة لو كنت فقط أستطيع أن أتغلب على الشك في أن الدخان قد يكون منبعثاً من محطة القوى القريبة.

عدت إلى فندق كهف المرأة ذات الشعر، وصديقي جونغ مستيقظ ويأكل وجبة تجمع الإفطار والغداء. ونجلس لمدة نحو ساعة يحاور أحدنا الآخر حول ما نفعله كلانا هنا. وهو يخبرني عن بحثه الروحي، وعن خيبات الأمل من العيش في الصين حين يكون كل ما يريد أن يفعله الناس هو كسب المال. وهو يتفجع من ظهور البرجوازية الصغيرة، كما يدعوهم، ويقول إن «الماء الاقتصادي قد غمر الفكر النشيط». ثم نتوادع، وينطلق هو صاعداً في المسرب ليقضي الأسبوع مع الناسك، وأنا أنطلق نازلاً في التل من الفندق لألحق بحافلة ركاب راجعاً إلى شيان.

www.ibtesama.com/vb

عند أسفل الجبل، أمشي تحت مسار السكة الحديدية في الوقت الذي يمر فيه قطار سريع كالرعد القاصف، وأتملص من الباعة الذين يريدون أن يبيعوني بطاقات بريدية للجبل المزهر، وقمصان بشكل حرف تي T وقبعات شمسية، وأركب في حافلة ركاب صغيرة لرحلة العودة إلى شيان، آملاً في أن أستطيع مجرد الجلوس بهدوء لمدة من الزمان وأتأمل في الطاو.

ويدور جابي التذاكر ويأتي نحوي ليأخذ أجرتي. وهو رجل له مظهر لطيف، عدا هذا الجانب من المظهر الرخيص، الذي كان يمكن أن يؤخذ على محمل الجد بشكل أكبر بكثير لو أنه لم يطو منشفة رطبة على قمة رأسه. ويأخذها من حين إلى آخر ليمسح وجهه المتصبب عرقاً، ثم يرجعها ثانية على رأسه. ويسألني الجابي من أين أنا، وينتج عن ذلك الثرثرة المعتادة بالكلام العابر، ومن جملته تقويم يميل بشكل ملحوظ لصالح المملكة المتحدة.

ويقول: «هونغ كونغ جيدة بسبب حكمكم أنتم لها».

في صف واحد أمامي، في الجانب الآخر من الممشى، يوجد رجل صيني شاب المظهر وله قصة شعر خفيفة ويلبس حذاء لامعاً جداً. ويظهر وكأنه قد يكون جندياً خارج الدوام، ويأخذ موقف الاستثناء مما قاله جابي التذاكر.

وقال وهو يتلفظ بشدة نحو السيد منشفة رطبة: «وإذاً فأنت تعتقد أن البريطانيين كان يجب أن يحكموا كل الصين تماماً، أليس كذلك؟»

ويرد الرجل حامل المنشفة رداً استفزازياً، من دون أن يذكر حزباً معيناً: «بالتأكيد. لم يكونوا ليستطيعوا عمل واجب أسوأ مما تعمله هذه المجموعة».

ويقول صاحب الحذاء اللامع (وهو يحتاج إلى تأسيس صدقيته لدى شباب الحضر، وحقيقة أنه ليس مسؤولاً فاسداً)، يقول: «انظر. أنا لا أحب الحزب الشيوعي، ولكنك لا تستطيع أن تكون متشائماً إلى هذا الحد».

ولكن السيد منشفة رطبة ما كان يحب أن تقمعه الوطنية. وبعد أن كان قد جمع كل الأجرة، يجلس في المقدمة مواجهاً الركاب، وهو يستبعد تماماً مناقشة صاحب

www.ibtesama.com/vb

الحذاء اللامع، ويقول: «طبعاً أنا متشائم. أعيش في هذه البلاد، إنها فاسدة جداً بشكل تام».

ويحتدم النقاش بالغضب لمدة خمس دقائق، ومن دون أن يشارك أي شخص آخر، ثم إن الاثنين أقلعا عن النقاش وجلسا وهما يلتزمان الصمت. أخيراً، صعد إلى السيارة مزيد من الركاب، وانطلقنا نحو الطريق السريع لنبدأ رحلة لمدة ساعتين عائدين إلى شيان.

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

11
إلفيس يعيش

أقضي يوماً نهائياً في شيان، زائراً للمزيد من الأضرحة الإمبراطورية خارج المدينة في الصباح ومتصفحاً للكتب عبر مكتبات المدينة في فترة الأصيل. وأفضل الكتب كلها مبيعاً كتب الإدارة، والكتب الدليلة التي ترشد إلى الكيفية التي تكسب فيها مليوناً، وكتب سِيَر رجال الأعمال الغربيين الناجحين. وأتصفح كتب التاريخ المعروضة للبيع، وهي كتب تخصص صفحة لتاريخ الصين منذ العام 1949 ومئتي صفحة تقريباً للفترات المختلفة قبل ذلك التاريخ. وأبحث عن أي علامة باقية من النظرية الماركسية، وأجد في نهاية المطاف كتاب ماو المقروء قليلاً مخبأ بعيداً في طابق علوي، ولا يفتقده رجال المشروعات الذين يلتهمون قسم كتب الأعمال في الطابق الأرضي.

وطوال فترة الأصيل، أعقد أيضاً جلسات استماع لسائق يعمل معي في فيلم طريقي. فإذا كنت سأمضي اليومين التاليين في سيارة أجرة لأحد السائقين، فإن من الأفضل أن يكون لديه شيء يقوله. وفي كل سيارة أجرة أدخل فيها، أتحادث مع السائق حول كل شيء وعن لا شيء. كم يستطيع أن يخبرني عن المنطقة المحلية؟ وهل سيكون له أصدقاء في الريف نستطيع أن نتوقف ونراهم؟ كيف هي قيادته للسيارة؟ وهم يجيبون، غير واعين لحقيقة أنهم يؤدون جلسة استماع لدور العمر.

وفي اللحظة التي أصعد فيها إلى سيارة غو العجوز، أعرف أنه هو الرجل. ولو كانت هناك منافَسات تجري لمن يشبهون إلفيس بريسلي في الصين، لاستطاع غو العجوز أن يظهر أنه إلفيس بريسلي كما هو تماماً ويكسب الجائزة الأولى. ويقول إنه في الستين من عمره تقريباً، ولكنه يبدو أفتى كثيراً. له شعر أسود كثيف، عليه زيت بشكل ضئيل، وله طية ضئيلة لشفته العليا. ولو أنه لم يكن يسهم في إعادة البناء الشيوعي لمقاطعة شانسي وهو شاب في الخمسينيات من 1950 والستينيات من 1960، لأقسمت أنه كان يضع الفتيات اللابسات التنورات الطويلة على كتفه في ساحات الرقص في ممفيس.

www.ibtesama.com/vb

ولديه ميل إلى الإيجاز قليلاً عن الحياة جعلني أحبه فوراً. وأخبره أن يقابلني في الفندق الذي أنزل فيه في اليوم التالي، وكان يوم أحد، في الساعة السابعة في الصباح من أجل بداية مبكرة.

يصل غو العجوز في الوقت المتفق عليه، ونتوجه إلى خارج البلدة، وأنا أهمهم بأغنية روك سويدية «أحذية سويدية زرقاء» في الخلف من السيارة. وسيارته من نوع فولكس فاجن سانتانا معتنى بها عناية جيدة، مع وجود ستارة ذات أهداب على عرض النافذة الخلفية وستائر على كل نوافذ الركاب أيضاً. ومكيف الهواء يعمل، وسوف نحتاج إليه بلا شك فيما بعد. وقبل أن نصل ضواحي شيان، يتوقف وينتظر بجانب الطريق خارج مجموعة شقق.

ويسألني فجأة: «هل من المناسب إذا أتت زوجتي كذلك؟»

«زوجتك؟»

«نعم، إنها تحب أن ترى الأرياف في الطريق إلى الشمال الغربي. ومن الآمن أيضاً لقيادة السيارة إذا كان هناك اثنان منا».

وفي أثناء حديثه، تفتح امرأة نحيلة، متوسطة العمر بوجه مستدير باب الركاب الأمامي وتدخل. وهي لا تحمل أي شيء سوى حقيبة بلاستيكية. وبعد أن ووجهت بهذا الأمر الواقع الزوجي، أقبل وأستقر في المقعد الخلفي. وأدع الرحلة تسير. ربما ستكون المحادثة مع شخصين أمتع من المحادثة مع واحد فقط. وتحادثنا محادثة قصيرة. كلاهما ترعرع في شيان. وابنهما في الجامعة، وهكذا فلديهما الآن عش خال. وكلاهما من أكثر أجيال الصين مأساوية. رجال أمريكا الذين جاؤوا من فترة ازدهار المواليد ارتفعوا على أجنحة الرفاهية التي جاءت بعد الحرب. أما جيل ازدهار المواليد في الصين فقد تم امتصاصه إلى قاع دوامة جنون ماو. وقطعت الحملات السياسية تعليم السيد إلفيس والسيدة إلفيس. كانت شيان تعاني من مشكلات كثيرة، كما يقولان، من البطالة والفساد على وجه الخصوص. ولكن، وبعد عقود من الاضطراب، يبدوان شاكرين للاستقرار النسبي في الصين الحديثة.

www.ibtesama.com/vb

وإذا لم تكن قد سافرت على طول الطريق 312 كل مسافة الطريق الممتدة من شانغهاي وشكّلت ارتباطاً معيناً بمسالكه الرثه، وانعطافاته الفوضوية، وزفته المهترىء، والمبقع بالزيت والوحل، فإن من المحتمل ألا تسلك الطريق 312 غرباً من شيان. ومحطتي التالية المقصودة هي لانجو، وهي رحلة تمتد لأكثر من ثلاث مئة ميل، وهناك طريق سريع بين المدينتين يوفر مسلكاً مباشراً على نحو أكبر بكثير. ويقول الكتاب المرشد إن الرحلة تستغرق أربع عشرة ساعة في حافلة الركاب على طول الخط السريع، ولكنها سوف تستغرق معي يومين في سياقة السيارة مع إلفيس وزوجته على طول الطريق 312. والطريق القديم يتلوى كالأفعى بشكل غير مباشر نوعاً ما نحو لانجو، مشكلاً ضلعين متعرجين من مثلث طويل مسطح إلى الشمال من وتر الطريق السريع، أو الضلع المقابل للزاوية القائمة من المثلث مع الطريق السريع.

ويقود إلفيس في مسار من خلال المصانع ومجمعات الشقق في الضواحي، خارجاً من ذلك إلى الطريق 312.

وهو صباح يوم ميلادي السابع والثلاثين. وتبدو السماء الصينية الفسيحة وكأنها تعترف بهذه المناسبة الخاصة وهي تمتد بلونها الأزرق متألقة ألقاً خاصاً.

كانت مقاطعة شانسي (التي تعد مدينة شيان عاصمتها) هي قلب الأرض المركزية للحزب الشيوعي منذ العام 1935، حين أسس ماو تسي توتغ بلدة يانآن على مسافة ثلاث مئة ميل إلى الشمال من شيان لتكون قاعدة الحزب. لقد كافح ماو لجلب الثورة إلى الفلاحين في الصين الجنوبية في أواخر العشرينيات من 1920. ونجح في حشد مائة ألف فلاح تقريباً في قواعده لحرب العصابات هناك، ولكنهم تعرضوا للتحرش من كل جانب من قوات عدو ماو، تشانغ كايشيك. تشانغ كان يحاول أيضاً أن يعاود توحيد البلاد المنهارة، ولكن من دون عون من الشيوعيين، وأخيراً، بعد ضغط شديد من قوات تشانغ، في خريف العام 1934 هربت مجموعة رعاع ماو من أعضاء الحزب الشيوعي إلى الجنوب فيما سيصير معروفاً في الأسطورة الشيوعية المسيرة الطويلة. وقد ساروا لمدة عام تقريباً عبر الصين الوسطى، والغربية، والشمالية، ووصلوا إلى الأمان النسبي في يانآن في خريف العام 1935. ومن هناك شن الشيوعيون في النهاية غزوهم لكل الصين في الأربعينيات من 1940.

www.ibtesama.com/vb

وأكثر من تسعين ألفاً من السائرين الأصليين في المسيرة الطويلة تركوا المسيرة أو هلكوا، ولكن ثمانية آلاف أو ما يقارب ذلك العدد من الذين وصلوا شانسي هم الذي سيشكلون قلب الحزب الذي استولى على الصين في العام 1949. وبرهنت الأرض الجرداء الصفراء هنا على أنها أرض تجنيد خصبة من أجل رسالتهم الثورية لإعطاء الأرض للفلاحين الذين لا أرض لهم.

ولولا الغزو الياباني في العام 1937، الذي أجبر تشانغ كايشك على التحالف مع الشيوعيين ضد الغزاة، لكان يحتمل أن يستطيع تشانغ، الذي كان معادياً للشيوعيين عداوة مريرة، أن يمسح الحزب الشيوعي المولود حديثاً. ولكن الغزو أعطى الحزب حيزاً للتنفس. ونما وصار أقوى في أثناء الحرب العالمية الثانية، وبدأت الأسماء المائة القديمة تضع ثقتها في أعضائه، وقد ألهمتهم الطريقة التي رأوا فيها عدم قابلية الشيوعيين للفساد، ورأوا رغبتهم في القتال من أجل الفلاحين والمضطهدين والمسحوقين، ووعودهم عن إصلاح الأرض. واستغرقت مع ذلك حتى العام 1949 مع الشيوعيين ليقهروا كل الصين، ولكن ما من واحد في شانسي ينسى في أي وقت أن النصر إنما صار إمكانية هنا.

ولكنها الآن، مع ذلك قصة مختلفة. فقد يكون الحزب الشيوعي ملأ جيوب كثيرين، ولكنه فقد قلوب الأكثرية. وفي الحقيقة، خسر الحزب الثورة تقريباً حالما كُسبت، وانحلت الصين الشيوعية إلى فوضى ملتوية من المجاعة والصراع السياسي. ومع مجيء الوقت الذي مات فيه ماو، في العام 1976، كان الشعب منهكاً، وكان مغتبطاً بأنه ليس عليه أن يؤمن به بعد ذلك. والآن يجري ملء الفراغ الروحي الذي خلفه بشيء مختلف اختلافاً كاملاً.

ساعتان في خارج شيان، وأطلب من إلفيس أن يوقف سيارته سيدان العادية الفولكس فاجن بعيداً عن امتداد الطريق 312 المزدحم بمساراته الأربعة. وهناك لافتة بالقرب من جانب الطريق تعلن عن وجود القرية شوانغ جو، وكنيسة صغيرة من الآجر الأحمر تستقر إلى جانب بستان تفاح، على بعد ثلاثين ياردأ إلى الخلف فقط عن الطريق، وتقع خلف جدار مغطى بإعلان ضخم عن السماد. وفوق مدخل

www.ibtesama.com/vb

الكنيسة توجد ثلاثة حروف صينية ضخمة، وتقرأ ما يعني: قاعة الأنباء الجيدة. فالعولمة لم تصل شوانغ جو، والأجانب نادرون في هذه الأجزاء، وهكذا فقد حُييت بنظرات متعجبة وأنا أتجول في الكنيسة الصغيرة.

وعبر أرياف شانسي تنتشر عشرات وعشرات من الكنائس البروتستانتية البسيطة مثل هذه الكنيسة، وكنائس كاثوليكية مزخرفة أكثر عدداً من تلك أيضاً. وهذا هو الجانب الآخر من انهيار الإيديولوجية الشيوعية في الصين: عودة ظهور الدين.

«صباح الخير. هل هناك شعائر هذا الصباح؟»

«نعم يوجد».

وسيدة عجوز تقف عند المدخل المؤدي إلى الكنيسة، مثل أنثى من القديس بطرس، تدقق أعداد جمهور المصلين وهم يدخلون من خلال بواباتها التي تقل في لونها عن اللون الصدئ. وتميل رأسها إلى جانب واحد لتحصل على نظرة أقرب تلقيها على الأجنبي الواقف أمامها، ووجهها ينشق عن ابتسامة عريضة بلا أسنان. وتقودني إلى الداخل، والذراعان يشيران، والصوت يتصاعد، مثل أب يرحب في البيت ترحيباً مسرفاً، وتجلسني في مؤخرة الكنيسة، إلى جانب سيدتين عجوزتين أخريين. ولولا ابتساماتهن المشرقة، بلا أسنان، لكان من الممكن أن يكون الثلاثي من الجدات قد خطا خارجاً بالضبط من الفصل 1، المنظر 1، من مسرحية مكبث. ثلاث ساحرات مُحسِنات يطبخن تعويذات روحية جيدة في مؤخرة كنيسة صينية ريفية.

داخل الكنيسة بسيط. بعض صور المسيح موضوعة على الجدران وهي عارية تماماً، ومقاعد منخفضة للمقاعد الخشبية ذات المساند الظهرية. ومذبح في المقدمة عليه حرف صيني كبير يعني «الحب» مكتوب عليه باللون الأحمر القاني. والحرف هو مركز الكنيسة الصغيرة، مثل معلف في رسم عصر النهضة، يشع الضوء إلى الاصطبل وإلى العالم. ويجتذب الحرف انتباهي، وربما كان ذلك في وجه من الوجوه بسبب أنه مكتوب بلون أحمر لافت للانتباه، والذي يقفز خارجاً من الألوان البنية والرمادية والخضراء في الكنيسة الريفية. ولكن الحرف أيضاً يبدو أنه يضج عالياً

www.ibtesama.com/vb

ضد كل شيء حوله في الأرياف. الرئيس ماو، مثل كونفوشيوس من قبله، قدم أشياء كثيرة إلى الشعب الصيني، ولكن الحب لم يكن واحداً من تلك الأشياء. ربما ذلك هو السبب الذي من أجله تكون الكنائس مملوءة الآن.

يوجد ما يقارب الأربعين شخصاً في مجموعة المصلين، شباب وشيوخ، ومعظمهم فلاحون محليون، وكثيرون يظهرون وكأنهم قد مشوا إلى داخل الكنيسة قادمين من الحقول مباشرة. وهم معجبون بالرجل الأبيض في وسطهم. وتقول واحدة من الجدات الثلاث، وعمرها ثلاثة وثمانون عاماً، إنها لم تر قط غربياً من قبل.

وهم لا يملكون هنا قسيساً راعياً للكنيسة خاصاً بهم وينتظرون واعظاً متنقلاً ليصل. فهو يعظ في عدة كنائس في كل يوم أحد، ويقول رجل من أعضاء الكنيسة، وهو يضع نظارات سميكة جداً ويتبين أنه عازف على الأرغن، يقول بفخر إن القسيس قد ذهب إلى كلية كهنوتية. كثيرون من القسس الريفيين في الصين لا يكادون يحصلون تعليم المدرسة الثانوية، دع عنك التدريب في كلية كهنوتية، ولذلك فهو مصدر فخر كبير لهذه المجموعة من المصلين أن يكون قسيسهم متعلماً تعليماً جيداً. وأنا أسألهم بعض الأسئلة عن كنيستهم وعن أنفسهم، وأسمع القصص المألوفة عن الاضطهاد بسبب إيمانهم في الخمسينيات من 1950 وفي الستينيات من.196، وبعدئذٍ انبعاث الكنيسة، في الثمانينيات من 1980 وما بعدها. المسيح يزودهم بشيء ما يضعون فيه أملهم مختلف عن الطريق 312.

قبل أن يصل الحزب الشيوعي إلى السلطة في العام 1949، كان في الصين تقريباً 3 ملايين كاثوليكي و750.000 بروتستانتي. وحين طرد الشيوعيون الإرساليات التبشيرية بعد 1949، صار المسيحيون الصينيون تقريباً هم الأهداف المباشرة للاضطهاد. وخاف المسيحيون الغربيون على بقاء الكنيسة الصينية قيد الوجود.

وسمح الحزب لقلة من الكنائس الرسمية بالبقاء في الخمسينيات من 1950، ليعطي الوهم بالحرية الدينية، ولكن معظم المسيحيين أُكرهوا إما على التخلي عن دينهم لصالح القيصر الشيوعي أو أن يرسلوا إلى السجن أو معسكرات الشغل.

www.ibtesama.com/vb

وأمضى عشرات الآلاف من المسيحيين عقوداً في ظروف مرعبة نتيجة لذلك. وبعدئذٍ حين مات ماو، في العام 1976، خففت القيود الاجتماعية قليلاً، وأطلق سراح الكثيرين من المسيحيين من السجن، وسمح للمزيد من الكنائس بالعمل. وكثير من هذه الكنائس مازالت مع ذلك ترفض الالتحاق بالكنائس «الرسمية» معتقدين أن الكهنة المعينين في مثل هذه الكنائس كانوا يأتمرون بأمر الحكومة. وأصروا على الاجتماع في بيوتهم، في ما دعي كنائس البيوت. وكان الحزب الشيوعي يضطهد في الغالب مسيحيي كنائس البيوت ويحاول أن يغلق تجمعاتهم للصلاة، وأحياناً يكون ذلك بهدم بيوتهم بكل بساطة.

ومثلما كان الأمر مع المسيحية الأولى في روما، أدى الاضطهاد إلى نمو الكنيسة الصينية، لا إلى موتها. والآن، تضع التقديرات المحافظة نفسها العدد الإجمالي للمسيحيين عند 75 مليوناً (15 مليون تقريباً من الكاثوليك و60 مليون من البروتستانت تقريباً). وذلك فقط 6 بالمائة تقريباً من السكان، ولكن مازال هذا أكثر من عدد الحزب الشيوعي الصيني البا لغ 70 مليون عضواً.

منذ الثمانينيات من 1980، سارت الكنيسة عبر عدة عقود من النمو المدهش، مالئة الفراغ الروحي الذي تركه موت الشيوعية. وقد قبل الحزب الآن بهدوء أنه لن يكون قادراً على التخلص من الدين. وفي الحقيقة، وعلى نحو مذهل، فإن المسؤولين الصينيين يوافقون، لكن ليس للنشر، على أن الصينيين يحتاجون إلى شيء ما يؤمنون به. ولكن النمو في الأعداد لا يعني أن كل المسيحيين يعاملون معاملة حسنة، وهذا مرة أخرى يكون خياراً يحول من السلطة العليا إلى المسؤولين المحليين. فإذا كانوا لا يحبون المسيحيين، فهم يستطيعون جعل الحياة صعبة على المؤمنين، مثلما يستطيعون أن يفعلوا ذلك بالنسبة إلى كل واحد. وإذا كانوا لا يأبهون بالمسيحية، فآنئذٍ تكون الحياة أنعم، مثلما يبدو أنها كذلك هنا في شوانغ جوا. لقد زرت قرى في الصين الشرقية قام فيها المسؤولون المحليون بتشجيع المسيحية أيضاً. والمسيحيون هناك، كما يقولون، هم الوحيدون الذين يطيعون القانون، ويدفعون ضرائبهم.

www.ibtesama.com/vb

بعد نصف ساعة من الوقت الذي كان يجب أن تبدأ فيه الشعائر، يقترب شاب بوجه ودود ويقول يبدو أن القس لن يأتي. وينظر كل واحد حوله نظرة محزون لا يتعزى. الجدة الثانية تتمتم همساً خفيفاً بشيء ما. ثم إن الشاب أظهر أن لديه تصوراً للواقع عن طريق حدسه المفاجئ.

«شخص المحيط، يستطيع أن يخطب الموعظة!»

واستدارت عيون كل الحضور إلي، وكان هناك وقفة صغيرة جداً والفكرة تتغلغل في أذهانهم وفي ذهني. واعترضت بأنني لست معتاداً على خطبة المواعظ، وبالتأكيد ليس بالصينية. والرجل مصر في طلبه، وعيناه تلتمعان من تألق اقتراحه. ومن سوء الحظ، أن الكنيسة كلها في الحال قبلت الفكرة أيضاً. وتجمع كل الحضور حولي، يتحدثون بلغة ماندرين ثقيلة اللهجة لا أكاد أفهمها، وهم يقولون نعم، أنا سأكون الشخص الذي سيخطب الموعظة. وقالوا، إن الله قادني هنا، وهكذا يجب أن أخطب الموعظة. ولم يسألني أحد مجرد سؤال إن كنت مسيحياً.

وتقول الجدة الثالثة، وهي تمسك بذراعي «لا تستطيع أن تغادر هنا حتى تكون قد خطبت لنا الموعظة!»

«ولكنني لست مؤهلاً لأخطب المواعظ. فأنا لم أذهب إلى كلية لاهوت».

ليس هناك مهرب. وتزداد الابتسامات سعة، ويصير التوسل أكثر إصراراً. وأشعر أنني لا أستطيع أن أغادرهم فقط في موقف حرج. وهكذا أوافق أخيراً. أمسك إنجيلاً مسيحياً، وأتذكر محادثتي مع الناسك قبل أيام قليلة فقط، وأقف وأعظ في يوحنا 14: 6 «قال المسيح، أنا الطريق، والحقيقة، والحياة. ما من إنسان يأتي إلى الأب إلا من خلالي».

والرؤوس تومئ بأدب وأنا أخطب متردداً أمام الجميع. والجدات الثلاث ينظرن بنظرات جانبية من خلال نظاراتهن إلى المنظر الغريب. وطفل جالس في المقدمة يهمس بشيء غير مسموع في أذن أمه. وحين تنتهي الموعظة، اقترح أن نقول صلاة، وأنا نفسي أقول واحدة بصوت عال، باللغة الصينية. وبدأ جمهور المصلين آنئذٍ

www.ibtesama.com/vb

يصلون بصوت عال. شخص واحد بعد آخر، متغاضين عن الموعظة البسيطة نوعاً ما التي خاطبتهم بها قبل قليل وشاكرين الله على هذا الشخص القادم من المحيط الذي أدى الرسالة، وداعين الله أن يباركه ويباركهم، وقائلين بعدئذ ببساطة: «شكراً لك، يا الله، على حبك».

هناك نقاء وشدة بالنسبة إلى المؤمنين المسيحيين في الصين، وهي تفيض في صلواتهم. أذكر المسيحية للشعب الصيني العادي، فلا يكونون مثقلين بصور الجنود الذين يحاربون حروباً صليبية، ولا بصور البابوات الزناة، أو بالسياسيين من جناح اليمين. لقد سمعوا عن هذا المعتقد متأخرين نسبياً في تاريخ الإيمان الطويل والملتوي، وبالنسبة إليهم إنه مسألة تخص القلب. وربما تكون هذه هي الكيفية التي يفترض أن الدين كان عليها، وأنا أفكر في نفسي، وكلمة «آمين» النهائية ترتفع من جمهور المصلين.

وهم جميعاً يفتحون أعينهم وينظرون إلى أعلى في صلواتهم. وقلة منهم تبدو مندهشة وهم يرونني مازلت واقفاً هناك. وأقترح أن ننشد ترتيلة، والرجل صاحب النظارات السميكة يجلس خلف الأرغن القديم المتهاوي على نحو مضحك يبدأ بإصدار لحن الترتيلة الختامية، التي يشارك فيها كل واحد من جماعة المصلين. وينتهي الإنشاد، وأتمنى لهم بركات عديدة وأشكرهم على ضيافتهم. وتنهض الجدات الثلاث ببطء وبحركة موحدة ويطلبن مني أن أبقى لتناول الغداء. وأشرح لهن أنني يجب أن أصل بينغليانغ مع المساء.

وتكرر الجدة الأولى «بينغليانغ؟»، وكأنها نهاية الأرض. وتشرح بصوت عال للجدة الثانية، «إنه ذاهب إلى بينغليانغ»، وكانت الجدة الثانية قد أمسكت بيدي ولا تبدي أي علامة على تركي أذهب.

وتسأل الجدة الثانية «بينغليانغ؟ حسناً، إذا كان عليك أن تصل إلى بينغليانغ مع غروب الشمس، فمن الأفضل أن تكون على الطريق». وتنظر نظرة عميقة في عيني وتبتسم ابتسامة بلا أسنان، ونحن كلنا نتحرك نحو الباب ونمشي خارجين إلى الطريق معاً.

www.ibtesama.com/vb

إلفيس وزوجته كانا يجلسان صابرين في السيارة طوال الوقت، غير مدركين للدراما الروحية التي كانت تتكشف داخل الكنيسة. ولكن لا يبدو أنهما كانا منزعجين جداً من الانتظار. فهما متفرغان في رحلة مدفوعة التكاليف إلى لانجو، وهكذا فالتوقف لساعتين أو نحوهما ليس مشكلة، على الرغم من أنهما، على ما يبدو، محتاران باهتمامي بتعقيدات الحياة الريفية.

كان وقت الغداء قد حان في الوقت الذي كنا نسوق مبتعدين عن الكنيسة، وهكذا فليس بعيداً بعد المسير على الطريق، يقف إلفيس عند صف من المطاعم الوسخة لنتناول بعض الطعام. ونختار مطعماً من أوسع المطاعم ونخطو إلى الداخل. وتبرز أمامنا امرأة جذابة من خلف ستارة في مؤخرة الغرفة. وهي تلبس لباساً خيالياً مضحكاً وتضع زينة ثقيلة، وتنظر إلي وكأنني قد أكون راغباً بأكثر من طاس من حساء المعكرونة الطويلة. والباب خلف الستارة مفتوح مواربة، وأستطيع أن أرى في الداخل سريراً. من الواضح أن هذا حانوت الوقفة الواحدة، ففيه يستطيع سائقو الشاحنات، أو أي شخص على الطريق، أن يتوقفوا ليشبعوا كل حاجاتهم الجسدية. وفوق كل ذلك، صورة للرئيس ماو تنظر إلى أسفل من جدار قذر، متقشر. مرحباً بك في الصين الحديثة، أيها الرئيس. إنها كلها تعود دائرة في دورة كاملة.

لا أعرف ماذا كانت تقدم من خدمة تلك المرأة ذات اللباس المتألق الزهري خلف الستارة، ولكن الطعام الذي طبخته كان لذيذاً. ونحن في سفرنا نغادر تدريجياً أرض الرز الآن، وندخل أرض المعكرونة الطويلة. وتأثير الشمال الغربي المسلم يتغلغل نحو الشرق في الطعام، وفي الروائح، وفي نظرات الناس وفي الموسيقى. وإلى جانب طاس يتصاعد منه البخار من حساء المعكرونة الطويل مع لحم العجل السميك، ترتفع طاولة الغداء بصحن من كباب لحم الخروف، وبعض الدجاج المبهر، زائداً بعض الصحون التي لم أعرفها أيضاً. وأحد الأشياء العظيمة المتصلة بالسفر في الصين هو أن الطعام جيد للغاية. يمكنك أن تكون في وسط أي مكان ناء غير معروف، وتدخل في مكان ما صغير مثل هذا المكان، ويقدم لك طعام وجبة مقلية على عَجَل. وقد تكون أطعمة دجاج كنتاكي المقلي (كي اف سي) وماكدونالد في طريقها إلى إحداث تقدم لها لدى

www.ibtesama.com/vb

أصدقاء التذوق في المدن، ولكن الطعام الصيني التقليدي بالنسبة إلى أكثرية الشعب الصيني، وهو طعام مختلف للغاية من منطقة إلى منطقة، يوفر بعض الاستمرارية التي تبقى موضع ترحيب في عصر هو عصر الانقلاب الفجائي. والناس الآن يملكون اللحم، لا مرة في الشهر، ولا مرة في الأسبوع، بل في كل يوم.

الأجزاء القاحلة جداً من شانسي، ومن جملتها القاعدة القوية السابقة للحزب الشيوعي في يانآن، تقع على مسافة أبعد إلى الشمال، خارج نطاق وصول الطريق 312، ولكن هنا أيضاً يتلوى الطريق الأسود في مساره عبر منظر طبيعي أصفر بشكل متزايد. وهو معروف باسم هضبة الرواسب الطفاليّة الدقيقة الحبيبات (تربة اللوس)، وهو تعبير نادراً ما يستعمل في الغرب خارج الدوائر الجيولوجية ذات الصلة بالطفال الرملي ولكنه مستعمل في كل الأوقات من الصينيين المتحدثين بالإنجليزية. وفي الصينية، كما هو معتاد، الكلمة المستخدمة منطقية أكثر بكثير، فهي تعني حرفياً «التربة الصفراء للسهل العالي». وتمتد هضبة تربة اللوس بين سهل الصين الشمالي، حيث تقع بكين في الشرق، وبين صحراء غوبي في الغرب. والكثير من الأرض هنا يقع فوق مستوى ارتفاع أربعة آلاف قدم، مع وجود الجدار العظيم الذي يشكل حدود الهضبة إلى الشمال. وكانت الأرض الصفراء دائماً صعبة الفلاحة وقابلة للانجراف المائي. ونادراً ما ينزل المطر هنا، ولكنه حين ينزل يستطيع أن يعيد تشكيل المنظر الطبيعي. ويستطيع سقوط المطر الغزير أن يتسبب في سقوط قطع كبيرة من الأرض بعيداً، وتكون المنطقة كلها متشققة بوديان عميقة طويلة احتفرها السيل ومنحدرات شاهقة من اللوس التي تكون فيها التربة قد انهارت مثلما ينهار جبل ثلجي كبير أصفر ذائب.

وعلى الرغم من أنها منطقة ليست خصبة على السطح، فهي تحت الأرض تملك بعضاً من أغنى رواسب الأمة من الفحم، وليس بعيداً إلى الشمال الشرقي من الطريق 312 يوجد حزام كامل من بلدات مناجم استخراج الفحم. وتنتج الصين 35 بالمائة تقريباً من فحم العالم، ويوفر استخراجه من المناجم للكثيرين من الناس في بلدات شانسي الصغيرة اليائسة إمكانيتهم الوحيدة للتوظيف. وهي المنطقة التي تبلِّغ عن

www.ibtesama.com/vb

80 بالمائة تقريباً من الوفيات العالمية في حوادث التعدين في كل عام. فأكثر من خمسة آلاف عامل مناجم يموتون في عام متوسط في الصين في مناجم الفحم غير الكفؤة، وغير الآمنة بشكل مزمن (وأولئك هم العمال الذين يُبلّغ عنهم فقط). وذلك الرقم أكثر من مائة ضعف من عدد العمال الذين يقتلون في المناجم الأمريكية.

وهذه في الصين الحديثة واحدة من أشد سلاسل الطعام الاقتصادي قسوة ووحشية. فالحكومة تحتاج إلى الفحم لتوقد للمصانع لإبقاء الاقتصاد في حالة نمو لتمنع السخط الاجتماعي. وملاك المناجم، وهم بلا رحمة أو ضمير، يعرفون أنهم يستطيعون أن يكسبوا الكثير من المال من بيع الفحم إلى الآلة الاقتصادية الصينية الجائعة، ولذلك فهم يبلغون الحد الاقصى من الإنتاج على حسب السلامة. وعمال المناجم الذين ضربهم الفقر، والذين لا يملكون إلا أملاً قليلاً فوق راتبهم القادم، ينزلون في بئر المنجم، مع أنهم يعرفون أنهم غير آمنين. وتبدو حياتهم سلعة أكثر قابلية للتضحية بها من الفحم الذي ينتجونه. وتشن الحكومة من حين إلى آخر حملات صارمة ضد التعدين غير القانوني وتحاول تنفيذ معايير السلامة، ولكن مثلما هو الحال في كل مكان في الصين، فإن مثل هذه التشديدات في الإجراءات تتضارب مع الحاجة العامة للمحافظة على نمو الاقتصاد، وهكذا فإن الأفاعي المحلية من المسؤولين في المناطق نادراً ما يصغون للتنين القوي المفترض في بكين.

السيد والسيدة إلفيس ينتظرانني بصبر ريثما أخرج من السيارة بعد كل خمسة أميال أو عشرة أميال لأتحدث إلى الفلاحين في الحقول. ونحن نخرج من الطريق إلى جانب بعض الكهوف القائمة إلى الخلف من الطريق تماماً ونتحدث إلى العائلات التي تسكن فيها. وللكهوف أبواب خشبية مناسبة ونوافذ في مقدمتها، ومناطق داخلية منها تختفي عميقاً في داخل المنحدرات الشاهقة. ويقول الفلاحون إنها دافئة جداً في الشتاء وباردة جداً في الصيف، ويدعونني إلى الداخل. ونتحادث حول الكفاح من أجل جعل الوسائل المالية تفي بحاجات الإنسان على حافة هضبة تربة اللوس. الناس فقراء ولكنهم كرماء، ونحن نجلس ونتحادث ونضحك معاً، وأنا أعجب من قدرتهم على احتمال مثل هذه الصعاب وعلى رغم ذلك يرحبون بغريب مثلما يرحبون بابن

www.ibtesama.com/vb

طال افتقاده. جميع العائلات لهم أطفال في المدن. وبعضهم سافر إلى شيان، وبعضهم سافر غرباً إلى لانجو بل إلى أورومجي. وهي مدن تقع على طول الطريق 312 وسوف أزورها. وما من واحد منهم يعتمد فقط على الزراعة بعد الآن.

وتوجد مشكلتان كبيرتان تواجهان الناس الذين يعيشون في هذا الركن الذي يضربه الفقر من الصين، والذي يكشف الهشاشة البيئية والاجتماعية للصين والكامنة غير بعيد تحت المظهر الخارجي للقوة العظمى المفترضة. وكل مسألة منهما تسبب تمزقات في نسيج المجتمع الصيني وتستطيع أن تصل إلى أن يكون لها مضامين كبيرة بالنسبة إلى البلاد.

أول المشكلات جميعاً، هي أنه لا يوجد ماء في الصين الشمالية. فالأنهار كلها جفت، كما يقول الناس، ويتوجب عليهم أن يقوموا برحلة بطيئة لعدة أميال لجلب ماء الشرب من أنبوب ماء في أقرب بلدة. وهذه مشكلة ضخمة. والنهر الأصفر الذي يتدفق من الهضبة التيبتية عبر الأرض الصفراء من شانسي ويجب أن يصب في بحر الصين الشرقية، نهر مستخدم استخداماً مفرطاً جداً إلى درجة أنه في ثمانية عشر عاماً من آخر خمسة وعشرين عاماً من القرن العشرين كانت هناك فترات فشل فيها النهر في الوصول إلى البحر. وفي أحد الأعوام، في 1997، فشل في الوصول إلى البحر طوال 226 يوماً، ولمدة طويلة من ذلك العام لم يصل النهر ولو إلى شاندونغ، وهي آخر مقاطعة يفترض أنه يمر عبرها قبل أن يصل إلى المحيط. وهذه حالة غير عادية بالنسبة إلى النهر الذي يُعد رابع أطول نهر في العالم. وقد أطلقت الحكومة الآن خطة دعتها «مشروع تحويل الماء من الجنوب إلى الشمال»، وهو مخطط يكلف بلايين عديدة لبناء ثلاث قنوات سوف تحول الماء شمالاً من النهر الأصفر من يانغسي.

والكثير من الماء المتوافر ملوث تلوثاً خطيراً، والمسؤولون المحليون غير مستعدين لمعالجة مياه المجاري أو تدفقات السوائل من المصانع أو إغلاق المصانع الملوِّثة، وذلك خوفاً من إبطاء النمو الاقتصادي. فلو تباطأ النمو هنا، كما هو في كل مكان في الصين، فإن من المحتمل أن يزداد عدم الاستقرار الاجتماعي.

www.ibtesama.com/vb

مستوى المياه الجوفية في الصين الشمالية يهبط بمتوسط سبعة أقدام في العام، إذ يقوم المسؤولون في المدن باستنزاف طبقات المياه الجوفية من أجل الحصول على الماء الذي تحتاج إليه مدنهم على نحو يائس.

وقد وصلت الحالة إلى نقطة الأزمة.

والمشكلة الكبرى الأخرى في هذه المنطقة الفقيرة، الفقيرة جداً هي أن قلة من أبناء الفلاحين يستطيعون الحصول على زوجة. فكثير من النساء أجهضن جنيناً أنثى في مطالع الثمانينيات من 1980، حين فرضت سياسة الطفل الواحد، والسبب هو أن الناس إذا كانوا لا يستطيعون أن ينجبوا إلا طفلاً واحداً فقط، فقد أرادوا الطفل أن يكون ولداً. والآن وصل ذلك الجيل من الرجال إلى سن الزواج، وتوجد قلة قليلة جداً من النساء المتوافرات للزواج. ومرة أخرى، المشكلة هي نفسها في جميع أنحاء الصين. وتقول الحكومة إن الصين ستكون بحاجة إلى 30 مليون عروس مع حلول العام 2020. تقول إحدى الأمهات اللواتي أقابلهن إن الأمل الوحيد هو أن ولدها البالغ من العمر الثالثة والعشرين سوف يذهب إلى المدينة ويقابل فتاة مهاجرة هناك، وتقول: «إنه لن يجد زوجة هنا قط. بل إنه لو وجدها، فثمن العروس سيكون عالياً جداً». اقتصاد السوق شغال، ومن جملة ذلك في اختيار رفيقة العمر أيضاً.

كنت في العام الفائت قد قابلت مجموعة من الكوريين الشماليين الذين فروا إلى الصين وهربوا إلى الأرض الداخلية إلى نينغشيا، وهي قريبة إلى حدٍ ما من المكان الذي أنا فيه الآن. وكانوا قد قالوا لي إنه كان يوجد الكثيرات من النساء الكوريات الشماليات هناك وهن اللواتي باعهن وسطاء ليكن زوجات للفلاحين الصينيين المحليين. وبعد أن أنهيت رحلتي مباشرة، روت الصحافة الصينية توقيف تسع وستين امرأة من بورما كن قد هُرِّبن إلى مقاطعة هينان، التي كنت قد عبرتها قبل قليل، وجرى بيعهن مقابل ألفين وخمسمائة دولار للواحدة لفلاحين صينيين يائسين في البحث عن زوجات. والمعدل الرسمي لجنس المواليد في العام 2005 كان 118 ولداً في مقابل 100 بنت من المواليد، ولكن المعدل في بعض القرى يصل إلى 140 مقابل 100.

www.ibtesama.com/vb

عبر الصين الريفية هناك ملايين القصص الشبيهة بهذه. نقص الماء، نقص النساء، نقص الفرص، على الرغم من الحراك الجديد الذي جاءت به الطرق وشبكة السكك الحديدية. الصين الريفية تتغير، وحياة بعض الفلاحين يجري تحويلها. والكثير من إيقاعات الحياة الريفية قد تم كسرها. والموقف العقلي للفلاحين يتغير أيضاً. ولكنه تحولٌ ليس سهلاً، وهم قادمون من مستوى معيشي منخفض جداً بالفعل. في الصين الحضرية، أنت تستطيع أن ترى متابعة السعادة وهي تبرز. في الصين الريفية، مازالت المتابعة هي من أجل البقاء على قيد الحياة. فكر في الشخصيات الريفية في روايات كاتبة مثل جورج إليوت. فكر مثل توماس هاردي. فكر في نهاية (عمدة كاستربريدج): «لم تكن السعادة سوى حادثة عرضية في دراما عامة من الألم». ذلك هو المكان الذي يأتي منه الفلاحون الصينيون، المكان الذي يحاول 750 مليون نسمة تقريباً أن يهربوا منه. الآن، بعض الفرص موجودة هناك، مثلما لم تكن قط من قبل، وعلى نحو بطيء يجري صنع طريق من الكثيرين، الذين يخرجون من الأرياف من فقر عمره قرون. ولكنه طريق طويل، وهو طريق صعب.

وأخيراً، حين استطالت الظلال في شمس المساء، أصل أنا وإلفيس، والسيدة إلفيس مدينة بينغليانغ. والطريق السريع الجديد، بمساره الأكثر استقامة مباشرة إلى لانجو، قد أخذ الكثير من المرور بعيداً عن بينغليانغ، ولكن في هذه المنطقة أيضاً، هناك مواقع إنشاءات في كل الاتجاهات. وكما هو معتاد، هناك فندق كبير واحد في البلدة، وأسجل وصولي فيه. وهو يكلف عشرين دولاراً تقريباً لغرفة معقولة مع حمام. وكما هو معتاد، هناك العديد من السيارات الكبيرة من المركبات الرياضية للنفع العام (اس يو في) مصفوفة في الخارج، ومعظمها تحمل لوحات ترخيص رسمية. وخارج المدخل تماماً يوجد بار كارايوكي. أغمض عينيك ويمكنك أن تكون في مدينة صغيرة في أي مكان على طول الطريق 312. ستجد فن العمارة، والإنشاءات، وبارات الكارايوكي، والإحساس بالتحسن المتواضع في أسلوب المعيشة، وغياب أي علامات للفقر المذل المقنط، ولكن ستجد مع ذلك الشعور بأن الأمر سوف يستغرق مدة طويلة، طويلة للوصول إلى أي شيء فيما وراء «الرفاهية المعتدلة».

www.ibtesama.com/vb

كان يوم سياقة طويل. وبعد وجبة سريعة معاً، نقول تصبحون على خير وننام مبكرين، والأصوات البعيدة المنتحبة المنبعثة من بار الكارايوكي ترجع أصداءها في المساء الصيفي الحار.

في الصباح التالي، أستيقظ متألقاً وممتلئاً بالحيوية وجاهزاً للوصول إلى الطريق. وأتجه مباشرة إلى غرفة الطعام في الفندق، وأنا أعرف، أن هذا الفندق، بالنظر إلى أنه فندق صيني بأكمله، لن يكون لديه تقريباً أي شيء أريد أن آكله. ومع الأخذ بعين الاعتبار اللذاذة العامة للمطبخ الصيني، فقد كان دائماً سراً خفياً بالنسبة إلي كيف يمكن أن تكون وجبات الإفطار الصينية سيئة إلى هذه الدرجة. فأنت ستظن أنهم بعد خمسة آلاف سنة من الحضارة المستمرة سيستطيعون أن يقدموا شيئاً ما أفضل من خضرة مخللة وعصيدة الرز. وكنت أفكر في توبيخ الموظفين عند هذه النقطة. ولكني أدرك أنني لا أعرف كيف أقول «حبيبات الرز المحمص» باللغة الصينية، وهكذا أمسك باثنتين من لفافات الخبز المُحلَّى، وأجلس في الركن من غرفة الطعام مع إبريق من الشاي الصيني.

ويكافح إلفيس وزوجته نازلَين بعيون مغبشة بعد عشر دقائق تقريباً، وبعد قليل كنا راجعين إلى الطريق 312، متجهين إلى الشمال الغربي.

ويبدو إلفيس وزوجته هذا الصباح متحابين حباً عميقاً بالنسبة إلى زوجين مضى على زواجهما مدة طويلة. وتبدأ هي بتقشير بعض التفاحات وتضع الشرائح في فمه مع ابتسامة له وهو يسوق. ربما يكون الحب في الصين غير ميت.

لم نذهب بعيداً في الطريق، مع ذلك، قبل أن تنحرف السيارة قليلاً، ويهز إلفيس نفسه في وضع قائم. إن الساعة هي التاسعة صباحاً، وهو ينام على المقود. الطرق الصينية خطرة خطراً كافياً من دون سائق نعسان يسوق متجولاً من جانب إلى جانب آخر في كل أنحاء المكان.

وتشرح السيدة إلفيس وتقول: «سهر يشاهد التلفاز». وهي تدفعه بكوعها قليلاً، وكأنها تحثه على تمالك نفسه.

www.ibtesama.com/vb

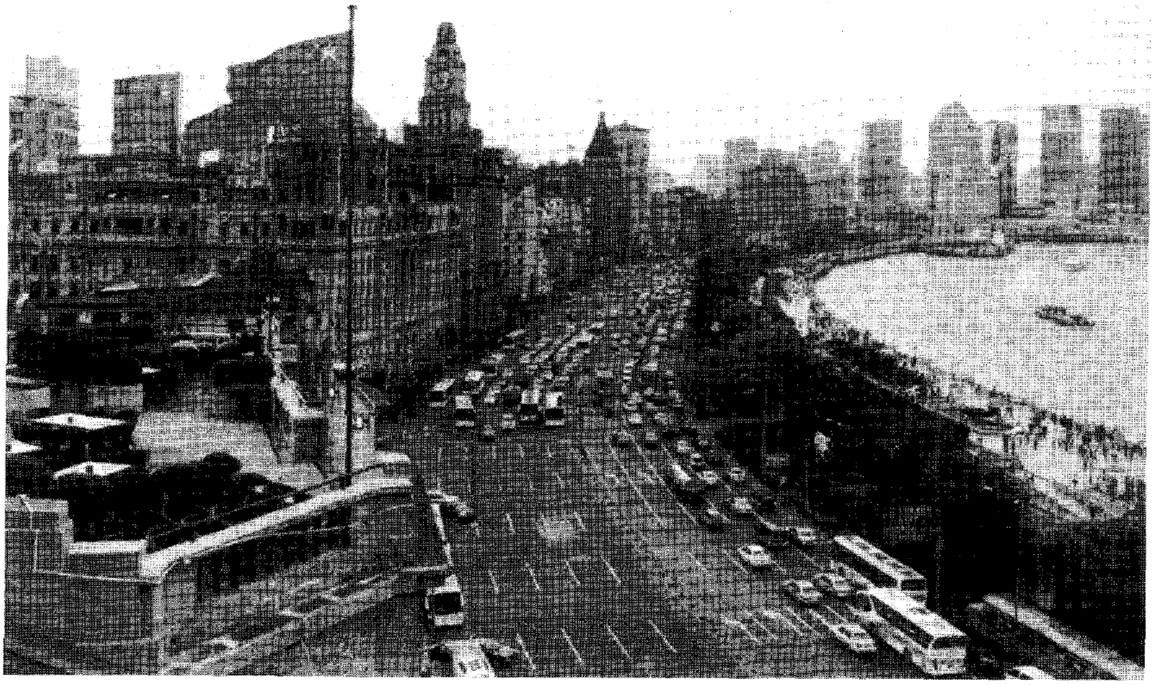

علم الحزب الشيوعي يرفرف فوق المنظر غير الشيوعي تماماً من شارع شنغهاي الرئيسي المسمى شارع البند، والذي يسير محاذياً على طول ضفة نهر هوانغبو. وهذا هو المنظر من شرفة مطعم المرتفعات الجديدة (نيو هايتس).

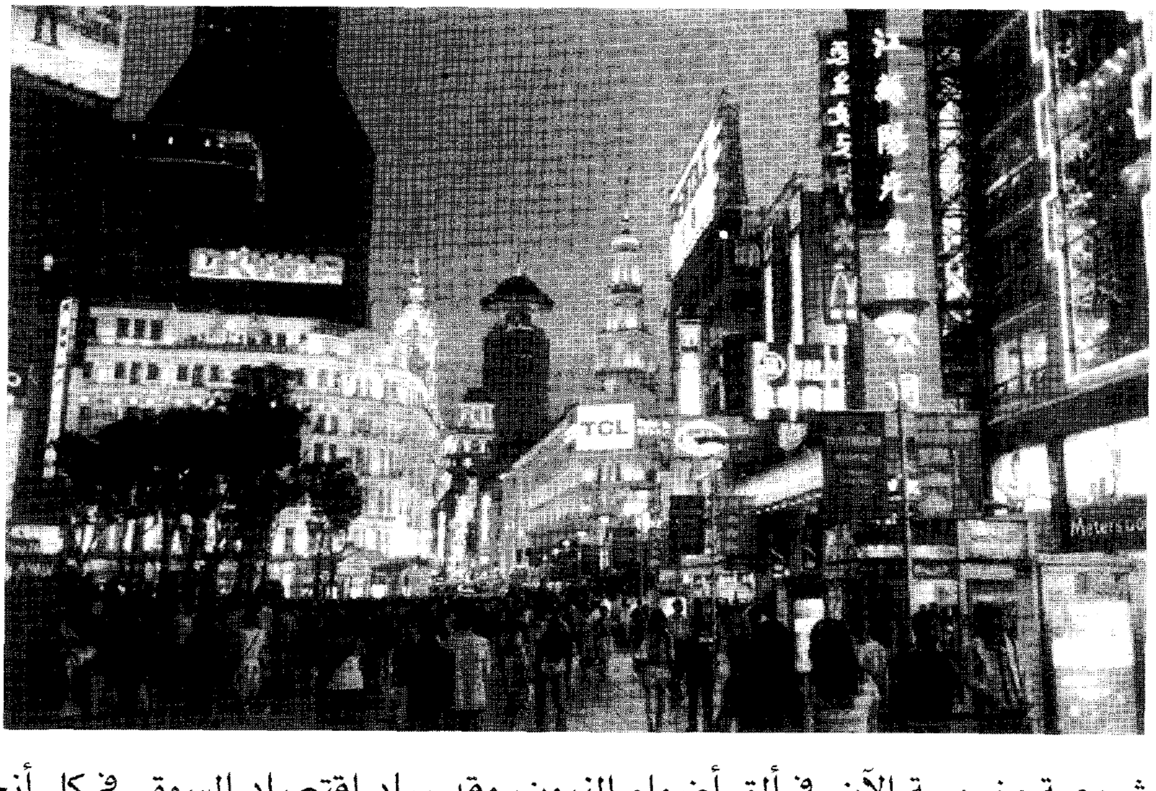

الشيوعية مغموسة الآن في ألق أضواء النيون، وقد ساد اقتصاد السوق في كل أنحاء الصين. وهذا هو الشارع الأسطوري للتسوق في شنغهاي، طريق نانجينغ.

www.ibtesama.com/vb

شابتان عضوتان في الحزب الشيوعي، إميلي ولوسي، تذهبان للتسوق لشراء الأحذية في واحد من أضخم مخازن شنغهاي المتخصصة. مازال الالتحاق بالحزب تذكرة للحصول على عمل، ولكن الذين يشجعون على الالتحاق بالحزب الآن هم أذكى الناس، وليس أكثرهم أدلجة.

مطاعم هوترز فتحت أول فرع لها في شنغهاي، ويتم تشجيع الزبائن على المشاركة في الترفيه المسائي.

عامل مهاجر يعمل تحت متاهة من الطرق السريعة التي تظلل بداية الطريق 312 في الضواحي الغربية لشنغهاي.

www.ibtesama.com/vb

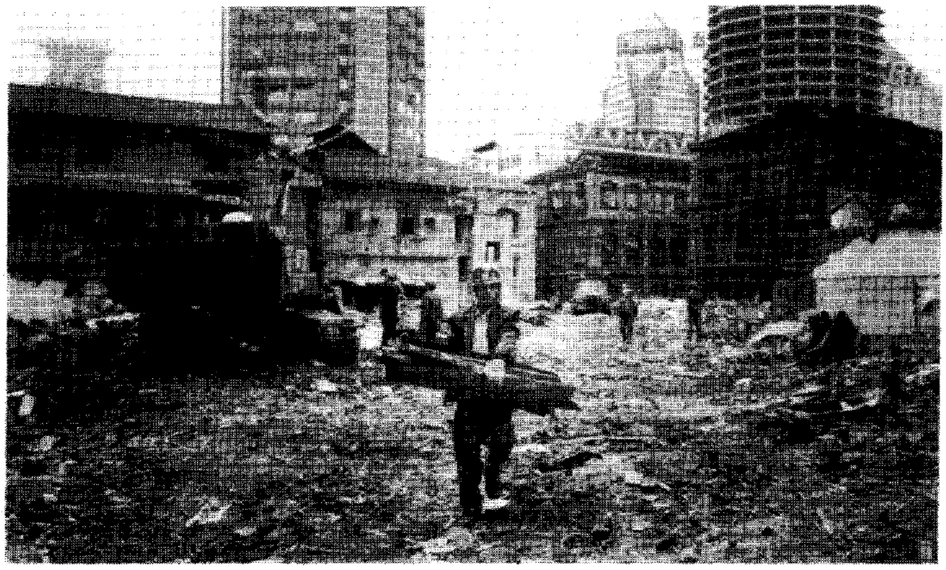

في كل أنحاء شنغهاي، وفي معظم المدن الصينية الأخرى، يجري هدم المباني القديمة لإفساح الطريق للمباني الجديدة.

الصين ورشة عمل العالم. وقد تقاطر إليها ملايين من العمال المهاجرين إلى المدن الساحلية للعمل في المصانع مثل هذا المصنع الموجود في شنغهاي. وكثيرون يكسبون 150 دولاراً في الشهر فقط، ولكن ذلك أكثر مما اعتادوا أن يكسبوه في العام في الزراعة في الأرياف.

أعضاء نادي شنغهاي لسائقي الجيب في الأرض الوعرة متجهون إلى الطريق 312 من أجل يوم استطلاع. وهم من اليسار إلى اليمين، كامل، وجانغ العجوز، وتينتن، وليو الصغير.

www.ibtesama.com/vb

شـاحـنـات وركـشـات، وحـافـلات ركاب ودراجات تتزاحم على الحيز في مسارات مزدحمة من الشارع 312 في ضواحي شنغهاي.

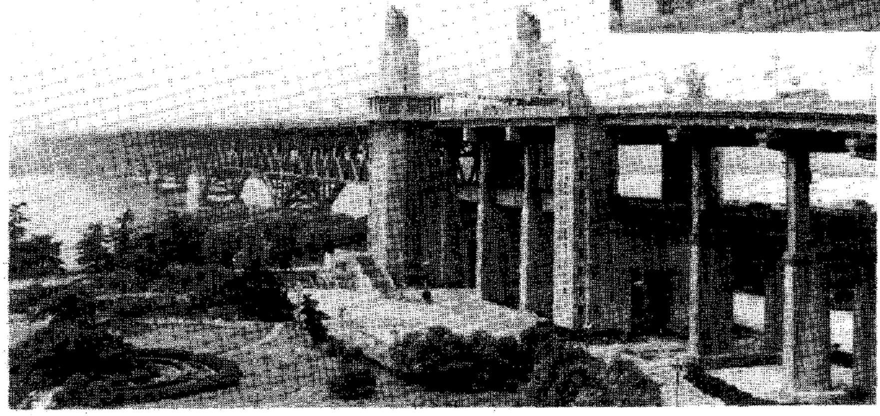

جسر نهر يانغسي، اكتمل في العام 1968، يعبر أطول نهر في الصين عند نانجينغ. الطريق 312 يمر على طول الطبقة العليا. والسكة الحديدية من شنغهاي إلى بكين يمر على طول أسفل الجسر.

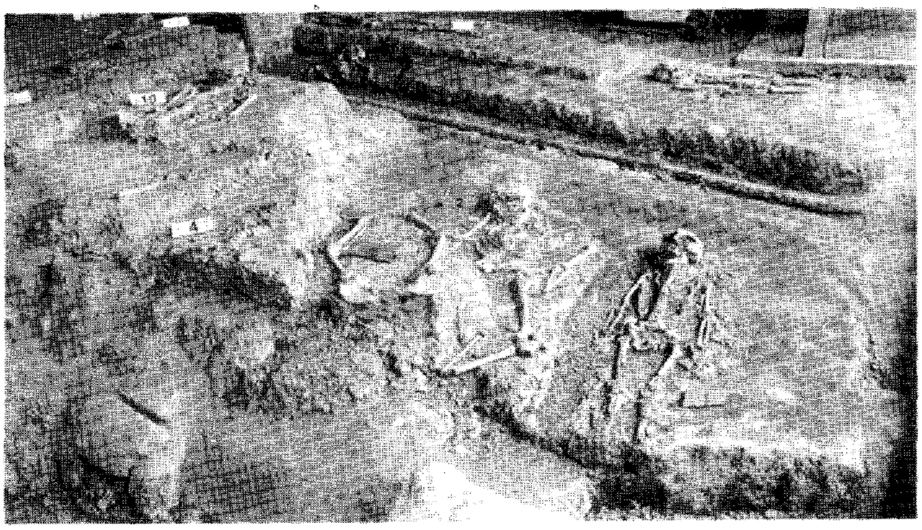

حفرة الآلاف العشرة من الجثث في المتحف تحيي ذكرى 300,000 صيني مدني قتلتهم القوات اليابانية في مجزرة نانجينغ في العام 1937.

www.ibtesama.com/vb

الحياة في الصين الريفية لم تتغير في قرون. والذي تغير هو أنه يوجد الآن مخرج، على طول الطريق 312 والطرق الأخرى، إلى أعمال متوافرة في المدن.

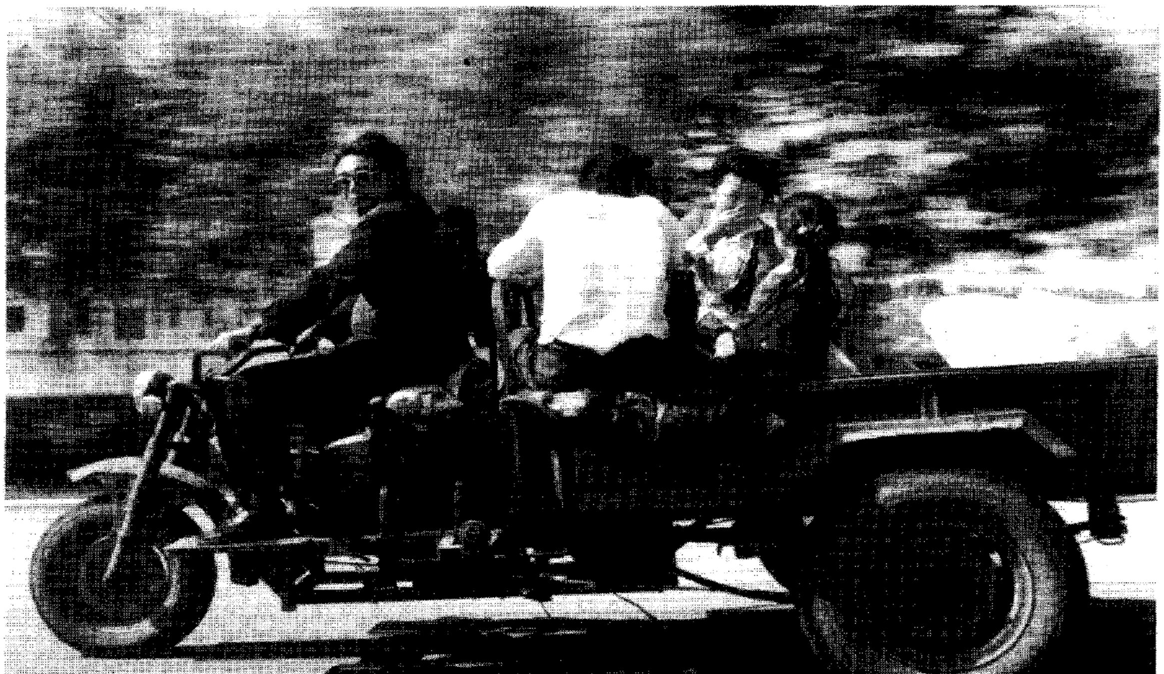

معظم الريفيين غير قادرين على اقتناء سيارات، ويسافرون بوسائل أساسية. بل إن تراكتوراً صغيراً مع مقطورة مرتبطة به يمكن أن يكلف مكاسب سنتين.

www.ibtesama.com/vb

في كل بلدة في الصين يوجد بارات إنترنت، وهي دائماً مليئة بالناس المرتبط أحدهم بالآخر ومع العالم الخارجي.

نظام الصين الاشتراكي الذي كان يوفر الوظائف مدى الحياة انهار، والكثيرات من النساء غير المتعلمات يجدن أن الطريقة الوحيدة الآن لكسب المال هي أن يتحولن إلى «مضيفات» في واحد من بارات الكارايوكي العديدة التي تصطف في الشوارع في كل بلدة.

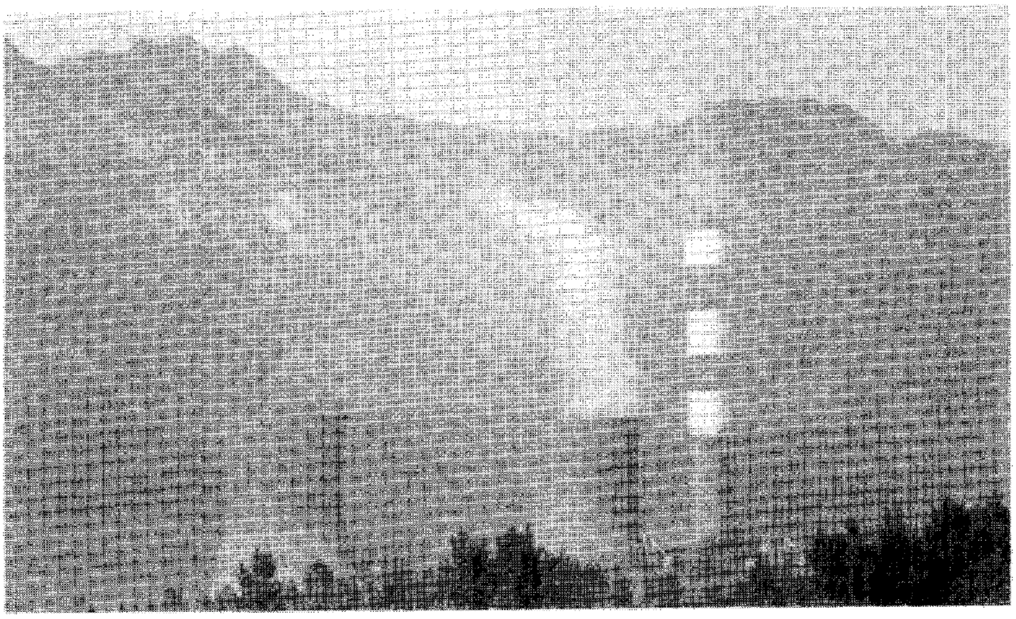

محطة طاقة تضخ التلوث أمام الجبل المزهر (هوا شان) وهو واحد من جبال الصين الطاوية المقدسة.

www.ibtesama.com/vb

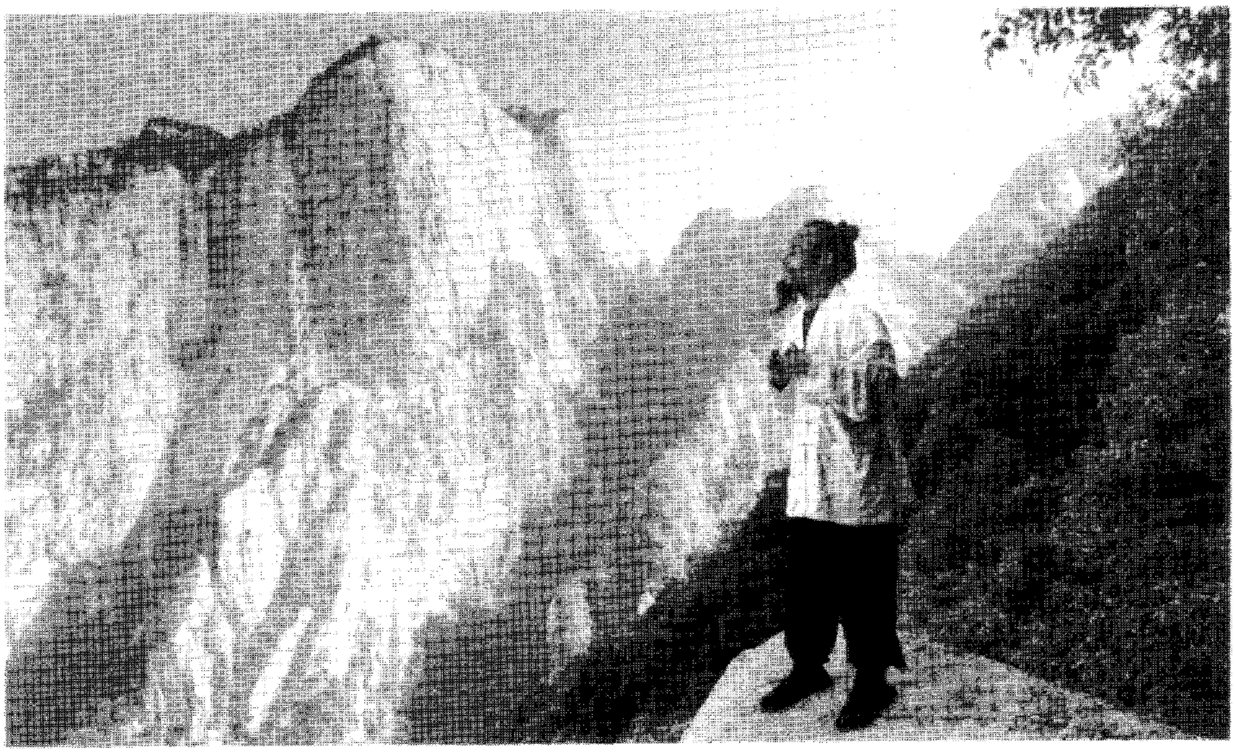

ناسك الجبل المزهر، يقف أمام واحد من وجوه الجبل الصخري الحاد الأبيض.

جيش تيراكوتا في شيان. يوجد أكثر من ثمانية آلاف تمثال في مجملها، وكل واحد بملامح وجهية فردية. وصُنِعت تماثيل أولئك الجنود في القرن الثالث قبل الميلاد، لحراسة ضريح أول إمبراطور للصين شين شهيوانغ.

www.ibtesama.com/vb

محطة حافلات الركاب في الصين، مثل هذه المحطة في المدينة الغربية لانجو، هي دائماً خلية نحل من النشاط، والناس والسلع يتدفقون شرقاً وغرباً.

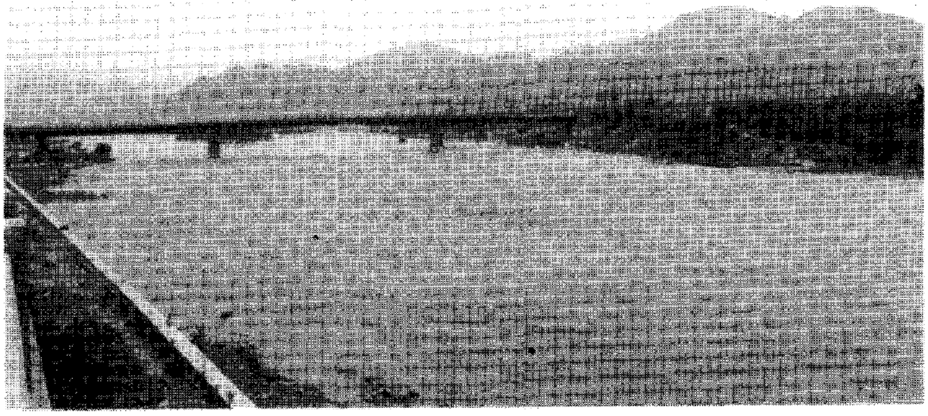

الطريق 312 يعبر النهر الأصفر في قلب لانجو، وهي واحدة من أكثر مدن العالم تلوثاً.

الطرق السريعة بين الولايات أخذت بعض المرور بعيداً عن الطريق 312 وهو يمر عبر المقاطعات الوسطى في آنهوي وهينان، ولكن الكثير من الشاحنات، وحافلات الركاب، والسيارات مازالت تسافر على طول الطريق.

www.ibtesama.com/vb

عروس ريفية، تلبس اللون الأحمر التقليدي لزفافها، وتستعد لتسوق السيارة إلى بيت زوجها الجديد. والشاحنة في الخلفية محملة بهدايا مهرها.

طلب من المؤلف أن يلقي موعظة في كنيسة بروتستانتية صغيرة في مقاطعة شانسي.

www.ibtesama.com/vb

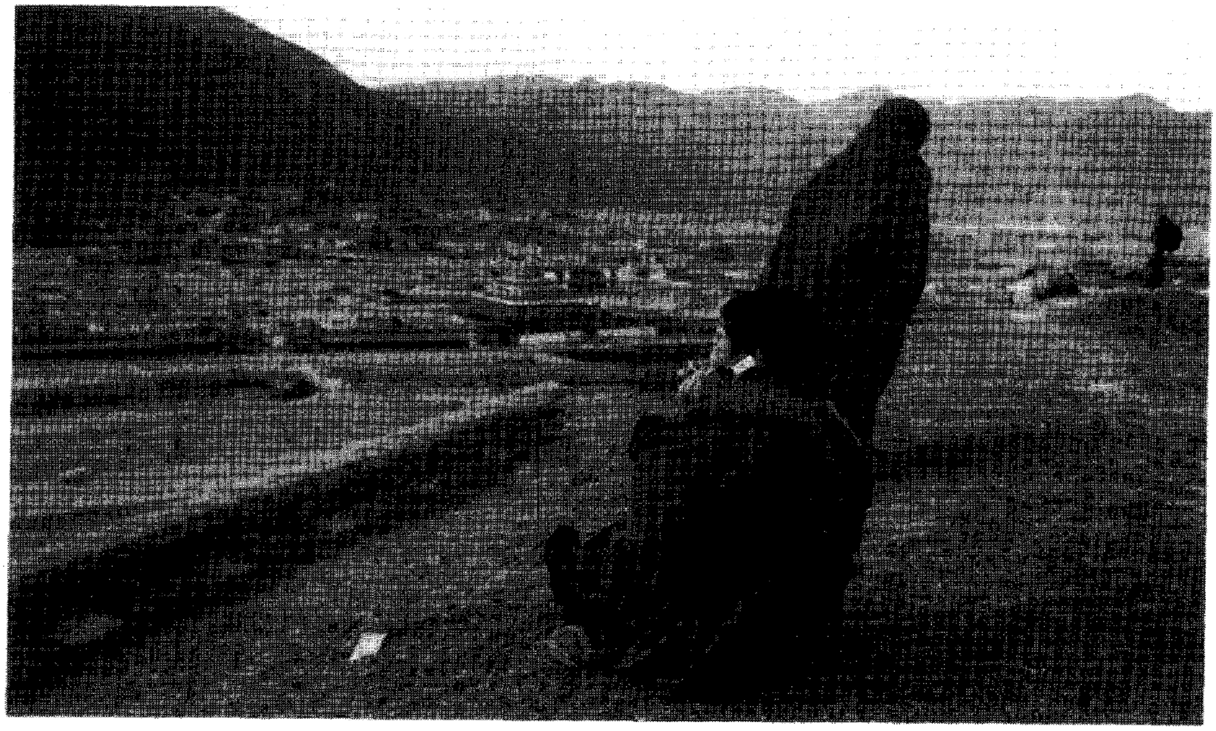

راهب يتحدث في هاتفه الخليوي الجوال على تلة تشرف على دير لابرانغ في بلدة شياهي. آلاف من الرهبان الآن يعودون للدراسة في الدير، على حافة الهضبة التيبيتية، بعد عقود من الاضطهاد.

رهبان تيبيتيون من دير لابرانغ للنظر في الإنترنت وتصفحها وتشغيل فيديو مباشر للألعاب في مقهى إنترنت شياهي.

www.ibtesama.com/vb

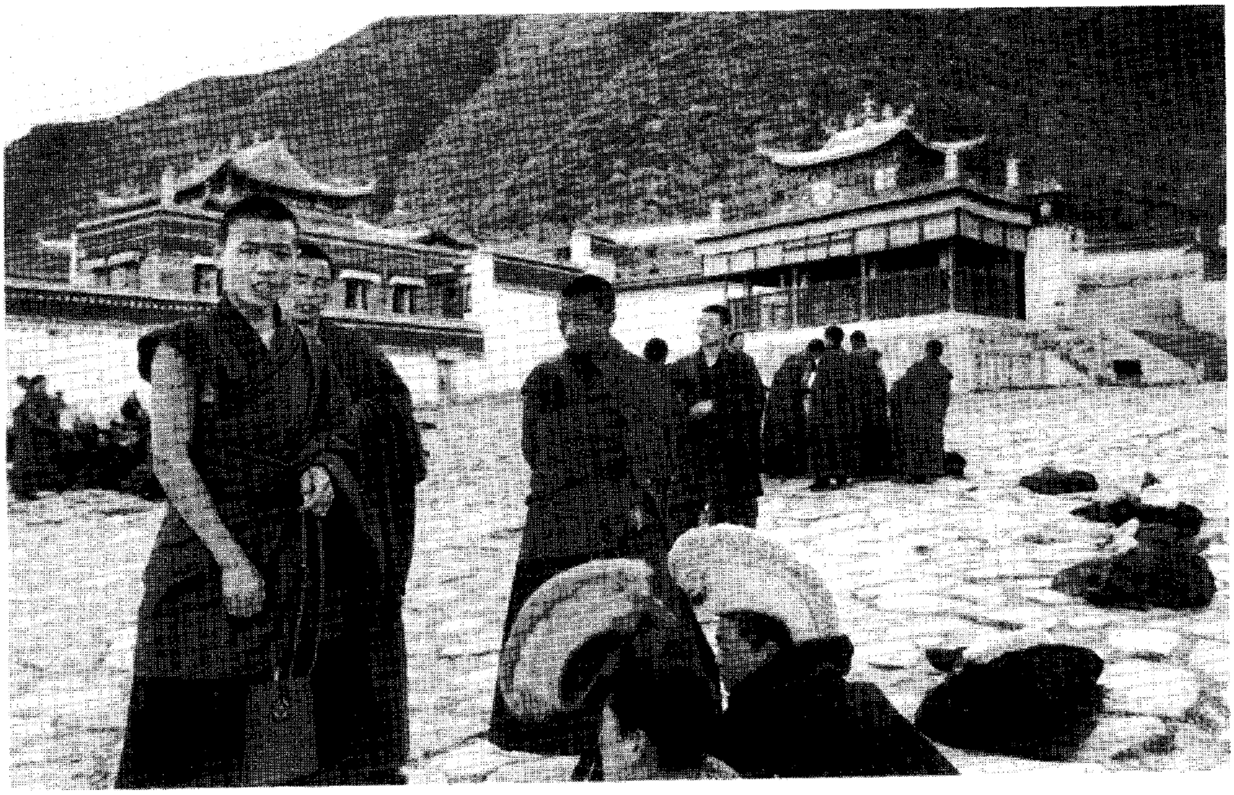

رهبان شباب يتجمعون خارج دير لابرانغ.

لي كيجين يعرض بفخر بعضاً من منتجاته آمويي. لقد ترك وظيفته الحكومية ليكون ممثلاً لشركة البيع المباشر الأمريكية في بلدة صحراء غوبي في جانغيي.

www.ibtesama.com/vb

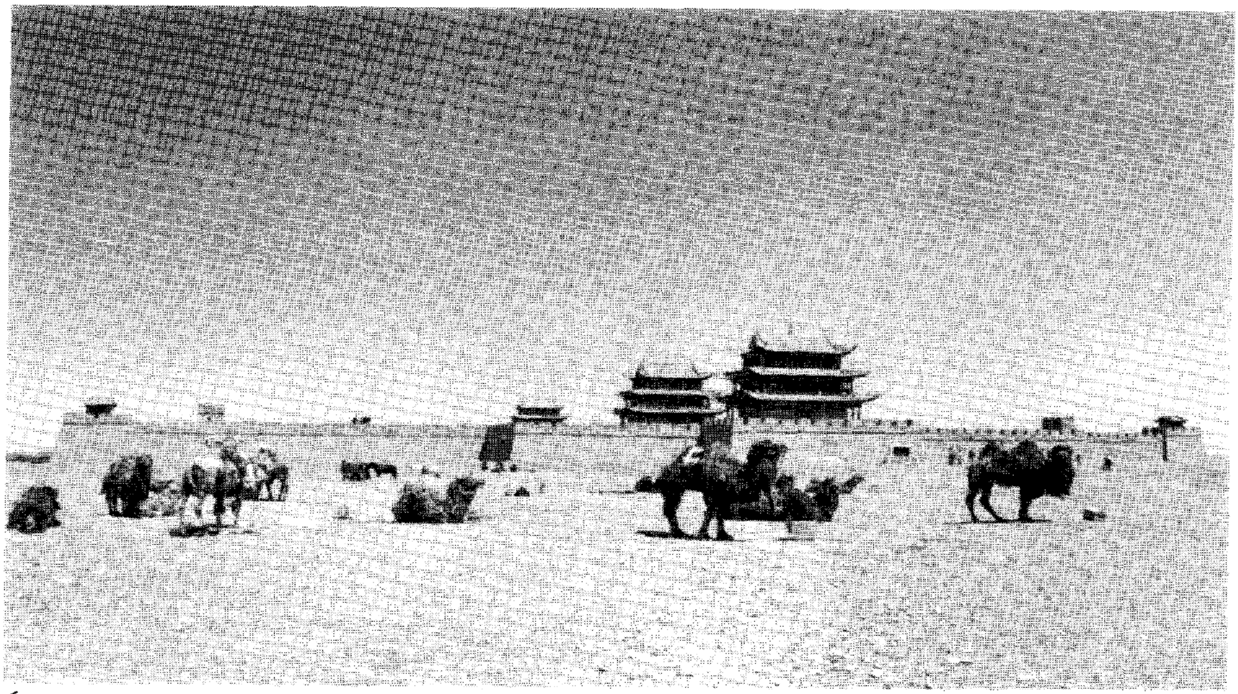

القلعة في جيايوغيوان، أبعد نقطة في الغرب من الجدار العظيم. وهي تعرف تقليدياً باسم «فم الصين» وكانت القلعة قد بنيت في القرن الرابع عشر للمساعدة على إبقاء «البرابرة» بعيداً إلى الشمال الغربي.

السياح الذين يبحثون عن خبرة أصيلة في طريق الحرير يستطيعون أن يركبوا جملاً عبر الرمال الصافرة المغنيِّة في دونهوانغ، وهي من أشهر البلدات الواحات في الصين الغربية.

www.ibtesama.com/vb

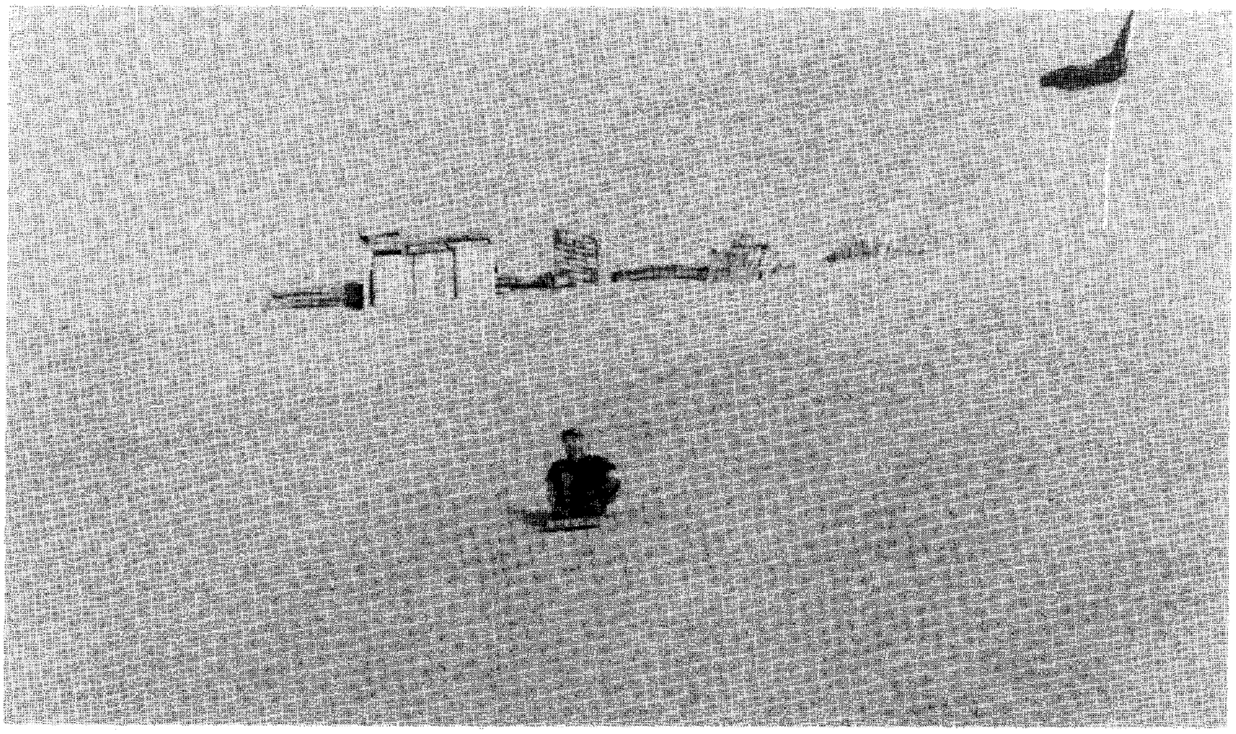

لعبة أخرى مفضلة لتمضية الوقت في دونهوانغ هي التزلج على الرمل. ويستطيع الزوار أن يجلسوا على صواني صغيرة وأن يدفعوا أنفسهم نزولاً على الكثبان الرملية.

الحروف الصينية تتزاحم مع الحرف العربي من لغة الويغور عند اتجاه الطريق 312 بعيداً إلى الشمال الغربي.

www.ibtesama.com/vb

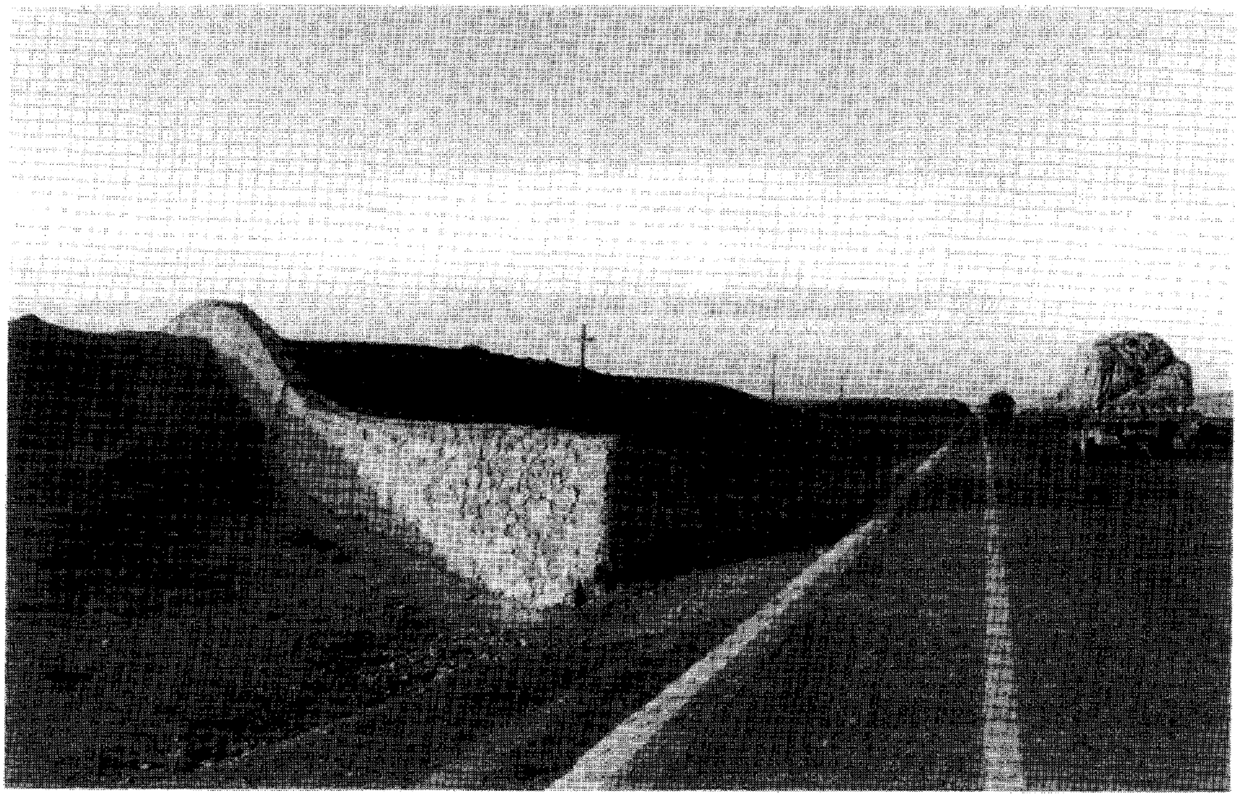

الطريق 312 يتقاطع مع مقطع صغير مكسر من الجدار العظيم في المقاطعة الشمالية الغربية غانسو.

بحيرة السماء المذهلة تقع في فجوة في الجبال التي تتصاعد خارجة من الصحراء، على بعد ستين ميلاً من الشمال الشرقي من أورومجي.

www.ibtesama.com/vb

حافلات الركاب للمسافات البعيدة تقطع الطريق 312 متجهة شرقاً وغرباً. أسرة النوم فيها ضيقة ولكنها مريحة، وتستطيع أن تسافر بشكل رخيص، رحلة تستغرق ست عشرة ساعة وتكلف في العادة خمسة عشر دولاراً تقريباً لا أكثر.

الكثير من مناظر وروائح منطقة شينكيانغ الشمالية الغربية هي مناظر وروائح آسيا الوسطى. وهنا مجموعة من الموسيقيين الويغور يؤدون عزفاً بشكل غير رسمي في شارع في أورومجي.

www.ibtesama.com/vb

نهاية الطريق. المؤلف وهو يقف أمام معبر الحدود إلى كازاخستان في البلدة الصغيرة كورغاز.

نهاية الطريق 312 في كورغاز. شاحنات تحمل سلعاً صينية تنتظر لتعبر الحدود إلى كازاخستان. وتقول الصوَّة «4825 كيلومتراً» (2998 ميلاً)، المسافة في بداية الطريق في شنغهاي.

www.ibtesama.com/vb

ويحاول إلفيس أن يكمل اللعبة: «أوه. كما تعرف، مجرد فيلم جيد».

«لابد أنه كان جيداً لك فعلاً أن تسهر لساعة متأخرة جداً». قلت ذلك وأنا أرفع حاجبي عالياً بالفعل، وهو ينظر في منظر المرآة الخلفية ليراني أنظر إليه مباشرة مع ابتسامة باهتة مرتسمة على وجهي.

ويقول وهو يدرك أن أمره قد انكشف: «نعم، كان الأمر كذلك».

وسادت لحظة من الصمت الحرج، ولكن كل واحد منا بعدئذٍ كان قد استقر مع الواقع الجديد. ومن دون أن يكون أي شيء قد قيل مباشرة، توصلنا إلى تفاهم هادئ، وهو ما كان إلفيس و«زوجته» يتوقعانه في المقام الأول. فالصين هي في المقام الأخير بلد لا تسأل، ولا تخبر. ربما تكون مقولة «انتبه لشؤونك الخاصة» هي أول وصية للكونفوشيوسية (ثم للشيوعية أيضاً).

ونتوقف ثلاث مرات أخرى من أجل أن يخرج إلفيس ويتمدد. وتحاول السيدة إلفيس أن تفعل كل شيء ممكن لإبقائه يقظاً. فهي تنخزه باستمرار وتلمسه من حين إلى آخر بقماشة الوجه الرطبة التي تحملها. ونتوقف من أجل فسحة استراحة في غرفة استراحة، وتقوم هي بتدليك ظهره وأكتافه وضربه عليهما. بل هي تحاول أن تجعله يقفز ويرقص على جانب الطريق كي توقظه. وأقترح أنه ربما يجب علي أن أسوق، ولكنه يصر أنه صاحٍ بشكل كامل.

وسرنا في طريقنا عبر الحدود إلى مقاطعة غانسو، وهي برية، وشاسعة الانفتاح، والبوابة إلى الصين الشمالية الغربية، حيث ستذوب التربة الصفراء بعد قليل إلى الصحراء الحقيقية الكاملة. والتلوي البطيء الذي صار عليه الطريق 312 بمساريه يتصل فجأة مع الطريق السريع بأربعة مسارات، والذي انطلق مباشرة خارجاً من شيان إلى لانجو. ومررنا على رجل وظيفته أن يلتقط القطع الصغيرة من المهملات على كتف الشارع السريع الجديد، وأطلب من إلفيس أن يقف للمرة الأخيرة قبل أن نصل إلى لانجو. ومشيت راجعاً لأسأل الرجل عن عمله. وماذا كان الطريق الجديد قد فعل في حياته. ويقول بكل بساطة إن عليه أن يلتقط المهملات على طول الطريق، ويُدفع له دولاران في اليوم ليفعل ذلك. أما أكثر من هذا فهو لا يعرف.

www.ibtesama.com/vb

ويتمتم «صحيح».

وآنئذٍ أدرك أن السيد إلفيس والسيدة إلفيس غير متزوجين قط. إنها عشيقته، وهما منطلقان في رحلة عشاق صغيرة إلى لانجو على نفقتي، لم يكن مستيقظاً يشاهد التلفاز. كانا ساهرين طوال الليل ليتعرفا على بعضهما على نحو أفضل.

وأسأل، «مشاهدة التلفاز، أليس كذلك؟ وماذا كان فيه؟»

عدت راجعاً من عنده نحو سيارة الأجرة، الواقفة وحدها على هذا الشارع المزفت الأسود الجديد. ودهان السيارة الأحمر هو البقعة الوحيدة من اللون في ما عداه من منظر طبيعي أصفر. والسيدة إلفيس تقود عشيقها في رقصة تانغو على الكتف الصلب من الطريق.

www.ibtesama.com/vb

12
آخر إمبراطورية كبيرة

ما الصين؟ ومن الصينيون؟

مثل هذه الأسئلة قد تبدو فضولية لا داعي لها حين يحدّق الجواب خارجاً من أي خريطة أو أطلس تلتقطه. الصين بلاد لها حدود مثل أي بلاد أخرى، والناس الذين يعيشون ضمن تلك الحدود هم الصينيون. حقاً؟

حسناً، ليس بالضبط، فطوال ألف ميل، والسيارة تسوق على طول الطريق 312 من شنغهاي إلى بلدة الحدود لانجو، كان سؤال «ما الصين؟» سؤالاً من السهل نسبياً الإجابة عنه. وأنت تستطيع أن تحددها ثقافياً، وعرقياً، وجغرافياً، أو بأي طريق تحب، قد توجد آلاف اللهجات المحلية، تختلف من مقاطعة إلى مقاطعة، ولكن أي طريقة تختار أن تعرِّفها بها حتى مدينة لانجو، فهي الصين المستندة إلى الكونفوشيوسية على نحو واضح، والمسكونة بالشعب الصيني عرقياً (أو بشعب هان).

ولكن التعاريف، بعيداً هنا، وأنا أقترب من غرب الصين، تصير تعاريف ضبابية.

والمؤلف بيتر فليمنغ (الذي كتب أخوه إيان روايات جيمس بوند 007) كان مراسلاً شاباً في التايمز اللندنية حين حصل على درجة من الشهرة في الثلاثينيات من 1930 عن طريق السفر عبر الصين المفككة من بكين إلى كاشغر، في الغرب الأقصى من الصين، ومتابعة إلى كشمير البريطانية في ذلك الوقت. وفي كتابه الرائع (أخبار من بلاد التتار)، الذي نشره في العام 1936، يصف فليمنغ الابتهاج بالوصول إلى لانجو بعد رحلة دامت ثمانية أيام من «البؤس الصادم المضجر» من شيان.

يوجد سوق (بازار) أقرب كثيراً في جوه إلى أسواق آسيا الوسطى منه إلى أسواق بكين. والسوق كله مختلف جداً عن الصين التي تراها من موانئ المعاهدة، وهنا يراودك الشعور بأنك على حدود أرض أخرى، وأنك قد وصلت تقريباً إلى حافة الصين. مثلما قد فعلتَ فعلاً.

www.ibtesama.com/vb

كانت لانجو، ومازالت، هي نهاية الصين المتجانسة، الصين الصينية عرقياً. وهي تقع في المكان الذي تبدأ فيه الصفائح التكتونية لصين هان بالاحتكاك ضد صفائح آسيا الوسطى. مازال أمامي على الأقل ألف وخمسمائة ميل لأقطعها في رحلتي على طول الطريق 312 إلى حدود الكازاخ. وحسب المسافة، لا تقع لانجو في منتصف الطريق بالتساوي عبر البلاد. ولكن المنطقة التي أوشك أن أقطعها مسكونة بالعديد من الشعوب المختلفة الذين ليسوا صينيين عرقياً. وهم يعيشون داخل حدود جمهورية الصين الشعبية، ولكن الكثيرين منهم لا يشعرون بأي انتماء للصين أو للثقافة الصينية. فدينهم، وتاريخهم، ولغتهم، وكل نقطة مرجعية تهتم بذكرها هي نقطة مختلفة عن تلك التي تخص هان الصينية، ومع ذلك تقول بكين إنهم صينيون. ومعظم من يدعون شعوب أقليات يعيشون بسلام داخل الدولة الصينية. ولكن كثيرين من التيبيتيين وأعضاء من مجموعة الويغور العرقية، الذين يسكنون الغرب، يعتقدون أن المناطق التي يعيشون فيها لا يجب أن تكون جزءاً من الصين، وتوجد حركات داخل الصين وخارجها لمقاومة الحكم من بكين.

والأسباب الداعية لهذه المقاومة لها جذورها في طبيعة الدولة الصينية نفسها، والتحول الكامل التي عانته في السنوات المائة والخمسين الماضية.

وطوال قرون (في الحقيقة طوال ألف سنة) كانت الصين قد تحددت إلى حد كبير لا بالأرض التي حكمتها، بل بثقافتها، وهو أمر شبيه بالكيفية التي حدد فيها مفهوم المسيحية أوروبة قبل مجيء الدولة الأمة في القرن السابع عشر. ما جعلك صينياً في الماضي لم يكن إلى حد كبير أين كنت تسكن (على الرغم من أن ذلك كان جزءاً منه) بل إن كنت قد قبلت تعاليم النصوص الكونفوشيوسية القديمة، والنظام البيروقراطي للحكومة، والسلطة الإمبراطورية الصينية. وكان البرابرة الموجودون على أطراف الإمبراطورية يستطيعون أن يتحولوا إلى صينيين عن طريق تبني الطرق الصينية، وبعضهم فعل، تماماً مثل البرابرة في أوروبة القديمة الذين كانوا يستطيعون التحول إلى رومانيين بتبني الطرق الرومانية، وبعدئذٍ، في أثناء عصور الظلام والعصور الوسطى، كان الكفرة يستطيعون أن يصيروا جزءاً من «العالم المسيحي» عن طريق قبول المسيحية.

www.ibtesama.com/vb

بالنسبة إلى الصين، مع ذلك، كان هناك أيضاً نوع من منطقة الغسق للشعب الذي كان يعيش على الأطراف، الذين لم يتبنوا الطرق الصينية ولكن الإمبراطور والمسؤولين في بكين عدوهم جزءاً من الإمبراطورية، وجزءاً من العائلة الإمبراطورية العريضة. وكان هذا صحيحاً على وجه الخصوص بعد غزوات القرن الثامن عشر حين غزت الإمبراطورية الصينية ودمجت تركستان الصينية (التي تسمى الآن شينكيانغ) التيبت. والويغور، التيبيتيون، وآخرون كانوا يرسلون إتاوة إلى بكين، وكان ذلك لمجرد إبقاء الإمبراطور بعيداً عن ظهورهم، ويكف عن مضايقتهم. وكان الحكام في بكين سعداء لإبقاء العلاقة مسترخية غير متوترة مع شعوب الحدود أيضاً، ولا يجبرونها على تبني الطرق الصينية طالما كانوا يرسلون الإتاوة وطالما ركعوا للإمبراطور حين كان يفترض أن يركعوا.

كل هذا تغير في القرن التاسع عشر، مع مجيء شعب المحيط. وأدركت نخبة الصين بالتدريج أن الغرب كان يلعب بقواعد مختلفة اختلافاً كاملاً. ها هنا كان يوجد شعب من وراء العالم الصيني، وهو لم يقبل لا الرؤية الصينية التقليدية للعالم ولا تفوق الثقافة الصينية. شعب المحيط لم يكن مهتماً بعلاقة إتاوة مع بكين. لقد جاؤوا من قارة من أمم دول متساوية، وكلهم يعيشون التفوق، وهم لا يملكون وقتاً لزعم التفوق الصيني. وأكثر أهمية من ذلك، أنهم كانوا يعرفون أن أسلحتهم الخاصة كانت أفضل على نحو لا حدود له. وحين بدأ شعب المحيط يقطع الصين، صار من الواضح في نهاية المطاف لحكام الصين أن الطريقة الصينية لترتيب العالم ثقافياً لا تستطيع أن تستمر، وأنهم إن كانوا يريدون الصين بوصفها كياناً أن تبقى حية، يتوجب على الصينيين أن ينبروا للغرب في لعبته الخاصة. وبعد الكثير من المقاومة، والبحث العميق، العميق في الروح من حيث الحوافز، والقناعات، والمواقف، استنتج كثيرون من الصينيين أنهم، لإنقاذ أنفسهم بوصفهم أمة دولة، سيتوجب عليهم أن يدمروا أنفسهم من حيث هم ثقافة.

وهكذا بدأ الصينيون يتخلصون من ثقافتهم، وطريقتهم الثقافية في تعريف من هم، وبدؤوا يفكرون أكثر على أساس الأمم الدول الأوروبية. الكتابات الكونفوشيوسية

www.ibtesama.com/vb

الكلاسيكية وآلاف من السنين من التاريخ الصيني قالت إن الصين كانت مركز العالم وإن الصينيين كانوا شعب العالم المتفوق. ولكن الهزائم العسكرية والمعاهدات المهينة التي فرضت عليهم في القرن التاسع عشر أخبرتهم بأنهم لم يكونوا كذلك. كانت أوروبة متفوقة عليهم لأنها استخدمت التقانة الحديثة والأسلحة الحديثة، وهكذا كان على الصين أن تتعلم شيئاً ما من ذلك إذا كان لها أن تتجنب أن يتم تقسيمها تقسيماً كاملاً. في العام 1905 ألغى الصينيون نظام الامتحانات الكونفوشيوسية المهمة للغاية، الذي كان قد أعطى الإمبراطور وموظفيه شرعيتهم طوال ألفي عام، وبعدئذٍ، في العام 1912، أطيح كل النظام الإمبراطوري نفسه.

والآن، إذا كنت تقوم لأول مرة بتحديد خط على الخريطة لتظهر أين تبدأ أمتك الدولة وأين تنتهي، فإن عليك أن تقرر ماذا تفعل بأولئك الناس الذين كنت قد عقدت معهم دائماً علاقة غامضة. هل هم في الداخل أم في الخارج؟ وهم طبعاً، بالنسبة إلى أي حاكم في بكين، فإن عليهم أن يكونوا في الداخل. لا يمكن أن يكون هناك المزيد من التردد والخداع بشأن من هو الذي كان صينياً؟ ومن هو الذي لم يكن؟ والسيطرة الصينية على التيبت وتركستان من القرن الثامن عشر إلى 1912 كانت في أماكن عديدة سيطرة اسمية فقط، وبعد العام 1912، كما سبق أن رأينا، انهارت الصين ولم تكن قادرة على فرض سيطرتها على الغرب قط. ولكن بعد مدة قليلة من قهر الشيوعيين للصين الشرقية، في العام 1949، انطلقوا في نقل قوات إلى التيبت وإلى الشمال الغربي الإسلامي كي يرسموا حدودهم، على الأسلوب الغربي، حيث كان الشعور يسود بأنهم وجدوا تحت أسرة شينغ الأخيرة، التي حكمت من 1644 إلى 1912. وكانت هذه هي العلامة النهائية على تحول الصين من عالم خاص بها إلى أمة دولة واحدة من عديدين. ولكن التحول لم يكن سهلاً وناعماً، والتراث الباقي للصين اليوم هو خليط مضطرب مثل الإمبراطورية القديمة والأمة الدولة الحديثة. إنها أزمة لخصها أفضل تلخيص العالم السياسي من معهد ماساشوستيس للتكنولوجيا وعبقري الصين كلها لوسيان باي، الذي كتب يقول: «إن الصين حضارة تدعي أنها دولة».

www.ibtesama.com/vb

أو، لنعبر عن ذلك بطريقة أخرى، الصين هي آخر إمبراطورية كبيرة. فكل الإمبراطوريات الأخرى من القرن التاسع عشر والقرن العشرين، أي، البريطانية والفرنسية، والعثمانية والسوفيتية، قد ذهبت. وإذا وضعنا جانباً للحظة النظرية القائلة إن الولايات المتحدة قد صارت قوة إمبراطورية، فإن الإمبراطورية الصينية آنئذٍ هي التي تبقى، وهي تريد أن تمضي قدماً بوصفها أمة دولة حديثة، ولكنها مثقلة بقيودِ إمبراطورية لا يمكن إمساكها معاً إلا بالقوة فقط. قلة من الشعب الصيني تقر بذلك، ويحتمل أن يختلف معي كثيرون من الذين يقرؤون هذا الكتاب اختلافاً قوياً، وينتقدونني لعواطفي المعادية للصين ولرغبتي في أن تنقسم الأرض الأم. ولكن البيئة التاريخية الموضوعية توحي بأن ذلك صحيح. وإحدى أنجح الأساطير التي رسخها الحزب الشيوعي في عقول شعبه هي أن الصين قد بدت دائماً مثلما هي عليه اليوم. ويتعلم الطلاب ذلك في المدارس. وحين ترجم (تاريخ كيمبردج للصين) إلى اللغة الصينية، تم تغيير خارطة الصين لأسرة مينغ (1368 ــ 1644) من خريطة لا تحتوي على التيبت وعلى تركستان الصينية في النسخة الإنجليزية الأصلية إلى خريطة تحتويهما في النسخة الصينية، وذلك في تناقض مباشر مع الحقيقة التاريخية.

كل هذا التاريخ معلق في الهواء وأنت تقترب من لانجو على طول الطريق 312 من الجنوب الشرقي.

تمسك لانجو بالتمييز المشكوك فيه في كونها واحدة من أكثر مدن العالم تلوثاً، وهو التراث القاتل من محاولات الرئيس ماو في التصنيع في الخمسينيات من 1950 والستينيات من 1960. ويبلغ عدد سكان المدينة 3 ملايين نسمة تقريباً، وهي تمتد على طول ضفاف النهر الأصفر، وتحيط بها الجبال وتعتصرها من الجهات الأربع. والجبال هي سبب واحد للتلوث، لأن ضباب الدخان المنبعث من المصانع لا يستطيع أن يهرب. في التسعينيات 1990، كان هناك خطط لتصحيح هذا الوضع عن طريق نسف فجوة ضخمة في إحدى سلاسل الجبال لتسريب التلوث، ولكن ذلك المخطط على ما يبدو لم يصل إلى شيء. بالنسبة إلى الحكومات المحلية في الصين، كما هو الحال في معظم البلدان، يوجد من الفوائد في صرف المال على صناعة جديدة (وظائف،

www.ibtesama.com/vb

وضرائب، واستقرار اجتماعي، ورفاهية معتدلة) أكثر مما يوجد من الفوائد في صرف المال لمعالجة العواقب السلبية الناجمة عن الصناعة.

والمدينة نفسها، كما يبدو لي، قد شُنّع عليها كثيراً جداً. وهناك جسارة سارة بشأنها، إذا كنت تحب الجسارة (وأنا أحبها). وطالما أن بطانة مجاري قصباتك الهوائية ليست مطلوبة للتفاعل مع ما يسمى هواء المدينة لمدة طويلة جداً، فإن من المحتمل أنك سوف تستمتع بلانجو، تستمتع بجوها وهو جو البلدة الحدودية، وببارات المعكرونة الطويلة العظيمة، وبالخليط العرقي. ولكنني سأتخيل أقسام الجهاز التنفسي من مستشفيات المدينة مثل مناطق حرب.

الجبال المحيطة بلاجو بنية مثل النهر الأصفر، وهو ما يتحدى اسمه، وهو يتلوى، محملاً بالطمي، عبر قلب المدينة تماماً. ربما كان هو لون الجبال أو منظر الوجوه المسلمة أو التيبيتية في الشوارع، ولكنك حين تكون هنا، فإنك دائماً تملك شعوراً في خلف ذهنك وهو أنه يوجد شيء ما مختلف هناك، يكمن وراء تلك الجبال. وطبعاً هناك شيء.

ما يوجد هناك معروف بطريقة ملطفة في الكلام الصينية باسم المناطق الغربية. وهي مكونة من الهضبة التبتيبة كلها إلى الجنوب الغربي، ومقاطعة (Qinghai) تشينغ هاي المفتوحة انفتاحاً كاملاً إلى الغرب، وهي امتداد طويل، ضيق من مقاطعة غانسو (التي تعتبر لانجو عاصمتها)، وأخيراً منطقة شينكيانغ إلى الشمال الغربي، التي أتوجه إليها الآن. وبعد لانجو مباشرة، تبدأ صحراء غوبي، ولا تنتهي إلى زمن طويل جداً جداً.

في الليلة الماضية فقط، حين قرأت الكتاب الإرشادي حول مقاطعة غانسو في غرفتي في الفندق، كنت قد أدركت بالضبط كم كنت قريباً إلى الهضبة التيبيتية. لم أكن قد خططت للقيام بتحويل نحو الجنوب، ولكنني حين نظرت إلى الخريطة، بدت لي فرصة أفضل من أن تفوت. وشياهو، وهي على حافة الهضبة التيبيتية تماماً، تبعد 170 ميلاً جنوب غرب لانجو، وهي بلدة الدير الرئيسي خارج العاصمة التيبيتية

www.ibtesama.com/vb

لاسا. وقد زار شياهو عدة أصدقاء من بكين وأخبروني كم هي رائعة، وهكذا غيرت خططي وفي الصباح التالي ركبت حافلة ركاب إلى الجنوب خارجاً من لانجو.

إذا كنت تريد خارطة طريق دقيقة للصين، فيجب عليك أن تذهب مباشرة إلى دار نشر وتمزقها من المطبعة. بل إنها حينئذٍ ستكون قديمة التاريخ. فسرعة بناء الطرق غير عادية ونوعية الطرق الجديدة مدهشة.

والطريق إلى الجنوب طريق سريع من أربعة مسارات، وهو طريق لم أتوقعه لا أنا ولا خارطتي، وهو شريط لامع من الزفت الأسود والحواجز الفولاذية التي تشكل مساره عبر الأرض شبه الصحراوية الصفراء خارج لانجو. وهنا يبدأ صراع الإنسان ضد الطبيعة يشتد، والعديد من جوانب التلال مدرجة كالشرفات، تسمح للناس المحليين على الأقل أن يحاولوا أن يعتصروا بعض الخصوبة من الأرض الصفراء الممانعة.

مسجل قرص الفيديو الرقمي (دي في دي) الموجود في حافلة الركاب يضخ أغاني وطنية مع صور رجال ونساء لابسين بدلات عمل جيش التحرير الشعبي في الخمسينيات من 1950. ويبدو أنها تعلم أبناء الأقليات عن مباهج كونهم صينيين. هناك أغنية واحدة عن المنغوليين، ثم واحدة عن هضبة التيبت. وكلمات الأغنيتين مكتوبة على طول أسفل الشاشة بشكل مساعد في حالة أراد أي واحد المشاركة.

مسجل قرص الفيديو الرقمي يعمل بصوت عال يعلو عدة مئات من الديسابلات فوق المستوى المسموح به في مصانع الصناعة الثقيلة في الولايات المتحدة. على الرغم من أنني لم أدرك ذلك في البداية. وإنما أدركت ذلك فقط حين انحنى طفل في المقعد الواقع خلفي فوق ظهر المسند الذي يليني وبدأ يغني، أدركت كيف أنني، ومع مرور الوقت، صرت مطعماً ضد الضجة الصينية. هذا هو نوع الشيء الذي كان يغيظني في العادة. «ماذا تفعل، أيها الولد، تنفخ اللحن النشاز في أذني؟ وماذا يفعل هذا السائق وهو يشغل مسجل تلك الموسيقى بصوت عال جداً في المقام الأول؟» والآن، أنا أذهل نفسي بالتبسم أيضاً في تشجيع للولد، وكأنني أعتقد أن الإعوال النشاز في أذني بإيقاع لا معنى له هو شيء جميل لا غير.

www.ibtesama.com/vb

الصين تفعل ذلك بك. فأنت تعود إلى الولايات المتحدة أو إلى أوروبة، والناس يعجبون لماذا لا تقفز إلى الأعلى والأسفل انزعاجاً من بعض الضجة الصغيرة أو الإزعاج، وأنت تنظر إليهم، وتفكر، ما هي مشكلتكم؟ فنحن نملك عتبات منخفضة جداً من الإزعاج في عالمنا الغربي المريح. (والخطر هو أنك، مع ذلك، تنسى أيضاً أن تتلاءم مع الطرق الغربية، لِنَقُل، في سلامة الطريق أو آداب المائدة عند العودة إلى وطنك).

وتنساب الطريق على طول نهر صغير لبعض الوقت، وبعدئذٍ ينعطف السائق بعيداً عن الطريق السريع العالي اللمعان ليسوق على طريق ريفي معبد تعبيداً جيداً وينثني ويعود هابطاً تلة قبل النزول إلى الوادي الأخضر من لينشيا. تضم لانجو خليطاً من العرقيات، ولكنها مدينة صينية بشكل ظاهر. وهذا الوادي الصغير، وهو على بعد مائة ميل إلى الجنوب، هو أول واد أمر عبره وهو ليس في الحقيقة من هان الصينية قط. هناك مجتمعات مسلمة صغيرة متفرقة في كل أنحاء الصين بعيداً عن الشرق، وأما هنا، حول لينشيا، فهي تقريباً مسلمة 100 بالمائة. كل قرية تملك مسجداً. وكل الرجال يلبسون طواقي بيضاء إسلامية على رؤوسهم ويُظهرون لحى صغيرة. والنساء يلبسن الإشاربات لتغطية شعورهن. وفجأة لا تشعر أن المكان مثل الصين تماماً. والعديد من مساجد القرى خليط من الأساليب المعمارية، وأقل شبهاً تقليدياً بالمساجد من نظيرتها في الشرق الأوسط ولكنها ليست صينية بقدر ما هو عليه المسجد الرئيسي في شيان، الذي كان قد بني تقريباً مثل معبد قديم وفق الأسلوب الصيني.

يُعرف المسلمون هنا وحول هذا المكان باسم شعب هواي. وكان أجدادهم جنوداً، وتجاراً، وحرفيين جاؤوا إلى الصين من بلاد فارس ومن آسيا الوسطى بين القرنين السابع والثالث عشر. وبعد أن استقروا في الصين، تزاوجوا مع الصينيين الهان وصاروا يتكلمون الصينية (في الوقت الذين يستبقون غالباً بعض اللغة العربية أيضاً). وفي نهاية المطاف صار الهواي مندمجين إلى حد كبير، على الرغم من أنهم استبقوا دينهم الإسلامي وهم إلى هذا اليوم لا يأكلون لحم الخنزير. والعلاقات بين الصينيين الهان وبين الهواي أفضل بكثير من علاقات الهان مع جماعات إسلامية

www.ibtesama.com/vb

أخرى في شمال غرب الصين، مثل الويغور، ولكن وعلى الرغم من اندماج الهواي، فإن دينهم يضع فجوة كبيرة بينهم وبين الهان. وهناك بين الحين والآخر انفجارات غاضبة من التوتر العرقي، وهي عادة بسبب إهانة دينية ما أو قضية صغيرة تتصل بالطعام أو بالممارسة الدينية. وتتحرك الدولة دائماً بسرعة لتقضي على هذه الحوادث، وكل الأطراف يعرفون أن القليل هو ما يستطيعون تحقيقه بالمزيد من النزاع، ولذلك فالناس من جميع العرقيات يميلون إلى الاحتكاك قدماً جنباً إلى جنب.

أغير حافلة الركاب في لينشيا، وهي أيضاً تملك الشعور ببلدة حدودية، فالمتاجر مملوءة بالخناجر والسروج وفراء الحيوانات. وحافلة الركاب إلى شياهو مزدحمة وخشنة ومليئة بالدخان. إنها نموذج أرخص بكثير من النموذج السابق، وهذه أخبار طيبة، لأن القاعدة العامة حين تسافر في الصين هي أنه كلما كانت الحافلة أرخص، كان الناس أكثر مودة. وكان يوجد بعض المقاعد نحو خلف الحافلة، وهكذا أتسلق بصعوبة فوق الأرجل والحقائب لأصل إلى مقعد. معظم الناس في حافلة الركاب هذه تيبيتيون. والرجل الذي أجلس إلى جانبه، يقول بلغة ماندرينية غير مفهومة تقريباً إنه من مجموعة أقلية لم أكن قد سمعت بها مجرد سماع من قبل، وهي من أصغر المجموعات في الصين، وتسمى دونغشيانغ.

يوجد ست وخمسون جماعة من جماعات الأقليات العرقية المختلفة داخل حدود الجمهورية الشعبية معترف بها رسمياً، وما يقارب أربع مئة جماعة غير معترف بها. والحكومة في بكين تقول إنهم جميعاً «شعب المملكة الوسطى،»شعب صيني. ولكنك لو سألتهم، فإن ولاءهم الأول يكون عادة لجماعتهم العرقية. ويوجد 300,000 دونغشيانغ نسمة في كل العالم، وجميعهم يعيشون حول لينشيا. وهم مسلمون، ولكنهم يعودون بأصولهم إلى المنغول، حين اجتاح جنكيز خان المنطقة حتى وصل هنا في القرن الثالث عشر.

وأسأل هذا الرجل من الدونغشيانغ، «هل لكم لغتكم الخاصة؟ وهل لكم حرفكم الخاص «وهو يجيب»، لنا لغتنا الخاصة، ولكنها غير مكتوبة. إنها تشبه اللغة المنغولية. ولكنني لا أستطيع القراءة على أي حال، ولذلك فهذا لا يشكل أي اختلاف». يقول الرجل ذلك مع ابتسامة.

www.ibtesama.com/vb

وقبل أن تغادر حافلة الركاب بقليل تماماً، دخلت امرأتان صينيتان من الهان تلبسان لباساً فاتناً نوعاً ما. وكنت قد رأيتهما على حافلة الركاب من لانجو. وهما تريان مقعدين بالقرب مني وتبدأان باعتصار طريقهما، بأسلوب أنثوي جداً واع للذات، إلى المقاعد الخلفية من الحافلة. وهما تذكرانني بجاك ليمون وطوني كيرتس وهما يركبان القطار لابسين ملابس الجنس الآخر في فيلم (بعضهم يحبونها ساخنة).

وكلتا المرأتين تبدو من خارج المكان أكثر مما أبدو أنا، وهما تدفعان حقيبتيهما المتماثلتين الزهريتين المروعتين اللتين تستخدمان للرحلات القصيرة إلى رف الأمتعة الموجود فوق رؤوس الركاب وتضعانهما بين بطيخة كبيرة وبين كيس قماشي ضخم وخشن ومليء بما لا أعلم. وبالتأكيد فهاتان الحقيبتان هما أول حقيبتين زهريتين مروعتين مستخدمتين لرحلة قصيرة سبق في أي وقت أن شرفتا هذا الرف على وجه الخصوص الموجود فوق الرؤوس. وتتسلق الاثنتان إلى آخر صف من المقاعد، على امتداد خط قُطْر الحافلة خلفي، وتمسحان المقعدين القذرين قبل أن تجلسا عليهما.

صغراهما تلبس كلها لباساً أبيض، وهو اختيار غريب من الثياب للسفر في هذا الجزء من الصين، ولها شعر قصير مجعد مصبوغ قليلاً، وتضع على عينها ما هو أشد اجتذاباً للانتباه، وهو نظارات ذات إطار زهري لامع ولها عمودان جانبيان سميكان مرصعان بماس زجاجي زائف.

أما صديقتها فلها منظر المرأة الأشد إغواء وفتنة. وهي تلبس لباساً أسود كاملاً، مثل بعض النساء على شكل الممثل غاري كوبر وهو يركب حصانه خارجاً ليخضع الحدود الغربية. لباس نصفها العلوي الأسود اللامع المصنوع من البوليستر تتعلق فيه أقراص لامعة صغيرة من الخصر، وبنطالها المتلائم فيه نفس الأقراص اللامعة معلقة من حول كاحليها. وعلى شعرها خطوط ضئيلة من الصباغ البني. وتبدو كلتا المرأتين مضحكة تقريباً، في آخر مقاعد هذه الحافلة القذرة، وهما معتصرتان بين الفلاحين التيبيتيين.

وحالما استقرتا في مقعديهما، تثرثران بلغة مندرين نقية جداً خلفي، فتحت المرأة المغوية علبة من مناديل مسح الأطفال وقامت بمسح وجهها على نحو مستفز جداً.

www.ibtesama.com/vb

وهي تعرض منديلاً على صديقتها، التي تمسح يديها بحركة ملكية، ثم ترمي المنديل المستعمل على أرض الحافلة الوسخة من قبل ذلك.

وتقول المرأة المغوية بصوت كالزعيق، «إإإوه. هذه الحافلة وسخة جداً».

وتومئ الأميرة الزهرية بالموافقة. ويبدأأن بإرسال رسائل نصية في هاتفيهما الخليويين الخياليين.

في الخارج، تمر البيوت الطينية وتصدر السيارة أزيزاً وهي تمر إلى جانب لوحات إعلانات تروج للرفاهية المعتدلة. وهي هدف موجود في كل مكان ولكنه هدف مراوغ. وإعلانات أخرى تعرض القرن الواحد والعشرين للمزارعين من مقاطعة غانسو الجنوبية:

الموجة العريضة تغير حياتك

إذا كنت ستحضر الاختراعات المغيرة للحياة إلى هذا الجزء من البلاد، فقد يكون هذا الجزء مكاناً أفضل للشروع بنوع ما من المكننة الزراعية الأساسية.

يجري توسيع الطريق بين لينشيا وشياهو، ربما توقعاً لمجيء المزيد من السياح، ويتوجب على حافلة الركاب مراراً أن تنتقل لتسير على امتداد من مسار وسخ غير مستو إلى جانب الطريق. والاصطدام والارتجاج على المسار الوسخ يتسبب في أن تقع البطيخة الكبيرة الموجودة في رف الأمتعة على رأس طفل. وأطلق الطفل صرخة ولكن يبدو أنه لم يصب بأذى خطير. لم يغضب أحد. ولم يهدد أحد برفع قضية. وسقوط البطيخات هو مجرد خطر مهني للسفر في الصين.

وأخيراً أقرر أن أعقد محادثة مع الأميرتين الجالستين خلفي، مستشعراً الحرج نوعاً ما من حالتي الوسخة نوعا ما.

وتجيب الأميرة الزهرية على سؤالي: «نحن ذاهبتان إلى شياهو».

«كم المدة التي ستبقيانها؟»

«ربما ليلة واحدة فقط، ثم نتابع متوجهتن إلى هيزيو».

www.ibtesama.com/vb

«هل أنتما في إجازة؟»

وتقول المرأة المغوية، «نوع من الإجازة، ولكن مع العمل أيضاً».

«ما نوع العمل الذي تعملانه؟»

«أدوات الزينة».

ويظهر أن المرأتين تعملان لدى شركة تجميل في شنغهاي تسمى ميسو، التي افتتحت لها هذا العام فرعاً في لانجو ولها الآن أيضاً مخازن في كل من شياهو وهيزيو، العاصمة الإقليمية لغانسو الجنوبية. والمرأتان مبعوثتان لأدوات الزينة.

وتقول الأميرة الزهرية مع ابتسامة، «حيثما توجد نساء، توجد ميسو. ذلك هو شعارنا».

وأسأل، «وإذاً هل هناك سوق بين التبتيات

وتقول، «لا، إنهن الصينيات الهان اللواتي يشترين أدوات الزينة. والناس من الأقليات غير مهتمين بالحقيقة بذلك النوع من الأشياء».

«وماذا تبيع متاجركم؟ مجرد أحمر الشفاه وحمرة خدود والمادة المعتادة؟»

«نعم، ولكن معها الكثير من الكريم المبيض للبشرة، لتجعل جلدك أقرب إلى البياض في سحنته. فنحن نكره الجلد الأسود».

وأخبرها كيف أن النساء الغربيات يشترين كريم اسمرار البشرة من الشمس ليجعلن جلودهن تبدو أغمق لوناً. وتبدو وكأنها صدمت، وهي ليست عابئة بالانتباه إلى أن كل وجه في الحافلة هو إما الجلد الغامق لشخص تيبيتي أو لمسلم من هواي، أو جلد ازداد سواده لمزارع صيني يعمل طوال النهار تحت الشمس.

وتقول المرأة «الجلد الغامق قبيح. الجلد الأبيض جميل».

ثم إنها بالفعل تسأل الشاب التيبيتي الجالس إلى جانبها لماذا يبدو جلده غامقاً جداً.

www.ibtesama.com/vb

ويجيب بلطف بلغة مندرين صحيحة، «لا أعرف، نحن مولودون بهذا الشكل».

وتعبر الحافلة من خلال نوع من البوابة الخشبية. هذه هي تومينغيوان، المدخل إلى مقاطعة غانسو الجنوبية. وتصير الأرياف فوراً تقريباً، أكثر خضرة وهناك معابد في القرى وعلى سفوح التلال، وكأننا، في لحظة مفاجئة ما من لحظات أرض نارنيا، قد عبرنا من خلال باب إلى مملكة مختلفة.

وأذكر هذا، والشاب التيبيتي الذي سُئل قبل قليل عن تفاصيله الجلدية دس نفسه وأخذ يتكلم ويجيب، «نحن ندخل غانّان، وهذه منطقة تبتية ذات استقلال ذاتي».

وأسأله، «كيف الحياة هنا؟»

«إنها تتحسن نحو الأفضل. هناك المزيد من الاستثمار هنا في هذه الأيام. ويوجد الآن مصنعان هنا. واحد يصنع الدواء، والآخر يصنع الحليب».

«هل يريد الناس هنا الرفاهية المعتدلة؟ كما هو في شعارات الدولة؟»

ينظر إلي وقد أربكه سؤالي ويجيب، «طبعاً نريد».

وفي الحقيقة أن الأجنبي نفسه الذي عاش زمناً طويلاً في الصين، والذي يعرف أن مسألة التيبيت ليست بسيطة مثلما تُصور أحياناً. ما زال يفترض أن الهوية قد تكون أكثر أهمية من التقدم.

تبين أن الشاب، الذي يقول إن اسمه شاو لين، هو مدرس عائد من تدريب في لانجو إلى بلدته الموطن في مكان أبعد، وراء شياهو.

وأسأله، «ماذا تدرِّس؟»

ويجيب، «الصينية».

وأحملق فيه. «أتدرس الصينية؟ لمن؟»

«الأولاد في مدرسة تيبيتية ثانوية».

«أنت تيبيتي، وتدرس اللغة الصينية إلى أولاد تيبيتيين؟»

www.ibtesama.com/vb

ويقول وهو يبتسم، «ذلك صحيح».

وأبحث في وجهه عن علامة يبين بها كيف يشعر نحو هذا الأمر. ولكنه لا يكشف الكثير، ويجلس كما هو بجانب امرأتين من الصينيين الهان جداً، ولكنه يعطيني ابتسامة باهتة، وهو يرمي لي رقم هاتفه الخليوي الجوال بناء على طلبي. وفي الوقت الذي كان يعطيني الرقم، يرفع حاجبيه وكأنه يقول، هاتِفني وسأخبرك بالمزيد.

ويقول شاو لين إنه يغادر حافلة الركاب قبل شياهو ليرى صديقاً له. ويكرر القول إني يجب أن أهاتفه. وأقول له سأفعل، ويقفز بعيداً، وهو تيبيتي حديث المظهر نوعاً ما في بحر من المزارعين.

يوجد المزيد من الشعارات في كل أنحاء المكان، وهي مدهونة في الغالب على جدران من الآجر البسيط أو من الطين على جانب الطريق. وقد قامت إدارة تخطيط الأسرة هنا بالفعل بحساب كميات المنفعة المالية الناتجة عن عدم إنجاب الكثير جداً من الأطفال، على الرغم من أن الأمر غير واضح إن كانت هذه التكلفة هي نتيجة فرض الغرامة على إنجاب العديد جداً من الأطفال أو هي تكلفة تنشئة طفل إضافي. كثيرون من الفلاحين هنا يكسبون ما يقارب ألف يوان فقط في العام من الأرض.

طفل واحد أقل سوف يوفر لك 3000 ـ 4000 يوان (400 ـ 600$)

وهناك دعاية أخرى أيضاً، تشجع وتحذر.

سرّعوا بناء الطرق. سرّعوا تطوير الغرب

لا يوجد نحاس في الكابلات الموجودة على جانب الطريق

اللصوص سيعاقبون عقاباً قاسياً

ولكن معظم لافتات الطريق تركز على موضوع واحد: التعليم. فالمهمة التمدينية للصينيين في الأيام الخوالي كانت نشر ثقافتهم، وبيروقراطيتهم، ونظامهم الكونفوشيوسي للبرابرة. وهناك مازال إحساس بالتفوق نحو الأقليات العرقية من أطراف الصين، ولكن حين رمى الصينيون حضارتهم الخاصة بهم مع وصول شعب

www.ibtesama.com/vb

المحيط، تغير بيان مهمتهم نحو شعب آسيا الداخلية أيضاً. والآن، فإن العلم والتقدم هما ما يجلبانه إلى البرابرة الذين يعيشون في الظلام على أطراف الحضارة.

أحيوا الأمة من خلال العلم والتعليم
وأنتم تعملون نحو الرفاهية المعتدلة
التعليم هو أهم الأشياء
والمعرفة قوة

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

13
رهبان وبدو رحل

قاعة الصلاة الرئيسية من دير لابرانغ مليئة بالرهبان، وهم يجلسون في صفوف، بعضهم يتمايلون بصمت، وبعضهم يتحادثون، وبعضهم ينشدون في شبه الظلام. لابد أن هناك أربع مئة أو خمس مئة منهم، ورؤوسهم الحليقة تهتز صاعدة ونازلة بين الأعمدة المدهونة. نصفهم يواجه جهة، في ما يقارب عشرة صفوف منهم في المجمل، ثم، في منتصف القاعة، هناك خط غير مرئي يقسمهم، وتجلس الصفوف العشرة الأخرى في مواجهة الصفوف الأولى. يجلسون متربعين على وسائد، بعضهم يلبسون ببساطة أثوابهم الخمرية، وآخرون في عباءات أوسع، أو أسمك ضد البرودة المدهشة في الصباح الصيفي.

قاعة الصلاة الأصلية التي يبلغ عمرها ثلاث مئة عام كانت هي أهم ملمح مركزي للدير ولكن تلك القاعة احترقت على نحو مأساوي في نيران ضخمة في العام 1985، نجمت عن خطأ كهربائي. وأعيد بناء القاعة في الحال بطريقة تبدو منسجمة انسجاماً جيداً مع المباني القديمة المحيطة. لا توجد أي نوافذ، وهكذا فالداخل مظلم جداً. ويضاء فقط بالضوء الذي ينبث إلى الداخل من خلال عدة مداخل للقاعة، وبالتوهج الأوهى خفوتاً لعشرات من شموع الزبدة التي تصطف خطوطاً على الجدران. إنه مكان يبعث على التأثير، وله سقف عال، وتنتصب صفوف أعمدته المدهونة دهاناً متألقاً مثل جذوع شجر ذات رائحة قوية عفنة في غابة صنوبرية. وشموع الزبدة، المصنوعة من حليب حيوان الياك، تطلق الرائحة الزنخة قليلاً التي تتغلغل في كل شيء في مناطق التيبيت.

كانت مجموعة صغيرة من الأجانب قد تجمعت عند واحد من الأبواب الرئيسية، وهم يشعرون مثل من يختلس النظر، ويحدقون في ظلام جزء من عالم ضائع. وفي الحال، جاء إلى المدخل عدد قليل من صغار الرهبان، الذين لا يتجاوز أي واحد منهم

www.ibtesama.com/vb

أكثر من عشر سنوات،جاؤوا إلى المدخل لينضموا إلينا. وتسجد امرأة تيبيتية عجوز ولها ضفيرتان شائبتان تحت قبعة من نوع ستيتسون في المكان الموجود بين المشاهدين والرهبان في الداخل. ويخطو عدد من السياح الصينيين إلى الأمام ويفعلون الشيء نفسه، وتبدو ملابسهم المعقولة غريبة بشكل غير منسجم مع أفعالهم. ويأتي سياح هان آخرون ويرمون نقوداً على الأرض بالقرب من مدخل القاعة. ويشير كاهن ضخم بلباس رأس مخيف، يتدلى نازلاً على ظهره وهو مجدول بالمعدن والقماش، يشير إلى الكهنة الأولاد الموجودين أمامنا بالتراجع. إنه المسؤول في الدير والمدرب على السلوك الصحيح والمهارات.

وبمحض الصدفة لا غير، وصلت إلى شياهو في أثناء وقت مهم في عام الدير. إنه وقت الامتحان، حين يحضر مئات الرهبان الشباب امتحاناتهم الفلسفية. هذا هو الوقت الذي يجب فيه على الرهبان أن يثبتوا بالبرهان معرفتهم لتعاليم البوذية في منتدى مفتوح، يختبرهم فيه رهبان آخرون. إنه تقليد يعود بتاريخه إلى قرون سابقة، على الرغم من أنه كان قد أوقف طبعاً تحت حكم ماو وأعيد بدؤه في الأعوام الحديثة فقط.

وتقول امرأة ألمانية موشومة، تقف إلى جانبي، وكأنها تلهث. «إنه روحاني للغاية. إنه رائع جداً أن يكون لديهم هذا ليؤمنوا به. لماذا لا نملك نحن في الغرب أي شيء مثل هذا؟!»

ويبدأ «الامتحان»، على الرغم من أنه يأخذ بشكل أكبر شكل الحوار. راهبان شابان، ربما في مطالع عشرينياتهما من العمر، واقفان في مركز القاعة، حيث يواجه الصفان الأماميان على الجانبين أحدهما الآخر. وفجأة يقفز واقفاً راهب أكبر سناً على بعد عدة صفوف في الخلف، ويصيح ليجتذب انتباه واحد من الطالبين ثم ألقى عليه سؤالاً بصوت عال خشن باللغة التيبيتية، مصفقاً بيديه بجرأة وحركات سريعة وهو يلقي السؤال. والكهان المشاهدون، في بحر من اللون الأحمر، يصيحون ويستهجنون بصوت كنعيب البوم، وكأنهم يضحكون من السؤال أو الجواب أو من كليهما، في الوقت الذي يرد فيه أول الممتحنين. ويستمر توجيه الأسئلة لبعض الوقت،

www.ibtesama.com/vb

والطالبان يمتحنان بالتناوب من الرهبان الموجودين على الجانبين من الممشى الذي يقف الطالبان فيه.

والصينيون الهان الوحيدون هم الموجودون عند الباب مع الأجانب، وجميعنا خارجيون غرباء بالنسبة إلى هذا المنظر الذي ينتمي إلى العالم الآخر. دليلنا اختفى. وأسأل بعض الرهبان الشباب الموجودين أمامنا إن كانوا يتكلمون الصينية، لكي يستطيعوا أن يشرحوا المنظر لي. «هل تتحدث بكلمات الهان؟»

وجميعهم حدقوا بي تماماً في التفاتتهم، عاجزين، أو ربما غير راغبين، في الجواب.

ويستمر الحوار بلا توقف، والطالبان يتجولان صعوداً ونزولاً في الصفوف، يتلقيان الأسئلة من أي كاهن يريد أن يقف، مع صيحات السخرية والضحك مستمرة من الرهبان الآخرين في جوقة حين تطرح الأسئلة. بعد نصف ساعة، يتفرق السياح الأجانب والصينيون. فليس هناك إلا مقدار محدد فقط من المسرح الذي تستطيع أن تستوعبه في لغة لا تفهمها، مهما يكن مؤثراً وغير عادي.

قاعة الصلاة هي الموقف الأخير في جولة موجهة إلى دير لابرانغ، التي كانت قد بدأت من قبل ساعة. لقد صارت شياهو أكبر محطة سياحية لشعب هان الصيني، ومثل مكة (أو معادلها البوذي) للأجانب حملة حقائب ظهر. وهكذا فإن مجموعة متنوعة من الأستراليين الملحين، والأيرلنديين الثرثارين، ونساء ألمانيات موشومات كانوا قد تجمعوا عند البوابات في ذلك الصباح ليقابلهم راهب تيبيتي رزين له عظمتا خدين مرتفعتان وابتسامة حذرة، كان يفترض به أن يكون هو الدليل.

ويجول حولنا أيضاً زوجان من السياح الصينيين، يبدوان غربيين بقدر ما نبدو نحن، وفي أثناء انتظارنا، سألتهما لماذا قدما إلى هنا.

وتجيب المرأة، «أنا مهتمة بشعوب الأقليات. فلديهم حياة مختلفة كثيراً».

وأسألها «هل تفهمينهم؟»

وتعترف قائلة: «لا، لا مطلقاً، إنها غريبة علينا».

www.ibtesama.com/vb

دير لابرانغ نفسه مجمع أبنية ممتد يشغل قسماً كبيراً من البلدة. وكان قد بني في العام 1709، وهو واحد من ستة أديرة كبيرة لمدرسة غيليوغبا من البوذية التيبيتية، التي تعرف أحياناً باسم مدرسة هات الصفراء. أربعة أديرة في التيبت الأصلية، وواحد آخر (قرب مكان ميلاد الدالاي لاما الحالي تماماً) وهو إلى الشمال الغربي من هنا، في مقاطعة تشينغ هاي. في ذروة الدير، قبل انتصار الحزب الشيوعي في العام 1949، كان هناك أربعة آلاف راهب في لابرانغ. وذلك العدد انخفض انخفاضاً حاداً في أثناء الثورة الثقافية من العام 1966 إلى 1976، حين شجع ماو على شن الهجمات على كل الأديان. والآن، مع ذلك، ترتفع الأعداد ثانية. وهناك ما يقارب ألفاً ومئتي راهب يدرسون هنا.

توفر الجولة مقدمة أساسية غير ضارة بشكل غير متحيز، ولا تلمس أي شيء حساس بقدر ما يتصل الأمر بعلاقة التيبيت مع الصين. والزوار الأجانب يسألون أسئلة مؤدبة حول فن العمارة في الوقت الذي يسبرون بلطف ليستكشفوا إلى أي مدى سيكون الدليل صريحاً في موضوع الدالاي لاما. وفي الحال تمت إجابتنا عن السؤال. نصل إحدى القاعات، وفيها على المذبح الذي يلي بوذا، تعرض بوضوح صورة الزعيم التيبيتي المنفي.

«هل ذلك مسموح؟» أسأل الدليل بهدوء باللغة الإنجليزية، وأنا أنظر حول كتفي لأتأكد من عدم وجود أي مسؤول ينصت لما نقول.

ويبتسم بحرج ويستدير بعيداً، غير راغب في الإجابة. وإلى جانبه، مع ذلك، راهب أشد جسارة يوضح خداه اللذان أحرقتهما الريح وجهه القوي. كان ينصت عند أطراف جماعتنا، ويميل نحوي ويقول، بلغة صينية مكسرة، إن الرهبان أحياناً يضعون الصورة هنا «لأن الدالاي لاما في قلوبنا».

ويقول الراهب: «أحياناً تأتي الشرطة وتأخذ الصور وتبعدها. وفي إحدى المرات هشموها أيضاً. ولكن أحداً ما يعيد وضعها دائماً».

www.ibtesama.com/vb

كان هناك هجوم لا يكاد يصدق على الثقافة التيبيتية تحت حكم الرئيس ماو، وجرى تحطيم الكثير جداً إلى درجة أنني جئت هنا وأنا أتوقع أن أجد خبرة ضئيلة. ولكن المؤثر بشأن الدير هو المدى الذي يبدو فيه تيبيتياً. طبعاً، مثلما هو الحال في كل مكان في الصين، هناك الكثير غير المرئي. هناك جواسيس في كل الأديرة التيبيتية، ويجب على جميع الرهبان أن يكونوا حريصين على ما يقولون. وأنا متأكد أن دعاة النقاء سيقولون إنها، مقارنة مثلاً، بالعشرينيات من 1920 أو بالعشرينيات من 1720، لم تبق ثقافة أصيلة. ولكن الامتحان والعبادة والشعائر اليومية كما هو واضح لم يجر وضعها فقط من أجل السياح.

بعد النصر الشيوعي، رسمت بكين خطاً على الخريطة وحددت جزءاً كبيراً من المناطق التيبيتية التقليدية بوصفها منطقة الحكم الذاتي التيبيتية. وهذه المنطقة هي المعروفة أحياناً باسم «التيبت السياسية». ولكن مساحات كبيرة فيها سكان تيبيتيون لم تُضَم إلى هذا التحديد السياسي، والكثيرون من التيبيتيين مازالوا يعيشون في مقاطعات تشينغ هاي، وسيشيوان، وغانسو، التي تحيط بمنطقة الحكم الذاتي التيبيتية. والحريات الدينية في هذه الأجزاء، التي تعرف أحياناً باسم «التيبت الإثنوغرافية»، المتصلة بالسلالة العرقية والثقافية، هي أحياناً حريات أكبر مما هي في التيبت السياسية لأن التيبيتيين الذين يعيشون في التيبت الإثنوغرافية لا ينظر إليهم من بكين بأن من المحتمل أن يندفعوا من أجل أي نوع من الاستقلال السياسي. التيبيتيون أنفسهم، كما يتخيل المرء، لا يعترفون بمثل هذه الحدود المصطنعة، والبوذية التي مازالت كما يبدو تنساب في عروقهم تنساب أيضاً بلا جهد عبر خطوط مرسومة على خريطة.

المسألة التيبيتية مسألة معقدة عويصة وصارت عاطفية جداً في الغرب. لقد كان التيبيتيون قد دعوا باسم «أطفال الفقمة» في المجتمع الدولي، مع صورة الدلاي لاما التي تستهوي الناس ورسالته القوية من اللاعنف تكسب له ولمواطنيه موجات كبيرة من التعاطف. كثيرون في الغرب يؤمنون بمعظم ما يقول التيبيتيون، وهو أن الصين احتلت التيبت لأول مرة بعد النصر الشيوعي فقط في العام 1949. ولكنك كي تفهم الصورة الكاملة يجب أن ترجع إلى الوراء طريقاً طويلاً قبل ذلك.

www.ibtesama.com/vb

تقول الحكومة الصينية إنه كانت هناك «علاقات أخوية» مع التيبت منذ القرن السابع وأن التيبت كانت في الواقع جزءاً من الصين منذ أسرة يوان من القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر. بالتأكيد كان هناك اتصالات تعود إلى الوراء في القرن السابع، وكانت هناك اتصالات بين القادة التيبيتيين والمنغول (حين حكم المنغول الصين) في القرن الثالث عشر. ويتوقف الأمر، طبعاً، على الكيفية التي تحدد بها الاتصالات، ولكن يبدو لي أنها لا تكاد، إلا بشكل قليل، تضيف إلى كون التيبت «جزءاً من الصين». وأول دمج حقيقي فعال للمزاعم الصينية في التيبيت لم تأت قبل العام 1720، حين أمر الإمبراطور كانغشي في بكين قواته الإمبراطورية بدخول لاسا. من تلك النقطة فصاعداً، رابطت قوات ورابط مسؤولون إمبراطوريون في العاصمة التيبيتية، بدرجات مختلفة من الانغماس في الشؤون التيبيتية. وكان قد سمح للتيبيتيين، تقريباً، بأن يستمروا بأسلوب حياتهم من دون إزعاج. وقد وصل الإمبراطور إلى أن يقول إن التيبيت كانت «جزءاً من العائلة الإمبراطورية». والمقابل لذلك بالنسبة إلى التيبيتيين هو أن الجنود الإمبراطوريين ساعدوا على إبقاء الأعداء من أمثال النيباليين مرتدعين عبر الحدود.

واستمرت هذه العلاقة عبر القرن التاسع عشر، حين ضعف ما تبقى من سلطة لأسرة شينغ على التيبت، وزاد ضعفها أكثر بالتمردات الداخلية أيضاً، وبوصول شعب المحيط، الذي تسبب في نشوء مشكلات على طول خط الساحل الصيني. لقد فقدت التيبيت فرصتها في الاستقلال بعد أن تمزقت الصين في العام 1912، وكان ذلك في وجه من الوجوه لأن البريطانيين الذين تصرفوا بخسة في الهند ورفضوا أن يتبنوا قضية التيبت، ومن وجه آخر لأن الأديرة البوذية، وقد خافت من أن التحديث كان يعني الإلحاد والعلمانية، أعاقت الجهود التي بذلت في العشرينييات من 1920 لإدخال الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية. وهكذا فحين كان اليابانيون قد هزموا في النهاية في العام 1945، وحد الرئيس ماو بلداً ممزقاً وأعلن تأسيس جمهورية الصين الشعبية في شهر تشرين أول / أكتوبر 1949، ولم تكن التيبيت في موقف قوي لمقاومة الطلبات من بكين بأن على التيبيت أن «ترجع» إلى الحظيرة.

www.ibtesama.com/vb

ومع عدم وجود أي وسائل للدفاع عن أنفسهم، أجبر القادة التيبيتيون على عقد صفقة اتفاقية مع بكين وأن يقبلوا رسمياً السيادة الصينية لأول مرة. وكان الرئيس ماو قد حاول بالفعل أن يعطيهم بعض الحيز، ولا يفرض نفس الإصلاحات الشيوعية عليهم في الخمسينيات من 1950 التي طبقها في أماكن أخرى في الصين. ولكن ذلك لم يكن ذا قيمة. فالطرائق الشيوعية والبوذية كانت متعارضة تماماً، واندلعت انتفاضة ناضجة كاملة ضد حكم الصينيين في العام 1959. وقمعت بلا رحمة على أيدي الصينيين وانتهت بهروب الدالاي لاما إلى الهند. ولم يرجع إلى التيبيت منذ ذلك الحين.

ودعاية الحرب التي كانت قد بدأت آنئذٍ مستمرة إلى هذا اليوم، وفيها تسلط بكين ضوءاً قوياً على الطبيعة القاسية والرجعية للاهوتية القديمة التي تم «تحرير» التيبيتيين منها، وتقوم حكومة التيبيت في المنفى بالتعبير عن اعتراضاتها بأقسى لغة ممكنة ضد تدمير الصين للتيبيت وإساءاتها لحقوق الإنسان ضد التيبيتيين.

بين عام 1959 وعام 1976 أعيدت هيكلة المجتمع التيبيتي وفق الخطوط الشيوعية. فالبدو الرحل نظموا في بلدات (كوميونات). والثقافة والدين التيبيتيان هجوماً بوحشية، وتم تقريباً تدمير كل الأديرة تدميراً كاملاً. وانتقل المسؤولون الصينيون الهان (والمزيد من القوات الصينية) إلى التيبت، للتأكد من أنها لن تثور ثانية وللإسهام في تطويرها ودمجها. وفي العام 1949 كان هناك مجرد مئات من الصينيين الهان في ما هو الآن منطقة الحكم الذاتي التيبيتية، من بين سكان يصل عددهم إلى ما يقارب المليون نسمة. في العام 2005، ووفقاً للأرقام الرسمية، يوجد ما يقارب 100.000 نسمة أو 7 بالمائة من السكان. وهذا الرقم منخفض جداً إلى حد بعيد، وخصوصاً منذ تدفق المهاجرين الناجم عن إكمال السكة الحديدية التيبيتية في العام 2006. فأنت تستطيع الآن أن تسافر بالقطار مباشرة من بكين أو من شنغهاي إلى عاصمة التيبت، لاسا. ويخشى التيبيتيون أن يتصاعد عدد الصينيين الهان ببطء إلى أن يكون هناك عدد من الهان يساوي عدد التيبيتيين في المنطقة.

www.ibtesama.com/vb

حين مات ماو في العام 1976، جرى تخفيف بعض السياسات الشيوعية العسكرية الشديدة، ولكن المظاهرات المناوئة للصينيين اندلعت في لاسا أواخر الثمانينيات من 1980، ومرة أخرى سحقت بلا رحمة.

كان سحق تلك المظاهرات مؤثراً. وهولم يقنع التيبيتيين بأن يحبوا الصينيين، ولكنه أقنع كثيرين من التيبيتيين العاديين بأن المعارضة كانت في الحقيقة عديمة الجدوى، تماماً مثلما أقنع سحق مظاهرات تيانانمين في 4 حزيران/ يونيو، 1989، الصينيين الهان باللاجدوى من أي قتال في سبيل الإصلاح الديمقراطي. وهذا الإدراك تطابق مع شن برنامج تطور اقتصادي ضخم في التيبت في التسعينيات من 1990. وكان التفكير الرسمي الصيني هو: إذا كنت لا تستطيع أن تكسب أفراد الشعب من طريق قلوبهم وعقولهم، فاكسبهم عندئذٍ من طريق معدهم. ومع الاستثمار جاء عشرات الآلاف من المهاجرين الصينيين الهان. وكان ذلك مثل بناء الغرب الأمريكي، يجلب معه الكثير من الوظائف في الإنشاءات، بله التجارة والدعارة.

والاستثمار في التيبيت ليس مجرد محاولة تهكمية لشراء التيبيتيين في مقابله وجعلهم ينسون أي طموحات للاستقلال. مازالت هناك جرعة كبيرة من السياسة الأبوية الصينية حسب الطراز القديم، التي تريد أن تحسن نصيب أفقر الناس. وبالتأكيد فإن التيبيت الريفية فقيرة على نحو يائس. (والغربيون الذين يتصورون التيبيت بوصفها نوعاً من الجنة في الهمالايا، لم يروا الفقر والصعوبة التي تشكل حياة معظم التيبيتيين.) ولكن ليس هناك أدنى شك في أن لكرم بكين الاقتصادي أيضاً أثراً جانبياً سياسياً. حين زرت لاسا قبل سنوات قليلة، كنت قد عجبت لأنني أجد أعداداً كبيرة من شباب التيبيت دون العشرين الذين أرادوا التوجه شرقاً إلى شنغهاي للحصول على عمل أفضل والذين لم يمتلكوا إلا اهتماماً قليلاً بالسياسات أو بالدين. وقد صار التقدم بالنسبة إليهم كما بدا، على السطح على الأقل، مهماً مثل أهمية الهوية.

وكان شاب ثمل في السادسة عشرة من عمره قد قال لي في نادٍ ليلي في لاسا وهو يجرع جرعة كبيرة من زجاجة جعة: «جدتي تحب الدالاي لاما، أما أنا فلا أعرف الكثير عنه».

www.ibtesama.com/vb

وتبقى نقطة واحدة أخيرة لشرحها عن دمج التيبيت في الصين. وهي أن من المهم أن نتذكر بضعة فصول قليلة من تاريخنا الخاص في أمريكا الشمالية، وفي أستراليا، وفي أماكن أخرى، وذلك على الرغم من أن هذا ليس عذراً عن الطريقة الوحشية المرعبة التي عامل بها الحزب الشيوعي التيبيت منذ العام 1959. فالتقديرات المحافظة تقول إن أكثر من مليوني إنسان من المواطنين الأصليين قتلوا في أثناء استعمار أمريكا الشمالية. وفي أستراليا خُفِّض عدد السكان الأصليين بالمرض، وفقدان الأرض، وبالقتل المباشر بنسبة 90 بالمائة بين أعوام 1788 و 1900. والتاريخ الأمريكي والأسترالي مليء بالأمثلة على قيام الرجال البيض بقتل الشعوب الأصلية لمجرد قتلهم فقط، من أجل الرياضة فقط. ودعونا لا نبدأ أيضاً بذكر تجارة الرقيق والانقضاض الكامل للاستعمار الأبيض في أماكن أخرى. الفظاعات الصينية في التيبيت في أثناء الستينيات من 1960 والسبعينيات من 1970، وحتى هذا اليوم كانت مروعة إلى حد بالغ الشدة. ولكن فظاعات الصين لم تصل بعد إلى أي مكان قرب تلك المستويات من القتل. وهذا لا يعذرهم بأي شكل من الأشكال. وكل ما أريد أن أقوله هو أن الرجل الأبيض ينطق بلسان منشعب في هذه القضايا، ولن تسمع قط شخصاً صينياً من الهان يقول: «التيبيتي الجيد هو التيبيتي الميت*».

في ذلك الأصيل هاتفت شياو لين، المدرس التيبيتي الذي كنت قد قابلته في حافلة الركاب المسافرة إلى شياهو، ورتبنا أن نلتقي في اليوم التالي. وبعدئذٍ خصصت ذلك الأصيل لمجرد الاسترخاء ولاستكشاف البلدة. وأراقب الحجاج التيبيتيين، وهم يلبسون ثيابهم الملونة المزينة بالفرو، وهم يديرون بلطف مئات دواليب العبادة التي تحيط بدير لابرانغ وكأنهم ربما يحاولون أن يديروا الزمن إلى الوراء. أنا أراقب الرهبان التيبيتيين في أثوابهم في مقهى إنترنت، وهم ينظرون إلى أشياء كثيرة ويتصفحون الشبكة الدولية للمعلومات ويلعبون على الخط المباشر ألعاب الفيديو. وآخذ دراجة ريكشو صغيرة إلى مراعي الأراضي المعشوشبة الجميلة على بعد أميال قليلة فوق شياهو وأدور متجولاً فقط، أستنشق هواء الجبل النقي. هناك القليل من

* هذا القول بدأ عن الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، وقيل عن السود، وعن اليابانيين. وقيل عن الفلسطينيين في «إسرائيل» ومن المؤسف أنه انتقل مؤخراً إلى لسان الساسة في بلد عربي (المترجم).

www.ibtesama.com/vb

الخيام التيبيتية من نوع المتحف المتخصص بموضوع واحد للسياح الصينيين ليقضوا الليلة، وأنت تشعر هنا أن المكان كله يمكن أن يكون على حافة انفجار سياحي. فمعظم البدو الرحل من الأراضي المعشوشبة يجري توطينهم الآن، ويجري تغيير طريقة الحياة القديمة. وبعد قليل، قد لا يكون هناك أي بدو رحل قط.

في تلك الليلة تناولت العشاء في شرفة قمة سطح مشرف على لابرانغ. وكنت أجلس إلى جانب راهب في أثوابه الخمرية الحمراء الفضفاضة ويتكلم باللغة التيبيتية في هاتفه الخليوي الجوال من نوع نوكيا طوال معظم الوجبة.

ويقول بلغة صينية ثقيلة اللهجة حين نبدأ بالحديث: «أنا من الريف في جنوب شياهو. والالتحاق بعمل راهب هو الطريقة الوحيدة في الواقع لتحصل على تعليم للعديدين من العائلات الريفية مثل عائلتي».

وبالعودة إلى فندق أوفرسيز تيبيتان هوتيل، كانت جماعات من حملة حقائب الظهر الأجانب تجلس وتشرب القهوة. وهذه أول مرة في رحلتي تصادف أن تقاطعت طريقي مع غربيين في أي أعداد منهم. والفندق ملاذ تقليدي كلاسيكي لحملة حقائب الظهر. والحواسيب المتصلة بالإنترنت موضوعة في البهو، والإسكاندينافيون الملتحون يتسكعون إلى جانب المنضدة الأمامية، يناقشون أفضل المسارات على الطرق جنوباً إلى مقاطعة سينشوان، ويقوم موظف استقبال يتحدث الإنجليزية بعرض غرف نوم في مقابل دولارات قليلة في الليلة.

وفي اليوم التالي، أغادر شياهو وأقابل شياو لين في بلدة لينشيا الإسلامية، المكان الذي سبق أن غيرت فيه الحافلة في طريقي إلى شياهو قبل يومين. وأنا متابع للسفر إلى لانجو في ذلك الأصيل، وهكذا نذهب لتناول الغداء في بار صغير يقدم المعكرونة الطويلة إلى جانب محطة حافلات الركاب. ويبدو أنه كان يعرف أننا سنتكلم حول قضايا حساسة، ولذلك فهو يطلب غرفة خاصة، وهي غرف توفرها المطاعم كلها حتى الصغيرة منها.

www.ibtesama.com/vb

نجلس ونطلب بعض المعكرونة الطويلة، وأخبر شياو لين أنني أكتب كتباً وأسأل إن كان لديه مانع من أن أوجه له بعض الأسئلة الصريحة نوعاً ما. ويبتسم ويومئ، مؤكداً أنني لن أستخدم اسمه الحقيقي، ثم أبدأ.

«أنت تيبيتي. ولكنك نشأت في النظام الصيني. وأنت الآن عائد لتُعلِّم اللغة الصينية، التي يدعوها كثيرون من التيبيتيين لغة «مضطهديكم»،إلى أبناء شعبك الخاص. ألا يجعلك ذلك غير مرتاح البتة؟»

«لا أملك أي خيار. ما هي الخيارات الأخرى المفتوحة لي؟»

ويقص علي قصته، عن ترعرعه في منطقة تيبيتية إلى حد كبير وأنه وجد نفسه دائماً على قمة صفه في المدرسة التيبيتية. وهكذا، مثله مثل كل الأطفال المتفوقين، تم تحويله إلى المدارس التي تُعلم باللغة الصينية، وفيها تابع البقاء في قمة الصف. وكان هذا يعني أنني كنت سأملك فرصة جيدة في دخول الكلية، وحصل على القبول حسب الأصول في واحدة من أفضل الجامعات في غرب الصين، واحد من خمسة طلاب في صفه من مائة طالب يجب أن يذهبوا إلى التعليم من المرحلة الثالثة. وكان أبواه، وكلاهما تيبيتي وبتعليم بسيط، أجبراه على التحدث بالصينية في البيت وذلك لكي تكون فرصه في النجاح أكبر.

ويقول بلطف «لا أحد يلومني. ليس هناك أي فرصة أخرى. والطريقة الوحيدة لتقول أنا لن أشارك بدور في هذا هو ألا تتعلم الصينية وأن ترفض كل النظام الصيني. ولكن ذلك يحكم عليك بالفقر. فأنت لن تستطيع قط الحصول على عمل وأن تحسن مستويات معيشتك إذا فعلت ذلك».

مازالت عيناه متألقتين، ومازال صوته رقيقاً، على الرغم من أن ما يعرفه بوضوح هو مأساة لشعبه.

«طبعاً يجري إضعاف ثقافتنا. وهناك الحاجة إلى تعلم الصينية وتدفق المزيد من الشعب الصيني. وذلك محزن. ولكن ثقافتنا لا يجري إضعافها إضعافاً كاملاً. هناك بعض الأمور غير قابلة للتنازل عنها. وعلى سبيل المثال، فأنا لن أتزوج قط فتاة صينية من الهان. وإيماني البوذي شيء لن أتخلى عنه قط».

www.ibtesama.com/vb

«ولكن ماذا عن أسلوب الحياة؟ التيبيتيون بدو رحل».

«أولاً، ليس هناك أي شيء رومانسي حول كون المرء بدوياً رحالاً. إنها حياة خشنة. ثانياً، أعتقد أن البدو الرحل يدركون أنه لا يوجد مستقبل لحياة البدو الرحل. ذلك هو ببساطة عالم اليوم، العالم الحديث، العالم المعولم. وأنا ليست متأكداً من أننا نستطيع أن نلوم الصينيين لوماً كاملاً عن ذلك».

وحَسَوْنا حساءنا من المعكرونة الطويلة في صمت للحظة. ويبدو أن كل شيء قد صار مقلوباً. فالصينيون الهان قد أجبروا البدو الرحل التيبيتيين على الاستقرار والثبات. والآن فإن الصينيين الهان هم الذي صاروا، لأول مرة، بدواً رحلاً، منطلقين من طرقهم المستقرة القديمة.

«وماذا عن السياسات؟ ماذا عن الدالاي لاما؟ ماذا عن الاستقلال التيبيتي؟»

«لا أود أن أتحدث في السياسات. أنا أود أن أبقى محايداً في موضوع الدالاي لاما. فأنا بالتأكيد لن أساند قط الاستقلال التيبيتي».

ويتوقف. وأنا أومئ برأسي. ونحتسي حساءنا من المعكرونة الطويلة. إنها مأساة يتزايد فيها الغضب بالتدريج. فأعمال القتل، وتدمير الأديرة، وبعض العنف قد خفت. والتهديد الرئيسي للتدمير هو الآن لأسباب اقتصادية وليست سياسية. ولكن، وفي التيبيت الأصلية نفسها هناك إحساس من نوع تغيير المسننات والتركيز على التطور الاقتصادي. وعدد الناس الذين يجري اعتقالهم لأسباب جرائم سياسية (اقرأ: معارضة الحكم الصيني) قد هبط بشكل ملحوظ. ويبدو أن محط الأمل قد تغير. ويبدو أن كثيرين من الناس، وخصوصاً الشباب والحضر، قد قبلوا أن التيبيت لن تكون مستقلة أبداً، وأن من الأفضل لهم أن يحصلوا على أحسن ما يمكن فقط من حالة سيئة.

في سيناريو أسوأ الحالات، سوف تضعف الثقافة التيبيتية إلى درجة أنها سوف تختفي بوصفها هوية. بعض العناصر، من مثل الدين والعرقية، قد تبقى، ولكن التيبيت سوف تتصينَّ بالتدريج، وسوف تمتصها الإمبراطورية الصينية. ومع ذلك،

www.ibtesama.com/vb

فلن يتم إنجاز الاستيعاب من خلال قوة ثقافة الصين، أو بقوة المدفع الصيني، بل بقوة اليوان الصيني، العملة التي تقايض الكثيرين من السكان التيبيتيين.

وهناك سيناريو أكثر إيجابية قليلاً، وهو أن التيبيت (وربما شينكيانغ، المنطقة الإسلامية بشكل رئيسي في الشمال الغربي حيث أتوجه الآن) قد تصير مثل إسكوتلندا داخل المملكة المتحدة. فالإسكتلنديون قد احتفظوا بهويتهم، وهم لا يحبون الإنجليز قط، ولكنهم كانوا جزءاً من بلد حكمها الإنجليز لمدة طويلة جداً، وصارت الأمتان مندمجتين في العديد من النواحي، إلى درجة أن الأحزاب المؤيدة للاستقلال حتى وقت قريب جداً لم تنل إلا دعماً قليلاً. ولكن العملية استغرقت ثلاث مئة عام.

في كلتا الحالتين، لا يمكن تجنب أن التيبيت والمناطق التيبيتية الموجودة من حول أطرافها يجري تحويلها، لا بجعلها أكثر صينية فقط بل بجعلها أكثر عولمة. ومن دون شك سيكون هناك منافع اقتصادية إذا استطاع التيبيتيون، لا الصينيون الهان فقط، أن يستغلوا التحول. ولكن الخطر هو أن الثقافة التيبيتية هي من قبل الآن قد صارت نوعاً ما مثل ثقافة أمريكا المحلية. إنها تملك الإحساس بمتحف ذي موضوع واحد، وفيه يسمح بالبقاء للعناصر السطحية من الثقافة الخاصة بالسكان الأصليين، بل تشجع هذه العناصر، ولكن بالقدر الذي يناسب ثقافة الفاتحين فقط. والمحادثات التي تجري بين بكين وممثلي الدالاي لاما الذي يتقدم بالعمر، التي تهدف إلى الوصول إلى نوع ما من التسوية التي قد تستنقذ المزيد من الثقافة التيبيتية، تبدو محادثات لا تصل إلى أي نتيجة. وفي يوم ما، وربما يكون قريباً تماماً، سيموت الدالاي لاما، وسوف يشرف الصينيون على انتخاب دالاي لاما جديد، وذلك سيكون على هذا النحو.

شكرت شياو لين على كونه صريحاً إلى هذا الحد، وتبادلنا تحية الوداع عند محطة حافلة الركاب.

أنا متجه إلى العودة إلى لانجو، لأقضي يوماً مستكشفاً، وماشياً على ضفتي النهر الأصفر، قبل أن أتجه إلى الشمال الغربي إلى صحراء غوبي.

www.ibtesama.com/vb

في أثناء انتظاري لحافلة الركاب، ألاحظ أن مجموعة من سائقي الحافلات يجلسون يتناولون طعام غدائهم. كلهم كانوا مسلمين هوي، وهم يجلسون، ويضحكون، ويلقون النكات، ويسخر أحدهم من الآخر بمزاح لطيف، ثم مني حين أبدأ بالتحادث معهم. وحين تصل المحادثة أيضاً، كما لابد من ذلك، إلى غزو الولايات المتحدة والمملكة المتحدة للعراق وللسياسات في الشرق الأوسط، فليس هناك أي عداوة نحوي شخصياً.

«رئيس وزرائكم وذلك الشرير الرئيس بوش يقومان في العراق بقتل إخوتنا». يقول ذلك لي واحد منهم، وهو رجل شاب بوجه مستدير وحذاء وسخ. ويخبرني أن عمه يعمل في بغداد، سائق شاحنة. ويشير لي أن أميل إلى الأمام وهو يسحب صورة مغطاة بمادة لامعة لأسامة بن لادن من جيبه تحت الطاولة.

وأسأله: «أتحب أسامة؟»

ويقول وهو يبتسم «نعم، نحن نحب أسامة».

www.ibtesama.com/vb

14
لم يبق معتمداً على السماء

في صيف العام 1988، حين أطلت الصين بعد ماو مليئة بالأمل على مستقبل كبير، منفتح انفتاحاً واسعاً وتساءلت متعجبة عن أي نوع من البلاد كانت ستصير إليه، أذاع تلفاز الصين الوسطى على شاشاته سلسلة وثائقية بعنوان يترجم عادة إلى (مرثاة نهر). وكانت السلسلة قد نشرت في نهاية سنتي الدراسية بصفتي دارس لغة في بكين، وتسبب نشرها في إحداث اضطراب كبير بسبب تصويرها السلبي للثقافة الصينية. كانت السلسلة خليطاً من الصور الفاتنة والمقابلات التي وضعت معاً لتدعم الموضوع الرئيسي المهاجم للمعتقدات التقليدية، وكان الموضوع هو أن فكرة كون الصينيين شعب قديم رائع وامتلك ثقافة قديمة رائعة هي ادعاء كاذب زائف كبير، وأن الثقافة بأكملها كانت تحتاج إلى التغيير.

مرثاة نهر كانت فيلماً مهماً وكان إطلاقه نقطة مؤثرة جداً في تاريخ الصين الثقافي بعد ماو. ومثّل الفيلم الكثير مما كان يدور في عقول المثقفين الشباب مباشرة قبل اندلاع مظاهرات ميدان تيانانمين في ربيع العام 1989. وهاجم الفيلم كثيرين من رموز التاريخ الصيني، ابتداءً من التنين الإمبراطوري «القاسي والعنيف» إلى الجدار العظيم، الذي «يستطيع أن يمثل فقط الدفاع الانعزالي، والمحافظ، وغير الكفء» بالنسبة إلى الصين.

وربما كان أكثر المعاني تعبيراً في السلسلة هو النقد والتقويم الذي أعطى السلسلة عنوانها، وهو الهجوم على النهر الأصفر، الذي يتدفق عبر لانجو، من خلال الأرض القلب لشمال الصين، ويخرج (حين تم استنزافه استنزافاً كاملاً نتيجة فرط الاستخدام) إلى بحر الصين الشرقي. لقد نشأت الحضارة الصينية ونمت حول النهر الأصفر، وكان النهر دائماً قد مثّل رمز الثقافة الصينية القديمة. وهناك مثل صيني قديم يقول: «مِلءُ مغرفة من ماء النهر الأصفر سبعة أعشارها طين،» واتخذ

www.ibtesama.com/vb

فيلم مرثاة النهر مادة الطمي ورواسب النهر رمزاً للوزن التقليدي الكونفوشيوسي الذي يعيق العقل الصيني. وكانت مرثاة العنوان مرثاة تتصل بمطمح، وأمل في أن تموت ثقافة الصين التقليدية التي كانت تمسك بالبلاد إلى الخلف طوال مدة طويلة، أن تموت وأن يجري إحلال ثقافة أخرى أكثر تقدمية محلها، وهي طريقة التفكير حسب الأسلوب الغربي.

وقد انتقد كتّاب مرثاة نهر كل شيء عن «صفرة» الصين، من الإمبراطور الأصفر الأسطوري من الماضي إلى الأرض القاحلة الصفراء من هضبة الراسب الطفالي. ورمزت الصفرة لتخلف البلاد وثقافتها، وخصوصاً لثقافتها السياسية. وهذا ما قابلوه مع «الزرقة» المرموز لها بماء المحيط الصافي، المتدفق من الغرب والذي يجلب معه إلى الصين العلم الذي تدعو إليه الحاجة كثيراً ويجلب معه ديمقراطية شعب المحيط. وانتهى الفيلم بأمل في أن يتدفق النهر الأصفر في نهاية المطاف، وأن يمتزج مع المحيط الأزرق ويجري تحوله.

وحقيقة أن مرثاة النهر قد سمح بعرضها في المقام الأول، أمام مئات الملايين من الناس عبر الصين، تقول الكثير عن الحريات التي كانت قد تطورت بحلول العام 1988، لأن قادة البلاد سمحوا للمثقفين بأن يستكشفوا أفضل طريق للبلاد لتمضي قدماً. ولكن السلسلة أثارت عاصفة، لأنها، وإن لم تهاجم الحزب الشيوعي علانية، احتوت في نصها على العديد من الانتقادات غير الخفية إلى حد بعيد للتقليد الصيني الإمبراطوري، وامتدت الانتقادات ضمناً إلى النظام السياسي الحالي. واعترض على الفيلم كثيرون من المحافظين.

رسائل مرثاة نهر كانت جزءاً حاسماً من التخمر الفكري في السنوات المؤدية قدماً إلى المظاهرات في ميدان تيانانمين. ولكن حين سحقت الاحتجاجات بالقوات الحكومية، اعتقل مؤلفو مرثاة نهر أو هربوا إلى المنفى، وهم الأخيرون في صف طويل من المفكرين الصينيين الذين بحثوا روح الدوافع والعقائد والمواقف وفشلوا في مسعاهم لجعل الصين تتحول إلى بلاد ديمقراطية. (في هامش مثير للاهتمام للبحث الفكري والروحي للثمانينيات من 1980، فإن اثنين من الكتاب الرئيسيين لمرثاة نهر هربا إلى الولايات المتحدة بعد تيانانمين، وهناك صارا كلاهما مسيحيين إنجيليين).

www.ibtesama.com/vb

المفكرون المستقلون لا يمتلكون سجلاً للإنجازات العظيمة في الصين. وفحص الضمير، فيما يتصل بالدوافع، والقناعات، والمواقف، من النخبة الإصلاحية في أواخر القرن التاسع عشر كان قد قاد إلى انهيار الصين في ثورة العام 1912. وفحص الضمير، فيما يتصل بالدوافع، والقناعات، والمواقف، من المفكرين الصينيين المستغربين من العشرينيات من 1920 قد أدى إلى ظهور الحزب الشيوعي، الذي تخلص من العديد من طرق التفكير القديمة ولكنه لم يصنع أي تقدم في تغيير النموذج السياسي القديم، وهو في نهاية الأمر سحق المثقفين الذي كانوا في البداية قد دعموه. وبعدئذٍ كان ماحصو الضمير، فيما يتصل بالدوافع، والقناعات، والمواقف في الثمانينيات من 1980 قد اضطهِدوا هم بدورهم. وكلها تجعلك تشعر أن النهر الأصفر مازال يربح ربحاً رمزياً على الأقل.

ويبدو الأمر، في كل مرة يبدأ فيها شخص ما في التفكير خارج الصندوق سياسياً، وكأن النتيجة هي إما أن تنهار الدولة أو أن يجري سحق الناس الذين يقومون بالتفكير. لقد تم تغيير المواقف العقلية لكثير من الناس بشأن العلم والتقدم، ولكن الحكومة ستبقى على موقفها من عدم السماح للناس بالتفكير بشأن التغيير السياسي.

وهذه هي النقطة. فحقيقة أن كتّاب مرثاة نهر كانوا قد سحقوا أو أبعدوا في حزيران/ يونيو 1989، صنعت الرسالة التي حصلت عليها في شيان، على بعد ثلاث مئة ميل في الخلف إلى الشرق، بل بشكل يكاد يكون أوضح. وهي أن الصين التَّصور، الصين الإمبراطورية، الصين البناء طوال ألفي عام من التاريخ الإمبراطوري لم تكن قادرة قط، وقد لا تكون قادرة قط، على أن تسمح بالتفكير المستقل. والنظام، سواء أكان كونفوشيوسياً أو شيوعياً، هو ببساطة غير مبني للسماح به، لأن التفكير المستقل سوف يؤدي طبعاً إلى طرح أسئلة عن النظام السياسي للصين، وهل ستبقى الصين متماسكة معاً، وتساؤلات مثل تلك التساؤلات لا يمكن التسامح بها. وما قاله زبيغنيو بريجنسكي، مستشار الأمن القومي الأمريكي لجيمي كارتر، عن الاتحاد السوفييتي ينطبق على الإمبراطورية الصينية الحديثة أيضاً: وهي أنها لا تستطيع أن تكون إمبراطورية وديمقراطية معاً.

www.ibtesama.com/vb

وإذاً فماذا الآن؟ أين الأجيال الجديدة من المفكرين؟ وهل يمكن أن يكون هناك موجة جديدة من البحث الفكري في الضمير تستطيع أن تنجح فعلاً؟ إن واحداً من أشد الأشياء إثارة للانتباه عن الصين الحضرية في هذه الأيام هو اجتثاث التسييس اجتثاثاً شبه كامل من الجيل الفتي (أي شخص تحت سن الخامسة والثلاثين تقريباً). ومعظم المفكرين من الجيل الأكبر عمراً قاموا أيضاً، من أجل أن يبقوا على قيد الحياة، بوضع تفكيرهم في التغيير السياسي على الرف أيضاً لصالح الإصلاحات الاقتصادية التي وقعت في السنوات العشرين الماضية منذ ميدان تيانانمين. وربما يذهب التفكير إلى أنه مع وجود حرية اقتصادية أكبر ونمو أكبر سيأتي المزيد من الحرية الفكرية، والسياسية. ولكن هل سيكون المفكرون قادرين في أي وقت على الجهر بآرائهم من دون أن يجري سحقهم، أو من دون أن تتمزق البلاد؟ أنا لست واثقاً من أنهم سيستطيعون.

يوجد العديد من المفكرين الشجعان في الصين، بعضهم مازالوا يحاولون أن يفعلوا ما يستطيعون للترويج للإصلاح السياسي. وهي بيئة متناقضة على نحو غريب بالنسبة إليهم، فمع كل التغير الاقتصادي والاجتماعي الذي يدوي حولهم فإن الحظر كامل مع ذلك على المطبوعات من أي كتابات ولو كانت حساسة سياسياً بشكل غامض. والقلة من الناس الذين حاولوا أن ينشئوا حزباً سياسياً مستقلاً أودعوا السجن في أواخر التسعينيات من 1990، وليس هناك أي علامات توحي بأن الحزب الشيوعي سوف يخفف قبضته الخانقة على النقاش السياسي في أي وقت قريب.

وأنا أعتقد أن هذه الحقيقة المرة يجب أن تؤدي بمفكري الصين المضطهدين إلى أن يحولوا فكرهم قليلاً. العديدون يرون أنفسهم، النخبة المتعلمة، بوصفهم أهم عوامل التغيير. ولكن اسألهم كم عدد الذين يجب إدراجهم من الأسماء المائة القديمة؟ وسيقول معظمهم الشيء نفسه: «لا تستطيع أن تعطي الصوت إلى الفلاحين».

وفي اعتقادي أن هذا الموقف من المفكرين الحضريين، وهو أن الفلاحين الذين يشكلون ثلثي السكان هم جزء من المشكلة وليسوا جزءاً من الحل، هو موقف خاطئ بشكل متأصل فيهم. كان الرئيس ماو، بعد العام 1949، مخطئاً في كل شيء تماماً،

www.ibtesama.com/vb

ودفع الملايين من الناس الثمن لذلك. ولكني أعتقد أن تركيزه على الفلاحين كان صحيحاً، وأن ذلك هو المكان الذي يجب أن يكون التركيز عليه اليوم كذلك، لأن ذلك هو ما سيصنع الفرق في مسألة إن كانت الصين تستطيع أن تمضي قُدماً بوصفها بلاداً موحدة ويحتمل، مجرد يحتمل، أن تطور بعض الزواجر والضوابط السياسية.

والمثقفون لا يجري منحهم أي مجال من الدولة، ولا أعتقد أن من المحتمل أن يتغير هذا الحال في المستقبل القريب. إن سياسة الاستقرار لا تستطيع أن تسمح بذلك. فلو أن نخبة المثقفين كانت قد مُنحت مجالاً لاستكشاف كيفيةٍ لتطوير الديمقراطية الأساسية المتصلة بعامة الناس، لربما كانت تبدأ بتغيير الطريقة التي تُحكم بها الصين. ولكن من دون هذا، يجب أن يكون التركيز على الفلاحين من أجل تمكين الشعب وتخويله: لا للقيام بثورة فلاحين ماوية أخرى، وإنما للتحويل التدريجي المستمر للثورة الصناعية التي أغنت أوروبة وأمريكا الشمالية، وهي التي تبدأ الآن، بتحويل الصين، مهما يكن التحويل بشكل غير كامل.

ومثلما رأيت أنا في السابق في آنهوي، فإن الحالة بالنسبة إلى الفلاحين إذا مكثوا في الأرياف حالة رهيبة. ولكن إذا استطاع الفلاحون أن يستمروا في الخروج وإيجاد عمل ثم العودة لتحسين مستوى المعيشة في الأرياف، فسيكونون هم، لا المثقفون، من ستعمل حياتهم المتغيرة ببطء على تحويل البلاد. بعدئذٍ، ربما يمكن في يوم ما أن تكتب مرثاة للنهر الأصفر ولكل ما يرمز إليه.

مازال النهر يجري، طبعاً، عبر قلب لانجو، غير واعٍ للوم الذي يوجه إلى مياهه الهادئة الموحلة. وهو يتأمل، متجهماً تقريباً، عابراً من خلال المدينة.

وأُمضي أصيلاً كسولاً في الشوارع الدخانية الضبابية، الحارة حرارة شديدة، أتجول حول النهر الأصفر، آكل في بار صاخب يقدم حساء المعكرونة الطويلة، متجولاً في الأسواق المكتظة، وأنزل نحو النهر نفسه لمجرد النظر إليه، وهو رمزي جداً، ومثير للجدل جداً.

في الأزمنة الخوالي، كان يقال إن الزمان الذي يجري فيه النهر الأصفر نقياً سيكون هو زمان الحاكم العظيم الحكيم. ودخلت جملة «حين يجري النهر الأصفر

www.ibtesama.com/vb

نقياً» إلى اللغة الصينية بوصفها تعبيراً عن الاستحالة، شيء مثل القول في اللغة الإنجليزية: «حين تتجمد جهنم». ومن غير المحتمل أن يجري النهر نقياً في أي وقت قريب. و«الزرقة» المفترضة للتصنيع بحسب الأسلوب الغربي تضيف التلوث الذي صنعه الإنسان إلى الطمي الذي تسبب في إحداث ألف فيضان. النهر الأصفر الآن رمزي لا لمجرد طول عمر حضارة الصين القديمة، بل للمخاطر البيئية المحيطية كذلك الناجمة عن المسار الذي سلكته البلاد إلى الحداثة.

إذا كان نصف مشكلات الصين في القرون الحديثة مشكلات ثقافية، فإن النصف الآخر كان مشكلات جغرافية. الجغرافية أعطت أوروبة يداً سهلة. فلا صحاري فيها، وفيها بعض الجبال ولكن مع الكثير من خطوط الشواطئ أيضاً، وأوروبة ليست في أي مكان منها بعيدة جداً عن البحر. أما جغرافية الصين، فكانت مسألة أخرى، في عزلتها القارية الهائلة.

في القرون الأولى، لم يكن وجود البلاد في عزلة يشكل تلك المشكلة الكبيرة. فقد كانت الصين قارة مكتفية ذاتياً، ولكنها مع ذلك طورت حضارة مجيدة قبل الغرب بمدة طويلة. وفي القرون الحديثة، مع ذلك، أدى انفجار الاختراعات والاستكشاف الذي تلا عصر النهضة، والإصلاح الديني، والتنوير، أدى إلى تحويل المجتمع الأوروبي. والاختراعات الصينية، التي نُقلت من خلال العالم العربي، كانت أيضا عاملاً كبيراً في ظهور أوروبة، الذي حدث تماماً في الوقت الذي كانت فيه أمجاد الصين قد بدأت تركد. كان الأوروبيون جيراناً، وخصوماً، ومتنافسين، ويقاتل أحدهم الآخر كثيراً جداً بكل تأكيد، ولكنهم كانوا يتطورون أيضاً من خلال التنافس. وأكثر ما افتقدته الصين هو المنافسون. والمشكلات التي نجمت عن عزلة الصين الجغرافية ازدادت تعقيداً بالاستيلاء على المناطق الغربية على أيدي أسرة شينغ في القرن الثامن عشر، وهو ما أضاف مع ذلك المزيد من الأرض التي يصعب حكمها.

وتحدد لانجو بداية هذه الأرض الشديدة الصعوبة، وهي امتداد من الأرض كانت تعرف دائماً باسم ممر هوشي. وتعني «غرب النهر» (كما في النهر الأصفر)، والممر الضيق من الأرض القابلة للسكن التي تمتد إلى الشمال الغربي من لانجو إلى آخر

www.ibtesama.com/vb

قلعة من الجدار العظيم، في جايوغوان، على بعد 350 ميلاً إلى الشمال الغربي، كانت تعرف تاريخياً باسم «عنق الصين». كانت تلك هي الطريق الوحيدة للأشياء لتتدفق داخلة وخارجة على طول طريق الحرير من الشمال الغربي في الأزمنة القديمة، وقد فعل الصينيون كل شيء ممكن للإبقاء على الإمساك بها. والقلعة في جايوغوان، المعروفة باسم «فم الصين،» كانت هي المعادل الصيني لمر خيبر، الذي حرس المدخل إلى الهند البريطانية من الشمال الغربي.

بعد ذلك مباشرة سوف يرتفع جبل تشيليان على الجانب الجنوبي من الطريق، مدفوعاً إلى الأعلى من هضبة التيبيت وكأنه مدفوع بيدين إلهيتين تكتونيتين مؤسساً حاجزاً طبيعياً جنوبياً ضد صحراء غوبي المتقدمة بسرعة. وإلى الشمال من الطريق تبدأ مباشرة الصحراء الحقيقية، التي تمتد شمالاً لأكثر من خمس مئة ميل.

التاريخ والتقدم يسابق أحدهما الآخر في الشمال الغربي على طول ممر هوشي. السكة الحديدية الممتدة من لانجو إلى أورومجي، التي اكتملت في العام 1963، تسير في أماكن منها على طول بقايا جدار الصين العظيم. ويقع الطريق 312 إلى الجنوب من السكة الحديدية والجدار، نوع من خط حديدي حي ثالث، يتجه أيضاً نحو الشمال الغربي. والبلدات الواحات على طول مساره تنتشر على الطريق مثل حبات خرز، معلقة طليقة على عقد يسير على طول الحد الجنوبي للصحراء.

إلى لانجو، كان الطريق 312 بروزاً غير معروف من الزفت، طريقاً من العصر الشيوعي لم يسمع به أحد قط من خارج الصين. والآن يوجد مساران من 312 يبرزان من ضواحي لانجو، وجسران يحملانهما عبر النهر الأصفر. وهناك الطريق القديم المتداعي، الذي خدم بصفته مساراً رئيسياً إلى الشمال الغربي منذ الخمسينيات من 1950، من أجل السلع القليلة أو الناس الذين لم يسافروا بالخط الحديدي. وبعدئذٍ هناك الطريق الجديد 312، وهو طريق سريع بأربعة مسارات يستوعب الآن الحجم المتنامي للمرور على طرق المسافات البعيدة وصولاً إلى الصحراء.

كلا الطريقين يجد من الصعب، مع ذلك، أن يلبس العباءة التي يخلعها عليهما التاريخ. وذلك لأن هذا هو الآن طريق الحرير القديم، عقدة طرق التجارة التي

www.ibtesama.com/vb

امتدت في الأزمنة القديمة مثل خيوط ذهبية عبر صحراء غوبي، رابطة الصين مع آسيا الوسطى، وبلاد فارس، وفي النهاية مع أوروبة. ويقول المؤرخون إن الطريق يبدأ في شيان لأن شانغان (كما كانت تعرف في تلك الأيام) كانت هي عاصمة الصين في ذروة طريق الحرير في القرنين السابع والثامن، وكانت هي نقطة البداية والمحطة المقصودة الأخيرة لكل شيء تدفق على طول هذا الطريق. ولكن طريق الحرير، في ذهني، كان دائماً قد بدأ في لانجو، وذلك لأن الطريق هناك فقط يبدأ فعلاً بإعطاء الشعور مثل طريق الحرير. هنا توجد الصحراء، وهنا توجد الواحات، وهنا توجد الجِمال.

طوال الساعات القليلة الأولى خارج لانجو، تكون المناظر الطبيعية قابلة للنسيان. فالصحراء تبدأ بتلال غير منتظمة السطوح بلا اسم تخنق الطريق بصفرتها. قبل لانجو، كان اللون الأصفر من هضبة الرواسب الطفالية قد بدأ يتسرب إلى كل شيء، ولكن الخضرة وحقول المحاصيل كانت مازالت موجودة على جانب الطريق. أما هنا فقد تم التخلي عن معظم الجهود التي بذلت للزراعة، والتلال المنخفضة ترتفع وتهبط في موجاتها الصفراء وكأن اليخضور لم يسبق له أن اختُرِع قط.

وباستثناء اللون، فإن الخواء هو الذي تلاحظه. إن من السهل أن تشعر بالخوف من الأماكن المغلقة في صين الهان، وهي المشبعة للغاية بالاستيطان وبتاريخ الاستيطان. لا يكاد يوجد ميل مربع من الأرض الزراعية أو الريفية او الحضرية، ليس مزدحماً بآلاف الناس. وهنا تلتصق القرى التي تظهر من حين إلى آخر بسفوح التلال الصفراء، ولكن الأرض غير مأهولة إلى حد كبير. هناك إحساس بالتحرير الشديد والطريق تمد أطرافها خارجة إلى الصحراء. وأنا أكتب في دفتر ملاحظاتي: «أنت الآن تغادر الفضاء الجوي الصيني».

يجلس أمامي مباشرة في حافلة الركاب ثلاثة رجال في ملابس العمال الوسخة. إنهم عمال مهاجرون كانوا في التيبت، يبنون طريق السكة الحديدية التي سوف تربط عاصمة التيبت، لاسا، مع بقية الصين. وهم في الأصل فلاحون من وادٍ على الطرف تماماً من الطريق 312، وهم عائدون إلى البيت لجمع المحصول.

www.ibtesama.com/vb

افتتحت سكة حديد التيبت في العام 2006، وهي مشروع كبير مولته الحكومة يربط التيبت بالخط الحديدي لأول مرة مع بقية الصين. وهو أعلى خط حديدي في العالم ويسير لمسافة أكثر من سبع مئة ميل من مدينة غولمود إلى عاصمة التيبت، لاسا. والنقطة التي ترتفع فيها السكة عبر ممر تانغولا في طريقها إلى لاسا تكون على ارتفاع 16,640 قدماً ـ وهي أعلى من أعلى قمة في الولايات الثماني والأربعين التي تنخفض عنها في الولايات المتحدة (جبل وتني)، وأعلى من أعلى قمة في أوروبة الغربية (مونت بلانك). وسيارات الركاب يضبط ضغطها مثل الطائرات لتجنب مرض الارتفاعات. وتقول الحكومة إن السكة الحديدية سوف تساعد على تطور التيبت. النشيطون السياسيون في الخارج التيبيتيون في التيبت يقولون إنها سوف تسهِّل فقط تدفق الهان الصينيين إلى التيبت، وتسهل استخراج الموارد الطبيعية. وكلا التحليلين صحيح.

وأسأل رفاق سفري: «كم كان الدفع في العمل في السكة الحديدية؟»

ويقول واحد منهم مع ابتسامة عريضة: «جيد جداً. كان ألفي يوان تقريباً في الشهر».

وذلك 250 دولاراً، وهو ضعف ما يستطيع أن يكسبه الفلاح المتوسط في عام.

ويستمر في القول: «ولكننا فلاحون، ويجب علينا أن نعود إلى البيت في الصيف. وبعد أن نحصد المحصول، سوف نتوجه عائدين إلى التيبت لإنهاء السكة الحديدية».

«حياتكم، إذاً، أفضل بكثير من ذي قبل؟»

ويقول الرجل نفسه، وابتسامته تكشف عن عدد من الأسنان العوج: «طبعاً! كانت في العادة تعتمد على السماء لنبقى على قيد الحياة. ولكنها الآن لا تعتمد عليها».

وساد الصمت ونحن نفكر في ضخامة ما قاله قبل قليل. أنا أفكر فيه، على أي حال.

وأقول في النهاية: «ذلك تغيير كبير». وهو يومئ برأسه.

إنه ليس تغييراً جاء بين عشية وضحاها. ولكن، في الوقت الذي يكون فيه الإصلاح السياسي مسدوداً، فإن هذا هو ما يغير الصين. إنها المرة الأولى في التاريخ التي يكون فيها فلاح من هذا الوادي، أو من أي واد قريب هنا قادراً على أن يقول «نحن

www.ibtesama.com/vb

لا نعتمد على السماء للبقاء على قيد الحياة».إذا سقط المطر، أو ماتت المحاصيل، فهذا سيسبب لهم مشكلات، ولكنهم لن يموتوا. إنها المرحلة الأولى في تمكين الأسماء المائة القديمة، في صراعهم الأبدي مع السماء. التحسين اقتصادي بشكل جازم. ويجري استغلال الفلاحين حين يصلون إلى أعمالهم الصناعية الجديدة، والقرى التي يعودون إليها هي أفقر حالاً هنا في غانسو مما كانت عليه في الخلف في آنهوي. ولكن الناس في مقاطعة غانسو شاكرون مقابل أعمال إحسان قليلة، وبالنسبة إلى هؤلاء الرجال الثلاثة ولعائلاتهم، إنه تمكين على كل حال.

أبراج أعمدة الكهرباء الضخمة تقف بارزة على التلال مثل الفزاعات، وهي علامة مجيدة على التقدم، بلا شك، للناس في هذه الوديان النائية، التي ضربها الفقر. وبعد قليل ينزل الرجال الثلاثة من حافلة الركاب ويلوحون بالوداع، عائدين مؤقتاً من هوياتهم الجديدة بصفتهم عمالة مهاجرة ليكونوا فلاحين مثلما كانوا فيما مضى. هم وأسلافهم تصارعوا مع الأرض، ومع السماء، طوال قرون عديدة، وفي مرات عديدة كانوا قد خسروا. أما الآن فيوجد لديهم خيار آخر.

مازالت هناك رحلة طوال عدة ساعات على الطريق 312 لنصل إلى أول بلدة واحة كبيرة من الصحراء، وهي واوي. الطريق واسع ومستقيم، وحافلات الركاب، والشاحنات الزرقاء، والسيارات العادية من حين إلى آخر تسرع منطلقة، أسرع من أي قافلة جمال سبق لها أن سافرت في أي زمان. في واوي، وأنا أغير حافلات الركاب وأغادر الطريق 312 مؤقتاً، متجهاً إلى مسافة ساعتين شمالاً، إلى مدينة مينشين. واوي هي في الأصل على حافة صحراء غوبي. وبالسفر إلى مينشين، فأنا أغطس في قلب الصحراء. فهذه البلدة التي يسكنها 300,000 نسمة منتصبة على نحو خطر عند نهاية طريق يمتد صاعداً من الطريق 312 مثل رصيف بحري أخضر يمتد إلى بحر محيط من الرمال.

وطوال قرون كان الفرسان القادمون من الشمال هم أكبر التهديدات للمستوطنات الصينية هنا. والآن مازال التهديد الكبير يأتي من الشمال ولكنه يأتي في شكل

www.ibtesama.com/vb

الصحراء العادية على العمران، التي تزحف نحو مينشن بمعدل عشرة أقدام إلى خمسة عشر قدماً في كل عام. مازال هناك قلة من القرى إلى الشمال وإلى الشرق والغرب، ولكن الناس قد غادروها بالتدريج وانتقلوا إما إلى مينشين نفسها أو إلى أبعد كذلك نحو الجنوب، الصحراء بلا رحمة في استهلاكها للأرض، وهي حالة ازدادت تعقيداً زيادة مأساوية بالأخطاء الفاحشة التي يرتكبها الإنسان، مثل بناء السدود على أي أنهار موجودة والاستخدام غير الفاعل للموارد المائية. وكذلك فإن اجتثاث الغابات في الماضي لم يكن معيناً أيضاً، والجهود المبذولة الآن لزراعة الأشجار لعكس اتجاه العملية تبدو جهوداً لا تعمل. وتماماً في الوقت الذي تحتاج فيه الصين إلى توسيع أراضيها القابلة للزراعة فإنها تفقدها.

مينشين أفقر من العديد من المدن الموجودة على الطريق 312. فالرواتب، ولو للمحظوظين أنفسهم، تحوم تحت مستوى مائة دولار أمريكي بشكل كبير في الشهر. ومباني الشقق فيها قديمة، والميزان لم يبدأ بمجرد الميلان من ملكية الدراجات إلى السيارات. ولكن مازال هناك طاقة في مينشين، مثلما هو موجود في معظم المدن الصينية الصغيرة، مهما تكن فقيرة، وكأن الناس يرفضون أن يقبلوا قدرهم الجغرافي وهم عازمون على الاندفاع قدماً نحو هدفهم الخاص المتواضع من «الرفاهية المعتدلة».

قبل بضعة أشهر، في حفل في بكين، كنت قد قابلت شاباً صينياً، وهو صديق لشخص أمريكي من أصدقائي، ويعمل في بكين ولكن بلدته الوطن هي مينشن. وذكرت له أنني قد أمر عبر بلدته في الصيف. وقال إنه سيكون موجوداً هناك زائراً لأسرته وأن علي أن أهاتفه. وهكذا فعلت، وأتى ليأخذني من محطة حافلات الركاب لأقابل أسرته.

ويصر صهره على اصطحابنا إلى العشاء في ذلك المساء مع كل أصدقائه في العمل. فليس مألوفاً كثيراً في هذه النواحي أن يظهر أجنبي فيها، وهذه هي النبرة العامة للدعوة، ونحن نريد أن نريك وقتاً طيباً. ونشرع في تناول أطباق وجبة لذيذة من الطعام المقلي على الطريقة الصينية السريعة، وعلى هذه الوجبة قام عشرة رجال

www.ibtesama.com/vb

صينيين فضوليين من بلدة صغيرة وهم منتشون ثملون بشكل متزايد قاموا بامتحاني بأسئلة عن كل شيء تحت شمس صحراء غوبي الغاربة. إنهم من بين سكان البلدة المحظوظين حظاً أكثر، والعديد منهم من صغار موظفي الحكومة أو من الموظفين في شركات تملكها الدولة وما زالت موجودة هنا. كلهم فضوليون حول زائرهم، ومن المحتمل أن أكون أول أجنبي سبق لأكثرهم أن قابلوه في أي وقت. ماذا أظن في الصين؟ وماذا أظن في الجامعات الصينية؟ وماذا أظن في اليابان؟ ولماذا تساعد الولايات المتحدة الدالاي لاما والحركة الروحية المحظورة فالون كونغ؟ وهل الرعاية الصحية في أوروبة مجانية فعلاً؟ ولماذا يحب الأمريكيون الأسلحة؟

ثم يصير الامتحان شخصياً. فالشعب الصيني، الذي ترعرع على وجبة من الأفلام الهوليوودية، وفضائح الجنس السياسية، وسوء سلوك النجم الغربي للروك، يفترض أن الرجال البيض، متزوجين أو عزاباً، هم مجرد حفلة حيوانات طوال أربع وعشرين ساعة (لنتحدث بأدب). ويسألونني كم خليلة لي؟ وكم خليلة توجد لمعظم الرجال الغربيين؟ وأصيبوا بخيبة أمل حين علموا أن ضيفهم ليس مزيجاً من بل كلينتون وميك جاغر الذي كانوا يتوقعونه. وقال واحد منهم له بطن ناتئ وتسريحة شعر معيبة: «لا خليلات؟ يجب أن يكون لكل رجل كثير من الخليلات قبل أن يموت».

وقرر المضيفون لي في الحال أن الطريقة الوحيدة بالنسبة إلي لاسترداد ذكورتي هي أن أشارك في بعض ألعاب الشراب، التي يشرحونها لي الآن. وكل الألعاب تتضمن الخمر الصيني السيئ السمعة المعروف باسم بيجيو، وهو فعلاً أكثر المرطبات إثارة للتقزز سبق أن اعتصر من حبة رز. وكنت حتى ذلك الحين قد نجحت بتمضية المساء من دون أن يكون علي فعلاً أن أشرب أي شيء. ثم يقف واحد من المشاركين في العشاء ويقترح نخباً: «أود أن أشرب نخب الصحافي شي، لأرحب به، ولأشكره على المجيء إلى هذه البلدة الصغيرة المتخلفة من الصين».

وأقول: «لا، لا، أنتم تتطورون تطوراً سريعاً جداً».

www.ibtesama.com/vb

ويقول هو: «لا، لا، أنت لست مجبراً أن تكون مؤدباً. نحن نعرف أننا متخلفون. يجب أن نقول الحقيقة. ولكننا سعداء في أن نرحب بك هنا».

ثم إني أتقدم لأعمل بشكل جيد نوعاً ما في لعبة تلاميذ المدرسة في الشراب. واللعبة المتصلة اتصالاً بعيداً مع لعبة حجر - ورق - مقص ولكنها أعلى صوتاً، وتتضمن مشاركة اثنين يدفع كل واحد منهما بعدد معين من أصابعه من يد واحدة في الوقت الذي يصرخ فيه برقم ما. إذا بلغ عدد الأصابع التي أبرزتها أنت حين تُجمع مع عدد الأصابع التي أبرزها خصمك إذا بلغ الرقم الذي صرخت به أنت، فعندئذٍ يجب على خصمك في اللعب أن يشرب. فإذا كان هو الذي حصل على الرقم بشكل صحيح، فأنت الذي تشرب. سهلة جداً، بالفعل. وبطريقة ما حافظت على الحصول على الرقم بشكل صحيح، ولكن ليس من دون فقدان القليل من المرات، وأكشر وأنا أبلع الجرعات المطلوبة من خمر الرز المروع. ثم نجحت في أن أتظاهر بالاهتمام في المحادثة مع واحد من الرجال الذين لا يلعبون اللعبة وانتزعت نفسي من المجموعة الصلبة للشراب الذي يتوالى. ومع ذلك، فإن بضعة جرعات من بيجيو كانت كافية لتجعلني أترنح قليلاً وأنا أغادر المطعم وأتوجه راجعاً إلى فندقي الرخيص.

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

15
«نريد أن نعيش!»

حين يصل الأمر إلى كتابة التقارير عن الصين، كنت دائماً أتفق مع نظرية وودي ألين. وستذكرون أن أشهر متشائم في نيويورك قال مرة: إن 80 بالمائة من النجاح هو ببساطة الظهور. والأمر كذلك مع الصين الحديثة. وأنا أتحدى أي مراسل أن يجعل الصين مملة. فكل شيء عن الصين تقريباً مثير للدهشة والاهتمام، وذلك في وجه من الوجوه لأنها مختلفة عما تتوقع. إن واحداً من أعظم الأشياء بشأن العيش هنا، بعيداً تماماً عن الفرصة لملء أقسام حروف كيو، واكس، وزد في دفتر الملاحظات، هو مجرد الذهاب مع التدفق، المشي خارجاً في الصباح مع خطة غامضة جداً فقط ورؤية أين يأخذك اليوم. إنه يأخذك دائماً تقريباً إلى مكان ما لم تكن قط قد تنبأت به.

حين أخبرت أصدقائي في بكين أنني كنت سأسافر على الطريق 312 من الشرق إلى الغرب، سألني العديد من الناس إن كنت سأجري الكثير من المقابلات والاجتماعات على طول الطريق. كما تبين، فقد هاتفت مسبقاً في مرات قليلة، وقمت ببعض البحث لأجري مقابلات عن موضوعات أردت على وجه التحديد أن أضمنها. ولو كنت أقل انشغالاً، لربما أعددت إعداداً أكبر. ولكن على كلتا الحالتين، كان سيوجد الكثير الوفير للكتابة عنه. تقريباً، كنت أصعد إلى حافلة الركاب، أو سيارة الأجرة، أو الجمل، وأنطلق فقط.

يمكن لأي شيء أن يحدث على الطريق في الصين، وبلا استثناء يحدث فعلاً، ولكن بعض الأيام أفضل من بعض، وهناك قلة من الفترات التي امتدت لمدة اثنتي عشرة ساعة في هذه الرحلة وكانت غير عادية تماماً. مثلما حصل في يوم صيفي طويل بدأ في فندق داكن بلا مناشف في مركز مينشين.

ونظراً إلى أنني كنت أعرف أنني سأغادر مبكراً في الصباح التالي، فقد تركت ستائر غرفتي الرثة مفتوحة على سعتها. ولم يكن في الغرفة تكييف للهواء، وكانت

www.ibtesama.com/vb

الليلة حارة. وأسهم خمر الرز في نوم عميق في الليل. وأيقظتني أصابع الفجر البرتقالية ببطء فقط وهي تنتشر فوق البلدة التي يمكن أن تنسى الموجودة خارج نافذتي. واستحممت برشاش ماء بارد (وهو الوحيد المتوافر)، وسجلت مغادرتي من الفندق، وتوجهت إلى محطة حافلات الركاب، وهي مستيقظة من قبل، مثلما هي محطات الحافلات دائماً.

ويتنافس السائقون من أجل الأعمال. وآخرون يحمّلون الحقائب على ظهور حافلاتهم. ويجلس الركاب عند أكشاك صغيرة للطعام المحمول الموجودة أمام مبنى المحطة الرئيسية، يأكلون الكعك المقلي المحشو بمدمس من الحبوب كالفول أو يأكلون كرات العجين المسلوقة وهم ينتظرون حافلاتهم لتغادر. والبخار يتصاعد من القدور وأوعية القلي من باعة الطعام المتجولين.

هناك اتجاه واحد فقط للخروج من مينشين، هو اتجاه الجنوب، على طول الممر الأخضر الضيق الراجع إلى الطريق 312. وتستطيع أن تستشعر الصحراء تلوح هائلة مخيفة هناك في مكان ما، وفي كل مكان، ولكنك ما لم تكن مجنوناً، أو بدوياً منغولياً مترحلاً، أو بدوياً منغولياً مجنوناً، فليس هناك سبب للذهاب إلى الشمال من مينشين إلى صحراء غوبي.

حافلة الركاب متجهة إلى بلدة جينشانغ، وهي أبعد على طريق 312 في الاتجاه إلى الشمال الغربي، وهكذا بدلاً من التوجه نزولاً إلى بلدة واوي والانعطاف إلى اليمين، فهو يغوص بعيداً عبر الريف على الوتر الواصل إلى الطريق 312، على طول طريق ضيق تصطف عليه أشجار نحيلة وبيوت طينية قليلة تتشبث بالطريق مثلما تنجذب برادة المعدن إلى مغناطيس. وأسلوبي المعتاد العشوائي في اختيار مقعدي رسا بي إلى الجلوس إلى جانب رجل محلي يناهز الأربعين من عمره، ويعمل في بعض العمل التجاري الصغير، يبيع الحبوب والرز في مينشين وجينشانغ. وتبين أنني أول أجنبي يراه في أي وقت، ونجح في المقاومة طوال دقيقة ونصف قبل أن ينفتح، ويحل الشعر الأشقر على ذراعي. وندخل في الامتحان المعتاد عما إذا كنت أحب الصين أم لا ونصل بسرعة مناسبة إلى: كم طفلاً عندك؟

www.ibtesama.com/vb

«اثنان».

ويسأل: «هل ستنجب أكثر؟»

«يحتمل».

«إذاً بلادك لا تحدد عدد الأطفال الذين ينجبهم الناس؟»

وأخبره قائلاً: «لا، ذلك متروك للفرد، ففي بلدي لا تستطيع الدولة أن تتدخل في الحياة الشخصية لشعبها». وأنا دائماً أجعل هذه النقطة، إسهامي، مهما يكن صغيراً، نحو إحداث الثورة.

عند هذه النقطة، أقحمت نفسها في الحديث المرأة التي تجلس عبر الممر من ناحيتي. فهي، مثل كل الركاب الآخرين، كانت تسمع محادثتي مع جاري.

وتقول المرأة: «ليس صواباً أن يكون لك أكثر من طفلين».

«عفواً لم أفهم؟» وأنا أقول ذلك في غاية الأدب المصطنع. بصوت من يقول: هل تتحدثين معي؟

وكررت: «ليس صواباً أن يكون لك أكثر من طفلين».

وأبتسم لها وأقول: «أعتقد أنك تستطيعين القول إنك لا توافقين على ذلك، أو أنك نفسك لن تنجبي أكثر من طفلين، ولكن لا تستطيعين القول إنه ليس صواباً».

وتبتسم هي بعد ذلك مباشرة، وهي الابتسامة التي يبتسمها الصينيون متوسطو الأعمار حين يكونون على وشك رعاية شخص أجنبي ومناصرته. للمرأة شعر قصير، مصبوغ بالأسود، والجذور الرمادية للشعر الأشيب لا تكاد تُرى في الفرق الأوسط من شعرها. وهي تلبس بنطالاً وبلوزة بنيتين لا يتميزان بصفات محددة، وهي امرأة صينية نموذج للمرأة المتوسطة العمر ذات القصد الحسن، وهي من الجيل الضائع للثورة الثقافية، ربما تناهز الخامسة والأربعين أو ربما الخامسة والخمسين من العمر. وهي ودودة ولكنها متمسكة برأيها، ومستعدة بلا شك أن تعطيني محاضرة عن الأخلاقيات الغربية الطليقة، أوعن كيفية تنشئة أطفالي، أو كما هو في هذه الحالة، كم عدد الأطفال الذين تنجبهم.

www.ibtesama.com/vb

وأسالها: «ما الذي يجعلك تقولين إنه ليس صواباً؟»

وتجيب بكبرياء: «لأنني أعمل في تخطيط الأسرة».

«وهكذا فأنت طبيبة؟»

«نعم. أنا مسؤولة عن التخطيط للأسرة في هذه المقاطعة».

«وأنت تسافرين في هذه الناحية لفرض سياسة الطفل الواحد؟»

«نعم»

وأدرك ما يتضمنه عملها. ويسافر معها ممرضتان شابتان، ربما في أواخر عشرينياتهما من العمر، أو ربما في مطالع الثلاثينيات. إحداهما تجلس إلى جانبها، وتبدو متأنقة متزمتة حسب الأصول للغاية، والأخرى تجلس خلفها تنحني إلى الأمام وتستند على مسند الرأس في مقعدها لتشارك في المحادثة.

«وهكذا... فأنت تسافرين في هذه الناحية لتقدمي فحوصاً للنساء». أقول ذلك وأنا أسهل بلطف الوصول نحو الأسئلة التي أريد فعلاً أن أسألها.

«نعم. ذلك هو ما نحن ذاهبون إليه الآن».

«وماذا يحدث إذا وجدت أن هناك نساء حوامل، وهن ممن لا ينبغي أن يكن حوامل؟»

«نحاول أن نقنعهن بأن يجرين إجهاضاً».

«وإذا لم يوافقن؟»

وتقول وهي تتوقف قليلاً: «يجب علينا أن نجبرهن. فأنت تعرف أنه يوجد الكثير جداً من الشعب الصيني».

كل شخص صيني يقول هذا. وهو، طبعاً، صحيح، ولكن قد تم التطبيل بذلك في عقول الصينيين للعديد جداً من سنوات الدعايات إلى درجة صارت معها كلاماً مقدساً. وأهم من ذلك، أنه ليس رأي هذه المرأة فقط، إنه أيضاً وظيفتها لتفعل شيئاً ما بشأنه.

www.ibtesama.com/vb

«ولكن كيف تجبرونهن بالقوة؟ ماذا لو لم يذهبن؟»

«يوجد إدارة من الشرطة في كل بلدة أو مقاطعة تقوم بفرض تنفيذ قوانين تخطيط الأسرة بالقوة. فهم يذهبون إلى بيت المرأة، وإذا لم تأت طوعاً، فسوف تؤخذ إلى المستوصف قسراً بالقوة».

كثيرون من مسؤولي تخطيط الأسرة في المناطق الحضرية، بل في البلدات الصغيرة كذلك، يعرفون أن عليهم ألا يتحدثوا إلى الغربيين حول مثل هذه المسائل. فهم يعرفون أنه موضوع حساس في الغرب، وهو موضوع يستثير نقد الصين على رغم أن الكثيرين منهم لا يفهمون لماذا؟ إن هذه المرأة لا تشعر بأي قيود من مثل ذلك.

وأسألها: «ولكن ماذا لو أن هناك امرأة حاملاً في الشهر الثامن، ولا يجب أن تجهض؟»

«هي...». وتقوم المرأة بيديها بعمل إشارة بفعل أمام معدتها، فعل يشير إلى إجبار شيء ما على الانفتاح والتدفق بعيداً.

وأشهق قائلاً: «ولكن ذلك الحمل طفل حي، يمكن أن يولد ويبقى على قيد الحياة».

وترفع المرأة كتفيها وهي تبتسم ابتسامة باهتة. «يوجد الكثير جداً من الشعب الصيني».

لقد سبق لي أن سمعت مراراً عن هذه الحالات. وفي الحقيقة، هي معلومات عامة وهي أنه منذ أن تم وضع سياسة الطفل الواحد، في أواخر السبعينيات من 1970 ومطالع الثمانينيات من 1980، صارت الإجهاضات القسرية وأعمال التعقيم عملاً روتينياً كاملاً، ولو كانت المرأة في الفترة الثالثة من الحمل. ولكنني لم أقابل قط أي شخص منغمس في العملية.

«وهكذا فأنت هي الشخصية التي عليها فعلاً أن تقوم بتلك العملية؟»

ويبدو أنها لا تهتم لسؤالي. وقالت وهي تضحك قليلاً: «نعم».

www.ibtesama.com/vb

والضحكات الصينية تقول العديد من الأشياء، وليس من الممكن أن تقول إن كانت هذه ضحكة عن كبرياء بعملها في إبقاء الشعب الصيني منخفض العدد أو ضحكة من الإحراج من الاضطرار لفعل مثل هذا العمل.

«ولكن ألا تجدين ذلك... وحشياً قليلاً؟» ولم أكن أستطيع أن أخفي ليّ وجهي وأنا أسأل السؤال.

وتبتسم هي ثانية. «إنها ضرورية. يوجد الكثير جداً من الشعب الصيني».

وأستدير إلى المرأتين الشابتين، باحثاً عن توكيد أنهما لن تكونا منغمستين في مثل هذه الوحشية. ربما أنهما تقفان في الاحتياط فقط ولكنهما لا تأخذان دوراً.

«ولكن كيف تفعلنها فعلياً؟ كيف تقتلن جنيناً في الشهر الثامن؟»

وتتطوع أكثر الممرضتين شباباً، وهي مترددة نوعاً ما. «تحقن في رحم الأم، وذلك يقتل الطفل».

«ولكن مازال على الأم أن تلد الطفل، أليس كذلك؟»

«نعم. أحياناً لا يموت الطفل في الرحم ويكون مازال حياً حين يولد. ولكن، نحن نتركه... وهو..».

الممرضة التي علمت بعد ذلك أنها هي نفسها أم لطفل صغير السن، ارتسمت على وجهها نظرة متألمة قليلاً وهي تتوقف عن الكلام في منتصف الجملة، وكأنها ممزقة بين عواطف كونها أماً وبين ما عُلِّمت بأنه واجبها نحو بلادها.

إنني مصدوم منذهل، وأنا لست الشخص الوحيد في هذا كما هو واضح. ويجلس في المقعد الواقع خلفي رجل صغير بوجه كوجه الفأر كان ينصت لكل المحادثة وتمتم يقول: «الشعب الصيني شرير جداً»

«عفواً لم أسمعك جيداً». أظن أنني لم أسمعه بشكل صحيح.

www.ibtesama.com/vb

وهو يهز رأسه فقط، لا يريد مواجهة مباشرة مع الطبيبة، ويستدير بعيداً، لينظر من النافذة إلى الأرض غير المزروعة ذات النباتات المتناثرة غير تامة النمو في الصحراء المتكسرة التربة. وهي تمر مندفعة عنا. وذراع الرجل تحتضن ولداً يناهز الثامنة من العمر.

وأعود ملتفتاً إلى الطبيبة: «إذاً هل عليكم أن تفعلوا ذلك مرات كثيرة جداً؟»

«أقل كثيراً من ذي قبل. في الثمانينيات من 1980 كانت في كل الوقت. الآن، تغير تفكير الناس، وهم يريدون أن ينجبوا أطفالاً أقل عدداً. وهم يرون المنافع».

وأسألها: «ولكن هل أجريت واحدة من هذه العمليات حديثاً؟»

«ليس في غضون الأسبوعين الأخيرين أو ما يقارب ذلك».

أولم تدرك أن ما تقوله حساس؟ بالنسبة إليها، إنه منطقي، ووطني وجيد. وحين أسألها كيف تشعر بوصفها أماً وهي تفعل هذه الأشياء؟ (وهي نفسها لها طفلان كبيران، كما أخبرتني، ولدا قبل تنفيذ سياسة الطفل الواحد)، فإنها لا تفهم السؤال مجرد فهم. الشعب الصيني ينظر إلى العالم الغربي، مع كل الحمل في السن تحت العشرين وعواقب ذلك، ويتعجب ماذا نعتقد أننا فاعلون حقاً، ونحن نسمح بأن يحدث ذلك في الوقت الذي يمكن فيه حله بإجراء طبي بسيط؟

كان أصدقاء صينيون من الأرياف قد أخبروني (على الرغم من أنني لا أمتلك أي بينة مؤكدة على ذلك) أن مسؤولي تخطيط الأسرة لديهم سطول من الماء في غرف العمليات التي تجري فيه الاجهاضات القسرية، وأن الأطفال الذين لا يقتلون بالحقنة يغرقون في السطول. وأنا أوشك أن أسأل الطبيبة عن هذا وقفت الحافلة فجأة ووقفت هي وممرضتاها ومشين إلى المقدمة، وهن يبتسمن ابتسامة وداعهن.

للحظة كنت أريد أن أتبعهن وأنزل، ولكنهن كن قد صرن يهبطن الدرجات، ويخرجن في قرية صغيرة في وسط مكان ناءٍ مجهول. وكان علي أن أستخرج حقيبتي وأقنعهن بأن يسمحن لي بالذهاب إلى المستوصف معهن، وهو ما سيكون غير ممكن. ثم سيصل المسؤولون ويرغبون في التدقيق في جواز سفري، مع وجود تأشيرة الصحافي عليه. وفي

www.ibtesama.com/vb

الوقت الذي أتردد فيه، انطلقت الحافلة ثانية، وتُرِكت أنظر إلى الخارج من خلال النافذة الخلفية إلى النساء الثلاث وهن على جانب الطريق، يجمعن حقائبهن.

وأجلس وأنا ساخط ونادم على قراري بألا أنزل.

ربما يكون أكثر الأشياء المروعة هو أن الطبيبة مجرد امرأة عادية متوسطة العمر. ولا تبدو شريرة أو غير إنسانية، ولها أطفال، وربما يكون لها أحفاد. ولكنها تطبق هذه السياسة الوحشية بإخلاص وبهدوء على مايبدو كما لو كانت تصمم أنظمة مرور. كيف تكون الحكومة الصينية قادرة على جعل الناس يفعلون هذه الأشياء؟ ما هو الشيء الذي يجعل أماً لاثنين أن تغضي عن إنسانيتها وتعتقد أنها تعمل شيئاً رائعاً ووطنياً بقتل أجنة لم يلدوا بعد وبلغوا الشهر الثامن من الحمل؟

على الرغم من كل التغيرات، والأضواء البهيجة في شنغهاي، ونانجينغ، وشيان، مازالت الدولة مهيمنة في الصين، وستكون مطاعة في القضايا التي تهتم بها. وفي نهاية المطاف، وعلى الرغم من كل التغيرات، فإن حقوق الفرد لا تساوي الكثير من الأهمية.

وتستمر حافلة الركاب في سيرها مجلجلة عبر أطراف الصحراء، وأنا أستمر بالتسخط، وكراهية الصين. إن هذا اليوم واحد من تلك الأيام التي أشعر فيها بكل بساطة بأني سعيد لأني أغادر.

طريقنا الضيق يسير موازياً للطريق 312 الآن، على بعد خمسين ميلاً تقريباً إلى الشمال منه. والطريق أضيق من أن يتسع لمرور حافلتين بالسرعة العادية، والسائق يخفف سرعته حين تواجهه شاحنات أو حافلات في الاتجاه المعاكس. الأسماء المائة القديمة يركبون دراجاتهم على طول الطريق، إلى السوق أو إلى قرية مجاورة، يتمايلون في الهواء المزاح من الحافلات أو الشاحنات التي تعبر. وتوجد سيارات خاصة قليلة باستثناء سيارة فولكسواجن سوداء رسمية تمر بين الفينة والفينة أو سيارة أودي مسرعة في رحلة تفتيش، أو عائدة من غداء طويل.

الرجل ذو الوجه الفأري الذي يجلس خلفي لا يرغب بالحديث، ولكن امرأة أخرى تصعد إلى الحافلة وتجلس إلى جواري. عملها شيء ما له علاقة بالري في أقرب

www.ibtesama.com/vb

بلدة، ونتجاذب معاً أطراف الحديث عن أهمية حفظ الماء. ولم يكن مثيراً للمفاجأة أنها تقول إن حالة الماء هنا يائسة. وحين نصل إلى جينشانغ، وهي بلدة أخرى نائية صحراوية مهملة، وأغير الحافلة إلى حافلة أخرى لركوب يمتد لساعتين إلى بلدة يونغشانغ، وهي تبعد بضعة أميال عن قرية سمعت أن السكان المحليين فيها يدَّعون بعض المزاعم غير العادية عن أسلافهم.

في الأزمنة القديمة، كان كل ما يعنى به طريق الحرير غرب لانجو هو الحركة. وكان أبناء الإمبراطور الأصفر قد مكثوا حيث كانوا، في الصين الشرقية، وأما بعيداً في الغرب، حيث التقى ما يدعى بالحضارة مع ما يدعى بالبربرية، فإن قلة من شعب الهان الصيني استقرت هناك ما لم تكن قد أجبرت على المنفى. ولكن مجموعات عرقية أخرى كانت تترحل باستمرار، وكانت الحركة على طول طريق الحرير قد خلقت حالة دوامة مضطربة من العرقيات في شمال غرب الصين. وربما كان أكثر المزاعم إثارة للآخرين عن الأصل العرقي هو الذي يأتي من قرية صغيرة، على جانب الطريق 312 مباشرة في مقاطعة غانسو المركزية، وفي ظلال الامتدادات الغربية من الجدار العظيم. وتدعى هذه القرية ليشيان، التي تصادف أيضاً أن تكون الكلمة الصينية القديمة لكلمة روما. بعض المؤرخين، والآن بعض المقيمين يزعمون أن الناس الذين يعيشون هناك هم أحفاد فيلق روماني كان قد جاء إلى الصين منذ ألفي عام.

وفكرة أن الناس في ليشيان كانوا قد انحدروا من الرومان هي فكرة طرحها لأول مرة الأستاذ في أكسفورد الذي كان مبتهجاً باسم هومر هازينبفلوغ دوبز. في العام 1955، في محاضرة أمام الجمعية الصينية في لندن، طرح دوبز نظريته، وهي أنه في العام 53 قبل الميلاد، حين هُزم الرومان على أيدي البارثيين في معركة كاري (حرّان، Carrhae) في تركيا الحديثة اليوم، أُخذت فيها مجموعة من الجنود الرومان أسرى ونقلوا إلى آسيا الوسطى، وهناك أسرهم الصينيون ورجعوا بهم إلى الصين.

واستند دوبز في كل نظريته إلى اثنتين من الإشارات الغامضة نوعاً ما وجدتا في الكتابات التاريخية الصينية. إحدى الإشارتين كانت تشكيلاً عسكرياً استخدم في

www.ibtesama.com/vb

معركة في الصين وكان تشكيلاً مشابهاً للتشكيل المستخدم في روما، وكانت الإشارة الأخرى نوعاً مشابهاً من البناء. وبكل تردد، هذا هو ما حولها.

لقد قرأت عن الفيلق الروماني المفقود في وقت سابق. بل سبق أن كتب عن الموضوع في الصحافة الصينية الرسمية وكانت موضع ترحيب بوصفه علامة على الاتصال بين الحضارتين الكبيرتين منذ ألفي عام. وحين رأيت أن ليشيان تلك قريبة جداً إلى الطريق 312 قررت أن أقوم بزيارة.

ليشيان نفسها قريبة صغيرة مغبرة، ليس فيها طريق معبد. وكنت وصلت في حافلة ركاب صغيرة إلى البلدة المجاورة يونغشانغ، وبعدئذ ساق بي سائق بابتسامة عريضة كمن يكشر في سيارة أجرة معطوبة من صناعة صينية مدة خمس عشرة دقيقة إلى ليشيان. ويبدو أنه لم يكن يوجد أناس كثيرون في الشوارع اليوم، ولكن حين خرجت من السيارة، رأيت رجلاً يسوق تراكتوراً قاطرة أزرق نحوي. إنه ينفث الدخان في الجو الريفي النظيف. وأشرت له أن يهدئ سيره، فوقف إلى جانبي. شعره أفتح قليلاً من شعر معظم الصينيين، وأنفه، له جسر عال ملحوظ، في الوقت الذي لا يكاد يكون معقوفاً. ونظر إلي بثبات بزوج من عينين خضراوين غريبتين.

وما كنت أريد أن أقوله: «تحية.. أنت مواطن روماني».

ولكن ما أسأله فعلاً هو: «عفواً، ولكن هل أنت روماني، بالمناسبة؟»

واستغرق وقتاً طويلاً في رد فعله، ونظر إلي شزراً في وجه الشمس. وقال: «ماذا؟»

وأستمر: «أنت تعرف، الرومان، العيون الخضر وكل ذلك ؟»

ويقول وقد أدرك فجأة ما أسأله عنه: «أو، الرومان، محتمل».

وأسأل: «محتمل، ولكنك لست متأكداً؟»

«صحيح». ويتوقف، بابتسامة عريضة سخيفة قليلاً ويقول: «بعض الناس قالوا ذلك». وذلك كل ما كان لديه ليقوله في الموضوع.

www.ibtesama.com/vb

وأوقف عدة أناس آخرين، وكل واحد منهم مساو لمن سبقهم في الضبابية عن جذورهم الرومانية المحتملة. والشيء الوحيد الروماني على نحو غامض بخصوص هذه القرية المغبرة هو رواق يائس أقامته الحكومة المحلية بأعمدة رومانية مزيفة تحتوي على لوحة حجرية، كتبت عليها بالحروف الصينية مختصراً لقصة «الفيلق الروماني المفقود في الصين».

صار من الواضح أن هذا كله جهد مفعم بالأمل نوعاً ما قام به أستاذ من أكسفورد وبضعة مسؤولين محليين طموحين للبرهان على وجود صلة بين إمبراطوريتين عظيمتين في الماضي. وأقرب صلات أستطيع أن أراها هي العيون الخضر لكثيرين من سكان ليشيان، ولكنَّ هناك الكثيرين من الطاجيك، والويغور، والفرس، والبشتون الذين يحملون عيوناً خضراً. ومن الواضح أن الصين تمتلك الكثير من الأساطير الريفية والأخرى الحضرية كذلك.

وأنا أتردد، متعجباً متسائلاً فيما إذا كان علي أن استثمر وقتاً أكبر مستكشفاً الأسطورة، وأنا قلق من أن رتلاً من جند الفيلق قد يمشون خارجين من خلف جدار مغبر في الدقيقة التي أغادر فيها. ولكنني في النهاية أقرر ألا أضيع المزيد من الوقت هنا. وأجذب ثوبي الروماني، وأقفز راجعاً إلى السيارة قاصداً يونغشانغ، وفيها أصعد على متن حافلة ركاب صغيرة متوجهاً إلى بلدة جانغيي.

ويسلك السائق الطريق 312 القديم لبعض الوقت، ثم يلتحق بالطريق الجديد. وفيما نحن نسرع على طول شارع سريع جيد على نفس المستوى مثل أي شارع في الولايات المتحدة أو في أوروبة، يظهر سور واق ترابي. ويبدو نوعاً ما قديماً بالياً، ولكنه يستمر ويستمر، ويسير موازياً للطريق. وفجأةً أدرك ما هو.

وأقول متعجباً مثل طفل للرجل الجالس إلى جانبي، وإصبعي مضغوط على النافذة: «الجدار العظيم!»

ويبتسم الرجل ويومئ.

www.ibtesama.com/vb

إنه بون شاسع مخيب للأمل عن أقسام الجدار قرب بكين، وهي على ارتفاع أكثر من خمسين قدماً مصنوعة من الآجر الصلب والملاط. هناك تستطيع أن تسيرٍّ جيشاً، من الجنود أو السياح على طول القمة. أما هنا، فالسور ببساطة جدار من طين، يصل إلى عشرة أقدام أو عشرين قدماً ارتفاعاً. وأي قبيلة منغولية تائهة تجولت في هذا الطريق ما كانت لتجد أي مشكلة في القفز فوقه. ثم يظهر بعدئذ خط السكة الحديدية الرئيسي في غوبي خلفه، والخطوط الثلاثة تتسابق على طول بجوار أحدها للآخر، متجهة إلى الشمال الغربي.

والسبب لحالة الجدار العظيم من التدهور وعدم الإصلاح هنا كان توسيع حدود الصين. فحتى آخر أسرة من الصين (شينغ، التي حكمت من 1644 إلى 1912)، حدد الجدار الحدود الخارجية للإمبراطورية الصينية. ولكن حكام أسرة شينغ في القرن الثامن عشر قاموا بتوسيع أراضيهم ووضعوا قوات في مواقع عسكرية إلى الشمال وإلى الغرب من الجدار، وهكذا أبطلوه بصفته حداً أخيراً للدفاع.

توجد لافتة على جانب الطريق 312 تقول 2643 كيلومتراً. وتلك هي المسافة التي قطعتها من شنغهاي، وهي ألف وستمائة ميل تقريباً. وبعد اللافتة مباشرة، ينعطف الطريق 312 نحو الشمال قليلاً ويقطع مباشرة من خلال فجوة في الجدار العظيم، بحيث يسير الجدار الآن إلى الجنوب من الطريق. وتمتد الصحراء باستمرار من دون انقطاع. وهي ليست كثباناً رملية متحركة مثل نموذج الصحراء في شمال إفريقية التي نتخيلها عموماً بوصفها هي الصحراء ولكنها في غوبي تميل أكثر إلى أن تكون أرضاً صخرية للشجيرات والنباتات البرية القصيرة، مع وجود قرى صغيرة منتشرة في سلسلة على طول الطريق 312 القديم، وهو مازال يسير موازياً للخط السريع. بعض القرى كانت هناك طوال قرون. وبعضها يبدو وكأنه قد بني قبل مدة قليلة فقط.

وحتى هنا، في الامتدادات الخارجية القاحلة من الإمبراطورية الصينية، كانت الدعايات الحكومية موجودة في كل مكان.

ارفعوا عالياً راية العلوم. عارضوا العبادة.

www.ibtesama.com/vb

تناول المخدرات يؤذيك في نفسك، وأسرتك، وبلادك.

البنات يستطعن أيضاً حمل اسم الأسرة.

اللافتة الموجودة على القنطرة فوق الممر، حين كانت الحافلة تدخل البلدة التالية، تقول جانغيي الذهبية. قد يكون في ذلك تجوز قليلاً، ولكن جانغيي على الرغم من موقعها المعزول في وسط صحراء غوبي، (وعدد سكانها 114.000 نسمة) لا تشعر وكأنها يجرى تركها في الخلف. إن فيها الشعور التقليدي الكلاسيكي لبلدة متوسطة الحجم في أي مكان في الصين. والمحال التجارية منتفخة بالسلع الاستهلاكية (على الرغم من أنها ليست حديثة وغالية مثل السلع الموجودة في المحال التجارية بعيداً إلى الشرق)، وهناك سيارات في الشوارع، ومجمعات وشقق جديدة تنشأ، والمطاعم مليئة. بل توجد ملصقات كبيرة في جميع أنحاء البلدة عن «براد بيت» و«أنجيلينا جولي»، يلعبان البطولة في فيلمهما الذي أطلق حديثاً، وهو «مستر ومسز سميث». وباختصار، جانغيي سارَّة، ونشيطة، وإن تكن بلدة واحة، معزولة نوعاً ما وتقدم شهادة على النهضة الموجودة على طريق الحرير.

كتب ماركو بولو يقول إنه وقف في جانغيي (وسماها كان شو)، في وقت يقارب نهاية آخر أيام الذروة لطريق الحرير في القرن الثالث عشر، قبل أن تستبعده الطرق البحرية السريعة إلى الصين وتنزل به إلى غياهب الغموض. وقال إنه قضى عاماً كاملاً هنا، على الرغم من أني لا أملك أي فكرة عن الكيفية التي قضى بها الوقت. إنني أخطط لقضاء ليلة واحدة. ولكن كم كان مساءً رائعاً كما تبين.

وتنقلني دراجة نارية ريكشو من محطة الحافلات إلى ما يقول الكتاب الدليل إنه واحد من أفضل الفنادق في جانغيي. إنه مكان لطيف، فيه تهوية يسمى، خيالياً، بفندق جانغيي. وحين أسجل وصولي إلى الفندق، أسأل الكاتب، بلهجتي التي تظهر أقصى رعاية من الرجل الأبيض، إن كان يعرف ماذا أعني حين أقول إنني أحتاج إلى الإنترنت.

ويقول: «يوجد نطاق تردد واسع في كل غرفة، سيدي».

ألقي حقيبة ظهري وأتوجه خارجاً لأجد عشاء.

www.ibtesama.com/vb

من المحتمل أن جانغيي تمتلك أكبر ميدان لبلدة رأيته خارج ميدان تيانانمين. وبالقرب منه، قد انتهت تقريباً الإنشاءات الخاصة بكنيسة كاثوليكية كبيرة. من هو الذي يدفع فعلاً من أجل هذا الصرح؟ وفي ظل الكنيسة، تقوم سيدة عجوز بحرق نقود ورقية على جانب الطريق، يراقبها من لابد أن يكون حفيدها. إن هذا اليوم على ما يفترض يوم خاص ما لتكريم الموتى.

وفيما أنا أراقبها، يأتي رجلان ويقفان إلى جانبها.

«أنتم لا تفعلون ذلك في أمريكتكم، أليس كذلك؟» قال لي ذلك واحد من الرجلين، وقد قام بالافتراض المعتاد عن جنسيتي وهو يشير إلى النقود الزائفة. وهي الآن تشتعل لهباً على جانب المشى.

وأجيب: «لا، نحن لا نفعل. وقبل هذا اليوم، لم يسبق لي أن رأيت كثيرين من الناس يفعلونها في صينكم».

ويقول الرجل الثاني مع ابتسامة: «أوه نعم، العادات القديمة تقاوم الموت بعناد».

كلاهما يظهر في حدود الثلاثين من العمر، وأفرطا في اللبس قليلاً بالنسبة إلى بلدة واحة في غوبي، في بدلة وربطة. ومن الواضح أنهما في طريقهما إلى مكان ما. أكبرهما سناً، وأجسرهما يقدم نفسه. «نحن ممثلان محليان لآن لي».

«آن لي ؟»

ويرفع حقيبته. وعليها الحروف الصينية آن لي، وتحتها، الاسم الإنجليزي للشركة، آمواي.

«آمواي؟ آمواي الأمريكية؟ بيع مباشر لآمواي ؟»

ويبتسم ويقول: «نعم. أنت تعرفها !»

«طبعاً، ولكنني لم أكن أتوقع أن أعثر على ممثلين لآمواي في وسط صحراء غوبي».

ويقول: «لنا مكتب هنا طوال ثلاث سنوات فقط. ولكنه يسير سيراً حسناً جداً من قبل الآن».

www.ibtesama.com/vb

وأخبرهم أني لم أتناول عشائي بعد وأطلب منهما إن كانا يودان مصاحبتي. وبطريقة صينية حقيقية، يصران أن العشاء عليهما، ونتجه نحو بار المعكرونة الطويلة الذي يقدم نوعية محلية، وهو نوع من صحن المعكرونة الطويلة المقطعة، مع اللحم. لا يوجد طاولات فارغة، وهكذا نجلس إلى جانب واحد لطاولة مستديرة ضخمة في الوقت الذي تجلس فيه أسرة تأكل حول الطرف الآخر من الطاولة. وتصل معكرونتنا بسرعة، مع قطع كبيرة من اللحم المقطع على شكل شرحات رقيقة موضوعة على قمة الطبق.

ويخبرني أكبرهما عمراً أن اسمه هو رون واي وأنه صيني من الهان وأن عمره خمسة وثلاثون عاماً. له جبهة عريضة، وكتلة من الشعر الأسود الكثيف، ووجه طالب مدرسة شغوف بالدراسة. نشأ رون في شينكيانغ، أبعد إلى الشمال الغربي على طول الخط 312، وعمل طوال خمسة أعوام في مصنع في بلدته الوطن، وهي أبعد من جانغيي أيضاً، حيث كان أبوه قد عين هناك قبل أعوام. ولكن، مثله مثل كثيرين من الناس في البلدات الصغيرة في الصين، كان يمتلك طموحات أكبر. ويقول: «هناك، لم أكن أستطيع أن أحقق إمكاناتي».

وهكذا توجه شرقاً إل جانغيي، وفيها شرع في بيع أقراص فيديو رقمية (دي في دي) مزيفة مقابل يوان واحد لقرص الصور. واستمتع بحرية العمل لنفسه وجمع بعض النقود.

ثم ارتكب غلطته الأولى الكبيرة، كما يقول، واستثمركل مدخراته في أعمال سفريات، يبني خياماً دائرية ذات قباب أو خياماً عادية للسياح ليقيموا فيها خارج جانغيي. وانتهى المشروع بالإفلاس، وعاد إلى جانغيي ليبحث عن عمل. ويقول إنه عمل في أعمال تجارية كثيرة، ومن جملتها بعض الأسماء الكبيرة في صناعة مشروبات المرطبات مثل واهاها، وجيانليبوا، بل وسبرايت أيضاً، ولكن العمل، كما يقول، لم يكن مرضياً. بل إنه كان إذا كسب مالاً للشركة لم ينتفع هو من ذلك.

سمع عن آمواي من خلال صديق له وجاء مباشرة إلى واحد من اجتماعاتهم. وكان ذلك منذ تسعة شهور لا غير، وهو مرتبط بهم ارتباطاً كاملاً من قبل. وهو

www.ibtesama.com/vb

تقريباً يهتز انفعالاً وهو يناقش مساره الوظيفي الجديد، من المال الذي يستطيع أن يكسبه، إلى الإمكانات التي يخلقها له. ويقول وهو يشرق بابتسامة عريضة: «سوف أعمل هذا طوال البقية الباقية من عمري، ولن أعمل أي شيء آخر. إنني أحب الحرية في هذا العمل تماماً».

ويسحب رخصته الحكومية للعمل ويخرجها ويمسكها للأعلى. ويقول هاتفاً مع ابتسامة تنفي ستين عاماً من الاقتصاد الخاضع للتخطيط بإيماءة واحدة: «هذا هو مكتبي. وهذا هو كل ما أحتاج إليه».

أما صديقه لي تسيجين، الذي يبلغ من العمر السادسة والعشرين فقط، فهو أنحف وأهدأ. فقد كان يعمل في مكتب لشركة سكة حديدية مملوكة للدولة. ويقول إنه كان يذهب إلى العمل، ويقرأ الجريدة، ويشرب الشاي، ويقوم، مثله مثل الكثيرين جداً من موظفي الشركات المملوكة للدولة، بأداء القليل جداً من العمل طوال اليوم. وهو أيضاً قد بدأ من مدة قليلة فقط، ولكنّ كلاهما يتحدث عن موجههما، وهو رجل يدعونه المعلم هيو، وهو الآن، بعد ثلاثة أعوام فقط، يكسب ما يعادل ألفين إلى ثلاثة آلاف دولار أمريكي في الشهر، وهو مبلغ ضخم بالنسبة إلى هذا الجزء من الصين، (أو أي جزء منها).

ويقول رون، وهو يسحب من حقيبته كتاباً مصوراً (كتالوغاً) عن منتجات آمواي المتوافرة في الصين، «إنه يقضي إجازاته في كل مكان، ويمتلك بيتاً جديداً، وسيارة كبيرة، إنها مدهشة. طبعاً نحن لا نملك مثل هذا الاختيار من المنتجات كما هي في الولايات المتحدة». ويتابع القول: «ولكنها تنمو نمواً سريعاً، وجميع المنتجات مصنوعة في الصين، في مصنع في غوانغدونغ، وهكذا فهي مريحة جداً».

ويمد يده في جيبه ليستخرج بخاخاً مزيلاً لرائحة الأنفاس. ويقول: «نحن، الصينيين، نحب أن نأكل الثوم كاملاً، كما تعرف». وهو يقول ذلك، وكأن الأجانب قد لا يلاحظون هذا الحب لديهم للثوم. «الآن، تستطيع أن تشتري بخاخاً من آمواي مزيلاً لرائحة الأنفاس، وهو يزيل الرائحة تماماً».

www.ibtesama.com/vb

يأخذ بخة صغيرة، ثم يعيد البخاخ إلى جيبه ويعود إلى تناول معكرنته الطويلة المحملة بالثوم.

سادت وقفة قصيرة ونحن جميعنا نميل إلى الأمام، ونضع أطراف طاساتنا على شفاهنا، ونحتسي الحساء الساخن المكون من طبق اللحم والمعكرونة الطويلة.

وأسأل رون: «ما هو حلمك إذاً؟»

ويقول: «حلمي أن أكون مثلكم فأنا أراكم دائماً أنتم، الغربيين الشباب، تحملون حقائبكم على ظهوركم. وأنتم شباب صغار جداً، ولكنكم مستقلون جداً، وليس لديكم اهتمام في العالم. إنكم فقط تسافرون مع حقائب ظهوركم في كل أنحاء الصين، وهذا ما أريد أن أفعله. أن أذهب بحقيبة ظهري في بلادكم، وفي كل مكان».

لي أكثر رزانة. وهو يقول إن حلمه هو أن يوصل منتجات آمواي لتخرج إلى كل العالم. «نحن نتحادث ويقول أحدنا للآخر، إن آمواي بدأت في الولايات المتحدة، وتطورت في اليابان، ونضجت في المدن الساحلية في الصين، ولكن ذروتها الحقيقية، ومجدها الحقيقي سوف يُرى في الصين الداخلية، في أماكن مثل جانغيي. هذا هو المكان الذي يوجد فيه السوق».

إنه يتحدث بتعابير تكاد تكون دينية، وأنا أدرك أن الحلم بأن تكون أنت الشخص الذي يفتح السوق الصينية، والذي يزيل روائح بليوني إبط ويعطر أنفاس بليون آكل ثوم، ليس محدوداً برجال الأعمال الغربيين. فرجال أعمال الصين يحلمون بذلك الحلم أيضاً.

ونضع ثلاثتنا طاساتنا على أفواهنا مرة أخرى ونحتسي الجرعة الأخيرة معاً. ويسألني رون إن كنت أريد أن أذهب إلى مكتبهم، الذي يقع بالقرب منا كما يقول. وهم، حسب ما يقول، يعقدون اجتماعاً. ولا يرفض أحد قط دعوة في الصين، ولذلك أوافق. وهو يصر على دفع الفاتورة ونحن نتجه إلى الباب.

وأسأله: «بالمناسبة، ما اللحم الذي كان مع المعكرونة؟»

ويقول: «كان ذلك لحم حمار».

www.ibtesama.com/vb

ونحن نمشي إلى مكتب آمواي مارِّين بالمزيد من الملصقات عن براد بيت في دور السيد سميث. والمكتب مسيرة صاعدة إلى الطابق الثالث، وقريباً على الجانب الآخر من ركن الشارع تماماً. وكان هناك من قبل في المكتب ستة ممثلين آخرين لآمواي، ثلاثة رجال وثلاث نساء، وجميعهم على نفس درجة الشغف مثل رون واي. والرجال جميعهم يرتدون لباساً موحداً من القميص الأنيق وربطة العنق، والبناطيل السوداء. والنساء أيضاً، وإن لم يكنَّ في لباس موحد، يرتدين كلهن قمصاناً وبناطيل متشابهة عادية. ويبدو أن النساء الصينيات نادراً ما يلبسن تنانير. والمعلم هيو، وهو الرجل الذي يبدو أنه كان مسؤولاً عن إحضار آمواي إلى جانغيي، كان موجوداً كذلك. وجميعهم يصافحونني ويهزون يدي، ويرحبون بي، ويعرضون علي مقعداً للجلوس فيما تبين أنه اجتماع لتشجيع باعة جدد على الالتحاق بهم. وكل بائع منهم أحضر معه صديقاً واحداً على الأقل، ونحن نجلس في مكتب واسع على الكراسي التي وضعت في ترتيب يجعلها معه تواجه طاولة المتحدث في مقدمة الجلسة.

ثم تحول المساء إلى مساء غير عادي نوعاً ما. ويقف الممثلون تباعاً أحدهم بعد الآخر، ويقدمون أنفسهم، ويذكرون ما كانوا يفعلونه وأنهم حين وجدوا آمواي فقط اكتشفوا هدفهم الحقيقي في الحياة، فهم الآن يحملون إلى بيوتهم ألف دولار في الشهر.

وحين تكلمت أول امرأة كان الحضور يصيحون «نعم! نعم!» مثلما يرفع المصلون أصواتهم بكلمة «آمين».

ثم يقف رون واي ليتحدث، وبأسلوبه الجاد، يشكر المعلم هيو أولاً وقبل كل شيء ويشكر كل واحد من الآخرين على مجيئهم، وبعدئذٍ، وقبل البدء بخطابه، يستدير نحوي ويشكر السيد سميث. وأقوم أنا بتلك الحركات السينمائية من رد الفعل المتأخر وألتفت حولي لأرى إن كان يوجد خلفي أجنبي غيري كان يدعى السيد سميث. ولكن يتضح في الحال أنني أنا السيد سميث. ومن تلك اللحظة فصاعداً، يشكر كل متحدث يقف ليخاطب الحضور المعلم هيو، ويشكر كل شخص آخر، ثم يومئ نحوي ويشكرني، يشكر السيد سميث، صديقنا الأجنبي، على المجيء. ربما كانوا يظنون أن كل الأجانب يسمون السيد سميث. أو ربما، هنا في صحراء غوبي أيضاً، يخلط الناس بيني وبين براد بيت.

www.ibtesama.com/vb

ويقول رون وهو يصل إلى الحد الأعلى من كفاءته الخطابية، ويبدو أنه يعني كل كلمة يقولها، «إن أحفادي سوف يتذكرون اسمي، لأنني سأغير حظوظ أسرتنا. وأنا عازم على ألاّ أجمع المال لنفسي فقط، ولكنني حين أكون أكثر نجاحاً مع آمواي، فأنا عازم على أن أرجع العطاء إلى المجتمع. ربما سوف أنشئ مدرسة للأطفال المحرومين. لأن علينا جميعاً أن نعطي المال ونضعه في المجتمع، صحيح؟»

ويقول جمهور الحضور: «نعم! نعم! آمين!»

وأخيراً، ينهض المعلم هيو، في الوقت الذي يبدأ فيه رون واي نمطاً للتصفيق (مع الأعداد) وكأنه كان في لعبة كرة القاعدة (البيسبول). «واحد، اثنان... واحد، اثنان، ثلاثة... واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... تصفيق تصفيق».

ويهدر صوت المعلم هيو: «أنتم لا تستطيعون أن تختاروا المكان الذي قد ولدتم فيه، ولكنكم تستطيعون أن تختاروا مستقبلكم». أمام دمدمة من الحضور «نعم، نعم، نعم».

ويقول: «لا تقبلوا بمستوى «تقريباً». هذا ليس جيداً بما يكفي بالنسبة إليكم».

وهكذا يجلس ما يقارب عشرين شخصاً صينياً في مبنى مكاتب بال في بلدة صغيرة في صحراء غوبي ويستمعون إلى شرح معلم سابق متوسط العمر للحلم الصيني.

«أنتم أيضاً تستطيعون أن تفعلوها. أنتم أيضاً تستطيعون أن تنجحوا. أنتم أيضاً تستطيعون أن تكونوا مخولين. أنتم أيضاً تستطيعون أن تمتلكوا السيارة، والشقة، والاحترام».

الحضور يستمعون، ويتذكرون، وسوف ينهضون في الصباح التالي ويخرجون إلى العمل لكي يحققوا ما سمعوه. وبالنسبة إلى أولئك الذين يغتنمون الفرصة، هذا جزء من التحول الزلزالي الذي يجري. الإمكانية الآن موجودة لتحلم بالأحلام التي يمكن فعلياً أن تتحقق. إنها تبدأ بتغيير الصين، شخص واحد في كل مرة، ويخلق أمة جديدة. أمة من أفراد يتمكنون ببطء.

www.ibtesama.com/vb

في النهاية، يحيي كل واحد كل واحد من الآخرين. ويشكر المعلم هيو الجماعة على مجيئهم ويقول إننا الآن سوف ننقسم إلى مجموعات وكل مجموعة من خمسة، ويقدمون أنفسهم، ويناقشون الاجتماع. ويقول: «آن الوقت للتشارك».

إن ألفين وخمسمائة عام من الكونفوشيوسية وستين عاماً من حكم الحزب الشيوعي تعني أن الشعب الصيني غير معتاد على «التشارك» في الطريقة التي تبدو عادية في سياق أمريكي. فالصينيون في هذا الملمح أكثر شبهاً بالبريطانيين، إن لم يكون أسوأ منهم نوعاً ما، وهم على وجه العموم يترددون في الانفتاح عن عواطفهم تماماً.

وذلك قد يكون هو السبب في أن كثيرين جداً من البريطانيين يقيمون مدة طويلة جداً في الصين. إنهم سعداء فعلاً في أن يجدوا مجموعة أخرى من الناس تعاني مثلهم من الاختلال الوظيفي من الناحية العاطفية.

أربع مجموعات صغيرة في كل منها خمسة أشخاص (زائداً السيد سميث المتشكك نوعاً ما) يتراجعون إلى أركان مختلفة من الغرفة، يحتشدون معاً، ويتشاركون.

وتقول امرأة ذات شعر طويل أسود وتضع نظارات واسعة تقول: إن هذه أول مرة لها هنا، وإنها مهتمة جداً. وامرأة أخرى تبدو عصبية وخجولة جداً فلا تستطيع أن تقول الكثير. وأحد الرجال يذكر أنه يرى بوضوح أكبر الآن نقاط ضعفه الخاصة، ويعترف بحوار ذاتي (مونولوج) غير صيني جداً أنه يحتاج إلى العون للتواصل وأن يمسك بالحياة بنفسه. وأنا بدوري ألقيت بضع كلمات عما أفعل وقلت: إنني آمل أن لا تمانعوا إن أنا كتبت عنكم في كتابي. وبدوا متأثرين من إمكانية ذلك، وشكرت الجميع على كرمهم وضيافتهم.

وحين ينتهي الاجتماع يرافقني رون واي ولي تسيجين إلى أسفل الدرج إلى الباب الأمامي. وأقول لهما: «لا حاجة إلى وداعي في الخارج»، ولكنهما، وبطريقة صينية حقيقية، مؤدبة أدباً فائقاً، يصران على ذلك.

وأخبرتهما: «إن ما تفعلونه مثير للدهشة». لقد امتصصت الجدية التي سادت ذلك المساء. وأنا أعني ذلك بشكل كامل.

www.ibtesama.com/vb

ويقول لي، وهو يأخذني من ذراعي بشدة قوية قليلاً ونحن نهبط الدرجات المرجعة للصدى: «أنت ترى، نحن نريد أن نعيش. نحن الآن حقاً نكاد نبقى على قيد الحياة. نحن نريد أن نعيش! أتعرف ذلك؟ نحن نريد فعلاً أن نعيش!»

هذه الكلمات مكثت معي، مثلما لم تمكث تقريباً أي كلمات أخرى في كل رحلتي عبر الصين. لا تكاد توجد خلاصة أفضل لكل شيء تدور حوله هذه الثورة الصينية المجنونة في القرن الحادي والعشرين.

أبتسم ونحن نتصافح ونهز أيدينا: «حسناً، سأراكما في نيويورك، أو باريس، أو لندن!» ويبادلانني الابتسام، ونفترق عند المدخل الرئيسي للمبنى. وأتجول راجعاً إلى فندقي في هواء المساء الحار، سائلاً نفسي لماذا أنا أغادر هذه البلاد الرائعة وأتأمل في الحلم الصيني، وفي الحلم الأمريكي، وأعجب إن كان أحدهما يتسلم القياد من الآخر؟

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

16
الاحتــرام

يشعر المرء على نحو ما أن من الخطأ أن يكون حليق الذقن حلاقة نظيفة في صحراء غوبي. وهكذا فأنا في الصباح التالي أترك ماكينة الحلاقة في حقيبة الغسيل، وأسحب الستائر إلى الخلف وألقي نظرة غير حليقة عبر الريف في الخارج.

وتحت نافذتي في الطابق الثاني مباشرة هناك امرأة غربية تضع على أظافر أصابعها طلاءَ أظافر برتقالياً لامعاً. وأنا قادر على أن ألحظ هذا لأنها كانت تقوم بتمارين تيجي، وهي الشكل الصيني البطيء الحركة من التمرين (وتلفظ في الغرب غالباً تي تشي)، في الفناء تحت نافذتي مباشرة. وليس لدي أي فكرة مَنْ هي هذه المرأة - ويحتمل أن تكون الأجنبية الوحيدة الأخرى في جانغيي - ولكنها تحرك ذراعيها وجسدها ببطء شديد في الوقت المناسب بالتزامن مع إيقاع قديم قدم القرون كانت هي على ما يبدو قد فتحته، هنا في فندق جانغيي.

في الميدان المركزي الضخم في المدينة، ليس بعيداً عن الفندق، يبدو أن عدة عشرات من النساء الصينيات في متوسط العمر ومن النساء المسنات كن يتوجهن في الاتجاه المعاكس روحياً، أو في التمارين في الهواء الطلق على الأقل، وكن ينظرن إلى الأعلى إلى شاشة تلفاز عملاقة، تطل فوق الميدان، والجميع يحاولن متابعة درس التمارين الذي يجري عرضه على الشاشة. والشاشة مملوءة بخمس نساء صينيات لائقات بدنياً على نحو مستحيل يؤدين تدريباً حيوياً متزامناً مع بعض الموسيقى الغربية النابضة. والقائدة تهدر بإصدار الأوامر. والمجموعة المكونة من جدات أقل لياقة بدنية نوعاً ما من صحراء غوبي يحاولن أن يجعلن أجسادهن في تماس مع القرن الحادي والعشرين.

وبالنسبة إلي، إنه يوم آخر رائع تعلوه سماء زرقاء صافية، ومحطة أخرى رمادية من صحراء غوبي لحافلات الركاب، وركوب آخر على طول الطريق الأم. ولسبب ما،

www.ibtesama.com/vb

فإن كل جباة التذاكر في محطة حافلات الركاب الصغيرة في جانغيي، التي تتحكم بحركة كل حافلة داخلة إلى البلدة وخارجة منها، من النساء. وكلهن يلبسن لباساً موحداً رمادياً كامداً. وما يثير الدهشة أكثر، أنهن كلهن يضعن أشد حمرة للشفاه لمعاناً يمكن تخيلها. وهو ما يصنع منظراً آسراً نوعاً ما، وكأنهن قررن أن يقدمن بياناً جماعياً ضد سأمة أعمالهن، أو رمادية لباسهن الموحد، أو امتداد صحراء غوبي الذي يبدو بلا لون. أو ربما كن كلهن يحببن طلاء الشفاه الأحمر القاني.

وحافلات الركاب التي يدرنها مليئة كلها تقريباً، ومعظمها بعمال الإنشاءات المتوجهين غرباً للبحث عن عمل. وكانت الجِمال منذ وقت طويل قد تنازلت عن دورها سفينة للصحراء إلى حافلات الركاب للمسافات الطويلة التي تقطع الطريق 312، وقد تزايد المرور زيادة هائلة. وتغيرت الحمولة كذلك. إنها ما زالت حول التجارة، طبعاً، ولكنها الآن أيضاً عن الإنشاءات والاتصالات.

إن مشروعاً ضخماً قيد العمل، بدأ يتقدم، من دون أن يلاحظه العالم الخارجي تقريباً. الصين مشغولة في تعمير مناطقها الغربية، تماماً مثلما بدأت الولايات المتحدة عملياتها في غربها الخاص منذ أكثر من مائة عام. إن بكين تحاول أن تربط غربها غير المتطور مع بقية البلد، ومثلما كانت الحالة بالنسبة إلى الولايات المتحدة، توجد مشكلات في ترويض كل من المناظر الطبيعية البرية وتأليف الشعوب المحلية.

ويدعى المشروع باسم «افتتاح العمليات الكبيرة والتطور في المناطق الغربية». (ويرى بعض النقاد أن الكلمة المستخدمة في الصينية لتعبر عن التطوير في عنوان المشروع يحسن أن تترجم بشكل أكثر دقة وعلى نحو مناسب بشكل أفضل بكلمة «استغلال» لا «التطوير». وفي اللغة الإنجليزية يشار إليها في الغالب للتبسيط باسم حملة «اذهب غرباً»). وكان المشروع قد أطلق رسمياً في التسعينيات من 1990، ولكن الحملة هي الشكل الرسمي لسياسة الحكومة المركزية في الاستثمار في المناطق الغربية وهي السياسة التي كانت قد بدأت في وقت أبكر في التسعينيات من 1990. وتقول بكين إن هدفها هو رفع مستوى المعيشة للشعب الذي يعيش هناك، وخصوصاً الأقليات العرقية في شينكيانغ، التيبت، والمقاطعات النائية الأخرى. ذلك بلا ريب صحيح. ولكن ما لا

www.ibtesama.com/vb

تذكره بكين هو الميزة السياسية المتمثلة في شراء الأقليات العرقية المحلية لكي تقلل احتمالات عدم الاستقرار.

والسطح الزفتي اللامع للطريق 312 هو إلى حدٍ كبير جداً جزء من ذلك المجهود المبذول.

طريق الحرير ملأ الوعي الغربي بوجه من الوجوه، بالصور الغريبة عن الجِمال وهي تفحج أرجلها في طريق طويل، محملة بالتوابل، والخزف، ومحملة طبعاً، بكميات من الحرير الخام بألوان متأنقة بارعة. والواقع، من البلدات الوسخة، والفقر، وقطاع الطرق، والنزل القذرة، والصحراء القاحلة التي تبدو بلا نهاية، كان واقعاً أقل غرابة. ولكن كثيراً من الأشياء قد تحسنت منذ أن عبر ماركو بولو من هنا قبل ثماني مئة عام، والكثير من ذلك التغيير يعود فيه الفضل إلى الشارع 312. لقد كانت البنية التحتية الفضلى والاتصالات حاسمة في جلب التطور إلى مناطق الصين النائية. واليوم، تعج البلدات الواحات الكبيرة الموجودة على الطريق بالحياة والنشاط، ولكن المستوطنات الصغيرة، الواقعة بين تلك البلدات، مازالت بلدات صحراوية قذرة، وهي تقدم القليل وتتوقع أقل من القليل.

جلس إلى جانبي في حافلة الركاب مسلم، هو عضو من مجموعة أقلية الهوي، وهم أحفاد التجار الفرس والعرب الذين استقروا في الصين الغربية منذ قرون. ويقول إن اسمه جانغ غوشينغ، ولكنه يضيف بكبرياء أن اسمه الإسلامي هو محمد إسماعيل، وأنه يتحدث اللغة العربية بطلاقة. وكان قد طوى بنطاله الطويل ليبقى بارداً، وهو بهذا يكشف عن زوج من الجوارب البيضاء الشفافة تقريباً، وحذاء أسود بكعبين أعلى قليلاً مما يلزم بالنسبة إلى رجل ليس منغمساً انغماساً نشيطاً في نوع ما من الرقص اللاتيني. وهو بدوره يلقي نظرات على حمولة بنطالي القصير المتسخ، وينظر خصوصاً إلى ساقي الشعرانيين والوسخين، وإلى قدمي اللذين أحرقتهما الشمس، وهما مثبتان في صندلهما المفضل. ليس هناك من رجل صيني يحترم نفسه يمكن في أي وقت أن ينتعل الصنادل من دون جوارب.

www.ibtesama.com/vb

جانغ تاجر من تجار طريق الحرير الجديد. وهو شاب في الرابعة والثلاثين من عمره يبيع الهواتف الخليوية الجوالة ويسافر عبر الصحراء ومعه حقيبة مليئة بالهواتف الجوالة. وهو يتوقف في كل بلدة واحة، ويعقد صفقات مع محلات متخصصة أو مع أي شخص غيرها يريد أن يمارس العمل التجاري، ثم ينتقل. مضى الآن على جانغ وهو يسافر جيئة وذهاباً على الطريق 312 سبع سنوات. ويقول إن الطريق 312 قد أحدث اختلافاً ضخماً بالنسبة إلى عمله. ويقول كان السفر على الطريق القديم على متن حافلات الركاب القديمة يستغرق وقتاً طويلاً جداً. أما الآن فيستطيع أن يبلغ البلدة التالية في مجرد ساعات لا غير.

ويقول: «طوال السنوات القليلة الماضية، أراد كل شخص أن يمتلك هاتفاً خليوياً جوالاً. إنه رمز المكانة. ولكن يوجد الآن العديد جداً من الباعة، ويوجد الكثير جداً من المنافسة، فالعمل لذلك ليس على مستوى الجودة التي كان عليها في العادة».

هاتف جانغ الجوال هو واحد من آخر نماذج هواتف نوكيا، وهو أكثر جمالاً خيالياً من جوالي، وهو الأمر الذي ينظر إليه نظرة الرضا، وكأن تفوق جواله في وجه من الوجوه انتقم لحروب الأفيون.

يمكن أن يكون محرجاً في هذه الأيام في الصين ألا تكون غربياً ماهراً من الناحية الفنية أو أن تكون غربياً غير ميال جداً للزي الدارج. وأنا أربح جوائز في كلا الصنفين. الشعب الصيني مصاب بوسواس التقانة الحديثة وهم باستمرار ينظرون من فوق أكتاف الأجانب في الطائرات وفي حافلات الركاب، ليتفحصوا ما نفعله، وما نلبسه، وكم هي تقانتنا متقدمة. وقد انتقدني رجل أعمال صيني لامتلاكي حاسوب حضن (لاب توب) قديم (كان عمره عاماً تقريباً)، وانتقدني سائق سيارة أجرة في بكين لأن سيارتي رثة الحال (ليست مرسيدس ولا أودي، مجرد جيب شيروكي قديم مكسر)، وانتقدني عدد من المتحمسين للرقميات لإصراري على استخدام آلة تصوير تحتاج إلى فيلم تصوير.

www.ibtesama.com/vb

وهكذا فهنا يوجد خط حديدي حي آخر يتجه إلى الغرب: إنه خط المعلومات السريع غير المرئي الذي يئز على طول ممر هوشي إلى الصين الشمالية الغربية. البائع جانغ وهواتفه الجوالة، والفنادق المتصلة بالأسلاك وبارات الإنترنت، لها كلها أثر تحويلي على المجتمع الصيني، ومن جملته هذا الغرب الأقصى. في أمريكا الشمالية وفي أوروبة غيرت الهواتف الجوالة والإنترنت المجتمع، ولكنها من عدة وجوه قامت فقط بمجرد جعل أشياء كانت متوافرة من قبل أكثر ملاءمة لراحة الناس. أما التأثير في الصين فقد كان أعظم إلى حدٍ بعيد بعيد. في بداية العام 2007، كان قد صار 137 مليون نسمة في الصين على الإنترنيت يصلون إلى المعلومات التي لم تكن قط من قبل في متناولهم. والهاتف الجوال أيضاً حول الاتصالات. ففي بداية العام 2007، كانت الصين قد امتلكت أكثر 450 مليون مشترك بالهواتف الخليوية الجوالة، مع زيادة إجمالية تقدر بخمسة ملايين تقريباً في كل شهر. وفي بعض المناطق، التي لم يكن فيها الهاتف الأرضي الثابت بعد، قفز الناس قفزاً كالضفدع ليتقدموا مباشرة إلى الهواتف الخليوية. وعلى طول كل طريق الحرير الجديد، توجد تغطية كاملة الإتقان للهواتف الجوالة.

أمامي على امتداد خط مستقيم كالقطر الواصل بين زاويتين يجلس رجلان يظهر أنهما زميلان، أحدهما في العشرينيات من عمره، ويحتمل أن يكون الآخر في الخمسينيات. وبدأت بالمحادثة معهما، وتبين أنهما بائعا بذور، يسافران إلى جيوشاوان في عمل تجاري، وجيوشاوان هي المكان الذي أتجه إليه أيضاً.

ويجلس خلفي زوجان كانا يعملان في صناعة النفط هنا في غانسو ولكنهما الآن تقاعدا وعادا إلى الشرق إلى الساحل. وكانا قد بدأا بمحادثة مع عامل في النفط يجلس إلى جانبهما. وقد شاركتهم في هذه المحادثة.

وأسأل الزوجين: «كيف كانت الطرق في الماضي آنئذ حين عشتم هنا؟»

ويقول الرجل وهو في الستين من عمره يبدو بصحة شبابية: «لم يكن هناك طرق تقريباً في الستينيات من 1960، لم نكن نحتاج إليها، لأننا لم نكن نحتاج إلى الذهاب إلى أي مكان. فإذا احتجنا كنا نذهب في القطار».

www.ibtesama.com/vb

وتقول زوجته: «هذا الطريق، الطريق القديم 312 لم يكن معبداً أيضاً». وهي امرأة طويلة وأنيقة نوعاً ما، على الرغم من أنها كانت محصورة في مكان ضيق في الصف الخلفي من حافلة مزدحمة، وممتلئة حتى كامل حمولتها بثلاثين أو أربعين راكباً.

الطريق 312 الجديد مستقيم وسريع، ورمز للحداثة التي تبدو أحدث مما يلزم للبيئة القاسية، القاحلة لمر هوشي. الطريق 312 الجديد قد سرّع نبض هذا الجزء من الصين، شريان جديد حسن الوصول إلى البلدات الصغيرة الموجودة هنا، بطريقة لم يكن يستطيعها طريق السكة الحديدية. والطريق يعطي مرونة للباعة المسافرين ليصلوا إلى القرى والبلدات الصغيرة، ليجلبوا معهم الثورة الاقتصادية إلى هنا كذلك.

ويوجد خط أنابيب نحيل مرئي بشق النفس على طول الطريق في الخارج في الصحراء إلى يمين الحافلة، وهو يحمل النفط من الشمال الغربي ويصبه عبر عنق الصين ليغذي به الشرق الجائع.

ويقول الرجل العامل في النفط، بصوته العميق الخفيض: «ذلك من أجل النفط القادم من حوض تاريم، وهو ذاهب ليكرر في لانجو». وحوض تاريم هو واحد من أكبر حقول النفط في الصين. «وهم يبنون خطاً آخر إلى الصين من أوزبكستان».

كل هذه العوامل ـ الطريق الجديد 312 والطريق القديم، والسكة الحديدية والطريق السريع العالي للمعلومات ـ تصنع اختلافاً ضخماً للناس الذين يعيشون هنا. ولكنني أعتقد أن خط الأنابيب ربما يكون أكثر أهمية من الطرق نفسها ومن الخط المزفت الذي يسير إلى جانب خط الأنابيب. فالكثير جداً في الصين الآن يعتمد على النفط. وأهمية النفط ترن رنيناً صامتاً نزولاً في كل طبقة من المجتمع. ويجب على الحزب الشيوعي أن يحافظ على الاقتصاد نامياً، وإلاّ فإن العاطلين عن العمل، والعاطلين جزئياً يستطيعون التسبب في عدم استقرار اجتماعي. وكي يحافظ الحزب على الاقتصاد نامياً، يجب عليه أن يبني مصانع جديدة ويخلق أعمالاً جديدة. (وقد حسب بعض الاقتصاديين أن على الحزب أن يفتح 24 مليون وظيفة في كل عام لكي يفعل ذلك). ولتزود الصين المصانع والمنشآت بالنفط، يجب

www.ibtesama.com/vb

عليها أن تمتلك المزيد من النفط وكي تحقق ذلك الهدف فهي تبحث عن النفط داخل حدودها الخاصة وهي تخرج إلى العالم، تعقد صفقات في إفريقية، وفي آسيا الوسطى، وفي جنوب شرق آسيا.

وأسأل الرجل العامل في النفط: «هل تملك الصين نفطاً كافياً؟»

ويجيب وهو يحملق في الخارج في الصحراء: «لا، ليس بعد».

ويتراجع كل واحد منا إلى أفكاره الخاصة، محدقاً في خارج نوافذ الحافلة، والأرض الصفراء ذات الشجيرات التي لا تنتهي تقول شيئاً مختلفاً، بلا ريب، لكل زوج من العيون. ومازالت جبال شيليان المغطاة بالثلوج ترتفع إلى الجنوب من الطريق، والصحراء تمتد إلى ما وراء الأفق إلى الشمال. هذا هو الامتداد النهائي من ممر هوشي، والذي ينتهي عند «فم الصين»، القلعة الموجودة في جيايوغيوان. مازلنا على بعد ما يقارب ست مئة ميل عن أرومجي، وعلى بعد ألف ميل تقريباً عن نهاية الطريق.

وتستمر الحافلة في المسير، تتخطى حافلات أخرى أكبر منها، ثم يجري تخطيها من شاحنات ريح الشرق الزرقاء ومن سيارات فولكسفاجن سيدان سوداء من حين إلى آخر. وترخي الستائر الرقيقة لتمنع شمس الصحراء القاسية.

ويفصل الطريق سياج من الأسلاك عن أرض الشجيرات المفتوحة من الصحراء، وخلف السياج مجموعات صغيرة من الناس، تمشي متجولة تنظر إلى الأرض، وينحنون إلى الأمام من حين إلى آخر ليلتقطوا حفنات من الخضرة من أرض الصحراء الجافة.

وأسأل: «ماذا يفعلون؟»

ويصيح بائع البذور الأصغر سناً بصوت أعلى من ضجة الريح الساخنة المندفعة إلى الداخل عبر النوافذ المفتوحة ويقول: «إنهم يلتقطون عشبة اسمها فاكي. وهي نوع من العشب يؤكل. ويبيعونه إلى هونغ كونغ».

www.ibtesama.com/vb

«هل هو طيب الطعم ؟»

«في الواقع لا. ولكن اسم النبات يبدو مثل الكلمات التي تقول «صر غنياً» بلهجة كانتون، وهكذا يحب أهل هونغ كونغ أن يأكلوه. فهم ميالون جداً إلى التصديق بالخرافة».

وتأتي جامعة التذاكر، الجابية، راجعة لتجبي الأجور. أظافرها مدهونة بأنماط ملتفة معقدة، ووجهها مزين بزينة جميلة، وهي تبدو أفتن إلى حدٍ بعيد جداً من أن تكون قاطعة تذاكر في سيارة تعمل على خط طويل المسافة عبر صحراء غوبي. في حياة مختلفة، كان يمكنها أن تكون في هوليود. وتجلس امرأة أفتى مع طفل رضيع في صف أمامي على استقامة قُطرِ مكانِ الجلوس وهي تحدق من فوق كتفيها من مقعدها، وتبتسم بحياء حين التقطَتُ نظرتها إلي.

وأقول لها: «طفلك سمين جداً».

وهي تشع راجعة إلي باعتزاز.

وفجأة يسألني تاجر البذور الأكبر سناً: «ماذا تعتقد بشأن الصين ؟» وهو شخص بدأ يصلع رأسه، وله وجه ودود، ويقول إن اسمه جو.

وأبتسم له ابتسامة فارغة وأقول: «أنا أحبها».

ويسأل زميله الأصغر سناً: «وماذا يعتقد معظم الناس في الغرب بشأن الصين ؟» فأقول له إن الناس في الغرب مشوشون قليلاً بشأن الصين لأنها بلاد تبدو رأسمالية جداً ولكنها تدار من حزب شيوعي.

ويقول السيد جو مع ابتسامة، «نحن كلنا مشوشون بشأن الصين. إنه زمن مشوش بالنسبة إلى الكثيرين من الناس، هناك الكثير جداً من التغيير».

ويسود الصمت في وقفة قصيرة. فأنا متعب من طرح الأسئلة نفسها، وهكذا فأنا أحاول أن أفكر بشيء ما جديد. وأسأل السيد جو: «ماذا تريدون أكثر ما تريدون من الغرب ؟»

www.ibtesama.com/vb

ولم يتردد هو بالإجابة: «ما نريده أكثر من أي شيء هو الاحترام». ورد بلا تفكير، وكأنه كان قد انتظر كل حياته ليقابل شخصاً أجنبياً في حافلة ويطرح عليه هذا السؤال. «نعم، نحن نريد الاحترام أكثر من أي شيء. أنا أريد أن أذهب إلى الخارج، مثلكم أيها الناس حين تأتون هنا. فأنتم تأتون إلى الصين، ونحن نحترمكم لأنكم أغنياء، ومتمدنون. ذاك ما أريده كذلك. أريد أن أذهب إلى بلدكم، وأن أكون محترماً، وأن أحصل على عمل جيد هناك وألا ينظر إلي نظرة دونية».

وبدا الزوجان مندهشين قليلاً من كل من العاطفة ومن الفصاحة في رد جو، ولكنهما يومئان برأسيهما. ومثل ذلك فعل كل شخص آخر.

ووقفة أخرى يسود فيها الصمت. والصحراء تتحرك باستمرار في الخارج. ونوعية الطريق الجديد، هنا كما هي في أماكن أخرى على طول الطريق، كانت قد خلقت من قبل في نفسي على نحو باطني شيئاً ما من الاحترام الذي يتوق إليه جو.

ثم يضيف قائلاً: «ونحن نريد السلام».

وفجأة تقول السيدة الكبرى: «أنتم، الأمريكيون، تحبون أن تجمعوا المال من خلال الحرب، أليس كذلك؟»

وأحاول أن أشرح أن معظم الناس في الغرب لا يريدون جمع المال من خلال الحرب، وأنهم يجمعون المال من خلال العمل الشاق. وما تريد الحكومة عمله من خلال الذهاب إلى الحرب شيء مختلف اختلافاً كاملاً، وهو ليس شيئاً بالفعل له علاقة بالشعب، الذي يريد أيضاً السلام، وأقول لها إن كثيرين من الناس في أمريكا وأوروبة كانوا معارضين لحرب العراق.

وتنظر إلي طويلاً وبصلابة، وبلا شك فإن صور الجرحى من العراقيين المدنيين التي تملؤ برامج الأخبار الحكومية الصينية تتردد في ذهنها.

ويستدير بائع البذور الأصغر سناً، ويبتسم لي ويقول: «نحن، الصينيين، اخترعنا ملح البارود، ولكنكم أنتم، الغربيين، اخترعتم المدفع الذي جئتم به هنا لتقتلونا. نحن، الصينيين، اخترعنا البوصلة، ولكنكم أنتم، الغربيين، استخدمتموها لتبحروا وتخرجوا إلى الشرق لتحتلوا أرضنا».

www.ibtesama.com/vb

ويبتسم الناس ثانية، ليس هناك عداوة في صوته، أو إيماءاتهم برؤوسهم. إنه التاريخ. لا يمكن تغييره.

وأسأل السيد جو: «هل تعتقد أن الصين تحصل حالياً ببطء على الاحترام؟»

ويجيب: «نعم، ولكنه سوف يستغرق مدة أطول بكثير».

«كم طولها ؟»

ويجيب: «عشرون عاماً على الأقل».

ومرة أخرى تومئ الرؤوس بصمت.

وأقترح قائلاً: «الشعب الصيني صبور تماماً، أليس كذلك ؟»

ويجيب: «نعم، هم كذلك».

هناك أشياء قليلة تمثل الرغبة الصينية في الاحترام بالقدر نفسه الذي يمثله مركز جيوتشوان للفضاء. فبعد كل ما يقال، فإن بلدين فقط كانا قد وضعا رجلاً في الفضاء قبل أن فعلت الصين في شهر تشرين أول/ أكتوبر 2007، وكانتا الدولتين العظميين في الحرب الباردة، وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وإذا كنت تبحث عن علامات تشير إلى أن الصين تريد أن تكون القوة الكبرى التالية، في وقت مازال 100 مليون من شعبها يعيشون بأقل من دولار في اليوم وفي وقت تقوم فيه بقية العالم بتخفيض برامجها الفضائية، فإن إطلاق رجل إلى الفضاء يبدو عملاً رمزياً مناسباً.

بعد ما يقارب أربع ساعات، يصل الطريق 312 إلى جيوتشوان. واسم البلدة يعني «نبع الخمر،» وهذا يبدو غريباً بالنسبة إلى بلدة صحراوية على حافة آسيا الوسطى المسلمة إلى حدٍ كبير. وكانت البلدة موقفاً رئيسياً على طريق الحرير القديم وهي موقف تتزايد أهميته بوضوح على طريق الحرير الجديد. ومثلها مثل كل واحات صحراء غوبي، فهي بلدة تحولت في السنوات القريبة. والناس يعبرون من خلالها، طبعاً، ولكنهم الآن يستقرون هنا كذلك، مغتنمين فرصاً جديدة، يتصل بعضها من

www.ibtesama.com/vb

دون شك بمركز الفضاء الضخم في الصحراء على بعد مائة ميل في الصحراء خارج البلدة. والرفاهية المعتدلة غاية هنا أيضاً. ضواحي جيوتشوان غابة من رافعات الإنشاءات ومباني الشقق الجديدة. ومحالها التجارية المتخصصة مليئة بالهواتف الخليوية الجوالة المباعة من الباعة مثل صديقي الجديد جانغ. ويوجد بارات إنترنيت. وكل واحد يتكلم مع آخر.

قسم من السبب الذي تقيم الصين من أجله برنامج الفضاء هو بلا شك قلقها بشان ما يسمى تسليح الفضاء. والذهانات الهُذائية (البارانويا) القديمة التي تم تعلمها في أثناء حرب الأفيون، حول كونهم مستعدين عسكرياً مازالت موجودة.

ولكن ما يساوي ذلك في الأهمية هو قيمة البرنامج من حيث احترام المكانة. ويبدو الأمر وكأن الصينيين يقولون: «أنتم، الغربيين، تستطيعون أن تضعوا رجالاً في الفضاء، أليس كذلك؟ حسناً، نحن أقدم حضارة في العالم. نحن اخترعنا البوصلة وملح البارود والمطبعة، ونحن نستطيع أيضاً أن نضع رجالاً في الفضاء. ونحن نستطيع أن نتنافس معكم بلعبتكم الخاصة». وهو يساعد في تحريك الكبرياء الوطنية في الأمة، وامتداداً لذلك في تحريك الحزب، في وقت اختفت فيه شرعيته الإيديولوجية.

ومع ذلك، فليس كل واحد في الصين مقتنعاً بضرورة البرنامج الفضائي. وفي الحقيقة، كثيرون من الناس لا يعرفون مجرد المعرفة عن هذا الإنجاز المَعْلَم الواضح. حين أُطلقت أول سفينة فضائية صينية مأهولة، وكان اسمها شينجاو خمسة، في العام 2003، قمت بعمل المقابلات الإلزامية مع الوطنيين الصينيين الشباب المتكبرين كبراً مؤلماً في الجامعات في بكين، وأخبروني كم أظهر ذلك الحدث تطور الصين ومستقبلها وأبان عنه. ولكنني بعدئذٍ سقت سيارتي خمسين ميلاً خارج بكين وسألت بعض الفلاحين الذين كانوا يقشرون كومة من عرانيس الذرة الصفراء اللامعة عن إطلاق شينجاو خمسة وماذا يرون في ذلك؟

وسألت عدة نسوة: «ما شينجاوا خمسة؟»

وكنت أقص هذه القصة على زميل صحافي في بكين فضحك وقال: «ذلك لا شيء». لقد ساق سيارته مائة ميل خارج بكين ووجد زوجين من الفلاحين وسألهما

www.ibtesama.com/vb

عن طيران الصين إلى الفضاء الخارجي، ونظر الرجل المسن إليه وسأله: «ما هو الفضاء الخارجي؟»

وأوقِف سيارة أجرة وأطلب من السائق، إن كان يستطيع، أن يأخذني إلى مركز الفضاء، ولكنه يقول إنني أحتاج تصريحاً خاصاً من الشرطة لأبرزه عند نقاط التفتيش على طول الطريق، ويستغرق استخراج التصريح وقتاً لإتمام إجراءاته. ويقترح أن الحصول على التصريح قد لا يكون سهلاً بالنسبة إلى الأجانب. وهكذا، بتردد، أقرر أن أتوجه مباشرة إلى جيايوغوان، وهي جيوتشوان التوأم، وتقع على بعد أربعين دقيقة في سياقة السيارة عبر الصحراء.

وفي الحقيقة، ومع كل الإنشاءات الموجودة على أطراف كل مدينة، فإن من المحتمل ألا يستغرق الأمر طويلاً قبل أن تُعتصَر الصحراء الموجودة بين المدينتين ويصير التوأمان متحدين في مدينة ضخمة عملاقة واحدة. فهنا من السهل للمسؤولين أن يوسعوا مدنهم. وليس عليهم هنا أن يسرقوا أرض فلاح من الفلاحين.

أسجل الوصول إلى فندق جيايوغوان وأتجه خارجاً للقيام بالجري. الوقت متأخر في الأصيل، ولكن الشمس مازالت عالية. وحرارة الصحراء، بالمشاركة مع أسبوع كسول من دون تدريب، يجعل من الصعب الذهاب.

وتقول لوحة الإعلان الموجودة عند حافة المدينة: تبنوا نظرة تطور علمية. ابنوا مجتمعاً اشتراكياً منسجماً.

وأنا أحب جيايوغوان. فيها شعور منفتح. وعلى الرغم من وجود مصانع ضخمة في ضواحيها، وهي تضخ الدخان اللاذع في السماء الزرقاء زرقة دائمة، فهي بعيدة بعداً كافياً على نحو لا تستطيع معه أن يؤثر مباشرة على البلدة. وأنا أحب الطرق الواسعة، والمباني المنخفضة، والسماء الكبيرة. فالبلدة ليست محصورة، مثل العديد جداً من البلدات الصينية الأخرى. وهي مثل معظم مقاطعة غانسو، تمتلك الفضاء للتنفس. ولكن أكثر ما أحبها من أجله هو أنها وطن قلعة جيايوغوان، أبعد نقطة غربية من الجدار العظيم. إنها صرح فخم، قلعة مربعة ضخمة تبدو وكأنها كانت قد

www.ibtesama.com/vb

أسقطت إلى الصحراء من الفضاء الخارجي. وكانت قد أنشئت أولاً تحت أسرة مينغ، في العام 1372 تقريباً، ثم وسعت في العام 1539 ورممت ترميماً كاملاً طوال السنوات العشرين الماضية. وجدرانها بارتفاع يبلغ أعلى من ستين قدماً، والقلعة كلها لابد أنها تصل على الأقل إلى ميل في محيطها.

في أزمنة مضت، كانت هذه القلعة هي نهاية الحضارة نفسها. وكان الشخص الصيني يقف على قلعة جيايوغوان فيما مضى في القرن الخامس عشر أو القرن السابع عشر ويراقب، مثل روماني نوعاً ما يقف على الضفة الغربية من الراين، وهو يعرف أن في خارج القلعة، وفيما وراء القلعة، وهنالك قبالة القلعة، يوجد البرابرة.

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

17
نهاية الجدار

في صيف العام 1926، وصلت إلى جيايوغوان ثلاث سيدات إنجليزيات محترمات، متوسطات العمر، يركبن عربة يجرها حمار. وهن ميلدريد كيبل، وفراسيسكا وإيفا فرنش، اللتين كانتا أختين. والثلاثة كن مبشرات مع بعثة تبشير الصين الداخلية، وفي أثناء عقدين من الزمان تقريباً وهن يعملن هنا معاً، صرن يُعرفن جماعياً باسم الثلاثي.

وقد كسب الثلاثي سمعة فعلية عن رحلاتهن على طول طريق الحرير. ثلاث فتيات نشيطات من بيوت إنجليزية جيدة، وكن قد تحولن إلى المسيحية وهن صبايا وشعرن بالنداء نحو الصين. وكانت إيفا قد ذهبت أولاً، في الحادية والعشرين من عمرها، وكانت قد هربت بصعوبة من الموت في أثناء ثورة البوكسرز المناوئة للأجانب في العام 1900. ثم التحقت بها ميلدريد كيبل بعد سنوات قليلة، ثم أكملت فرانسيسكا الفريق. وكن قد رابطن في مقاطعة شانسي لمدة عشرين عاماً حين قررن أن ينتقلن إلى الغرب ليبشرن ويخدمن الناس في صحراء غوبي. وفي عدة مرات طوال الثلاثة عشر عاماً التي تلت، بين العام 1923 والعام 1936، زارت النساء الثلاث الجدار العظيم، يعظن بالإنجيل ويقدمن العناية الطبية الأساسية. لم يكن هناك أي طريق 312 في تلك الأيام، بل لم يكن يوجد طريق معبد من أي نوع، وسافرن في كل مكان بعربة تطوى كان يجرها حمارهن المخلص، موللي.

وكتبت ميلدريد وفرانسيسكا عدة كتب مليئة بالملاحظات الجميلة عن الصحراء، وشعبها، وزهورها وحيواناتها، ومشاقها ومباهجها. وفي كتابها (صحراء غوبي) كتبت ميلدريد كيبل تصف وصولها إلى جيايوغوان ورؤيتها جلال القلعة.

> لو كان هذا بناء يعوزه الإتقان، ومثيراً للغرابة لكان وصمة في شمال غرب الصين، ولكن جماله وفخامته ينقذه من النقد، ونظراً إلى أن

www.ibtesama.com/vb

الصين، بطريقتها الفريدة، أمرت بأن يكون مخرجها الغربي العظيم مضبوطاً بباب مفرد، فقد جعلت من ذلك الباب بوابة مؤثرة من النوع الذي يجعلها إحدى المناظر المؤثرة من الشرق.

وعلى الرغم من حقيقة أن الصين زعمت السيطرة على تركستان الصينية إلى الشمال الغربي، فإن جيايوغوان كانت ماتزال في أذهان معظم الشعب الصيني هي حد الحضارة، وكان ذلك في جزء منه بسبب «السكان» المسلمين الذين عاشوا فيما وراءها، ولكنه كان أيضاً بسبب الصحراء القاسية وبسبب الخوف من الشياطين التي كان يعتقد أنها تسكن هناك. والتحرك جيئة وذهاباً على الطريق 312 في حافلات ركاب المسافات الطويلة بين البلدات الواحات اليوم، يجعل من السهل نسيان إلى أي مدى كانت هذه المنطقة موحشة منفرة، في الذاكرة الحية. وكان يوجد مثل يستشهد به طوال قرون، وحتى الأزمنة الحديثة، يقول: «ما من رجل يرغب في إرسال ألد أعدائه عبر غوبي في منتصف الشتاء أو في منتصف الصيف». وها أنا ذا الآن، أثب برحلات سريعة على متن حافلات الركاب، وأقفز في سيارات الأجرة، وأعجب بمجمعات الشقق الجديدة وبالخط السريع بأربعة مسارات، وأختار من مجموعة مرتبة من المرطبات غير المسكرة في خزائن مبردة وكأنني أسافر حول نيوجيرسي.

وكانت منفرة للغاية، في العشرينيات من 1920 كذلك، كما تكتب ميلدريد كيبل، إلى درجة أنك إذا لم تكن فعلاً منطلقاً إلى الصحراء، فإنك لن تذهب قط خارج البوابة الغربية للقلعة. ولكن ذلك كان هو كل الهدف من بعثة الثلاثي، وهو التبشير بالإنجيل إلى جميع القرى في غانسو فيما وراء الجدار العظيم. وهكذا، وهن يعددن لمغادرة جيايوغوان متجهات غرباً، قررت ميلدريد أن تخرج من البوابة العظيمة لتلقي نظرة. وهي تكتب: «رغبت في إعداد نفسي للمغامرة العظيمة». وكان يصحبها رجل من القلعة.

وقال لها: «الشياطين. الشياطين هي التي تسكن غوبي. وهذا المكان مليء بها، وكثيرون سمعوا أصواتها تنادي...أنت لا تعرفين حتى الآن، أيتها السيدة، أنواع الرعب في تلك الرحلة. هل يجب أن تخرجي إلى غوبي؟

www.ibtesama.com/vb

لقد جئت من سوشو (جيونتشوان حالياً). ذلك مكان جيد فيه الكثير من الناس والكثير للأكل، وأما في الخارج هناك... هل يجب أن تذهبي؟»

وردت ميلدريد، نعم، كان يجب عليها أن تذهب، لأنها كانت قد جاءت لتبحث عن الضائعين وكما تعبر هي عن ذلك، «بعضهم موجود في الخارج هناك»، وهي ملاحظة أخذها الرجل بمعناها الحرفي جداً إلى حدٍ ما، وكأنه قد يحتاج إلى ترتيب جماعة بحث.

ولم يكن الصينيون غير عارفين تماماً بما كان موجوداً فيما وراء جيايوغوان، وذلك لأنها في الأزمنة الإمبراطورية كانت مستخدمة منفى لمعاقبة المسؤولين أو الآخرين الذين أزعجوا الإمبراطور. وأحد المسؤولين الصينيين الذين كانوا يعرفون المضامين الكاملة للذهاب إلى ما وراء هذا المكان هنا كان رجل اسمه لين دزوشو. وعند أسفل قلعة جيايوغوان المهيبة، توجد حديقة لا يلاحظها السياح الصينيون على ما يبدو، وهي حديقة تذكارية صغيرة، وفيها تمثال وقد نقشت قصيدة على حجر الجدار الموجود بجانبه، والحديقة تذكار للين، الذي كان، كما تقول لوحة التمثال تحت، «أول سياسي متفتح العقل من العصر الحديث».

لين دزوشو كان هو الرجل الذي أرسله الإمبراطور في أواخر الثلاثينيات من 1830 للتعامل مع شعب المحيط على الساحل الجنوبي للصين، وهم الأجانب الذين كانوا يستوردون الأفيون ليدفعوا في مقابل الشاي والحرير والخزف.

وكما رأينا، كانت النخبة الصينية بطيئة جداً في إدراك المغزى الكامل لوصول شعب المحيط. فجميع التهديدات التي وجهت إلى الصين في الماضي كانت قد جاءت من البر، من فرسان الشمال، من سهوب آسيا الوسطى فيما وراء المكان الذي أقف عليه الآن. وبعد أن ووجه بالرفض الأجنبي لوقف استيراد الأجانب للأفيون، كتب لين في العام 1839 رسالة إلى الملكة فيكتوريا، يطلب منها أن تضع شخصياً حداً يوقف تجارة الأفيون ويسألها إن كانت هي تسمح بأن يجلب الأفيون إلى بريطانيا بهذه الطريقة. وتكشف نبرة الرسالة أن رؤية الصينيين لأنفسهم وللعالم لم تكن قد تغيرت كثيراً منذ بعثة اللورد ماكارتني الفاشلة في العام 1793، قبل خمسين سنة تقريباً.

www.ibtesama.com/vb

إن إمبراطورنا وعلى نحو رائع يسكّن ويهدئ الصين والبلدان الأجنبية، وينظر إلى الجميع باللطف نفسه. فإذا كان يوجد ربح، فهو يتقاسمه آنئذٍ مع شعوب العالم، وإذا كان يوجد أذى، فهو يزيحه آنئذٍ عن العالم. وذلك لأنه يتخذ عقل السماء والأرض عقلاً له. إن ملوك بلدكم المحترمة بموجب تقليد تسلمونه من جيل إلى جيل كانوا دائماً مرموقين من أجل أدبهم وخضوعهم... والحقيقة هي أن البرابرة الأشرار يخدعون الشعب الصيني ليأخذوه إلى مصيدة الموت. فهل يمكن، أيتها الملكة، أن تكبحي أشراركم، وأن تتخلي الأشرار من شعبك قبل أن يقدموا إلى الصين، لكي نضمن السلام لأمتك، ولإظهار المزيد من الإخلاص من أدبكم وخضوعكم، ولنجعل البلدين يتمتعان معاً بنعم السلام.

وذكر لين كم كانت الصين محسنة في صادراتها الخاصة، وضمّن ذلك ربما الاستخدام الأول والوحيد في التاريخ للراوند أداة في الدبلوماسية الدولية. لقد ناشد البريطانيين أن يمعنوا النظر ويراعوا التأثير على كل حركات أمعائهم إذا سحبت صادرات الرواند الصينية، مع كل تأثيراتها الملينة.

هل توجد سلعة من الصين ألحقت أي ضرر بالبلدان الأجنبية؟ خذ الشاي والراوند، على سبيل المثال، فالبلدان الأجنبية لا تستطيع أن تتدبر أمرها ليوم واحد من دونهما. وإذا قامت الصين بقطع هذه المنافع من دون أي تعاطف مع أولئك الذين سيعانون، وآنئذٍ ما الذي يستطيع البرابرة أن يعتمدوا عليه ليبقوا أنفسهم أحياء؟

مع التجار البريطانيين (وأمعائهم) المتماسكة بصلابة على الرغم من مثل هذه التهديدات، اتخذ لين خطوة فاجعة، ففي أيار / مايو 1839، قاد عملية الاستيلاء على مائتي صندوق من الأفيون وأمر برميها في البحر.

موقفه الذي اتخذ خطاً متشدداً كان هو تماماً العذر الذي كان البريطانيون ينتظرونه. وحين رد البريطانيون بتخريب ونهب أجزاء واسعة من جنوب الصين وشن حرب الأفيون الأولى، عمد الإمبراطور، الذي كان قد وافق شخصياً على السياسات

www.ibtesama.com/vb

القوية للين، إلى طرده. وصار لين دزوشو كبش فداء لهزيمة الصين وعانى مصير كثيرين من قبله، لقد قذف به إلى ظلمة البرابرة في المنفى فيما وراء جيايوغوان، إلى وادي ييلي، وهو في الحقيقة المكان الذي يشكل محطتي الأخيرة، وفيه يلتقي الطريق 312 بالحدود الصينية مع كازاخستان.

والحديقة التذكارية الخاصة بلين دزوشو فارغة الآن، ليس فيها أحد غيري، وليس هناك شخص صيني واحد هنا، ليقدم الاحترام للرجل الذي حاول أن ينقذ الصين بالوقوف في وجه الأجانب. شخص واحد فقط من شعب المحيط، من الأرض التي تسببت في إهانة لين، ينظر إلى الأعلى إلى تمثاله مع توازن محسوب من الاحترام والعار، ويقرأ القصيدة الفلسفية والمتحدية باعتدال التي كتبها وهو يعبر من هنا، وأتعجب ماذا كان سيظن بمصانع الإسمنت ومعامل البتروكيماويات التي تحيط بجيايوغوان الآن، أو بالإنترنت عالية السرعة والهواتف الخليوية الجوالة التي تربط الشعب الصيني أحده إلى الآخر وإلى العالم.

بالتأكيد كان انتقام لين بطيئاً، وجاء بتكلفة بشرية ضخمة. لقد استغرقت الصين مئتي عام تقريباً لتبدأ بالثأر للإهانات التي أوقعها بها الغرب. ومازال ذلك الانتقام غير كامل. ولكن ثأر لين يبرز أخيراً: الصين القوية، بلد فيه الحدود مختومة بحزم، وبلد فيه القبائل الشمالية لا تهدده كل عام، وبلد فيه شعب المحيط لا يستورد العقاقير أو يسرق الأرض. كان على خلفاء لين أن يكسروا العلاقة مع الطرق الكونفوشيوسية لكي يحققوا الحداثة، وكان عليهم أن يحطموا الكثير من الأشياء التي كان لين يتمسك بها بوصفها عزيزة، ولكن التغييرات تحدث في كل مكان حتى هنا.

جيايوغوان الآن مقصد سياحي كبير. فمن حديقة لين، تستطيع أنت أن تتحدى مواقع السياح وتتجول خلال البوابة الضخمة المفتوحة عند المدخل المؤدي إلى القلعة نفسها. وفي قلب القلعة تماماً، توجد مرشدة سياحية تدور مع مجموعة من السياح الصينيين حول الفناء القديم تفرجهم عليه. وكلهم يمسكون بآلات تصوير رقمية غالية الثمن ويلبسون قبعات صفراء متلائمة. هذا هو المكان الذي عاش فيه القائد المسؤول عن الحامية، في مجمع منفصل، في مجموعة كاملة تضم زوجته وخدمه.

www.ibtesama.com/vb

وأسماء جميع القادة الذين كانوا قد عينوا هناك منذ العام 1516 مدرجة على لوح خارج الفناء.

وتبدأ المرشدة جولتها: «في الأزمنة الإقطاعية...». وأنا أنظر من فوق، والرؤوس تومئ، ربما هي سعيدة لأنها تحررت من الأزمنة الإقطاعية.

أمتلك في جيبي رقم هاتف لطالب يعيش في جيايوغوان، وأنا على وشك أن أهاتفه لأدعوه لأرى إن كان وقته حراً لتناول العشاء هذه الليلة. أعطتني هذه الصلة الأميرة الزهرية، بائعة أدوات التجميل التي سبق أن قابلتها على الطريق إلى البلدة التيبيتية شياهو. حين سمعت أنني كنت متجهاً غرباً، قالت إن لديها صديقاً في جيايوغوان ويجب أن أهاتفه. وكما هو المعتاد، فقد افترضت أن علي أن أهاتفه. وربما سيكون هو الشخص الذي سيعطيني تلك البصيرة المعلِمة عن الحياة في البلدة الحدودية. وربما يكون هو الشخص الذي سيعرفني إلى شخصية مثيرة للعجب التي ستجعل كل شيء واضحاً لي. ولكن الآن بعد أن صرت هنا، قررت ألا أفعل. وعلى كل حال، أنا أعرف تماماً ما سيقوله طالب من جيايوغوان. «مستقبل الصين مشرق. والحياة تتحسن. دعونا نكن جميعاً أصدقاء».

هناك أساسات عديدة للتفاؤل في الصين، ولكن كان لدي اليوم عدد كاف من المتفائلين. أنت في بعض الأيام تكون فعلاً مستبشراً في الصين، وفي بعض الأيام تكون فعلاً مكتئباً. واليوم، أنا فعلاً متعب من حافلات الركاب، ومن الحرارة، ومن السفر، ومن المتفائلين أيضاً. ألم يسبق لهؤلاء الناس قط في أي وقت أن ذهبوا إلى قرى الإيدز من هينان الجنوبية؟ (الجواب: لا). ألم يسبق لهم قط في أي وقت أن اعتقلوا وأوقفوا من دون تهمة أو محاكمة لسنوات في النهاية. (لا، مرة ثانية، بالنسبة إلى معظم الناس.) ألم يسبق لهم قط أن كان عليهم أن يبيعوا أجسادهم للدفع من أجل الطعام لعائلاتهم؟ (ربما لا). أنا لا أريد أن أطرح أي أسئلة أخرى أو يكون هناك من يطرح أسئلة علي عن نفسي. أنا أرغب بشيء ما نادراً ما تجده في الصين، وتلك هي الوحدة، والصمت.

www.ibtesama.com/vb

وهكذا أجد نفسي باحثاً عن أبعد ركن في القلعة، وأكثرها عزلة، وهو برج مراقبة لا تذهب إليه مجموعات جولة السياح.

أقف لمدة طويلة من الزمان، أنظر إلى الخارج إلى غوبي المنفتحة انفتاحاً واسعاً وإلى الجبال التي مازالت تلبس قمة من الثلوج فيما وراء غوبي. وأنا أراهن أنه لم يكن هناك أي من المتفائلين حول هذه المنطقة هنا حين اكتسحها جنكيز وأصدقاؤه قادمين من السهوب.

«مرحباً. من أين أنت؟»

بشكل ما، وجدني شاباً بشوشاً يتحدث الإنجليزية. ونسير عبر الروتين المعتاد. ويخبرني كيف أنه قد قُبِل منذ قليل للكلية في بكين، على بعد ألف وأربع مئة ميل، وكم هو متأثر من أنه سيكون عليه أن يذهب في الصف الإعدادي الأول في غضون أسابيع قليلة. ويقول كم هو محب لبلده.

ويقول: «آمل أن تنمو الصداقة بين بلدينا لتكون أقوى».

ويناديه شخص ما، وهو ينادي بالصينية ويقول إنه موجود هنا، خلف برج المراقبة عند الركن. ويظهر رجل، وهو والده. جندي، لا يتحدث الإنجليزية وربما لم يكن قد امتلك خيارات في الحياة. وابنه يمتلك خيارات، يمتلك العديد منها. إنه ممتلئ بالأمل لنفسه ولبلاده. يريد أن يجعل الصين عظيمة. إنه مهذب، وَوَدود، وراغب ومثالي، ويفيض بالتفاؤل. إن من المستحيل ألا تحبه.

إن الذي قال: أن تسافر خير من أن تصل، كائناً من كان، لم يسبق له في أي وقت قط أن أخذ الحافلة الليلية من جيايوغوان إلى دونهوانغ. ومثل الثلاثي الجريء، ومثل كثيرين من قبل ومنذ ذلك الحين، أقرر أن أسافر ليلاً. يجب أن تستغرق معي مجرد ثماني ساعات، ولكنها بدلاً من ذلك تستغرق ست عشرة ساعة. فالطريق 312 يجري توسيعه. والمشروع حسب المخطط له يجب أن ينتهي في العام 2007، وهكذا ففي الوقت الذي تقرأ فيه أنت هذا الكلام، فمن المحتمل ألا يكون ذلك مشكلة، ولكن بالنسبة إلى ست عشرة ساعة من هز العظام فهي مشكلة بالنسبة إلي.

www.ibtesama.com/vb

وأبعد من ذلك إلى الشرق، وقبل أن يصل الطريق 312 جيايوغوان، حيث توجد البلدات والقرى على جانب الطريق، كان الطريق السريع الجديد بمساراته الأربعة قد بني على طول الطريق 312 القديم ـ خطان مستقيمان أسودان ينسابان إلى الغرب أحدهما إلى جانب الآخر. ولكن جيايوغوان لم تعرف باسم «فم» الصين من دون سبب، وذلك لأنه لا توجد خارج الفم فعلاً إلا قرى قليلة جداً مطلقاً. وهكذا لا يوجد سبب لاستبقاء الطريق القديم. لقد حفر وتجري إعادة وضعه ليكون طريقاً سريعاً بأربعة مسارات. وفي أثناء بناء هذا الطريق السريع، تم تحويل كلا مساري المرور إلى السطح الفعلي للصحراء، موازياً للطريق.

وإذا كانت موسيقى طريق الحرير القديم هي صوت قوافل الجمال، فإن اللحن المميز الموضوع لطريق الحرير الجديد هو فيلم كونغ فو المعروض في حافلات الركاب للمسافات الطويلة. فنحن لم نكد نخرج من محطة حافلات جيايوغوان حتى أسقط السائق قرص فيديو رقمي (دي في دي) مسروق بعنوان (قبضات الغضب)، أو هو (نينجا القاتلة)، أو ربما (مقاتلون من الجبل المسحور؟) وأنا أفقد الأثر. والركاب الصينيون، صادقون مع السلوك حسب الأصول، فما من واحد منهم يبدو أنه يلاحظ الرفس، واللكم، والصراخ الذي ينفجر من جهاز التلفاز الصغير المركب على مقدمة الحافلة، وقد اندهش السائق حين طلبت إليه أن يخفض الصوت.

نومي محكوم بالمطبات الموجودة في الطريق وبالهاتف الخليوي الجوال للرجل الجالس إلى جانبي. فحين يرن الهاتف يعزف لحن بيتهوفن بصوت عال، وهو يرن مراراً وتكراراً. ولا يهم أين أجلس في حافلة الركاب، فأنا على ما يبدو أنتهي إلى جانب الرجل الذي لديه أوركسترا في ملابسه الداخلية.

أستيقظ ورقبتي متيبسة مع طلوع النهار، متوقعاً أن أكون في دونهوانغ تقريباً. ولكن السائق يقول لسنا قريبين في أي مكان. ونحن لم نصل ولو إلى آنشي، وهي بلدة على بعد 130 ميلاً تقريباً إلى الغرب من جيايوغوان. ودونهوانغ نفسها تقع على بعد 70 ميلاً بعيداً عن الطريق 312 إلى الجنوب. بعد أن ننعطف بعيداً عن الطريق 312، تنتهي أعمال المرور، ويستطيع السائق أن يزيد السرعة على طول الشارع المزفت

www.ibtesama.com/vb

ليحاول أن يعوض بعض الوقت. والغيوم البيضاء المنفوشة تنتشر كالنقط في سماء زرقاء متألقة فوق رؤوسنا. ويمكن أن نرى على جانب الطريق أبراج منارات دالة قديمة مبنية من الطين، أبراج كانت توقد فيها النار فيما مضى لمساعدة الناس على المسير نحو الواحات. ووقفت إلى جانبها الآن أبراج الهاتف الخليوي الجوال. وأتلقى رسالة نصية من صديق يجلس إلى جانب مسبح فندق فخم في بانكوك.

ويبدو أن نصف الحافلة مليء بعمال إنشاءات، متجهين غرباً للبحث عن عمل وعن راتب أفضل، ربما يكون مائة دولار في الشهر، وليس تسعين (وذلك يصنع فرقاً كبيراً)، مستفيدين من الحملة الحديثة للحكومة المركزية لتطوير المناطق الغربية. ومعظم العمال من جماعة الهان ومن جماعة الهواي (وهم الصينيون المسلمون). ورحلة مثل هذه، تأخذهم بعيداً «خارج فم» الصين التقليدية الأصلية، تبدو الآن رحلة طبيعية مثل أي شيء. لا توجد أي شياطين في غوبي بعد الآن.

أجلس إلى جانب رجل أكبر سناً، فوق الخمسين، وهو يبدو من خارج المكان قليلاً من بين كل المهاجرين الشباب.

ويقول لي: «الحياة الآن أفضل بكثير جداً. يوجد الكثير جداً من الفرص زيادة عما سبق. كان من عادتنا أن نبحث في النفايات بكل بساطة لنحصل على الطعام في أثناء الخمسينيات والستينيات. أما الآن، فكل جامع قمامة يمتلك هاتفاً خليوياً جوالاً. فهل تقول لي: إن ذلك ليس تقدماً؟»

من اليسير أن تفقد الرؤية لعدد الأشياء الكثيرة التي تحسنت في الصين حين تسافر على طول الطريق 312 وتقضي مدة طويلة في مناطق ريفية فقيرة. فبالنسبة إلى أناس مثل هذا الرجل، الذي عانى المجاعات في أواخر الخمسينيات من 1950 وفوضى الثورة الثقافية في الستينيات، تُعَدُّ الصين الحديثة، مع كل مشكلاتها الكثيرة، أفضل بمليون مرة. ليس هناك حملات سياسية مجنونة، ولا حملات اقتصادية طائشة، ولا اتهامات شجب قسرية للجيران. إنه منظورك هو الذي يصنع كل الاختلاف. فبالنسبة إلي، يُعَدّ مجرد إمكانية تدخل الدولة في حياتي أمراً غير مقبول. وبالنسبة إليه، فإن حقيقة أن هذه الإمكانيات قد تراجعت، ولو كانت مازالت هناك في الخلفية، تعني أن

www.ibtesama.com/vb

الصين الحديثة جنة. «بالمقارنة بماذا؟» هو السؤال الذي يجب عليك دائماً أن تسأله في الصين. ومن المحتمل أن يكون هذا الرجل قد عانى أشياء، وشارك في أحداث، لم يكن إلا على قلة من الغربيين في أي زمان أن يتحملوها. والآن يستطيع هذا الرجل أن يختار ما يفعله. وذلك، بالنسبة إليه، تقدم.

وتستمر الحافلة بالصراع، نقطة وحيدة تتحرك ببطء عبر بحر من الرمال. ويوجد لدى المنغوليين إلى الشمال من هنا مثَل عن الجَمال المؤثر تأثيراً قوياً لصحراء غوبي. فهم يقولون: يجب عليك أحياناً أن تذهب إلى غوبي لتمدد روحك. وفي أثناء سفرك عبرها طوال ساعات وساعات، تبدأ بفهم ما يعنيه أولئك المنغوليون. فبعد البلدات والقرى الزاخرة، وبعد التلال والوديان من الصين الشرقية، تنفتح الأرض والسماء هنا، وتحتضن كل منهما الأخرى، وتجعلك تريد أن تتوقف، وتنزل من السيارة، وتحتضنهما أنت أيضاً. ولكن احذر مما ترغب فيه.

انعطفنا بعيداً عن الطريق 312، ولكننا مازلنا على بعد ما يقارب ستين ميلاً من دونهوانغ حين سمعنا فجأة ضجة مشؤومة نوعاً ما لصوت صرير من المحرك. وتفقد السيارة القدرة وتتوقف على جانب الطريق. وكان يصعب أن تختار أرضاً أكثر تنفيراً من هذه ليحدث فيها ما حدث. ليس هناك حرفياً أي شيء سوى الصحراء لمسافة أميال حولنا. لا تتوقف فيها شاحنة، ولا يوجد فيها قرى، ولا أي شيء.

ويرفع السائق الغطاء الموجود فوق صندوق المسننات الموجود إلى جانب دولاب القيادة، ثم يخرج ليلقي نظرة تحت السيارة. وبعد مدة، يصير واضحاً أننا لسنا ذاهبين إلى أي مكان، ولذلك جعلته يفتح حجرة الأمتعة. والتقطت حقيبة ظهري ومشيت مائة ياردة في الطريق بعيداً عن سيارتنا المصابة، محاولاً أن أؤشر لسيارة أخرى. قلة لا تقف، ولكن واحداً وقف في النهاية وكان علي أن أركض في الطريق في الحر وحقيبتي الثقيلة على ظهري إلى المكان الذي وقفت فيه السيارة. ويفتح السائق حجرة الأمتعة في سيارته، وأنا أرمي حقيبتي وأقفز صاعداً على السيارة. إنها مليئة بالسياح اليابانيين، الذين كانوا لا بد يسوقون سيارتهم من أقرب وصلة سكة حديدية، في ليويوان، على جانب الطريق 312. والحافلة مكيفة الهواء على نحو جميل ولا تشغل أفلام كونغ فو بصوت عال.

www.ibtesama.com/vb

وأخيراً، أوه أخيراً جداً للغاية، نقترب من المدينة. وتبدأ الصحراء تتراجع ببطء وتحل محلها شجيرات الرتم البنفسجية، ثم الأشجار الشائعة وبعض حقول الذرة، وأخيراً الطريق الذي تصطف عليه الخضرة الكاملة الباهرة للواحات. هذه هي دونهوانغ، الواحة الأسطورية لطريق الحرير وموطن كهوف موغايو منذ ألف وستمائة عام، وفيها كان المسافرون يقفون ويصلّون من أجل سلامة المرور عبر أسوأ قسم من الصحراء، وهي تنفتح نحو آسيا الوسط

www.ibtesama.com/vb

www.ibtesama.com/vb

18
كهوف ألف بوذا

على قمة سطح فندق دونهوانغ من فئة الأربعة نجوم لطريق الحرير، تقف مجموعة من السياح اليونانيين الأثرياء وهم ينظرون إلى كثبان الرمل المتدحرجة المعروفة باسم الرمال المغنية ويحلمون بزمان مضى. وخلفهم يوجد سياح أسبان، كانوا على ما يبدو في نوع ما من حالة حلم اليقظة. وإلى جانبهم يوجد سائحان أمريكيان، يحملقان إلى الأعلى مباشرة في سماء الليل المرصعة بالنجوم. ويجلس رجل إنجليزي شارد وحده يرتشف بيرته، ويعرف الموقف بشكل أفضل يجعله لا يخدع بكل تلك البضاعة السياحية الزائفة الرخيصة عن طريق الحرير، وهو مع ذلك، ينظر إلى الأعلى إلى السماء ويتنفس بعمق، وكأن هلال القمر قد يفرز رائحة محسوسة من الشرق. من العسير في دونهوانغ، ألا تنجذب إلى الرومانسية المحضة لكل هذا الشيء. بالنسبة إلى الغربيين، البلدة مكان للحلم بكل أحلامك الغريبة من الليالي العربية من ألف ليلة وليلة من الشرق.

وعلى بعد أميال قليلة، يجلس شباب صينيون ملء غرفة يحققون خيالاتهم عن الغرب. لا توجد هنا ليال عربية من ألف ليلة وليلة، وأفكارهم الوحيدة عن طريق الحرير ربما تكون كيف تصل إلى أبعد ما يمكن عنه. ومجموعات الشباب الصينيين تجلس في مقهى إنترنت طوال أربع وعشرين ساعة في مركز دونهوانغ، وعيونهم ملصقة بشاشات حواسيبهم وهم يخوضون معركة ألعاب الفيديو على الخط المباشر. في الممرات الجانبية في الخارج، أزواج شباب يرغبون بالشراء يستعرضون واجهات المتاجر طافحين بخيارات من الإلكترونيات وأدوات التجميل، والملابس والعقارات، يتذوقون الرفاهية الجديدة لبلدتهم وربما يفكرون بشأن إمكانيات السفر إلى خارجها.

www.ibtesama.com/vb

لم يكن التقابل بين الشرق والغرب في شارع البند في شنغهاي كاملاً إلى هذا الحد. فالأجانب يحاولون إعادة خلق بعض الماضي الصيني الرومانسي غير المحسوس، في حين يحاول الشعب الصيني أن يهرب من الماضي ويبني مستقبلاً ملموساً غير رومانسي جداً.

كان فندق طريق الحرير في دونهوانغ قد صمم ليتلاءم مع الخيال الغربي عن طريق الحرير. بجدرانه المقلدة من لبن الطين والقش وبهوه البارد بالسقف العالي، وهو مبني بأسلوب بناء يبدو للعين الأجنبية، أنه من آسيا الوسطى. ليس لدي أي فكرة إن كان كذلك، ولكنَّ حقيقةَ أنه يتلاءم مع فكرتي المتخلية سابقاً عن عمارة طريق الحرير تجعلني أشعر شعوراً طيباً حول المبيت هنا، على الرغم من أنه أغلى فندق في البلدة، وهم يكلفون الغربيين أن يدفعوا زيادة إضافية من أجل الفطور. ولا ضرر في أن لديه باراً في قمة سطح رائعة، تستطيع منها أن ترى الكثبان الرملية من الصحراء والنجوم المتألقة، المتألقة المتناثرة عبر السماء في الليل.

واسم دونهوانغ يعني في الصينية «المنارة الملتهبة». وهو يعطيك فكرة بصرية جيدة عن الموقع الجغرافي للبلدة. لقد كانت دائماً بلدة واحة حاسمة، مع أن سكانها ازدادوا زيادة كبيرة في القرن الماضي، حتى بلغوا أكثر من مائة ألف نسمة. وطريق الحرير ابتداء من العاصمة القديمة في مدينة شيان في الوقت الحاضر إلى آسيا الوسطى وإلى أوروبة سار مباشرة تقريباً إلى دونهوانغ، على طول الممر الذي يسلكه الآن من الطريق 312. فإلى الشمال من البلدة تماماً، تفرع طريق الحرير إلى طريقين رئيسين: طريق الحرير الشمالي، وهو الذي أسير عليه في رحلتي، وهو يتلوى كالثعبان إلى الشمال الغربي إلى هامي وتوربان وأرومجي، دائراً حول الجانب الشمالي من صحراء تاكليماكان المخوفة. وطريق الحرير الجنوبي شق طريقه، ومازال يشقها إلى الجنوب الغربي، من خلال البلدات القديمة، الأقل زواراً وهي: ميران، وخوتان، وياركاند على طول الحافة الجنوبية لصحراء تاكليماكان. والمنارة الملتهبة في دونهوانغ كانت هي آخر واحة كبيرة قبل الامتدادات الضخمة للصحراء، وهي التي أعطت الإشارة للمسافر أن الطعام، والماء، والمأوى كانت متوافرة هنا.

www.ibtesama.com/vb

ولكن البلدة كانت، ومازالت أكثر بكثير من مجرد حفرة سقاية، أو مكان تجمع اجتماعي. لأن دونهوانغ هي موطن بعض أقدم رسوم الكهف البوذية المحفوظة في العالم وأفضلها، وكان المسافرون يجتمعون فيها ليصلوا من أجل حفظهم في عبور الصحراء، أو لتقديم الشكر على المرور الآمن. وأكثر من ذلك، أن الأحداث التي وقعت في هذه البلدة الواحة الغامضة في مطالع القرن الثاني عشر لعبت دوراً مهماً في حث الصين الضعيفة، والمهزومة على أن تعاود اختراع نفسها وأن تتحول إلى البلاد القوية بشكل متزايد والمحترمة اليوم.

في 12 آذار / مارس، 1907 تصادف وصول عالم آثار هنغاري المولد يعمل لدى الحكومة البريطانية في الهند إلى بلدة دونهوانغ قادماً من الجنوب الغربي بعد رحلة شاقة لمدة ثلاثة أسابيع عبر الصحراء. وكان هو وفريقه من المعاونين المحليين، ومن الجمال، والخيل قد سافروا 260 ميلاً من خرائب مدينة صحراوية منسية تدعى لولان إلى الغرب، وكانوا مرهقين، وقذرين، وجياعاً. وكانت دونهوانغ في العام 1907 بلدة فقيرة، ووسخة، ومعزولة، ولكنها كانت مثل الأرض الموعودة بالنسبة إلى عالم الآثار وقافلته المرهقة.

كان الرجل هو أوريل ستاين، وما كان سيحدث طوال الأشهر القليلة التي تلت وصوله سوف يؤكد بقاء اسمه في الأضواء في حوليات علم الآثار الغربي، وأما في الصين فقد عاش سيئ السمعة.

كانت المملكة الوسطى مازالت موجودة وستعيش خمس سنوات أخرى قبل إطاحة النظام الإمبراطوري، ولكن البلاد كانت من قبل ذلك في حالة تقارب الانهيار. فالقوى الاستعمارية كانت قد اقتطعت مجالات نفوذها وكانت تحتلب الصين حتى الاستنزاف. وكان النخبة الإمبراطورية قد تمسكت تمسكاً يائساً بأوهامها عن العظمة الثقافية، وكانت غير قادرة على قبول ضعفها وغير راغبة بالتخلي عن سلطتها. وكانت موجات عديدة من الإصلاح من الأسفل قد أخمدت بفعل الضغط من الأعلى، وخصوصاً من الإمبراطورة الأرملة المحافظة للغاية. ولكن بعد أن قامت القوى الغربية بقمع ثورة البوكسر المعادية للأجانب، في العام 1900، وبعد أن أجبرت البلاط على دفع

www.ibtesama.com/vb

تعويضات مالية مذلة، أدركت الإمبراطورة الأرملة وحلفاؤها المحافظون المقاومون للإصلاح بعناد أن عليهم أن يغيروا. ولكن ذلك كله جاء متأخراً جداً، وانهارت البلاد في الحال.

وفي المناطق الغربية في العام 1907، كانت السيطرة الصينية مهزوزة للغاية، على الرغم من أن الأراضي الواقعة خارج فم قلعة جيايوغوان كانت على ما يفترض جزءاً من إمبراطورية أسرة شينغ العظيمة منذ إخضاعها في انتصارات منتصف القرن الثامن عشر. وقامت أسرة شينغ بحملة واحدة أخيرة لتهدئة الغرب في الثمانينيات من 1880 ولكنها لم تكسب أي قلوب وعقول من السكان المحليين في أثناء العملية، وكان وجود حكومة مركزية ضعيفة زائداً اتصالات هزيلة في كل أنحاء البلاد يعني أن بكين مارست سيطرة مباشرة صغيرة جداً على المناطق النائية مثل غانسو، وشينكيانغ، التيبت. وكانت البقايا الإمبراطورية الضعيفة للبلاط في بكين قد تركزت على محاولة الدفاع عن الصين ضد شعب المحيط القادم من الشرق. ولم يظنوا ولو قليلاً أن بعض شعب المحيط الماكر سيتسلل إلى الداخل من الغرب وله أهداف آثارية، لا عسكرية.

وكان البريطانيون والروس قد بدؤوا لعبة الشطرنج الجغرافية الإستراتيجية الخاصة بهما مثل اللعبة الكبرى التي خلدها روديارد كيبلنغ في كتابه، (كيم)، عن الإمبراطورية البريطانية. وكان قسم كبير من اهتمام كل منهما في غانسو، وتركستان الصينية (شينكيانغ الآن)، التيبت اهتماماً استراتيجياً. لقد توسع الروس إلى آسيا الوسطى وكانوا يستكشفون أطراف إمبراطوريتهم. وكان البريطانيون قلقين بشأن إغارات الروس في الهند الإمبراطورية، وهكذا بدأت الجهود باهتمام جدي لرسم خريطة المناطق المحيطة بشبه القارة. وأرسل البريطانيون الجواسيس، وكانوا في الغالب تحت غطاء، لمسح البلدان المحاذية، وبشكل رئيسي ليعلموا إن كان الاقتراب الروسي إلى الهند من الشمال ممكناً أو مخططاً له.

والاهتمام الآخر، الثانوي، للبريطانيين وللروس، ولكثيرين غيرهما، كان اهتماماً آثارياً. وسرت هناك إشاعات لبعض الوقت في أثناء منتصف القرن التاسع عشر عن وجود مدن بوذية مخبأة تحت الرمال المتحركة في تركستان الصينية، وربما

www.ibtesama.com/vb

كانت حضارة بوذية منسية بأكملها. وقام ضباط الاستخبارات البريطانيون بغزوات مفاجئة سرية أسفرت عن اكتشافات مثيرة للاهتمام، أقنعت علماء الآثار في الهند البريطانية بأن هناك في الحقيقة منتجات خيالية من صنع الإنسان تحت الصحراء، وبدأ سباق بين القوى الأوروبية للكشف عنها.

والرجل الذي برز بوصفه جداً للاكتشاف الأوروبي الواسع النطاق كان رجلاً سويدياً عنيداً متحدياً اسمه سفين هيدين. وقام هيدين بأربع حملات استطلاعية إلى آسيا الوسطى بين العام 1893 والعام 1935. وكان يعرف هيدين بغرابة أطواره، مثل عزف موسيقى بيزيت المسماة (كارمن) في صندوقه الموسيقي في وسط الصحراء. ولكنه كان مستكشفاً جسوراً تجرأ على الظروف الشرسة في الصيف والشتاء وشرب حصته العادلة من بول الجمال حين نفذت إمدادات الماء لديه في الصحراء. وفي رحلته الاستطلاعية الثانية في العام 1899، اكتشف هيدين مدينة لولان التي كانت مفقودة لزمن طويل، وهي موقع متقدم مزدهر سابقاً على طريق الحرير وكانت قد اختفت تحت الرمال حين غير نهر تاريم مجراه في القرن السادس.

سفين هيدين والروسي الشهير نيكولاي بيرجيفالسكي، الذي تجول أيضاً في كل أرجاء تركستان الصينية التيبت، كانا أول وأهم المستكشفين، وكلاهما اشتغل بعلم الآثار. (وكان هيدين جغرافياً كذلك ورسام خرائط.) أما أوريل ستاين، في المقابل، فكان عالماً قمة في علم الآثار، وكان مستشرقاً، وهو الذي دعاه فيما بعد العالم الآسيوي العظيم أوين لاتيمور «أعظم مزيج جمع العالم، والمستكشف، وعالم الآثار والجغرافي في جيله».

في أثناء رحلته الأولى في العام 1900، مصحوباً مع قافلة كاملة من الجمال والمرشدين المحليين، وكلب صيده الجسور داش، سافر أوريل ستاين صاعداً من الهند على طول طريق الحرير الجنوبي، وبدأ بالتنقيب والكشف عن مدينتي داندان - يوليك ونييا. ووجد هناك لا الدلائل على الوجود الصيني فقط من القرن الثامن بل وجد أيضاً أختاماً صلصالية على ألواح خشبية تصور آلهة يونانية، تبين أن الصور الفنية الغربية كانت قد سافرت شرقاً على طول طريق الحرير. وفي الماضي حتى ذلك

www.ibtesama.com/vb

الزمان، ما من أحد عرف أن التأثيرات الأوروبية قد سبق لها في أي وقت أن وصلت إلى ذلك البعد.

وفي رحلته الثانية، في الصيف من 1906 ـ 1907 زار ستاين مدينة لولان، وهي المدينة الصحراوية التي كان هيدين قد اكتشفها قبل سبع سنوات خلت. ونفذ حفريات آثارية شاملة في درجات حرارة تحت الصفر (وكان العمل في برد مجمِّد يُعد أسهل من العمل في حرارة شديدة محمِّصة) واكتشف المزيد من الوثائق الفاتنة، التي كشفت الكثير عن الموقع الصيني السابق المتقدم في الغرب.

وهكذا، ففي ذلك الصباح البارد من آذار/مارس في العام 1907 حين وصل أخيراً إلى دونهوانغ، كان أوريل ستاين متألقاً بالنجاح. ومذكراته عن الرحلة، وهي الكتاب الفاتن (خرائب صحراء كاثي)، يوحي بأنه لم يكن يتوقع أن يعمل أي شيء أكثر من زيارة كهوف الألف البوذا، وهي سلسلة من الكهوف التي صنعها الإنسان وكانت معروفة طوال مدة مديدة للمسافرين الذين كانوا يتوقفون في دونهوانغ. ولكن بعد وصوله مباشرة، سمع من تاجر من أرومجي أن راهباً طاوياً اسمه وانغ يووانلو، كان قد عين نفسه حامياً ورئيس رهبان للكهوف، قد اكتشف غاراً سرياً كان قد ختم لعدة قرون. وسرت في السوق كلمة تقول إن الكهف كان مليئاً بالمخطوطات القديمة.

وذهب ستاين، مع جيانغ، كاتبه الصيني المخلص، القريب في متناول اليد، في زيارة إلى رئيس الرهبان وانطلق في بناء صداقة معه بغرض واحد في رأسه: وهو إقناع الراهب بأن يسمح له بأن يرى، وبعدئذٍ من المحتمل أن يسمح له بأن يأخذ، بعضاً من المخطوطات الثمينة.

وبحث ستاين عن أرضية مشتركة مع رئيس الرهبان وانغ في إعجابهم المشترك في شوين دزانغ، الراهب الصيني المعروف معرفة جيدة في كل أنحاء الصين بسبب سفرياته إلى الهند بحثاً عن الكتب المقدسة البوذية في القرن السابع. رئيس الرهبان وانغ كان فعلاً متأثر المشاعر من أن ستاين كان معجباً متحمساً لشوين دزانغ ووافق في النهاية على السماح لستاين بأن يقرأ بعض الوثائق القديمة، ثم سمح له بأن يدخل

www.ibtesama.com/vb

إلى داخل الكهف المكتبة نفسه. ووصف ستاين بتعبير مخفف متحفظ للخبرة التي شعر بها يناقض أهمية الاكتشاف.

منظر الغرفة الصغيرة التي انفتحت كان منظراً جعل عيني منفتحتين. ظهرت مكدسةً للأعلى في طبقات، ولكن من دون أي نظام، ظهرت هنالك في الضوء الخافت للمصباح الصغير لدى الكاهن، كتلة صلبة من رزم المخطوطات ترتفع إلى علو يقارب عشرة أقدام تقريباً، وتملأ، كما أظهر القياس اللاحق، ما يقارب 500 قدم مكعب.

لقد كانت كنزاً من مجموعة نفيسة من المخطوطات في عدة لغات، ومن جملتها الصينية، والسنسكريتية، التيبيتية، والويغورية. ومجملها يقارب أربعين ألف مخطوطة. بعد أسابيع من المشي على رؤوس الأصابع بلطف حول وانغ ومخاوف رئيس الرهبان من فقدان نفوذه على الكهوف، نجح جيانغ المساعد الصيني لستاين، في أن يقنع وانغ بأن يسمح بالاستغناء عن بعض المخطوطات. وبزيادة المبلغ ببطء، حصل بالتدريج على المزيد، حتى دفع 130 جنيهاً إسترلينياً في مقابل تسع وعشرين حاوية مليئة بالمخطوطات، والرسوم، والمطرزات، والتذكارات الأخرى، وبعدئذٍ شحنت عائدة إلى المتحف البريطاني.

حين عاد ستاين إلى إنجلترا، حلل هو وخبراء آخرون الوثائق واستنتجوا أن الكهف المكتبة كان مختوماً حتى 1000 بعد الميلاد تقريباً، وكان هواء الصحراء الجاف يساعد على حفظ المخطوطات. وتبين أن إحدى الوثائق هو أقدم كتاب مطبوع معروف في العالم، (دياموند سوترا)، وهو لفة مصنوعة من سبعة ألواح من الورق، كانت قد استخدمت القوالب الخشبية المحفورة للطباعة عليها. وهو الآن محفوظ في المكتبة البريطانية، وهذه المكتبة، إلى جانب المتحف البريطاني، قالت إنها لن تعطي أي مخطوطات وتعيدها إلى الصين.

حين سرت الكلمات عما اكتشفه ستاين وخرجت للعلن، بدأ السباق. وقد تبعه عالم آثار فرنسي متألق ولغوي اسمه بول بليو، وأقنع أيضاً بطريقته للوصول إلى المكتبة الكهف في دونهوانغ ونجح في نقل مئات أخرى من المخطوطات وعاد بها إلى باريس.

www.ibtesama.com/vb

ثم جاء آلبرت فون لو كوك، وهو ألماني أرسله متحف الأعراق البشرية في برلين. وبدأ الروس واليابانيون أيضاً يدخلون في العمل. وأخيراً، في العام 1923، أُرسِل الأستاذ لانغدون وورنر إلى دونهوانغ من طرف متحف فوغ في هارفارد. وكان قد طور طريقة مبدعة لتجريد الرسم عن الجدران وبدأ يفعل ذلك لا غير في بعض الكهوف في دونهوانغ، وشحن الرسوم بالسفن عائداً بها إلى بوسطن. جميع علماء الآثار نهبوا ما استطاعوا، لا في دونهوانغ وحسب بل في العديد من المواقع في مقاطعة غانسو وتركستان الصينية. وكانت الصين بلا قوة لإيقافهم.

وصلت الأخبار إلى بكين وشنغهاي عن شعب المحيط الذي يغزو كهوف الألف بوذا، وهذا ما زاد إيقاد غضب شباب الصين الحضري الوطني بشكل متزايد. وفي ذلك الوقت، كانت الصين قد انهارت انهياراً كاملاً، بعد فشل ثورة العام 1912، ثم بعدئذٍ عانت من إذلال معاهدة فرساي في العام 1919، وهي التي عملت، في إنهائها للحرب العالمية الأولى، على تسليم كل امتيازات ألمانيا في الصين إلى اليابان. وقد لعب عجز الحكومة الصينية عن وقف نهب تراثها الفني الثمين دوراً كبيراً في حفز شباب الصين على إعادة اختراع البلاد، وإعادة الحيوية لها، وإعادة تقويتها. وكانت تبرز موجة ضخمة من القومية في مدن الشرق، ومع حلول العام 1925، حين عاد لانغدون وارنر للقيام بزيارة ثانية إلى الكهوف، لم يستطع الحصول على أي وصول إليها. وكان الباب قد أغلق على عشرين عاماً من السلب والنهب، الذي كان له أثر أساسي على النفس الصينية.

وما تكشف بعدئذٍ، مع ذلك، كان مأساة مزدوجة (كما هي المآسي الصينية في الغالب) وذلك لأن ما استقر عليه الشباب الوطني المهتم في الصين أخيراً من أجل الإنقاذ كان هو الحزب الشيوعي الصيني تحت الرئيس ماو. وماو لم ينقذ ماضي الصين، بل دمره. وفي أثناء الثورة الثقافية، صار أي شيء قديم أو ديني هدفاً، وكثير من الكنوز الموجودة على طول طريق الحرير، ومن جملتها بعض الكهوف في دونهوانغ أتلفت.

www.ibtesama.com/vb

والآن، وبعد مائة عام على أخذ ستاين لفافات الورق، وبعد أربعين عاماً من مجيء الحرس الأحمر عاملاً بمطارقه، تنفتح الكهوف في دونهوانغ للجمهور، وتدر تجارة السياحة كميات كبيرة من النقد الحاضر إلى المنطقة. وكهوف الألف بوذا، ودونهوانغ نفسها، تنتقم بالتدريج من إهانات الماضي وتتحقق من أنها لن تحدث ثانية. وثقة المدينة بنفسها المكتشفة حديثاً يجري عرضها متألقة بثلاثة حروف صينية بأضواء النيون على قمة قيادة الحزب الشيوعي في مركز دونهوانغ. وتقول:

«اندفعوا نحو الرفاهية المعتدلة».

تقع كهوف موغاو على بعد اثني عشر ميلاً تقريباً عن دونهوانغ، وكان أوريل ستاين قد وصل إليها على الجمال عبر امتداد قصير للصحراء من المدينة. وفي هذه الأيام، تئز حافلات السياح وسيارات الأجرة ذهاباً وإياباً كل اليوم. إنها مسافة قصيرة للسواقة، تمر إلى جانب مطار المدينة الصغير ولكن المشغول، وإلى الصحراء المفتوحة واسعاً مرة أخرى لمدة قصيرة، قبل أن ترى وجه منحدر أصفر منخفض أمامك إلى يمينك، منقطاً بالكهوف مثل نخاريب قرص العسل. ويقف بجانبها برج من أبراج الهاتف الخليوي.

وأتعجب بصوت عال لسائق سيارة الأجرة السمين عن طبقات الدين المتراكمة في هذا المكان. «إنه مثير للعجب كيف كانت هذه المنطقة مثل هذا المركز للبوذية منذ ألف وستمائة عام، ثم جاء الإسلام قُدماً وحل محلها كلها».

ويهمهم

وأقول بعد توقف: «والآن، إنها طبقة من الإلحاد». ويهمهم ثانية.

وأسأله: «هل تؤمن بأي شيء؟»

ويجيب: «لا، لا أؤمن».

«وهل تظن أنها كلها خرافة ؟»

www.ibtesama.com/vb

«نعم». وهو يومئ برأسه، ولا يلقي انتباهاً فعلياً. ثم يشير إلى أول الكهوف، المقطوعة في الوجه الصخري بارزة إلى يميننا. «هذه هي الكهوف التي اعتاد الرهبان أن يعيشوا فيها. أما الكهوف المرسوم عليها فهي في الأعلى أمامنا».

صور ستاين للكهوف تظهر مداخلها على ارتفاع خمسين قدماً، لا يمكن الوصول إليها إلا بسلم. في الستينيات من 1960، مع ذلك، قبل جنون الثورة الثقافية، والكهوف في حالة سيئة بعد عقود من الإهمال، بنيت ممرات مشي إسمنتية خارج الصفوف الثلاثة من الكهوف، وذلك لكي يكون كل الذي عليك أن تفعله هو أن تتسلق بعض الدرجات لتصل إليها. وأضيف نوع من الإسمنت المسلح بوجه من الحصى إلى وجه المنحدر كذلك، لمنعه من الإنهيار حسب ما يفترض، وأضيفت أبواب قوية لكل كهف لضبط الوصول إليها. وجميع هذه التجديدات قد تكون ضرورية، ولكنها مجتمعة معاً تعطي وجه المنحدر مع ممرات المشى فيها جو مشروع إسكان حضري مبني بناء سيئاً. وهذه أول زيارة لي إلى الكهوف، ولدى شرائي لتذكرتي، أدخل عبر البوابة، وأمشي نحو الكهوف، وأنا لست متأكداً بأمانة إن كانت هذه هي كهوف الألف بوذا المشهورة التي بلغت ألفاً وستمائة عام من عمرها أو هي بعض الغرف المستخدمة للتخزين.

بعد أن تصير معتاداً على التحديث الغريب نوعاً ما للخارج، مع ذلك، تستطيع أن تبدأ بالغوص في كل تلك الحالة العقلية المتمثلة في التعجب من أن هذه الكهوف كانت هنا طوال ألف وستمائة عام وهي الحالة العقلية الواضحة على وجوه كثيرين من الزوار وهم يطوفون في الموقع.

دخلت البوذية الصين في القرن الأول بعد الميلاد، ولكن أسرة هان كانت كونفوشيوسية بشكل علني، ولم تستطع البوذية، حتى سقوط الهان، وفترة عدم الوحدة من 220 إلى 589 بعد الميلاد، أن تصنع غزوات حقيقية في الصين. وتقارن تلك الفترة أحياناً بوصف إدوارد جيبون لأوروبة بعد سقوط روما في العام 476 بعد الميلاد بأنه «انتصار البربرية والدين».

الكهوف جميعها من صنع الإنسان، وأول كهف يبدأ تاريخه من 366 بعد الميلاد، حين رأى، كما تقول الأسطورة المحلية، راهب بوذي اسمه لوزون رؤية بوجود ألف

www.ibtesama.com/vb

بوذا هنا وأقنع حاجاً ثرياً من طريق الحرير بأن يمول أول كهف معبد. وطوال قرون نُحِت خمس مئة منها من الصخر. وبعض الكهوف ضئيلة، وأخرى تصل إلى أكثر من ارتفاع خمسين قدماً لتؤوي تماثيل ضخمة لبوذا. ومع مجيء الحجاج على طول طريق الحرير، نحتوا المزيد من الكهوف، وكثيرون، مثل الراهب المشهور شوان دزانغ، جلبوا معهم كتباً مقدسة جديدة. وكان التجار يرعون كهفاً ليكون مكاناً للصلاة من أجل السلامة حين السفر في طريق الحرير. ثم أهملت في القرن الرابع عشر تقريباً، مع مجيء الإسلام، وأعيد اكتشافها بعد خمس مئة عام فقط.

والكهوف رائعة مؤثرة. وتابعت أنا السير خلف مجموعة سياحية مكونة من صينيين من الأرض الرئيسية، ومن سياح تايوانيين معاً. والمرشد يخبرهم كيف أن أقدم العمل الفني هو من أسرة ووي من القرن الرابع بعد الميلاد، حين كانت البوذية تبدأ بمد جذورها. وفن هذه الفترة مازال يحتفظ بتأثيره الهندي، وهو واضح في التماثيل النحيفة مع الأيدي الصغيرة والرؤوس الكبيرة. وفي أثناء القرنين السادس والسابع، حين نمت التجارة على طول طريق الحرير وزاد التأثير الصيني، بدأت الرسومات والتماثيل تشتمل على المزيد من الأشكال الأنثوية، مع تنامي تأثير الآلهة الصينية الأنثى غوانيين.

لا يسمح بأي أضواء اصطناعية في الكهوف، ولذلك فالمرشد يستخدم كشافاً لتقوية الأشعة الضعيفة لضوء الشمس الذي يصارع إلى الداخل من خلال المداخل الضيقة. العديد من المغارات مزينة برسوم من أشكال بوذية وقصص من الماضي وأفاريز ملونة كذلك، في الألوان المشرقة الأصلية من برتقالي، وأخضر، وأزرق.

وفي الحال تأتي إلى أشهر كهف في كل المجمع، وهو الكهف رقم 17. إنه موضوع في الصخر في منتصف الطريق على طول الممر الذي يقود إلى كهف آخر.

ويقول المرشد: «هذا هو الكهف المكتبة. ففي العام 1900 وجد هذا الكهف بالصدفة وانغ يووانلو، رئيس رهبان دونهوانغ الذي عين نفسه بنفسه، وكان الكهف قد أغلق إغلاقاً محكماً على نحو كامل. وبداخله، اكتشف كنزاً من مجموعة نفيسة من الوثائق القديمة، عمرها ألف سنة تقريباً، كانت قد حفظت في هواء الصحراء الجاف».

www.ibtesama.com/vb

ويصف المرشد السياحي بعض الوثائق، ومن جملتها دياموند سوترا «لكن اللصوص وصلوا بعدئذٍ».

وكان اللصوص هم ستاين، وبيلليو، ولو كوك، ووارنر، وآخرون. ولا يكشف المرشد عن أي عاطفة وهو يروي قصة الكيفية التي سرق بها الأجانب مكتبة الكهف، ونقلوا بها المحتويات وعادوا بها إلى متاحف أوروبة. وهو يقول كلمة لصوص من دون أي عداوة حقيقية، وبِوَصفٍ مباشر غير عاطفي حول شيء ما حدث منذ مائة عام.

اتبعت المجموعة طوال ساعة أو ما يقاربها، ثم انسلخت عنها وتوجهت إلى المتحف الصغير، الذي يدرج في مسرد مصور كل تاريخ «اللصوص» وما أخذوه، مكتملاً مع صور ستاين، وبيلليو وآخرين. وفي طريق الخروج، أبدأ بالتحادث مع المرأة التي تقف خلف المنضدة.

وأسألها: «هل غفرتم لنا فعلنا كل هذا ؟»

وبطريقة صينية مؤدبة نموذجية، تخفض رأسها ولكنها لا تجيب فوراً.

وأضغط عليها: «لم تغفروا فعلاً، هل فعلتم ؟»

«لا. أنت على حق. لم نغفر فعلاً».

وأحاول أن أخفف حالة المزاج قليلاً، وأخبرها أنني على وشك أن أذهب إلى لندن، وربما أستطيع أن أتحدث بكلمة إلى الناس الموجودين في المتحف البريطاني وأطلب منهم أن يعيدوا المخطوطات الكنز.

وتقول هي: «جيد. يجب أن تفعل ذلك. «ووجهها يشرق». من فضلك افعل ذلك».

وأنهي اليوم في ملمح جذاب رئيسي آخر من دونهوانغ، وهو الرمال المغنية، وهي سلسلة من الكثبان الرملية سميت على اسم الأصوات الغريبة المخيفة التي يفترض أن تصدرها حين تهب الريح. وبالنسبة إلى أولئك الذين عبروا عن دهشتهم ورضاهم بتعابير أوه، وآه بطريقتهم عبر الثقافة العالية لكهوف الموغاو، تقدم الرمال المغنية فرصة لإبداء الدهشة والرضا بأوه وآه في جو أكثر استرخاء بقليل، لأن الملمحين الرئيسين الجاذبين هنا هما ركوب الجمال وركوب الرمال.

www.ibtesama.com/vb

حشد من السياح في الحر الشديد، من الصينيين والأجانب، ينظرون بعصبية إلى حشد من الجمال في الحر الشديد عند مدخل الرمال. ومن حين إلى آخر يقوم زوج من الناس بالانفصال عن مجموعتهم ويتجهون إلى عضو من جمعية الجمال يكون ودوداً إلى أفضل حد يستطيعون أن يجدوه، ويتسلقون بصعوبة على السرج الموجود على ظهر الحيوان بمساعدة مالك الجمل، ثم تجري قيادتهم إلى الخارج عبر الرمال. لا شيء يقول تماماً «طريق الحرير القديم» مثل مرأى جمل بكتيريا ذي السنامين وبوزن طنين، وهذه الجمال مطلوبة طلباً كبيراً حيثما يوجد السياح الذين يريدون أن يعاودوا العيش في الإثارة التي تعطيها رحلة شاقة عبر كثبان الرمل.

وأنا أقف محاولاً أن أقاوم الانجذاب إلى مثل هذا العرض المثير للازدراء من السياحة الطائشة. ولكن الرغبة الملحة لخيالي الخاص الشرقي أمسكت بي وسيطرت. فتقدمت جانبياً إلى واحد من ساقة الجمال باقتراب مثير للشفقة من شخص يحاول يائساً ألا يبدو مثل سائح، وفي نهاية الأمر أتسلق على حيوان يصدر ضجة على نحو خاص وله رائحة خاصة. والمسافة مسيرة نصف ميل فقط في ظلال الكثبان الرملية الهلالية إلى بحيرة صغيرة هي بحيرة القمر الهلال، المخبَّأة بعيداً بين جبال من الرمال. وكانت البحيرة قد اجتذبت الحجاج طوال قرون. وسرت في أثر امرأتين من هونغ كونغ، تصرخان وتتحادثان وتصيحان على جمليهما بلهجة كانتونية من اللغة الصينية طوال الطريق إلى البحيرة.

وينتظر سائق الجمل صعودي إلى البحيرة وأنا أتعرق وأشق طريقي صاعداً درجاً خشبياً طويلاً جداً قُطع في الرمال إلى قمة الكثبان. من هناك، يطل منظر مذهل بعيداً فوق بحيرة بشكل الدمعة، وفوق الكثبان، والمدينة فيما وراءها. هناك حشد من الناس في القمة، كلهم يجلسون ليستجمعوا أنفاسهم وليستمتعوا بالمنظر، مع نسمة صحراوية لطيفة تهب ومع غروب الشمس متفجراً أمامنا.

الطريق في النزول أسهل نوعاً ما. ويتضمن الجلوس على مزلقة صغيرة تبدو أكثر ما يكون مثل صينية الشاي وتندفع بعيداً، والرمال تتطاير في كل مكان حولك كلما أسرعتَ، صارخاً، إلى أسفل الكثيب الرملي.

www.ibtesama.com/vb

ميلدريد كيبل والأختان فرنش جئن إلى دونهوانغ مرات عديدة في أثناء العشرينيات من 1920 والثلاثينيات 1930، ويوجد وصف رائع في واحد من كتبهن لثلاث مبشرات إنجليزيات متوسطات العمر يركبن الرمال. ومازلت تستطيع تقريباً أن تسمع الصراخ.

www.ibtesama.com/vb

19
قوة التحمل

مضت ساعتان خارجاً من دونهوانغ، والتحقت قبل قليل بالطريق 312، متجهاً نحو الغرب. والطريق مسار واحد فقط في كل اتجاه، مع وجود كتف ضيق قاس، في حالة كان عليك، لا قدّر الله، أن تتعطل هنا. ويوجد خط أبيض بائس نوعاً ما يحاول أن يفصل الزفت عن الصحراء، ولكن الاثنين في الغالب يندمجان تماماً. ونحن نقترب من الحدود مع منطقة تدعى شينكيانغ، التي كانت تعرف سابقاً باسم تركستان الصينية. بضعة حافلات ركاب وشاحنات زرقاء صغيرة تئز عابرة عنا، إضافة إلى شاحنات ضخمة مفصولة في قاطرة ومقطورة تمر بين الفنية والفينة، وهي أطول بثلاثة أضعاف من أقاربها الشاحنات الزرقاء، وتجر تقريباً سيارة الأجرة المتواضعة الفولكس فاجن الحمراء التي نركبها إلى تيارات الهواء المزاح خلفها وهي تسرع متجاوزة لنا. وبعيداً أمامنا، يظهر واحد من هذه الوحوش وقد انقلب على جانبه إلى الأسفل من حافة صغيرة ويضطجع مثل حوت أخرج على الشاطئ في بحر من الرمل.

ويقول سائقي في سيارة الأجرة: «لا بد أن السائق نام». وسائقا الشاحنة يقعدان القرفصاء في ظل الشاحنة المصابة ينتظران على ما يفترض الحصول على العون.

وأسأل: «ألا يجب علينا أن نقف لننظر إن كانا يحتاجان إلى المساعدة؟»

«لا. يحتمل أن لديهما شخصاً ما قادماً من قبل لإنقاذهما».

«لا تتدخل» مازالت هي القاعدة الأولى للحياة في الصين.

الألوان في كل الجهات اليوم خافتة. والصحراء مفككة ضئيلة النمو صفراء، تمتد إلى الأبد على جانبي الطريق. وتوجد على طول جانب الطريق مجموعات من الشجيرات الخشنة، الخضراء القذرة مما أعتقد أنه يعرف باسم عشب الجمل،

www.ibtesama.com/vb

على الرغم من أنني، بصراحة، لو كنت جملاً لأدرت أنفي عالياً عن هذا العشب. والسماء نفسها اليوم تبدو ممسوحة بلطخات من الغيوم الرمادية البيضاء. ولا توجد مستوطنات هنا. فالبشر يعبرون المكان بشكل صارم لا غير. وشرارة اللون الوحيدة هي فقط الدهان الأصفر في الخطوط المخطوطة في منتصف شريط الزفت الأسود، الذي يشير نحو الأفق الغربي.

فجأة، في الأمام على الطريق تظهر عدة بقع صفراء أخرى أشد تألقاً. وحين نقترب منها أكثر، يصير واضحاً أنهم راكبو دراجات، خمسة في مجموعهم، ثلاثة منهم يلبسون القمصان الصفر لفريق كرة القدم البرازيلي. هذه صحراء حقيقية، ولا أستطيع أن أصدق أن أحداً يقوم بركوب الدراجات في العراء هنا. وأطلب من السائق أن يقف بعدهم تماماً، هناك أقفز خارجاً وأؤشر لهم بالوقوف.

«هيه ! هل تستطيع الوقوف؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟»

«إلى ينينغ». يقول أول دراج، وهو يدفع الدراجة إلى الوقوف أمامي. وأصدقاؤه يقفون خلفه. ينينغ هي البلدة الواقعة تماماً إلى جانب الحدود الكازاخية، وهي المكان الذي أتجه إليه أيضاً.

«من أين أنتم قادمون؟»

«من لانجو».

«لماذا تركبون دراجات؟»

«لقد أردنا فقط أن نخرج ونستكشف بلدنا قليلاً. إنها مغامرة».

الخمسة كلهم طلاب صينيون ودودون، مبتسمون نموذجيون، راغبون في الإجابة عن أسئلتي، على الرغم من أنها ستكون في حرارة تزيد عن مائة درجة في الظل لو كان يوجد الظل. وهم جميعاً أعضاء في أقليات عرقية إسلامية من الشمال الغربي وهم يدرسون في المدرسة العربية في لانجو.

www.ibtesama.com/vb

وتحادثنا لبضع دقائق أخرى، ثم رجعت إلى السيارة، وأنا أشعر بأنني محرج قليلاً لأنني في سيارة وهم يرجعون لتسلق دراجاتهم خلفي تحت شمس غوبي التي لا رحمة فيها.

وكنت قد انطلقت مبكراً من دونهوانغ في ذلك الصباح، وسارت السيارة ساعتين إلى الشمال، ثم انعطفت يساراً، باتجاه الغرب، ورجعت للسير على الطريق 312. وكانت هناك بوابة ضخمة لدفع رسوم المرور ميزت المدخل إلى القسم التالي من الصحراء. وعلى مسافة ميل أو ما يقارب ذلك بعد رسم المرور، وقبل أن قابلنا راكبي الدراجات، كانت شاحنة ضخمة مفصولة في قاطرة ومقطورة قد وصلت على الطريق قادمة من الصحراء المفتوحة. بل هي لم تكن قادمة من طريق جانبي تسوق فيه، فليس هناك طرق جانبية، ولكنها كانت حرفياً تدخل إلى الشارع تسوق قادمة من غوبي.

قال سائقي: «إنه يتجنب دفع الرسوم. لقد ساق خارج الطريق تماماً إلى الصحراء قبل بضعة أميال من بوابة رسوم المرور، وتحرك في حلقة حول موقع البوابة، وعاد إلى الالتحاق بالطريق بعد بضعة أميال بعد موقع البوابة».

والصحراء هنا لا هي من نوع صحراء الحبيبات الناعمة للرمال المغنِّية ولا هي من نوع السطح القاسي ذي اللون المائل للصفرة البنية والشجيرات البرية مثل الأقسام السابقة من غوبي. إن عليها طبقة من السواد عبر السطح. ويقول السائق إنها معروفة باسم يعني «الرمل الأسود». ويقول لي: «إنه فلز الحديد. إنه ليس من نوعية جيدة بما يكفي للقيام بتعدينه، ولكن توجد بعض المناجم هنا».

ويشير إلى جهة الشمال، إلى الفراغ الهائل خلفه. «قصدير، وألومينيوم، ونحاس، وفلز حديد، وذهب». رواسب هائلة من الموارد المعدنية تثوي تحت رمال الصحراء. النفط والغاز يُضخان من قبل إلى الشرق لتزويد ازدهار الصين الاقتصادي بالوقود، وإمكانية اكتشاف المزيد هنا يمكن أن يثبت أنه مهم جداً مع ازدياد شدة طلب الصين للطاقة.

www.ibtesama.com/vb

شينكيانغ، (وتعني «الحدود الجديدة») في حجم كاليفورنيا، وتكساس، ومونتانا، وكولورادو مجتمعة (أو،إن كنت تفضل فهي في حجم بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإسبانيا). لو كانت بلداً واحداً، لكانت في المركز السادس عشر من بين أوسع البلدان في العالم، ولكنها تضم عدداً من السكان يبلغ 20 مليون نسمة فقط. وحين التحدث بدقة، لا نستطيع أن ندعو شينكيانغ مقاطعة. إن عنوانها الرسمي هو منطقة الحكم الذاتي لشينكيانغ الويغور. والويغور هم المجموعة العرقية المسيطرة هنا، وهي المجموعة التي تسبب لبكين أكثر المشكلات.

دعاية الحكومة لم تتغير، ولكن اللغة تغيرت. فلمسافة ألفي ميل، كانت الحروف الصينية هي السائدة في لافتات الطريق. أما الآن فعليها أن تزاحم للحصول على الحيز مع أسماء المكان المكتوبة بلغة الويغور، التي تستخدم الحرف العربي.

ادفعوا قدماً بالتقدم الاقتصادي لهامي
احموا كابلات الصين الموجودة تحت الأرض
أحبوا أطفالكم البنات

ويهتز هاتفي الخليوي الجوال، مثلما تهتز كل الهواتف الجوالة الصينية حين تدخل مقاطعة جديدة أو منطقة جديدة. وتقول رسالة: «أهلاً إلى شينكيانغ». ثم تأتي رسالة أخرى: «أتتطلع إلى هبة ؟ حجر اليشم من بلدة خوثان متقن لأي مناسبة. هاتِفْ هذا الرقم الآن».

بعد قليل نصل إلى بلدة صغيرة هي شينغ شينغ شيا، أو الممر الخانق النجمي، وهي الجزء الصغير من المسكن الإنساني الذي حدد دائماً دخول المسافر إلى شينكيانغ. إنه موقع واحد من آبار الماء العذب المعروفة جيداً في طريق الحرير القديم. وبعد المرور عبر الممر الضيق الخانق الذي يعطي البلدة اسمها، أقف لتناول الغداء في مطعم صغير على جانب الطريق. ولا تكاد البلدة تتأهل لوصف واحة إنها تبدو قاحلة جداً.

مالك المقهى الصغير اسمه لاو جانغ. ويبدو أكبر سناً من أعوامه الخمسة والأربعين ومازال يدير موقف الشاحنات الصغير هنا في الممر النجمي طوال عشر سنوات. وهو

www.ibtesama.com/vb

صيني من الهان، وجاء في الأصل من مدينة توربان، أبعد إلى جهة الغرب على الطريق 312. لاو جانغ نوع مرح من الناس. ولا يستغرق الكثير من الوقت لجعل فمه المزموم ينفرج عن ابتسامة كبيرة، ثم عن ضحكة تنفجر من داخله.

وحين أدخل مقهاه الصغير، أجد أنه في المطبخ، يقلي بطريقة صينية سريعة بعض الطعام لاثنين من سائقي الشاحنات، يجلسان بانتظار تناول طعام الغداء. ويأتي هو ويبتسم، وأقرر أن أذهب معه وأتحادث معه في أثناء قيامه بالطبخ. وعلى الرغم من نافذة مفتوحة على مصراعيها، فالمطبخ فرن، ولهب الغاز يقفز إلى الأعلى إلى جانب المقلاة السوداء الوسخة وهو يطبخ.

وأقف إلى جانب النافذة المفتوحة وأسأله ببساطة كيف هي الحياة؟ ويفتح سؤالي بوابة فيضان.

«كيف هي الحياة؟ كيف هي الحياة ؟ الحياة ليست جيدة. هل تعرف لماذا ؟ لأن المسؤولين قد أغلقوا بئرنا بالختم. البئر التي أعطت الماء إلى شينغ شينغ شيا طوال قرون ختمت بالإسمنت المسلح».

وينظر إلى الأعلى عن مقلاته المسودة، ثم يرش صلصلة الصويا على المقليات في المقلى، التي تئز حين يرمي فيها الصلصلة. «المسؤولون هنا شريرون للغاية، غير أخلاقيين على نحو لا يصدق للغاية، إنها تتحدى التصديق تقريباً».

وأسأله: «ولكن لماذا من كل الأشياء الممكنة، يريدون أن يفعلوا ذلك ؟»

«لأنهم...». ويتوقف مرة أخرى ويخطو إلى الخلف بعيداً عن فرن الغاز، والمقلاة في يده، لينظر إلي. «لأنهم يديرون شركة الماء المحلية، ويريدون أن يجبروا كل واحد منا على شراء مائهم».

في كل الحالات، حتى حين تعتقد أنك تعرف شيئاً عن ارتشاء المسؤولين الصينيين، مازالت هذه القصص تستطيع أن تذهلك وتحبس أنفاسك. ويقول لاو جانغ إنه جادلهم محتجاً، ولكنهم لا يستمعون إليه. ويقول إنهم استخدموا الحجة التقليدية بعد 11/9 لمسؤولي الحكومة في شينكيانغ، وهي منطقة فيها عدد عال من السكان المسلمين.

www.ibtesama.com/vb

«قالوا إنني إذا تابعت الاحتجاج، فإنهم سوف يقبضون علي بصفة إرهابي». وحين يقبض عليك بصفة إرهابي في الصين، فلن يكون لك أي مرجع لطلب العون، ولن يكون لك محام، ولا حماية. وهكذا كان على لاو جانغ أن يخرس. ولكنه يرفض أن يشتري ماءهم.

الطعام جاهز. ويديره كالدوامة ويصبه في الصحن ويختفي خلف الستارة الوسخة ليقدمه إلى سائقي الشاحنات. ويعود، ويمسح يده بمنشفة هي أشد وسخاً أيضاً، ويقف وينظر إلي، وكأنه يكوّن رأياً عني فعلاً لأول مرة.

ويصنع لي طاسة من حساء المعكرونة الطويلة، ثم يخرج ويجلس معي في منطقة الغداء الصغيرة الرثة.

لاو جانغ يمتلك ناراً في عينيه نادراً ما تراها في الصين. ولا يبدو مثل مالك عادي لمقهى. في عصر مختلف، أتخيل أنه كان يستطيع أن يكون ثورياً. وأما هنا، فهو وسط الصحراء، يحاول أن يكسب معيشته لنفسه وزوجته وطفلته. ويقول «ابنتي تريد أن تكون شرطية حين تكبر، كي تستطيع أن تضبط المسؤولين الفاسدين».

ينهي سائقا الشاحنات غداءهما ويغادران. وأتحادث أنا مع لاو جانغ طوال نصف ساعة. والمقهى الصغير حار حرارة شديدة مجفِّفة. ولاو جانغ أشد حرارة منها. لديه المزيد من القصص عن فساد المسؤولين، والمزيد من الغضب على المسؤولين المحليين، والمزيد من الحكايات عن سوء استخدام السلطة، وهي حكايات ستسمعها في كل موقف من مواقف الشاحنات، وفي كل قرية، وفي كل بلدة عبر الصين. وهو يلوح بيديه ويرغي ويزبد بأقواله الساخطة، ويبدو سعيداً بأنه أخرجها كلها من صدره.

وأسأله أخيراً: «إذاً ليس هناك أي شيء تستطيع أن تفعله حيال ذلك؟»

يحدق بي بشدة، وحبات العرق تتدحرج ببطء عن صدغيه. ثم يرفع إصبعين. «هناك شيء واحد أستطيع أن أفعله، وأستطيع أن أخبرك ما هو في حرفين».

من النار المتقدة في عينيه، ومن فورة الغضب الذي لا يكاد يُكبح في صوته، أعتقد بأمانة أنه كان سيقول «الثورة».

www.ibtesama.com/vb

ولكنه لم يقل.

ويقول، وهو يبصق الكلمات من بين أسنانه بصقاً. «التَّحمل. ذلك هو كل ما نستطيع أن نفعله. نحن نستطيع أن نتحمل ويجب أن نتحمل. ذلك هو كل ما كنا نستطيع أن نفعله في أي وقت مضى».

أحدق فيه وببطء أهز رأسي. لقد لخص قبل قليل آلاف السنوات من التاريخ الصيني. التحمل هو كل ما كانت الأسماء المائة القديمة تستطيع أن تفعله في أي وقت مضى. وعلى الرغم من كل التقدم الموجود في أكثر الأقسام ثراء في الصين، فإن التحمل هو كل ما ترى نفسها مئات الملايين من عامة الناس في أكثر الأرياف فقراً وفي المناطق الغربية كل ما ترى نفسها فاعلة في المستقبل في أي وقت.

في لحظات معينة من الأزمة في التاريخ، صار التحمل كثيراً جداً، والضغط تراكم وازداد، والبركان انفجر. لقد بدأت الثورات وأطاحت بالأسرة الحاكمة. ولكنها لم تؤد إلى تغيير في النظام. لقد قامت ببساطة بإحلال إمبراطور بدل آخر، وبأسرة جديدة تنتهي في كونها فاسدة مثل سابقتها. لم يكن هناك قط أي فصل للسلطات، ولا أي رواية خطية مستقيمة للتغيير، ولا أي ماغنا كارتا. تركزت السلطة في أيدي قلة من المسؤولين فقط، وقعوا في شرك دائرة لا تنتهي من التاريخ.

بعد شهور، وجدت نصاً في كتاب ميلدريد كيبل وفرانسيسكا فرنش (عبر بوابة اليَشَم وآسيا الوسطى). وهو نص مكتوب، والمبشرات الثلاث قد أُخِّرن في بلدة الممر النجمي في العشرينيات من 1920 وهن في طريقهن إلى أرومجي. فالجنود المعسكرون هناك يمنعون كل واحد من العبور من خلال بلدة الممر النجمي، ويجري احتجاز عدة شبان في النزل نفسه مثل المبشرات الثلاث. هؤلاء الشبان قد أجبروا على الدخول في العسكرية، وقد جلد بضعة أشخاص منهم بسبب تركهم الخدمة على ما يبدو. وتكتب كيبل وفرنش «هيمنت على المكان روح من اليأس الفارغ». ثم إنهما تعودان إلى الخلف وتنظران إلى الصورة الكبيرة للصين، مستندتين إلى خبرة ثلاثين عاماً.

www.ibtesama.com/vb

الصينيون شعب عانى المعاناة الطويلة، إنهم يحتملون مظالم الاستبداد من الغاشمين الظالمين لهم، والهيمنة الجشعة من المسؤولين، مع استسلام للمعاناة يبعث على الأسى، ولكن الساعة قريبة حين سيثورون ويثأرون لمظالم الأجيال. في مثل هذه الساعة، ليس هناك عنف يُعد مفرطاً، وسوف يتعاملون مع الغاشمين الظالمين لهم بطريقتهم الخاصة بهم.

ذلك ما كان في العام 1926. ونبوءتهما تحققت في السنوات الأولى من حكم الحزب الشيوعي، في الخمسينيات من 1950، حين عوقب ملاك الأرض و«الطبقات الحاكمة» بالموت بلا رحمة على أيدي القادة الجدد للفلاحين. هو هناك ثورة جديدة قادمة؟ الناس من أمثال لاو جانغ ينجحون، تقريباً. كل واحد من الناس يستطيع أن يحتمل الفساد من دون شكوى إذا كان نصيبه الخاص يتحسن في كل عام، مهما يكن تحسناً ضئيلاً. ولكن إذا توقف الاقتصاد، فهناك كثيرون من الناس الغِضاب جداً الآن، عبر الصين كلها، جاهزون للانتقام من ظلم المسؤولين الجشعين. كلمات ماو من العام 1927 تعود إلي باستمرار: «شرارة واحدة تستطيع أن تشعل النار في المروج». والعشب في هذا الجزء وفي العديد من أجزاء المروج جاف جداً، جداً.

النار في عيني لاو جانغ توقدت حتى هذه اللحظة. والآن بعد أن انفجر، فهو يهز رأسه، وعيناه تبدوان لامعتين كالزجاج قليلاً، وأنا أعجب كم من الوقت أطول مما سبق ستبقى النار موجودة هناك.

وأدفع له عن طاستي من حساء المعكرونة الطويلة وأطلب منه إن كان يستطيع أن يريني البئر. ويقودني إلى الخارج إلى مجرى صغير تحت الطريق أسفل منحدر تحت الطريق 312 وهو يدرج داخلاً إلى البلدة. للبئر غطاء ضخم من الإسمنت المسلح محكم السد فوق أعلى البئر. وأنظر إليه وأهز رأسي وأنا لا أكاد أصدق. أما هو فينطق بسخرية من خلال أسنانه وينصرف مبتعداً. ثم أقول وداعاً وأتجول في المكان حتى الطريق، لأبحث عن ركوب أسير فيه قدماً إلى البلدة التالية، إلى هامي.

www.ibtesama.com/vb

وتلك هي الكيفية التي وصلت فيها إلى الوقوف في بلدة الممر النجمي (ستاري غورج) أتحادث مع سائقي الشاحنات في محطة البنزين. وتبادلنا أطراف الحديث في أثناء انتظارنا لسيارة الشرطة لتتحرك بعيداً عن موقعها أمامنا على الطريق. ويخبرني السائقون عن لعبة القط والفأر التي يلعبونها مع الشرطة طوال السير على الطريق 312. فعديدون منهم جاؤوا من شنغهاي، وبعضهم من غوانغجو، في جنوب الصين نفسه، وواحد من بكين.

توجد لافتة رسمية على جانب محطة البنزين تقول: تشدّد في العشوائيات الثلاث.

وأسأل: «ما هي العشوائيات الثلاث؟»

ويجيب واحد منهم، وهو يقول إنها حملة ضد الشرطة الفاسدة والمسؤولين المحليين، الذي يفرضون العشوائيات الثلاث وهي: «لا رسوم عشوائية، لا حواجز طرق عشوائية، لا غرامات عشوائية».

وأجيبه، «ذلك مدعاة للتهكم نوعاً ما. إن سيارة الشرطة ستكون واقفة تنتظر لتغرمكم عشوائياً على بعد بضع مئات من الياردات عن لافتة رسمية حكومية تقول يجب عليه ألا يفعل».

ويبتسم سائق الشاحنة الابتسامة الكئيبة التي يبتسمها كل شخص صيني. الابتسامة التي تقول ببساطة: «أنت أجنبي، وهذه هي الصين».

ثم سرت كلمة بين السائقين بأن سيارة الشرطة تحركت، فتبعثر السائقون إلى شاحناتهم، ويعرض علي ليو شيانغ الركوب معه في شاحنته الكبيرة الزرقاء من نوع ريح الشرق كانت تحمل مرشحاً صناعياً ضخماً على ظهرها.

ويقول ليو، وهو يلتقط المحادثة عن الفساد المحلي: «نحن نحتاج إلى نظام متعدد الأحزاب. نحن نحتاج إلى الزواجر والضوابط على الحكومة. إنها بكل بساطة فاسدة جداً».

www.ibtesama.com/vb

كلماته عن البغضاء للمسؤولين المحليين ترجع أصداء كلمات لاو جانغ في المقهى. ويقص علي ليو المزيد من قصص فساد الشرطة على طول الطريق في كل مقاطعة عبر الصين، وهي جملة تتكرر كأنها ابتهال صلاة عن سوء استخدام السلطة رسمياً، وهو أمر، للإنصاف، موجود ومستمر في معظم البلدان النامية. ولكن، في المقابل على خلاف الكثير من العالم النامي، فإن ليو مع كثير من الصينيين يحتفظون باعتقاد كونفوشيوسي قديم للغاية بأن قادة الحكومة المركزية طيبون، وأن المسؤولين المحليين فقط هم الفاسدون. واحترام الحكومة المركزية وعدم الثقة بالمسؤولين المحليين يبدو أنه النقيض التام للموقف العقلي الثابت الأمريكي.

والسائق ليو ليس صريحاً فقط بشأن السياسة بل هو منفتح حول حياته الخاصة. وأسأله إن كان يزور الساقطات المتوافرات في كل موقف شاحنات، ويقول إنه يفعل.

ويقول وهو يجعل المسألة تبدو وكأنه يتحدث عن شخص آخر غيره: «طبعاً، هذه ظاهرة ليست جيدة جداً. ولكنني رجل، وهكذا فهي في طبيعتي، أليس صحيحاً ؟»

حين تصل الصحراء وأنت تسوق السيارة غرباً في الولايات المتحدة، فأنت تعرف على الأقل أن هناك البحر اللامع من المحيط الهادئ على الجانب الآخر. أما هنا في شينكيانغ، فالصحراء لا تبدو قط أنها تنتهي، لا، ولا يبدو الطريق 312 أنه ينتهي كذلك. فنحن نسافر لساعات من خلال وسط الفراغ، نتحدث عن كل شيء وعن لاشيء، ونصير صديقين ثابتين، وعلى الرغم من أننا لن نلتقي قط مرة أخرى. ونقف وقفة قصيرة عند قرية صغيرة، مغبرة اسمها ليوتيو شانزي، وهي تعني «حظيرة الجمال». وأنت هنا تستطيع أن تعرف أنك في الغرب النائي القفر من أسماء البلدات والقرى. فحظيرة الجمال مثل الممر النجمي فيهما صف من المقاهي الصغيرة الوسخة، ولكن يوجد في هذه البلدة المزيد من الخيارات من الطعام. فكل موقف شاحنات يتخصص بطعام من مقاطعة بعينها. واللافتات في الخارج تعلن طعام هينان، طعام شانسي، طعام آنهوي، وهكذا. وكل سائق يريد الطعام من مقاطعته، حسب ما يشرح ليو، وهنا يستطيعون أن يلتقطوا الأخبار من وطنهم ويجددوا معلوماتهم في أثناء تناولهم لطبقهم المفضل.

www.ibtesama.com/vb

بعد ساعة أخرى من الصحراء المفتوحة، نقترب من مخرج من الطريق 312 إلى هامي، وأستعد أنا للنزول. طوال سنوات من العيش في الصين، تحدثت مع عشرات من الصينيين من الأساتذة الجامعيين ومن الخبراء والمفكرين ومن الحضر الذين يعطون الانطباع بأنهم يضعون أصابعهم على نبض الأمة ويمتلكون القدرة على شرحه للأجانب. أحياناً يفعلونها جيداً جداً، ولكنك إذا أردت فعلاً أن تعرف عن الصين، عن الصين الحقيقية، فهناك طرق قليلة لتكتشف ذلك أفضل من محادثة طويلة مع سائق عادي لشاحنة للمسافات الطويلة، وهو يسرع عبر صحراء غوبي.

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

20
الجدار الكبير للعقل

هناك قلة قليلة من نظم الكتابة في العالم أكثر فنية على نحو رائع أو أكثر جمالاً على نحو ساحر من حروف اللغة الصينية. فالصينية لا تمتلك أبجدية ولكنها مصنوعة من 214 «جذراً» مختلفاً وهي تختلط معاً لتصنع الحروف. والجذور ليست هي الحروف التي اعتدنا كلنا على رؤيتها في لافتات المطاعم الصينية، إنها الأجزاء المكونة لتلك الحروف. فهناك جذر لكلمة «ماء» وهو مكون من ثلاثة خطوط صغيرة فقط، وهناك جذر لكلمة «رجل»، وهي تبدو مثل رجل له ساقان، وهناك جذر لكلمة «حيوان، » وهكذا. وكل حرف مصنوع من خليط من الجذور، مع كون بعض الجذور مستخدمة للإشارة إلى معنى الحرف، وبعض الجذور مستخدمة لإعطاء إشارات إلى اللفظ الصوتي للحرف. وهكذا فإن أي حرف له علاقة بالماء (نهر، بحر، قناة) يحتوي على جذر «الماء» زائداً جذراً آخر أو اثنين. ومعظم الحروف التي لها علاقة ما مع الخشب (شجرة، غابة، طاولة، كرسي) تحتوي على جذر «الخشب» زائداً جذوراً أخرى. وهكذا دواليك.

وبعض الحروف الصينية مصنوعة من خلطات مثيرة للاهتمام من الجذور. فجذر «خنزير» تحت جذر «سقف» هو حرف من أجل «بيت». وجذر «امرأة» مجموعاً مع جذر «ابن» هما الحرف لكلمة «جيد».

بعد أن تكون الحروف قد شُكّلت، فإنك آنئذٍ قادر على وضع الحروف المختلفة معاً لتصنع المزيد من الكلمات المركبة. وعلى العموم، لا يستطيعون ابتداع حروف جديدة (على الرغم من أن لغوياً صينياً مشهوراً اسمه جاو يوانرين ترجم مرة قصيدة لويس كارول الهراء المعنونة «الهذرمة» إلى الصينية، مستخدماً حروفاً مخترعة ليمسك بمعنى حيوانات «الغُريرات الناعمات النشيطات كن يخدشن ويحفرن حفراً في جانب التل» في قصيدة لويس كارول الأصلية). وهكذا، إذا ظهر مفهوم جديد، فإنه يوصف

www.ibtesama.com/vb

بوضع الحروف الموجودة معاً. النظام منطقي جداً. وعلى سبيل المثال، حين صادف الصينيون الزرافة لأول مرة، فإنهم لم يرجعوا إلى جذور بعض اللغات الأم القديمة مثل اللاتينية أو الإغريقية لابتداع كلمة جديدة، وإنما استخدموا الحروف الموجودة عندهم سابقاً. فالكلمة الصينية للزرافة تعني حرفياً «الأيل الطويل العنق». والكلمة الخاصة بالحاسوب تعني «العقل الإلكتروني». بل إن الكلمات غير الجديدة هي في الغالب مزيج رائع من الحروف الموجودة. فالكركند يعني «القريدس التنين». وكلمتي المفضلة المعينة الخاصة بي هي الكلمة الدالة على «الرحم» وهي تترجم حرفياً بكلمتي «قصر الطفل».

كل هذا جعل إدخال الآلة الكاتبة إلى الصين صعباً نوعاً ما، وإدخال الكلمات المتشابكة كان أصعب أيضاً. ولتكتب بالحاسوب في اللغة الصينية، يجب عليك أن تكتب الحروف الصينية في أبجدية غربية (مثل qiu, xia, zhao, meng. أو أي شيء آخر، وكلها تمتلك حروفاً متعددة تصوت بالصوت نفسه)، ثم تضرب مفتاح Return (العودة)، ويظهر خيار من الحروف اللاتينية الرومانية بتلك الطريقة. ثم تقوم بعدئذٍ باختيار الحرف الذي تريده. لقد صار تعلم ألفبائيتهم جزءاً حاسماً من تعلم الأطفال الصينيين لحروفهم وللفظها.

اللغة الصينية، هي من وجوه عديدة مثل الحضارة الصينية نفسها، كانت دائماً مكتفية بذاتها ومن الصعب الدخول إليها. وذلك مازال صحيحاً بالنسبة إلى الشخص الخارجي. وبالإضافة إلى الجذور ثم الحروف، هناك تواليات النغمات الأربع للغة (النغم الأول المستوي، والنغم الثاني الصاعد، والنغم الثالث الهابط ثم الصاعد، والنغم الرابع الهابط). والحروف التي تهجأ بالطريقة نفسها تماماً في ألفبائيتنا لها معان مختلفة اختلافاً كاملاً اعتماداً على نغمتها، وأشهرها هي mai (ميي)، التي يكون معناها «أن يشتري» حين تستخدم مع النغم الثالث، وأما حين تستخدم مع النغم الرابع فيكون معناها «أن يبيع». (وهذا يفسر لماذا تكون سوق الأسهم والسندات الصينية في مثل هذا الاضطراب الشديد.) والكيفية التي تَكتُب بها الحروف مهمة أيضاً. والرجل ذو الحظ السيئ ينظر إليه من الصينيين المتعلمين في الطريقة نفسها التي قد ينظر بها المتعلمون الغربيون إلى رجل يلبس بدلة رخيصة.

www.ibtesama.com/vb

على كل حال، الدخول إلى اللغة (التعلم كيف تقرأ، وتكتب، وتلفظ الحروف) هو إلى حدٍ بعيد أصعب جزء من تعلم الصينية. بعد أن تكون في الداخل، فإنها تكون أبسط بكثير من اللغة الإنجليزية ومعظم اللغات الغربية. والقواعد بسيطة للغاية. فليس هناك أزمنة، ولا تصريفات، ولا جموع، لأن الحروف الصينية لا تستطيع أن تتغير. إنها ببساطة موجودة.

ولبساطة اللغة جانب منفلت، مع ذلك. وحقيقة أن الحروف لا تستطيع أن تتغير يعطي اللغة كلها عدم مرونة تجعل العلماء الصينيين أنفسهم يقِرّون بأنها تستطيع أن تقزم الأصالة. ومازال يجب على أطفال المدارس أن يتعلموا الحروف عن ظهر قلب، ويقول النقاد إن الطريقة التي يتعلمون بها مصممة مسبقاً لتؤثر على الطريقة التي يفكرون بها.

ولست متأكداً من أنها قابلة للقياس الكمي (أو إذا كان يسمح للمرء أن يتأمل في ذلك من دون أن يكون متهماً بالاستشراق الفاضح)، ولكنني أتعجب من قرب تلك الصلة الكائنة بين القلعة غير القابلة للاقتحام من الحرف الصيني المكتوب وبين القلعة غير القابلة للاقتحام من الدولة الإمبريالية (ثم دولة الحزب الشيوعي). الكلمات في اللغات الأبجدية سيالة ومطواعة للتشكيل. إنها قادرة على أن تتغير وتتطور، ولا تبدو لي صدفة كاملة أن الأنظمة السياسية لبلاد كلمات هذه الأبجديات أيضاً تستطيع ذلك التغير والتطور.

الناقد الصيني العظيم المهاجم للمعتقدات والمؤسسات التقليدية في مطلع القرن العشرين، لون شون، الذي كنت قد زرت قبره في شنغهاي، فكر تفكيراً عميقاً حول هذا الموضوع. وقال إن الصين لا تستطيع قط أن تصير بلداً عظيماً إذا لم تتخلص من طريقتها في الكتابة على نحو كامل: «إذا كنا سنستمر في العيش، فإن الحروف الصينية لا تستطيع... الحروف تراث ثمين تسلمناه من أسلافنا، أنا أعرف ذلك. ولكننا نستطيع أن نضحي بتراثنا أو بأنفسنا: أيهما يجب أن يكون؟»

والسبب الذي يجعلني أثير كل هذا هنا ليس هو الجدل فيما إذا كان نظام الحروف الصينية يجب أن يترك، فذلك لا يبدو ممكناً في الوقت الحاضر، ولكن السبب هو

www.ibtesama.com/vb

أن أناقش انحرافاً لغوياً بعينه يقول الكثير عن الجزء من الصين الذي أسافر عبره الآن. ويقول الكثير أيضاً عن العلاقات التاريخية بين الحكام الصينيين في بكين وبين المسلمين فيما يسمى الآن شينكيانغ.

حتى القرن الثامن عشر، كان الحرف الصيني hui (ويلفظ hway) هواي يستخدم في المراسيم الإمبراطورية لوصف مسلمي الشمال الغربي من الصين. وكان أحد مكونات جذور الحرف هو جذر «الكلب». الصين، ينبوع كل الحضارة، امتدت إلى أقصى قلعة من الجدار العظيم في جيايوغوان. فيما وراء ذلك كان البرابرة، الذين لم يكونوا أفضل من الكلاب، والحرف المستخدم لوصفهم عكَس ذلك الوصف. (وهذا الموقف نحو غير الصينيين كان صحيحاً بالنسبة لا إلى مسلمي الشمال الغربي وحسب بل بالنسبة إلى شعب المحيط كذلك. وفي القرن التاسع عشر، كتب واحد من أوائل المترجمين البريطانيين، وهو توماس تايلور ميدوز، كتب يقول إن الصينيين «كانوا دائماً مندهشين، إن لم نقل مذهولين، حين يعلمون أن لنا أسماء عائلات، وأننا نفهم التمييزات للأب، وللأخ، وللزوجة، وللأخت، الخ، وباختصار بأننا نعيش على غير ما يعيشه قطيع من الأنعام»).

بعدئذٍ، في العام 1760، حدث شيء مثير للإعجاب. فإن الإمبراطور شيانلونغ (وهو الذي سوف يهين، بعد أكثر من ثلاثين عاماً، المبعوث البريطاني لورد ماكارتني ويعيده إلى بلاده) كان قد استولى قبل قليل على تركستان الصينية، وهي القطعة الضخمة من الأرض التي أسافر عبرها، التي تبدأ في بلدة الممر النجمي، هي الآن تسمى شينكيانغ. «فم» الصين في قلعة جيايوغوان لم يبق بعد ذلك هو الفم. لقد توسعت الإمبراطورية الصينية، مستبعدة ضرورة الجدار الكبير - وفي الحقيقة، من ذلك التاريخ وما تلاه، تدهور الجدار الكبير إلى حالة تحتاج إلى الترميم لأن الإمبراطورية الآن امتدت إلى ما وراءه. وهكذا فإن الإمبراطور شيانلونغ، ولأول مرة في ألف عام، من ناحية الأراضي إن لم يكن من الناحية الثقافية، زعم أنه قد جلب مسلمي التركستان إلى الإمبراطور الصيني.

www.ibtesama.com/vb

وكأنما لوضع علامة على هذا التغيير، أصدر البلاط الإمبراطوري مرسوماً في شباط/فبراير 1760، وقال المرسوم يجب على الوثائق الرسمية ألا تَستخدِم بعد الآن جـذر «الكلب» في الحرف الصيني المستخدم لوصف مسلمي تركستان. وكان يجب التخلص من ذلك تماماً، وابتداءً من ذلك الربيع، يلاحظ علماء المحفوظات الإمبراطورية أن أياً من الوثائق الإمبراطورية لا تستخدم جذر «الكلب» حين تكتب حرف هواي للإشارة إلى مسلمي المنطقة.

لم يحدث من قبل ذلك قط أن كانت بضع ضربات من فرشاة على صفحة تستطيع أن ترمز لمثل هذا التحول النفسي الذي كان مأمولاً. وأشار التغيير إلى أن الإمبراطور في بكين لم يبق بعد ذلك ينظر إلى هؤلاء البرابرة بوصفهم برابرة، وأنهم قد جرى جلبهم إلى داخل الأسرة الإمبراطورية، ويجري جعلهم جزءاً من الإمبراطورية الصينية، وأنهم نتيجة لذلك قد رفعوا فوق منزلة الحيوانات. وباختصار، لم يبقوا بعد ذلك «هم». ويستطيعون الآن أن يُعدوا جزءاً منا «نحن».

كان هناك مشكلة صغيرة واحدة لا غير. وهي أن «هم» كانوا سعداء بكونهم «هم» وأن «هم» لا يريدون أن يصيروا جزءاً من «نحن». والشيء نفسه صحيح اليوم.

لقد غامر الصينيون في الدخول إلى تركستان ثلاث مرات في تاريخهم.

المرة الأولى كانت في القرن الثاني قبل الميلاد، في أثناء أسرة هان، ودامت على نحو متقطع لأكثر من ثلاث مئة سنة. وكانت تلك الفترة متميزة بصراع من أجل التفوق بين الصينيين الهان وبين «برابرة» قبائل شيونغنو إلى الشمال الغربي. وحين انهارت أسرة هان، مع ذلك، في العام 220 بعد الميلاد، انهارت الصين كذلك، وانهار معها النفوذ الصيني في آسيا الوسطى.

والغزوة الثانية إلى الغرب جاءت في القرن السابع، حين كانت الصين أخيراً قد توحدت ثانية، تحت حكم أسرة تانغ. ولكن مع حلول ذلك الوقت، كانت قد ظهرت قوة جديدة في آسيا الوسطى. كان العرب يدفعون شرقاً ويجلبون معهم الدين الجديد،

www.ibtesama.com/vb

دين الإسلام. لقد هزموا الصينيين في معركة تالاس* (في قيرغيزستان في العصر الحديث) في العام 751 بعد الميلاد، ومرة أخرى تراجع الصينيون. (وملاحظة مثيرة للاهتمام عن هذه الهزيمة: لقد كانت تالاس هي المكان الذي أعطى فيه الجنود الصينيون الأسرى لأول مرة سر صنع الورق إلى العرب. ومن الشرق الأوسط وجد الورق طريقه إلى أوروبة في القرن الثامن عشر).

ولم يحدث حتى جاء استيلاء الإمبراطور شيانلونغ، بعد ألف عام، أن تدخل الصينيون بنجاح ثانية في تركستان، ولم يغادروها منذ ذلك الوقت. ومع ذلك فإذا ذهبت إلى موقع الإنترنت للحكومة الصينية أو إلى كتب التاريخ، فإنهم يقولون إن شينكيانغ كانت جزءاً من الصين منذ العام 60 قبل الميلاد.

وكان توسع الإمبراطور شيانلونغ إلى داخل الشمال الغربي لأسباب إستراتيجية إلى حد كبير، وذلك ليخلق منطقة عازلة ضد أي واحد يريد أن يغزو، ومازال ذلك جزءاً من التفكير الصيني اليوم. والسيطرة الأولى على كل من شينكيانغ التيبت كانت سيطرة عسكرية، والحكم التالي للمنطقتين لم يكن يهدف إلى الاستعمار. فالمسلمون المحليون (التيبيتيون في التيبت) سمح لهم في أن يستمروا في حياتهم اليومية، وبشكل حاسم، مع دينهم. ولم يكن حكام أسرة شينغ في تلك المرحلة يحاولون أن يحولوا «هم» إلى «نحن» وإنما كانوا يتخذون الخط اللين وذلك ببساطة جلب «هم» إلى عائلتنا «نحن» الكبيرة، الصينية الإمبريالية المتعددة الأعراق.

وحقيقةٌ أنهم توسعوا أيضاً إلى شينكيانغ، هي إلى حد كبير، بسبب أن حكام شينغ لم يكونوا من الهان الصينيين، بل كانوا مانشوس. وهؤلاء كانوا قد غزوا الصين من منشوريا (الصين الشمالية الشرقية الآن) في العام 1644 ولكي يحكموا مثل هذه

* معركة كبيرة عند نهر تالاس بالقرب من طشقند، كان المسلمون فيها بقيادة زياد بن صالح في ثلاثين ألف مجاهد، وكان الصينيون في مائة ألف مقاتل. دامت المعركة خمسة أيام وانتهت بتدمير الجيش الصيني، وصدت هذه المعركة التقدم الصيني نحو آسيا الوسطى ألف عام. ويقول أحد المؤرخين الكبار: «إن هذه المعركة... قررت مسالة أي الحضارتين الصين أم الإسلام سوف تهيمن في البلاد (تركستان)». وبعد هذه المعركة انتهت البوذية، والهندوسية، والزردشتية، وعبادات محلية أخرى. (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

الإمبراطورية الضخمة، كانوا قد تبنوا العديد من الطرائق الصينية. ولكنهم أبقوا على بعض طرائق المانشو كذلك. وكانوا في أصلهم صيادين وفرساناً، ولهم نظرة شاملة لآسيا أكثر شبهاً بنظرة جنكيز خان والمنغول منها بنظرة الهان الصينيين، وقد انطلقوا لبناء إمبراطورية أكبر من الإمبراطورية الصينية التقليدية،التي كانت قد توقفت عند آخر قلعة في جيايوغوان.

وهذه نقطة حاسمة لأن ما ورثته الصين الحديثة هو جوهرياً إمبراطورية مانشو. ولو أن أسرة شينغ من العام 1644 إلى العام 1912 كانت قد حُكمت من صينيين من الناحية العرقية، لشككت في أنهم كانوا سيتوسعون إلى تركستان التيبت. (وأنت تتذكر أن أسرة مينغ الصينية من الناحية العرقية، وحكمت من العام 1368 إلى 1644، كانت قد حرقت كل سفينة في أسطولها، وهو فعل لا تكاد تقدم عليه بلاد ميالة إلى التوسع.) ولكن بعد أن تم توسيع إمبراطورية مانشو تلك، صارت المسألة مسألة شرف وكبرياء لحكام الصين اللاحقين للإبقاء عليها، ولو بعد أن أطيح حكام المانشو، في العام 1912.

في أواخر القرن التاسع عشر، صار المسلمون في الشمال الغربي أكثر مقاومة، وتغيظاً من سيطرة بكين، واندلعت التمردات. لقد كان قهر شينكيانغ والاستيلاء عليها شيئاً بالنسبة إلى المانشوز، أما حكمها فقد ثبت أنه شيء آخر تماماً. وآنئذٍ تغيرت سياسة بكين من سياسة تترك «هم» ليبقوا «هم» في أسرة منا «نحن» إلى سياسة تحاول محاولة نشيطة أن تغير «هم» إلى «نحن».

المحاولات الأولى كانت وحشية نوعاً ما ولم تكن ناجحة جداً. وبعد انتفاضة مسلمة في المنطقة، في العام 1877، قام جنرال صيني اسمه تسو تسونغتانغ، مع جيش ضخم تحت إمرته، باجتياح كل شينكيانغ، وأجبر المسلمين على أن يغيروا عاداتهم إلى العادات الصينية، وأجبرهم على تعلم اللغة الصينية في المدارس.

بعد ذلك تناقص التأثير الصيني في شينكيانغ حين انهارت البلاد بعد فشل ثورة العام 1912. وبعد فترة وجيزة من محاولة الإبقاء على خط حساس مع المسلمين في الخمسينيات من 1950، انطلق الحزب الشيوعي في محاولة صينية ثانية لتحويل «هم»

www.ibtesama.com/vb

إلى «نحن» وكانت هذه المرة من خلال فرض السياسات الشيوعية ومن خلال الهجرة القسرية للصينيين الهان إلى المنطقة. في العام 1949 كان هناك 300.000 نسمة تقريباً من الصينيين الهان من سكان بلغ عددهم 4 أو 5 ملايين نسمة في شينكيانغ. وكان ذلك بنسبة 6 بالمائة من السكان. في العام 2000 أظهر الإحصاء رقم 7.5 مليون نسمة من الهان الصينيين من عدد السكان الذي بلغ 19.25 من الملايين. فإذا ضمنت القوات المسلحة في الأعداد، فإن ذلك يجعل الصينيين الهان الآن تحت نسبة 50 بالمائة قليلاً من مجموع سكان شينكيانغ. وأرقام الهان مستمرة بالنمو طوال الوقت، مع وصول المزيد من المهاجرين، الذين تجتذبهم الوظائف في الغرب المزدهر.

على الرغم من كل هذا، مازال الويغور والسكان المحليون الآخرون في شينكيانغ، مع ذلك، متمسكين بهويتهم. والصينيون أيضاً يحافظون على أنفسهم منفصلين عن الويغور. إن الجدار العظيم، الذي بني ليبقي الصينيين معزولين عن «البرابرة» قد يكون في حالة التداعي في هذه المواقع الخارجية الغربية البعيدة، ولكن الجدار العظيم في عقول الناس، والانقسامات بين مختلف الشعوب، أصلب من أن يتحطم، بالنسبة إلى الطرفين من المسلمين ومن الهان الصينيين.

وهكذا فإن بكين الآن تحاول سياسة ثالثة (في الوقت الذي تبقي فيه السياستين الأخريين). إنها تصب المال في الصين الغربية وتحاول أن ترشي الشعوب المسلمة بالفرص الاقتصادية. وفي الوقت نفسه، تستخدم الصين نظاماً تعليمياً متكاملاً على نحو متزايد، بله نظام مواصلات يتحسن على نحو متزايد أيضاً، للبدء في وقت أبكر من حياة أطفال الويغور بعملية محاولة تحويلهم من «هم» إلى «نحن».

هذه السياسة يجري تشغيلها في الزمن الحقيقي في منطقة موقف محطة حافلات الركاب في هامي، في حياة البنت ريبيا البالغة من العمر أربعة عشر عاماً. وهي فتاة صغيرة، تلبس قميصاً أزرق غير مزخرف، وبنطالاً من الجينز، وحذاء خفيفاً، وتبدو مثل فتاة هان صينية تحت العشرين باستثناء الملامح التركية الناعمة في وجهها. وهي تحتضن ـ أو يجري احتضانها بالأحرى، من أمها التي تلبس مثل امرأة تقليدية من الويغور، في ثوب طويل فضفاض، وغطاء رأس، والأقراط الذهبية.

www.ibtesama.com/vb

وأمها تبكي، ووالدها، رجل وسيم بشاربين كثيفين، يقف غير مبال، ويربت بلطف على ظهر ريبيا.

قابلت ريبيا بمحض الصدفة تماماً. بعد أن تجولت لساعات في بلدة هامي التي تبعث على السرور ولكنها لا تثير الإعجاب على نحو غير معتاد، واشتريت تذكرة ليلية على متن حافلة نوم متجهة إلى تروبان، على بعد 250 ميلاً إلى الشمال الغربي. وريبيا هي واحدة من أربعين طالباً وطالبة من الأقليات العرقية في هامي، ومن آلاف من جميع أنحاء شينكيانغ، يركبون حافلة ليلية في هذا المساء الصيفي المشرق إلى عاصمة المنطقة أرومجي. وكل الأربعين منهم يتحركون حول المحطة، وأضيفت حافلة إضافية لتحتوي التدفق الزائد لرحلة الاثنتي عشرة ساعة.

في أرومجي سوف يشاركون في برنامج توجيهي مع المسؤولين التعليميين المحليين قبل أن يستقلوا جميعاً قطاراً ويتجهوا شرقاً، إلى المدارس الثانوية في شنغهاي، وشيامين، وتيانجين، ومدن أخرى بالقرب من شاطئ الصين على المحيط الهادئ.

ريبيا طالبة متفوقة من قمة طلاب الثانوية في هامي، وهذه مكافأة لها على دراستها الجادة. وهي تتحدث من قبلُ اللغة الصينية الماندارينية من دون لكنة، على خلاف والديها، اللذين كانت لغتهما الماندارينية مغلفة بلكنة ثقيلة جداً من آسيا الوسطى. وتختار الحكومة أفضل الطلاب والطالبات من الأقليات العرقية في كل المدارس في شينكيانغ التيبت، وتقدم لهم أماكن في المدارس مدفوعة التكاليف في الصين الشرقية. السفر، والرسوم، والكتب، وكل شيء مدفوع من أجله سلفاً. إنه عرض تجد معظم العائلات أن رفضه مستحيل.

وتقول الحكومة الصينية إن سياستها تقدم فرصة عظيمة لهؤلاء الأطفال للحصول على تعليم أفضل كذلك، وذلك صحيح. وريبيا متأثرة عاطفياً لأنها ذاهبة. ولكن المنتَج الفرعي للسياسة هو أن صفوة شباب الويغور تذوب هويتهم العرقية ويصيرون في سنوات تشكيلهم، صينيين أكثر بكثير. وبالنسبة إلى الحكومة الصينية، إنها طريقة ناجعة في التأكد من أن جيلاً من الأقلية العرقية من أصحاب أعلى الإنجازات في شينكيانغ يصير جيلاً أكثر شبهاً بالجيل الجديد من الصينيين الهان في مشرق البلاد.

www.ibtesama.com/vb

يعتقد بعض المراقبين أن من المحتمل أن تتبع الصين مسار تايوان وكوريا الجنوبية والنمور الآسيوية الأخرى، وسوف تتطور، مع النمو الاقتصادي وظهور المجتمع المدني، تطوراً بطيئاً نحو الديموقراطية.

وهناك عدة أسباب للخوف من أن التغير السياسي في الصين سوف يكون مختلفاً عن تايوان وكوريا الجنوبية. وأحد الأسباب هو ببساطة حجم الصين. فكوريا الجنوبية بما يصل إلى 48 مليون نسمة، وتايوان وما يصل إلى 22 مليون نسمة، كلتاهما أصغر من معظم مقاطعات الصين. واستغرقت كلتاهما عدة عقود فقط للتصنيع والتحضير، وإنشاء طبقة وسطى طالبت بعد ذلك بالإصلاح السياسي. أما عدد سكان الصين فهو ستون ضعفاً من السكان في تايوان، وحتى الآن كانت الحكومة الصينية متبصرة جداً في شأن حملة أسهم الطبقة الوسطى الجديدة في الحالة السياسية القائمة.

وسبب آخر للخوف من أن الصين لن تسلك نفس المسار السلس نسبياً إلى الديمقراطية هو ما يدعى المسألة العرقية. فتدفق الصينيين الهان إلى الغرب من الصين يغير السكانيات هنا تغييراً سريعاً. ولكن لو أن القوات الصينية نقلت من شينكيانغ ومن التيبت اليوم، فأنا أعتقد أن من المحتمل أن يكون هناك انتفاضات غداً. ويجب على القادة الصينيين أن يكونوا مهتمين كذلك بشأن إعطاء التصويت للويغوريين وللتيبيتيين اهتماماً أكبر من اهتمامهم بشأن إعطائه إلى الهان الصينيين. وذلك هو السبب الذي من أجله تحرك بكين عجلتها بهذه السرعة العالية جداً لتجعل الويغوريين التيبيتيين أكثر «صينية»، وذلك من أجل أن يكونوا، إذا جاءت النقطة الحاسمة (أو إن لم تأت) قد اندمجوا اندماجاً جيداً في الصين، اندماجاً هو أكثر من أن يجعلهم يرغبون في اختيار ألا يندمجوا.

بالإضافة إلى تجمع أطفال الويغور وعائلاتهم ليصعدوا إلى حافلة الركاب، هناك الكثيرون من الصينيين الهان. وأنا أقف لمدة أتجاذب أطراف الحديث مع الناس في كلتا المجموعتين في الوقت الذي ننتظر فيه جميعنا، ومن الواضح أن جيل ريبيا قد تغير تغيراً كبيراً من قبل. الجيل الأقدم من الويغور ومن الهان هو في الواقع شعبان اثنان مختلفان اختلافاً كاملاً.

www.ibtesama.com/vb

أكبر السيدات سناً في أثوابهن المنسدلة وأغطية رؤوسهن ينسجمن في كل مكان من إسطنبول إلى طشقند.

والرجال الويغور يلبسون لباساً أكثر شبهاً بالصينيين من الهان. واختلافهم الرئيسي يأتي من شعر الوجه. يستطيع الرجال الصينيون أن يكونوا ذوي مظهر رجولي، ولكنهم يسعون إلى فعل ذلك من دون مساعدة من الشعر غير المحلوق في الوجه. وهذا يبدو غريباً للزائرين الغربيين، وذلك نظراً إلى أنه في العقل الغربي، فإن كل حقير ابن مدفع* سبق له في أي وقت أن تسكع إلى بار صالون في هذا الجانب من مدينة دودج سيكون طبعاً قد قفز عن صفحات الهندام والمظهر في مجلة «فصلية الرجال».

الويغور الرجال كثيفو الشعر مثل الغربيين. وفي الحقيقة، يستطيع الرجل الويغوري أن ينمي في وجهه شعراً في نصف ساعة أكثر مما يستطيع أن ينميه رجل صيني في حياته، وجميع الويغور هنا تقريباً لهم شوارب أو لحى. بالنسبة إلى الويغور، شعر الوجه علامة الذكورية، وذلك في حد ذاته كاف ليشكل رابطة بين الغربيين والويغور أقرب من الرابطة بين الغربيين والصينيين. وإذا وضعنا ذلك ببساطة، فإنهم يبدون مثلنا نحن إلى حد أكبر.

اليوم، مع ذلك، فإن الجماعات المتباينة، بغض النظر عن إعفاء اللحى، مختلطة معاً مثل حبات الحلوى الهلامية الملونة المصنوعة على شكل حبات الفاصولياء (جيلي بينز) في زوج من الحافلات الذهبية اللامعة متجهة نحو الغرب إلى عاصمة المنطقة. وانطلقت حافلتنا أخيراً من قطعة الموقف المغبر، وأم ريبيا الباكية تضع يدها على فمها لتخنق نشيجها وهي تلوح بالوداع.

تستغرق الرحلة إلى توربان ثماني ساعات تقريباً. وهذه الحافلة حافلة نوم، والأسرّة مرتبة في ثلاثة صفوف ضيقة بشكل طولي على طول السيارة، مفصولة

---

* يشير التعبير إلى الأطفال الذين كانوا يولدون على متن سفن الأسطول البريطاني سفاحاً. وجاء الاسم بهذه الصيغة بأن الفاعلين كانوا يفعلون فعلتهم في ذرى المدافع. (المترجم)

www.ibtesama.com/vb

بممرين ضيقين. وكان سريري علوياً في الخلف تماماً، وكان يجب علي أن أتسلق، وأخطو بدعسة على سرير المسافر الموجود تحت سريري. وهو يومئ بتحية وأنا أرفع حقيبتي إلى الأعلى وأتسلق إلى السرير الصغير.

إنه غروب رائع للشمس فوق غوبي، وأنا أراقبه، مفعم بخيالات طريق الحرير، والحافلة تتجه نحو الغرب على طول الطريق 312. توهج الشمس البرتقالي ينمو أثرى ألواناً وهي تغرب، وتصب التألق والدفء على منظر طبيعي فارغ من اللون. وكان يمكن لي أن أستخدم المزيد من حافلات النوم عائداً إلى الشرق لو أنني لم أكن أرغب في أن أقفز خارجاً من السيارة عدة مرات لأتكلم مع الناس على طول الطريق. هنا، يوجد قلة قليلة جداً من الناس الذين يعيشون على الطريق، وهي مجرد خط واحد في كل اتجاه، وهكذا لا يوجد سبب حقيقي للوقوف، والسفر في حافلة نوم يعني أنه لا يتوجب علي أن أستهلك يوماً كاملاً مسافراً عبر الصحراء المفتوحة.

وفي أثناء غروب الشمس أقفز نازلاً وأجلس مع الرجلين الصينيين من الهان الموجودين على السريرين السفليين. كلاهما يعمل في شركة آلات ثقيلة. وهما يزوران الأماكن التي سبق أن بيعت فيها آلات شركتهما ويعرضان الصيانة للشركات التي اشترتها. في هذه الرحلة فقط، يسافران كل الطريق في شينكيانغ ونزولاً إلى شينغاي، حيث وردا تجهيزات من أجل بناء طريق السكة الحديدية للتيبت.

وأقول لهما: «أنتما أيها الرجلان تقومان حرفياً ببناء البلاد». وهما يضحكان.

أعلاهما منصباً، واسمه لي، له قصة شعر قصيرة وصوت عميق. وهو رجولي المظهر جداً ولكنه أيضاً مؤدب جداً، وهو تماماً من نوع الرجل الذي تريده أن يزور منشآتك في الصين الغربية، أو يقوم بدور الشرطة لأقلياتك العرقية من أجل تلك المسألة. وينظر إلي في العيون ويروزني ليقومني بعناية، ولكنه يضحك ضحكة سريعة وله سلوك كريم.

صديقه الذي لا يخبرني باسمه، بدين وبشوش، ومن الواضح أنه يلعب دور التابع لصديقه لي. وأسألهما ماذا يريان بشأن شينكيانغ. وينظر لي إلى الخارج إلى الشمس

www.ibtesama.com/vb

الغاربة فوق الصحراء وبلدة هامي تختفي وراءنا ويقول: «إنها ملحمة، إنها رائعة، إنها غامضة، إنها... لا تكاد تصدق. وأنا أعتقد أن على كل رجل صيني أن يرى هذا المكان. لقد كانت هنا منذ مئات، وآلاف السنوات، وسوف تبقى مع ذلك هنا في آلاف السنين. إنها تجعلني أشعر مثل نصل من العشب».

نادراً ما سمعت شخصاً صينياً يتحدث بتلك الطريقة عن أي شيء. وينظر لي إلى خارج النافذة إلى المنظر الطبيعي القاحل وهو يلمع ماراً في ضوء الغسق نصف المضيء.

هو وصديقه كلاهما متفائل للغاية حيال المستقبل. وكلاهما في عمل جيد، إنهما يعملان شيئاً ما لبلادهما. الصين، كما يقولان، تتحول إلى بلد أغنى. والصين تتحول إلى مكان أفضل للعيش فيه.

ونتحدث مدة من الزمان، ثم أتمنى لهما ليلة سعيدة وأتسلق عائداً إلى سريري، ولا أستطيع أن أزيح عيني عن القمر البرتقالي الذي يبزغ، مسافراً إلى جانبنا ونحن نسارع نحو الدخول في الليل. لقد كتبت ميلدريد كيبل بعض أفضل الأوصاف لعبور هذا الجزء من الصحراء. وكان الثلاثي قد سافر بمعدل ثلاثة أميال في الساعة على عربتهم المجرورة بحمار، ولكن إحساس ميلدريد بروح الصحراء مازال إحساساً يستطيع المرء أن يستشعره اليوم، وهو ينظر إليه من سرير أيضاً في حافلة ركاب ضخمة ذات ضجيج من صناعة صينية تسافر بسرعة تساوي عشرين ضعفاً من سرعة عربة المبشرات الثلاث.

ويرينُ الصمت على كل الجماعة. وتعرف البغال عملها، وسائقو العربات... تمشي بثقل في ضوء النجوم، بأقدام واثقة. والمسافر، إذا كان خط اتصالاته مع الله مفتوحاً، يجلس بإحساس مستغرق بما هو إلهي وهو الإحساس الذي يضبط التعبير عن الذات، ويأمر بالسكون المتوتر من أقصى الاحترام. النفس تتولى السيطرة على الروح المعبرة عن ذاتها... لقد أمسكت بك الصحراء، وأنت، المدعو معلم الرجال، سوف تتعلم... والإنشاءات المصنوعة من الإنسان لن تبدو ثانية جليلة المهابة.

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

21

«الصين قوة استعمارية»

«ما اسمك ؟» يسألني ذلك الرجل الويغوري الشاب غير الحليق وهو يجلس إلى الطاولة التي تليني، في مقهى صغير ولكنه متألق في توربان.

وأخبره بأني «روبرت». (كثير من الناس في آسيا يجدون مشكلة مزعجة في الصيغة القصيرة من اسمي).

ويسألني باللغة الإنجليزية وهو يرفع حاجبيه: «مثل روبرت البروس؟»

وأجيبه: «نعم ! كيف يا ترى تعرف عن روبرت البروس ؟» الملك الذي سميت باسمه كان ملكاً لإسكتدلندا في القرن الرابع عشر. وبعد هزائم أولية أوقعها به الإنجليز، لجأ إلى كهف، وكما يعرف كل طفل بريطاني في المدرسة، فقد رأى روبرت البروس وهو في الكهف عنكبوتاً يحاول أن يبني نسيجه ولكنه يفشل مرة تلو الأخرى. وفي النهاية، نجح العنكبوت في أرجحة نفسه بعيداً بما فيه الكفاية لإكمال نسيجه، وهذا الدأب أقنعه أنه هو نفسه أيضاً يجب أن يداوم الدأب حتى يهزم الإنجليز، وهو ما فعله كما ينبغي في معركة بانوكبيرن في العام 1314، مؤكداً بذلك الاستقلال الإسكتلندي.

ويقول صديقي الجديد: «قرأت عنه في كتاب».

وأجامله على معلوماته عن التاريخ الإنجليزي وأخبره عن نظريتي بأن شينكيانغ التيبت مثل إسكوتلندا. وتستطيعان الانتهاء إلى وضع مثل وضع جارة إنجلترا الشمالية ضمن المملكة المتحدة، أن تكونا محتويَتين ضمن بلد لا يريدان أن يكونا جزءاً منه، ولكن بعد بضعة قرون، ستكونان غير قادرتين أو غير راغبتين في بذل الجهد للانفصال. وهو يصغي باهتمام.

ويسأل: «هل مازال الإسكتلنديون يتحدثون لغتهم الخاصة؟ هل مازالوا لهم تقاليدهم الخاصة ؟»

www.ibtesama.com/vb

«لم يحتفظوا بلغتهم، مع أنهم مازالوا يحتفظون لهم ببعض التقاليد. ومنها تنوراتهم الرجالية إلى الركبة، طبعاً».

«ماذا ؟»

«التنورات الرجالية إلى الركبة. مثل تنورات النساء. الرجال الإسكتلنديون يلبسون تنورات».

ويقول: «أترى، نحن أفضل حالاً من الإسكتلنديين. نحن مازلنا نمتلك لغتنا الخاصة. ورجالنا لا يلبسون التنورات».

وأجبته فوراً. وهو يقول إن اسمه مراد. وهو في العشرينيات من عمره، ونظراته الآسيوية الوسطى ـ أنف أقنى مرتفع القصبة ووجنتان عاليتـان ـ تفصله عن الكثيرين من الصينيين الذين تقع عليهم العين في شوارع توربان.

ونغوص مباشرة إلى محادثة شديدة وصريحة جداً عن العلاقات بين الويغور والصينيين الهان، وعن مستقبل شعبه.

ويقر هو أخيراً، وقد اتخذ مقامرة محسوبة، ولكنها مأمونة نوعاً ما، بأني لن أبيعه إلى أي شرطي صيني عابر، ويقول: «الأمور تصير إلى الأسوأ هنا».

وأسأله: «ما الذي يصير إلى الأسوأ ؟» أسأله وأنا أعتقد أنه قد يقصد في كلامه التحدث عن الاضطهاد المباشر والمادي للويغور على أيدي الهان الصينيين. ولكنه لا يتحدث عن ذلك قط.

«المزيد من الويغور يختارون أن يرسلوا أطفالهم إلى مدارس الهان الصينية. ليس ذلك واجباً عليهم، ولكنهم يفعلونها، لأنهم يعرفون أن هذا هو المكان الذي يكمن فيه المستقبل. وفي مدارس الويغور أيضاً، يتعلم الأطفال اللغة الصينية في المرحلة الأولى. كان ذلك يجري في العادة في المرحلة الثالثة. في غضون عشرين، ثلاثين، خمسين عاماً، ربما لن يكون أحد قادراً على أن يتحدث أو يقرأ أو يكتب لغة الويغور مثل الإسكتلنديين تماماً. سوف نفقد لغتنا. بل الآن، يستطيع الكثيرون من الأطفال أن يتحدثوها ولكنهم لا يكتبونها».

www.ibtesama.com/vb

بعض الناس الآخرين يجلسون إلى طاولة بقربنا، ولذلك فهو يخفض صوته.

كانت حافلتي قد وصلت في الساعة 3:30 بعد الظهر، وسجلت وصولي في فندق ونمت لوقت متأخر. ونتيجة لذلك، أخفقت في الالتحاق مع الجولة الجماعية في الأماكن المثيرة للاهتمام في أنحاء توربان. وبدلاً من ذلك التقيت بمراد صدفة. لقد اقترب مني وأنا آكل وجبة صباحية متأخرة تجمع الفطور والغداء وتحدث معي باللغة الإنجليزية.

هناك افتراض عام بين الويغور وهو أن الغربيين متعاطفون مع بلواهم. والشيء نفسه صحيح بين أهل التيبت، وهم في العادة مصيبون. وجزء من ذلك هو مجرد ميل غربي لدعم المظلوم، إضافة إلى معارضة عامة لاضطهاد الحزب الشيوعي لأي شخص، سواء أكان من الهان الصينيين أو من الويغور أو من أهل التيبت. وربما يكون أيضاً شيئاً يتعلق بنمو الشعر القصير في اللحية. فأنا أقارن بشكل سري لحية مراد بلحيتي، وأظن أنه قد يفعل الشيء نفسه.

تبادلنا الأحاديث لنصف ساعة عن شينكيانغ، وأمريكا، وأوروبة، ثم أخبره بما آمل أن أفعله في توربان. «لقد أردت دائماً أن أنام في العراء في الصحراء. فأين يوجد مكان لنذهب إليه؟»

ويبتسم من الفكرة وينظر إلى ساعته. «سوف أتحدث إلى أخي». ونتبادل أرقام الهواتف الخليوية ونتفق على التحادث لاحقاً في اليوم نفسه.

منخفض توربان هو أخفض مكان في الصين، وثاني أخفض مكان في العالم (بعد البحر الميت)، عند 426 قدم تحت مستوى سطح البحر. وهو أشد الأماكن حرارة في الصين، مع أعلى درجة حرارة مسجلة وصلت إلى 121 درجة فهرانهايت (49 درجة مئوية). والمنخفض حوض صحراوي يغطي 20.000 ميل مربع وفيه من السكان 170.000 نسمة، ثلاثة أرباعهم من الويغور والباقون من الصينيين الهان.

والمحصول الرئيسي هنا هو العنب، وفي وقت زيارتي، بدأ الموسم قبل قليل. ويمكن رؤية شاحنات مليئة بالعنب الأخضر الطازج في الشوارع، والسلال المليئة بالعنب يجري

www.ibtesama.com/vb

فرزها على جانب الطرق. وبعض ممرات المشي مغطاة بتعريشات العنب، وهو ما يوفر ممرات مشي ظليلة رائعة ويحمي المشاة من الحرارة القاسية من شمس الصيف.

وباستثناء الأعناب، فإن المدينة نفسها ليست جميلة على نحو خاص. هناك أجزاء جذابة قديمة، ولكنها مثل كل المدن في المناطق الغربية، يوجد فيها قسم صيني حديث يمكن أن يكون موجوداً في كل مكان في البلاد. تمتلك البلدة شعوراً حلواً فيها، مع ذلك، وكثير من الأجانب، وخصوصاً حملة الحقائب، يحبون أن يسترخوا هنا لبضعة أيام لا يفعلون شيئاً. وفي الفندق في ذلك الصباح، التقيت صدفة بشخصين سويديين ملتحيين كانا قد ركبا طوال كل الطريق من أوروبة، مع سلتين صغيرتين على دراجتيهما ما كان يمكن لهما أن تحتويا على أكثر من غيار ملابس وزجاجة ماء.

فإذا أخذنا بالاعتبار حقيقة أننا في وسط الصحراء، فإن في توربان عدداً مثيراً للدهشة من الأماكن المثيرة لاهتمام الزوار. وأول هذه الأماكن هو نظام ري قديم معروف باسم «كاريز» التي تعني «بئراً» في لغة الويغور. وكان هذا النظام قد صمم منذ أكثر من ألفي سنة، وتدين توربان بوجودها لهذا النظام. وهو مصنوع من عشرات من الأنفاق الطويلة تحت الأرض، وهي تربط البئر الرئيسية في الجبال الواقعة شمال توربان بالمدينة وأرض المزرعة أسفل منها. لا حاجة للمضخات، ولا لأي شكل من التقانة الحديثة، ولا لمواد بناء. فالماء ينساب بشكل كامل بفعل الجاذبية. ويُخفض التبخر بالمحافظة على القنوات تحت الأرض.

والعلاقات المتوترة بين الصينيين الهان وبين الويغور واضحة في المحلة الصغيرة السياحية التي تحتوي على الكاريز أو البئر. المجمّع كله يعطي شعوراً مثل المتنزه المتحف الذي يركز على موضوع واحد، مثل قرية هنود حمر في أمريكا الشمالية، ففيها تستطيع أن «تخبُر» ثقافة أمريكية محلية. أهلاً إلى عالم الويغور! خذ صورتك التذكارية مع فتاة ويغورية حقيقية ترقص! واجعلها تمسك عناقيد العنب فوق فمك!

بعد أن تكون قد مشيت لترى جداول الماء التي تنساب تحت الأرض قادمة من الجبال إلى المدينة، فإنك تخرج بعد ذلك إلى سوق اصطناعي، تجد فيه مجموعات صغيرة من النساء الويغوريات يتخذن مواقع على مسافات فاصلة منظمة بين الأكشاك. النساء

www.ibtesama.com/vb

كلهن جذابات، وبنيتهن قوية، ويلبسن حتى أعلى مستوى الملابس الويغورية التقليدية المتألقة. وحين تأتي نحوهن كل مجموعة من السياح الهان الصينيين، تأخذ النساء وضعاً، مثل حيوانات تؤدي أدواراً نوعاً ما. إحدى النساء توازن طاسة من عناقيد العنب على رأسها وكأنها تجلس من أجل عمل رسم لها في عصر النهضة الأوروبي. وثلاث نساء أخريات يجلسن إلى طاولة وكأنهن يجلسن من أجل وليمة رومانية، ومرة أخرى مع عناقيد العنب في وضع الجاهز. وزوج آخر من النساء تتحركان باسترخاء حول المكان تصغيان لموسيقى الويغور، جاهزتين للقفز والرقص لدى وصول المجموعة الثانية من السياح.

أقليات الصين العرقية تقوم بالكثير من الرقص. أو هي على الأقل تفعل ذلك، في عقول الهان الصينيين. هناك تقريباً تفكير نمطي بالقدر نفسه في العقل الصيني حول الشعوب الإسلامية مثلما كان يوجد (وربما ما زال يوجد) في العقل الغربي. حين ترى البرامج حول الأقليات العرقية على شاشة التلفزة الصينية، فكل ما يفعلونه في أي وقت هو الرقص، فالرقص، فالرقص. وهم يمسكون عناقيد العنب في أثناء رقصهم. والحديث عن الصين وكيف أنها أسرة واحدة كبيرة سعيدة.

والباعة يضغطون ويلحون على الزوار مثلما يفعل الباعة في كل مكان. وحين أقف لأنظر إلى إشاربات جميلة صوفية ناعمة، أُحاط بباعة آخرين يعرضون علي أسعاراً متضخمة بشكل مضحك. آنئذٍ أدرك أن كل الباعة صينيون هان، وفي نوبة من الاستياء والتضامن مع الويغور، أقرر ألا أشتري أي شيء. فإذا كنتُ سأُستَغل في شينكيانغ، فأريد على الأقل أن أستغل من ويغور.

يهاتفني مراد ويقول إننا نستطيع أن نسوق سيارتنا إلى خارج المدينة إلى كثبان الرمال في هذه الليلة. ونرتب أن نلتقي فيما بعد في ذلك الأصيل، وهو مصحوب بصديق ـ أخ ابن عم (الوصف يتنوع)، وهو الذي يقود سيارة فولكس فاجن قديمة. وصديقه ـ أخوه ـ ابن عمه يتحدث الصينية قليلاً وأقل من ذلك الإنجليزية، وهو يقوم بكل السواقة، ومراد يجلس إلى جانبه، ويميل إلى الخلف ليتحادث معي. ويقول: «سنقوم بجولة في المشاهد المشهورة في توربان، وبعدئذٍ سوف ننام في الصحراء».

www.ibtesama.com/vb

وأسأله: «عظيم. هل نحتاج إلى أن نأخذ أي شيء معنا؟»

ويقول: «أنا أملك بعض البسط من أجلنا لننام عليها، ربما نستطيع أن نشتري بعض الطعام وزجاجة من الخمر».

«خمر؟ ألست مسلما؟»

ويبتسم ابتسامة عريضة ويقول: «ربما أشرب مرة واحدة في الشهر فقط. وفي الحقيقة شربت قليلاً في الليلة الماضية، ولكنني سأجعل اليوم استثناء خاصاً بك».

ونقف في الطريق عند سوق كبير (سوبر ماركت) ونلتقط بعض التموينات، ومن جملتها زجاجة نبيذ أحمر محلي، أنتجته شركة أنشأتها في شينكيانغ بوصفها مشروعاً تجارياً مشتركاً بين كروم عنب صينية ومستشارين فرنسيين. ثم نتجه خارجين من المدينة، راجعين على طول الطريق 312.

ويمر الطريق على الجبال الملتهبة، وكنت قد افتقدت رؤيتها في الظلام في طريق الدخول إلى المدينة. وهي جبال حمر غامقة اللون، فيها وديان صغيرة تنساب منحدرة من الجبال. وتبدو الوديان الصغيرة جداً من مسافة، وخصوصاً في توهج أوائل المساء، مثل ألسنة النار المتسلقة صعوداً في جانب التلال.

ونتوقف وقفة وجيزة عند بعض المواقع الأثرية الأخرى شرق توربان تماماً، مثل كهوف بيزيكليك الرائعة، المحفورة في وجه الجرف الشاهق على طنف ناتئ فوق نهر صغير إلى الشمال تماماً من الطريق السريع. فهذه الكهوف، مثل كهوف الألف بوذا في دونهوانغ، كانت في السابق تؤوي صوراً ضخمة رائعة، والكثير منه كانت قد سرقت بأيدي علماء آثار أجانب في بداية القرن العشرين. لقد قطعت حرفياً وأخذت عن الجدران. ونتوقف أيضاً عند كاراخوجا، وهي الخرائب الممتدة لمدينة قوات حامية عسكرية مرابطة أسسها الصينيون لتكون قاعدة من قواعدهم في هجماتهم من حين إلى آخر وغزوهم شينكيانغ.

ونحن نسوق باتجاه الغرب، يخبرني مراد القصة التي أخبره بها والده عن الكيفية التي جاء بها الصينيون أول مرة إلى تركستان. وهو يعيد اللوم كله ويضعه

www.ibtesama.com/vb

على حصان. في العام 138 قبل الميلاد، قبل الغزو العسكري الأول للمنطقة من طرف القوات الصينية، أرسل الإمبراطور الصيني رجلاً اسمه جانغ شيان عبر أراضي القبيلة المرهوبة الجانب شيونغنو ليصل إلى قبيلة أخرى، هي يويجي، التي كان الصينيون قد رغبوا في التحالف معها ضد شيونغنو. وفي طريقه إلى هناك، قبض على جانغ شيان على أيد قبيلة شيونغيو وبقي في الأسر عشر سنوات. ولكنه حاول الهرب ونجح واستمر في رحلته، وفي نهاية المطاف وصل إلى وادي فرغانة (وهو اليوم في أوزبكستان)، وهناك اكتشف الشعب الذي امتلك أقوى نوع من الخيل معروف في العالم وأسرعه، والذي صار معروفاً في لغة الويغور «الحصان المتعرق دماً» بسبب الطريقة التي يلمع بها جلده الأحمر مع العرق المتصبب حين يعدو الحصان.

في العام 125 قبل الميلاد، بعد ثلاثة عشر عاماً من انطلاقه في رحلته، قام جانغ شيان برحلته راجعاً إلى بلاط الصين الإمبراطورية في تشانغآن (مع ذلك، وبشكل سهل نوعاً ما، سمح لنفسه أن يعتقل ويحتجز على أيدي شيونغنو في طريق عودته أيضاً). وأُمطِر جانغ بالثناء من الإمبراطور، الذي أعطاه لقب المسافر العظيم. وقرر الإمبراطور أن «الخيول المتعرقة دماً» كانت هي بالضبط ما كان يحتاج إليه في الصراع المستمر ضد القبائل المتنقلة نفسها في أراضي السهوب، وقرر أن يحصل على بعضها، وهكذا بادر إلى أول غزو صيني لتركستان. ويتحدث الصينيون عن هذا بكونه بداية طريق الحرير، وبداية دمج تركستان مع الصين، وذلك على الرغم من أن السيطرة الصينية، كما سبق أن رأينا، على ما يعرف الآن باسم شينكيانغ كان متفرقاً على أحسن الأحوال حتى الخمسينيات من 1750.

«أترى هؤلاء؟» يصيح مراد بهذه الكلمات غاضباً ملتفتاً إلى الخلف نحوي في وجه الريح التي تندفع إلى داخل النوافذ المفتوحة على وسعها. وهو يشير إلى عشرات من مضخات النفط التي تومئ بحركة مضخاتها على جانب الطريق، في ظلال الجبال الملتهبة. «هذه آبار نفط وهي تقريباً بعمق ميلين. وتضخ عشرة أطنان نفط في اليوم. أين تذهب كلها؟ أنا سأخبرك إلى أين. شرقاً، من أجل الصينيين الهان ليستخدموها. كم نحصل نحن من نفطنا لنستخدمه؟ لا شيء. كم من الويغوريين تستخدم شركات

النفط؟ لا تستخدم شخصاً واحداً. هذه أرضنا وهم يستغلونها، ولكننا لا نستفيد منها ولو شيئاً ضئيلاً».

ويخبرني عن خط أنابيب غاز طبيعي كان قد تم بناؤه من جنوب شينكيانغ إلى شنغهاي، ناقلاً غاز الغرب إلى الشرق. ثم إنه يقولها. وهو يستخدم التعبير الذي كان يدور في ذهني طوال الوقت ولكنني لم أقله.

يقول: «الصين قوة استعمارية، إنها تحتلنا وهي ببساطة تستخرج مواردنا».

لا أحد يستطيع أن يقول ذلك النوع من الكلام علناً، على الرغم من أن الويغور يقولونه أحدهم للآخر طوال الوقت. وبالنسبة إلى حكومة بكين، وهي شديدة الانتقاد للإمبراطورية وللاستعمار الغربيين، فإنه لعنة لها أن يكون مواطن صيني هو الذي قد يوحي بأن الصين نفسها مذنبة بمثل هذه الجريمة. ولكن مراد وهو يسير مسرعاً على طول الطريق في سيارة مع صديق ويغوري قديم، ومع غربي متجول كثير التسآل، ولا تسمعه إلا الريح فقط، فإن مراد، وهذه هي الحال لا يهتم بشأن التلفظ بمثل هذه الكلمات الممنوعة.

بعد ساعة من سواقة السيارة، وضوء النهار يتلاشى بعيداً، نوقف السيارة، ونخلع أحذيتنا، ونتجول حفاة عبر قعر مجرى نهر جاف. ثم نقوم حرفياً بالتسلق حبواً صاعدين في الكثبان الرملية. الكثير من الصحراء حتى الآن كانت أراضي شجيرات حصبائية بسطح قاس أصفر. وهذه هي أول كثبان رملية حقيقية رأيتها منذ دونهوانغ.

الشمس تغرب غروباً بهياً، وأقترح أن نتوقف، وإلا فإننا سنفتقد رؤية الغروب. ونجلس في منتصف الطريق صاعدين إلى الكثيب، وأنا أسحب زجاجة الخمر من نوع لولان وبريمة السدادات وثلاثة أكواب بلاستيك من حقيبتي. وأشعر أن الموقف غرائبي (سريالي) أن أكون جالساً في صحراء غوبي مع اثنين من المسلمين نكرع زجاجة خمر أحمر. وأقترح أن نشرب نخباً للويغور في كل مكان. ويبتسمان، ونجلس نحن الثلاثة بصمت لا غير ونراقب الشمس وهي تغطس في غمامة من اللون البرتقالي المسرف الجمال.

www.ibtesama.com/vb

ثم يتوجه صديق ـ أخ ـ ابن عم مراد إلى السيارة، وفيها سوف يقضي الليلة، وتابعنا نحن، الاثنين، كفاحنا صاعدين في الكثيب الرملي. وتغدو الرياح أقوى كلما تسلقنا مسافة أعلى. وهكذا فنحن نغوص في واد صغير محمي بين كثيبين، وفرشنا بسطنا على بعد بضعة أقدام، واستلقينا.

ويبزغ القمر جميلاً مثلما هو دائماً فوق الصحراء، أشد بياضاً، وأكبر، وأشد استدارة من كل وقت مضى. وفي أثناء استرخائنا هناك، ونحن ننظر إلى القمر أعلانا، أسأل مراد كل الأسئلة الحساسة للغاية عن الويغوريين، والصراع ضد الصينيين، وإن يكن الآن صراعاً نفسياً فقط.

ويقول: «إنها ليست مأساة 100 بالمائة. فليس هناك قانون يجبرنا على أن نفعل هذا. نحن مشاركون راغبون في تدميرنا الخاص».

«ولكنكم لا تملكون أي خيار، هل تملكون؟»

«لا نملك أي خيار. والطريقة الوحيدة لمعارضة الاستيعاب والدمج هي ألاّ نذهب إلى المدرسة الصينية، ولكنك إذا لم تذهب إلى المدرسة الصينية، فلن تستطيع أن تنجح، ولن تستطيع الحصول على عمل جيد. انظر إلي. فأنا لا أستطيع أن أقرأ أو أتكلم الصينية جيداً جداً. ربما أستطيع أن أفهم 60 بالمائة مما أقرؤه في جريدة. ولو كنت أستطيع أن أقرأ أو أن أكتب، لكنت سأحصل على عمل أفضل بكثير».

وتبدو المسالة تماماً مثلما سبق أن قال لي الأستاذ التيبيتي قبل عدة أسابيع. ويتوقف مراد، وتمر دقيقة وربما أكثر، ونحن نستلقي هنا لا غير، ننظر إلى الكون الواسع والنجوم الممتدة عبر هذا الكون.

ويقول: «العالم يتطور، ويجب علينا أن نشارك».

وهناك وقفة أخرى، زادها الصمت الحزين كآبة.

ويقول أخيراً: «إنه موت بطيء. وهو مأساوي، ولكن ما الذي نستطيع عمله غير ذلك؟ والطريقة التي أتعامل بها مع المأساة هي بإجبار أخي الصغير على البقاء

www.ibtesama.com/vb

في المدرسة، ليحصل على التعليم الذي لم أحصل عليه، ليذهب إلى جامعة جيدة، ولكن ليستخدمها لمساعدة شعب الويغور، لا الصينيين. فنحن لا نستطيع أن نختار عدم المشاركة، يجب علينا أن نشتبك مع العالم ومع الهان الصينيين، وذلك يقود بشكل محتم إلى ذوبان ثقافتنا. ولكننا نستطيع أن نستخدمها لمنفعتنا، بأكبر قدر ممكن».

«ماذا تريد أن يفعل أخوك إذاً؟»

«ربما يدرس الطب، كي يستطيع أن يعود ويساعد في تحسين صحة شعب الويغور».

من الواضح أن مراد يؤثر تأثيراً كبيراً على أخيه وعلى أبناء عمومته الذين هم أصغر منه سناً وعلى أصدقائه، مثل سائق سيارتنا، مشجعاً لهم على المشاركة مع النظام لخدمة غاياتهم الخاصة. ولكن مراد يرسم خطاً عند أشياء معينة. فهو يحتقر جاذبيات الرقص التي تخدم صناعة السياح الصينيين في الفنادق الكبيرة والمحطات الأخرى وهو لن يترك أي واحد من عائلته يشارك فيها، ولو كانوا يدفعون بشكل جيد نسبياً. ويقول: «لماذا يجب أن نرقص لنجعل السياح الصينيين سعداء، ولنفي ببعض النماذج النمطية لما يعتقدون أننا عليها؟ فأنا أفضل أن أكون فلاحاً فقيراً على أن أترك أي شخص في عائلتي يفعل ذلك».

بعد كل بيان، هنا صمت. ليس هناك استعجال. هناك زمن لاستيعاب ما يجري قوله. كم من النادر أن يكون لدي ذلك الشعور.

«وماذا ترى في الانفصاليين الذين يحملون الأسلحة ويقاتلون الدولة الصينية ؟»

إن عدد مثل هذه الحوادث تناقص في الأعوام الأخيرة، ولكن مازال هناك احتدام للغضب من حين إلى آخر.

«حسناً ! لست جسوراً بما فيه الكفاية لأكون واحداً منهم. لي والدان. ولي أخ أصغر مني يجب أن أسنده. ولكنني أعتقد فعلاً أنهم شجعان. وأنا معجب بشجاعتهم».

«شجعان، ولكن بلا أمل، صحيح؟»

www.ibtesama.com/vb

ويتوقف في الغسق. مازال الهواء دافئاً دفئاً جميلاً، ولكنني أستطيع أن أحس ببرودة الرمل عبر البساط الرقيق الذي أستلقي عليه، الرمل الذي كان حاراً يُخبز عليه قبل ساعات قليلة فقط.

وأخيراً يقول: «نعم، شجعان ولكن بلا أمل. يجب علينا أن نعترف بتلك الحقيقة الواقعة. لم يبق المزيد من الأمل من أجل شينكيانغ مستقلة. وذلك ما كنت ومازلت أقوله. دعونا نتقدم، ونتابع الاعتراف بتلك الحقيقة الواقعة، ونستفيد منها أقصى ما يمكن».

وتنسف الريح بعض الرمل في أخدودنا المحمي الصغير.

وأسأله: «وماذا عن أمريكا؟»

«نحن مسلمون. ولا نريد أن نرى المسلمين يقتلون. ولكننا أيضاً معارضون للإسلام المتطرف، مثل طالبان. إذا حكم الإسلام مثل ذلك الحكم، فسيكون كل واحد حينئذٍ فقيراً ومتخلفاً. ولو أن صداماً كان حاكماً أفضل، لما هاجمته الولايات المتحدة. وفي الحقيقة، ليس لدينا سبب لنكره أمريكا. هناك شعب آخر نكرهه كراهية أكبر».

وتنساب الريح مرة أخرى إلى وادينا الصغير، ولكنها ريح ناعمة، وريح نرحب بها. وبعد قليل أسمع مراداً يتنفس تنفساً عميقاً، نائماً على بساطه على بعد بضعة أقدام مني. وأنا أستلقي هناك لبرهة، أسعد من أي وقت آخر في رحلتي. ربما كان الراهب الصيني شيوان دزانغ قد نام هنا في القرن السابع، والكتب المقدسة البوذية التي كان قد عاد بها من الهند مغطاة تحت خرج سرجه. وربما نام هنا أيضاً أوريل ستاين، بعد أن نهب الكتب المقدسة البوذية نفسها من الكهف المكتبة في دونهوانغ. ربما يكون هناك الكثير جداً من الخيال الرومانسي المكتوب عن طريق الحرير المجنون هذا. ومع ذلك الحديث نمت على الرمال المتحركة من الصحراء، تحت قمر ويوغوري.

وتدور الأرض بالطريقة الصحيحة حول محورها وأنا نائم، وأستيقظ في شروق الشمس المتأخر، الذي يعكس جماله على نحو كامل غروب الشمس في الليلة الماضية. وقد أودعت الريح طبقة دقيقة من رمل هب حديثاً فوقي، وهناك حبيبات منه في شفاهي وفي أنفي وفي أذني.

www.ibtesama.com/vb

ونسوق السيارة عائدين إلى توربان، ونتوقف عند متجر صغير لشراء بعض الخبز التنوري الأبيض واللبن الرائب من أجل الفطور. وليس بعيداً عن البلدة، نقف مرة أخرى عند سوق للزبيب، جلب إليه مزارعو العنب منتجاتهم من كل الأنحاء. أكوام ضخمة من الأعناب، بعضها أخضر، وبعضها أحمر، مكومة فوق الأرض، والمشترون يتجولون في المكان، يتذوقون، ويجربون، ويساومون المزارعين. ويبدو أن كل المشترين من الهان الصينيين، وكل المزارعين من الويغور.

في ضواحي توربان، أغير السيارات. فقد كان مراد قد رتب لأخ ـ ابن عم ـ صديق آخر ليسوق بي سيارة إلى أرومجي، العاصمة الإقليمية، على بعد مائة ميل إلى الشمال الغربي. وأعانقه وأودعه.

ويحتمل أن يكون الجزء من الطريق 312 الممتد بين توربان وأرومجي هو أكثر امتدادات هذا الطريق روعة وتأثيراً في النفس من الطريق كله الذي سافرت عليه رحلتي الطويلة الكاملة. إنه مصنوع من قطاعين اثنين أسودين مستقيمين بشكل كامل من الامتداد المزفت عبر الصحراء، خطان في كل اتجاه، مفصولان بقطاع لمسافة عشر ياردات من أرض الشجيرات البرية القصيرة. وفي مقعد المسافر الأمامي تجلس امرأة ويغورية تلبس لباساً فاتناً نوعاً ما، تلحق أيضاً بالركوب مع صديق مراد لتذهب إلى أرومجي. وكانت ابنتها قد سافرت إلى هناك قبل يومين، في اليوم نفسه الذي سافرت فيه ريبيا، الفتاة التي كنت قد قابلتها في محطة حافلات الركاب في هامي. بعد ثلاثة أيام توجيهية مع ثلاثة آلاف طالب وطالبة آخرين، هي أيضاً ستكون متجهة إلى مدرسة ثانوية في الصين الشرقية، بالقرب من شنغهاي. وأمها ذاهبة لتراها مرة أخرى قبل أن تغادر البنت إلى الشرق.

وتقول الأم: «كل واحد يريد أن يذهب إلى الشرق، ومن الجملة الطلاب الذين لم يكونوا جيدين بما فيه الكفاية ليكونوا من المختارين لأماكن مجانية وهم يريدون أن يدفعوا نقوداً من أجل الفرصة للذهاب إلى مدرسة ثانوية في الصين الشرقية».

وعلى الرغم من حماستها لبرنامج المدرسة، تشتكي من الكيفية التي يهيمن فيها الهان الصينيون على كل مهنة في توربان. ولكنها عملية حول المكان الذي يكمن فيه

www.ibtesama.com/vb

المستقبل وهي تسير في الخط نفسه الذي يتخذه مراد. الانفصال لا مستقبل له. هذه هي الطريقة الوحيدة».

ولكنها، مثل مراد ومثل الأستاذ التيبيتي الذي سبق أن قابلته على الطريق إلى شياهو، لن تسمح لعائلتها بأن تهمل هويتها.

«لو أنك قابلت ابنتي، فلن تكون قادراً إلا بصعوبة على معرفة الفرق الذي يفرقها عن فتاة صينية من الهان في الرابعة عشرة من عمرها. ولكنني أقول لها إنها ويغورية، ويجب أن تكون فخورة بأن تكون ويغورية. وأخبرتها بأنها لا تستطيع أن تتزوج شاباً صينياً من الهان، وأنها لا تستطيع أن تتزوج من شخص غير مسلم. إنها تحصل على تعليم أفضل، ثم يجب عليها أن تعود لمساعدة شعبها».

والمرأة، المتزوجة من رجل أعمال محلي، تسألني إن كنت مسافراً على طريق الحرير الجنوبي، نحو خوتان وكاشغر. وأنا أخبرها، للأسف، أنني في هذه المرة لست مسافراً على ذلك الطريق، وأنني أتبع الطريق 312 إلى الشمال الغربي من أرومجي إلى الحدود مع كازاخستان. وتقول إنها قد رجعت قبل قليل من إجازة من طريق الحرير الجنوبي، وساقت مع زوجها وبعض أصدقائهما إلى كاشغر ثم رجوعاً عبر صحراء تاكليماكان.

المستكشف السويدي سفن هيدين سمى تاكليماكان «أسوأ وأخطر صحراء في العالم». وقال أوريل ستاين إن صحاري جزيرة العرب كانت أليفة مقارنة مع تاكليماكان. واليوم بعد مائة عام، تقطعها امرأة متوسطة العمر ويغورية، تعلق قرطين كبيرين وتضع طبقات من مساحيق التجميل السميكة طلباً للسرور والإثارة.

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb

22

من بحر إلى بحر ساطع

كانت أول مرة وصلت فيها إلى أورومجي في قطار من شيان في صيف العام 1988. بعد أيام عابراً غوبي النائية المغبرة، كنت شاكراً للوصول، وذلك على الرغم من أن أورومجي في ذلك الوقت كانت مدينة غير متطورة تثير الكآبة في وسط ناء غير معروف.

ولم أعد إليها حتى العام 2002، حين كنت أرسل التقارير الصحافية عن رد فعل المسلمين الصينيين على الهجمات التي شنت على الولايات المتحدة في9/11 . كانت أورومجي مازالت، طبعاً، في وسط ناء وغير معروف، ولكنها في تلك السنوات الأربع عشرة التي فصلت بين الزياريتين تحولت إلى لوس أنجيلوس. والآن، بعد سنوات قليلة فقط تغيرت أكثر من ذي قبل أيضاً.

كتبت المبشرة الإنجليزية ميلدريد كيبل عن أورومجي وكم كانت مكاناً كريهاً، على الرغم من أنها لاحظت أن المسؤول عن البريد هنا (والذي كان إيطالياً لسبب ما غريب) كان قد نظم نظام البريد كي يكون بالإمكان أن تصل الرسالة إلى بكين في غضون خمسة وأربعين يوماً. وسمت هذا التنظيم «إنجازاً رائعاً حقيقياً». والرسالة في الاتجاه المقابل، عبر الاتحاد السوفييتي، ذهبت على نحو أسرع قليلاً، وكانت تصل إلى لندن في غضون ثمانية وعشرين يوماً.

أما الآن، فالناس في أورومجي يرتبطون في الحال مع بكين ولندن وموسكو بخدمة إنترنيت النطاق العريض. وتوجد في جميع أنحاء المدينة إعلانات تروج لاتصال أوسع، وأفضل، وأسرع.

عيشوا حياة النطاق العريض: هذا هو العام الدولي للنطاق العريض.

www.ibtesama.com/vb

لقد تمددت المدينة، وفيها الآن من السكان أكثر من مليون ونصف مليون نسمة. وبدأت إيقاعات الصين الشرقية تتغلغل. وفي الماضي، كان القول إنه لم يكن هناك أي مدينة في العالم أبعد عن البحر المحيط من أورومجي قولاً مؤكداً لعدم علاقتها بالعالم. أما الآن فلا يبدو أن ذلك مهم، فأورومجي صارت هي قطب الرحى للصين الغربية وهي أيضاً قطب الرحى للنفوذ الصيني الذي يتدفق فواراً فوق حدود الصين مع آسيا الوسطى. بعد خمس مئة سنة من استبعاد السفر البحري لطريق الحرير وإنزاله إلى وضع من عدم الأهمية، يعاود طريق الحرير الجديد ظهوره ويصير مهماً على نحو متزايد بالنسبة إلى شينكيانغ وإلى كل آسيا الوسطى. ففي النصف الأول من العام 2006 كانت شينكيانغ أسرع نمواً من أي واحدة من مقاطعات الصين ومناطقها من حيث التجارة الأجنبية.

وأسجل في واحد من أفضل فنادق أورومجي. ومع مفتاح غرفتي سلموني قسيمة تعرض علي تدليكاً مجانياً في منشأة «حمام تدليك السونا» في الدور الخامس. (وتقول القسيمة»، السيدات اللواتي يطلبن التدليك يجب أن يأتين مقدماً») فإذا كان هذا التدليك هو نفسه مثل كل «تدليك سونا» آخر في الصين، فذلك يعني، في واقع الأمر العملي، أن هذا الفندق الخيالي، الذي يعتني بالجيش المتكاثر من رجال الأعمال القادمين للزيارة من الصين الشرقية ومن الخارج، يقوم بعرض الجنس المجاني لكل رجل يسجل فيه.

كنت أبحث عمن أود أن أتحدث إليه في أثناء وجودي في أورومجي، واكتشفت أن أنظمة سيسكو، شركة تجهيزات أعمال الشبكات الأمريكية، تمتلك مكتباً ليس بعيداً. أتجول نحوها بلا هدف معين، مؤملاً في أن يكون هناك شخص ما قد يرغب في التحدث إلي، ويطرح علي التحية مدير صيني من الهان يلبس لباساً أنيقاً، وينظر ويتحدث وكأنه قد نال ماجستيراً في إدارة الأعمال. وهو على وشك الاندفاع إلى خارج الباب إلى المطار، ليطير إلى بكين ويتابع بعدها إلى الولايات المتحدة في رحلة عمل. ويعطيني خمس دقائق من وقته.

www.ibtesama.com/vb

«كانت العادة هي أن شينكيانغ كانت معروفة من أجل الأسود والأبيض فقط. النفط والقطن. ثم صارت معروفة من أجل الأسود، والأبيض، والأحمر. البندورة (الطماطم) والكاتش أب، هل تعرف أن شينكيانغ تنتج 31 بالمائة من كاتش أب العالم؟ «ويرفع حاجبيه ويبتسم». أما الآن فانظر إلينا. سيسكو هنا. وآي بي ام (آلات الأعمال التجارية الدولية) موجودة في الجهة الأخرى من القاعة تماماً. إننا لا نصنع الكاتش أب».

ويقول إن سيسكو تقوم بمجرد قيادة الطريق في سوق جديد ضخم.

«شينكيانغ الآن ليست متخلفة مطلقاً. إنها جميعاً مرتبطه. وتفكير الناس هنا كله منفتح جداً. هل تعرف لماذا؟ لأن كل واحد هنا مهاجر. إن لديهم عقلية منفتحة، عقلية مهاجر».

ليس لدي فرصة لأسأله كيف يعتقد أن الويغور يشعرون بشأن هذا، وذلك لأنه يقوم بالاعتذار ويندفع خارجاً من الباب. ومالم نجد الوقت للتحدث عنه كان موضوع سيسكو وماذا تعمل فعلاً في شينكيانغ؟ وبلا شك، سلسلة كاملة من المشروعات تساعد الشركات على الارتباط بالشبكات، ولكنها متهمة أيضاً من جماعات حقوق الإنسان بمساعدة الحكومة الصينية على مراقبة الإنترنت لمعرفة أي علامات على الانشقاق. لقد باعت سيسكو آلاف البوابات أو أدوات نقل الرسائل بين الحواسيب (الرواتر) إلى بكين، وهي تجهيزات تقول عنها جماعات حقوق الإنسان في الولايات المتحدة إنها كانت مبرمجة بمساعدة مهندسي سيسكو وهي جزء لا يتجزأ من جدار النار العظيم للصين، الذي تبقيه بكين في كل أنحاء الإنترنيت كي تضبط المعلومات داخل البلاد. وتنكر سيسكو أنها زودت الصين بالتجهيزات والتقانة لضبط ما يراه متصفحو الشبكة الصينيون. وتقول سيسكو إن التجهيزات التي تبيعها للصين هي نفسها مثل التجهيزات التي تبيعها في الأماكن الأخرى في العالم، وإنها لا تستطيع أن توقف الصين عن تكييف التجهيزات لتلائم حاجاتها الخاصة.

سواء أكان هذا أو ذاك، فحقيقة أني أقوم بهذه المحادثة نفسها هنا تقول الكثير عن التغييرات التي حدثت في المدينة وفي طموحاتها. أورومجي، مثلها مثل العديد جداً من المدن على طول الطريق 312، قد صارت أرضاً موعودة صغيرة أخرى.

www.ibtesama.com/vb

في الصباح التالي أتوجه إلى سوق الويغور القديم في إيرادوشياو التي تعني «جسر الطريقين». وأنا ذاهب لأبحث عن المتاهة القديمة من الأكشاك في السوق الرئيسي التي كنت قد زرتها في العام 2002. في ذلك الوقت، كنت أبحث عن مسلمين محليين للتحدث بصراحة عن أسامة بن لادن، وعن الهجمات على أمريكا، وعن فرض السيطرة الصينية على الويغور التي نتجت عن ذلك. وقد ذهبت بكل بساطة من كشك إلى كشك في السوق الوسخ المتاهة، سائلاً بهدوء أصحاب المتاجر إن كانوا سيتحدثون إلي.

في المتجر الرابع تقريباً الذي دخلت إليه في تلك الزيارة، وهو كشك رائع قديم ممتلئ بكل نوع من الفواكه المجففة والمكسرات نظر المالك الويغوري حوله بحذر، ثم طلب إلي بلغة صينية سيئة أن أنتظر لحظة واختفى، ورجع بعد وقت قصير مع رجل ويغوري، لا يزيد عمره عن اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً، وكان يتحدث لغة ماندرينية صحيحة. هذا الشاب، الذي لم يخبرني قط باسمه الحقيقي، صار دليلي لمدة أسبوع. أخذني أولاً إلى متاهة الأزقة، نحو بيت أخيه أو ابن عمه أو صديقه. وشققنا طريقنا يساراً ويميناً عبر السوق، لنحاول أن نفقد أي شخص قد يكون ملاحِقاً لنا، وفي نهاية المطاف انتهينا إلى بيت آمن، وهناك جلس وتكلم بانفتاح شديد عن حجم كراهية الويغور للصينيين الهان وحبهم للأمريكيين.

بعد ذلك مباشرة، مع ذلك، حولت الولايات المتحدة سياساتها. وغالبية المسلمين الويغور هم من الفرع المعتدل الزاهد من الإسلام، المسمى الصوفية، وفي أثناء التسعينيات من 1990 تبنت الحكومة الأمريكية دعم حريتهم الدينية ليكون ذلك جزءاً من نقدها لسجل الصين في حقوق الإنسان. وأما بعد 11 أيلول/ سبتمبر 2001، فإن الولايات المتحدة قبضت على حفنة من المتطرفين الويغور، كانوا يقاتلون مع طالبان في الشمال الأفغاني، واحتاجت واشنطن إلى مساعدة بكين في الأمم المتحدة في الحرب على الإرهاب. وهكذا ففي صيف العام 2002، وافقت إدارة جورج دبليو. بوش على وضع مجموعة ويغورية سابقة غير معروفة تسمى حركة تركستان الشرقية الإسلامية على قائمتها للمنظمات الإرهابية.

www.ibtesama.com/vb

إن قلة من الناس كانت قد سمعت مجرد سماع بهذه الجماعة، ولكن حركة الولايات المتحدة قدمت، ومازالت تقدم، صكاً على بياض لبكين لتفعل ما تشاء في قمع أي نوع من الانشقاق في شينكيانغ، تحت مظهر محاربة الإرهاب، من دون خوف من أي نقد من واشنطن. وبالنسبة إلى القادة الصينيين، كانت 9/11 حلماً وتحقق. فهم لم يستبعدوا الضغط عنهم وحسب وصفهم العدو التالي للولايات المتحدة بل إن الرئيس بوش كان يسمي الصين شريكاً في الحرب على الإرهاب، وكانت بكين لذلك قادرة على أن تنتزع ثمنها الخاص في شينكيانغ مقابل التعاون مع إدارة بوش. وتتهم مجموعات حقوق الإنسان حكومة الولايات المتحدة بخيانة شعب الويغور وبيعه كالعبيد إلى النهر الأصفر.

حين أصل إلى إيرداوشياو، أعتقد أن سائق سيارة الأجرة لابد أن يكون قد جاء بي إلى المكان الخطأ، لأنني لا أستطيع أن أجد السوق القديم في أي مكان. وحين أسأل رجلاً في متجر سجاد، يقول لي بلغة ماندراينية سيئة إن السوق القديم كان قد هدم. وفي مكانه يقف مبنى حديث لامع نوعي على الطراز الصيني، ويسمي نفسه كذلك إيرداوشياو. وفي خارج السوق القديم يوجد جسر فوق بركة صغيرة وبعض التماثيل البرونزية لأناس من الويغور عامة، يعملون أشياء يتخيل الناس الصينيون الهان أن الناس الويغور يعملونها: واحد يصنع خبر التنور، وواحد يعزف على آلة ويغورية. وبكلمات أخرى، فإن السوق الرابحة، الويغورية جداً، والإسلامية جداً لأورومجي قد تم تحويله إلى نوع من مركز تسوق صيني موضوعه الوحيد الويغور، وهو فرع آخر من متنزه عالم الويغور الذي سبق أن رأيته في توربان.

ولنكون منصفين للصينيين، كما سبق أن أشار إلى ذلك صديقي مراد، فليست عملية التصيين فقط هي التي تجري، إنها العولمة، وهي من نوع يحدث في كل مكان. وإلى حدٍ ما، فإن الدافع الصيني لتطوير شينكيانغ دافع أصيل جداً: إنه رغبة للشعب هناك ليحظى بحياة أفضل. ولكن نظراً إلى أن الصينيين، بالنسبة إلى الويغور، هم عملاء هذا التحديث وأدواته، فهناك مرارة خاصة فيه.

www.ibtesama.com/vb

من وجهة نظر الأمن، فأنت تستطيع أن ترى لماذا يقوم الصينيون بهدم الأجزاء القديمة من المدينة وبناء أسواق جديدة للتسوق. جحور متاهة البيوت والمتاجر في السوق القديم كان مكاناً ممتازاً بالنسبة إلي كي أتفادى وأغوص، وأهمس وأتآمر حين كنت أبحث عن ويغور ساخطين. أما اليوم، فأنا أقضي عدة ساعات ماشياً أتجول في سوق إيرداوشياو اللامع الجديد، محاولاً أن أجد شخصاً ما ليتحدث إلي حديثاً صريحاً حول العلاقات بين الهان الصينيين وبين الويغور، ولا يوجد واحد يرغب في ذلك. وأضواء النيون اللامعة المحيطة بإطارات المتاجر وواجهات المتاجر المفتوحة تجعل التآمر من نوع صعب. وذلك، طبعاً جزء من الخطة الصينية.

معظم الناس من الهان الذين يعيشون في الصين الشرقية لم يسبق لهم أن كانوا في شينكيانغ أو في التيبت، وليس لديهم أي فكرة عن أن الويغور وأهل التيبت غاضبون جداً. لقد قيل لهم دائماً، إنه منذ زمان قديم لا تعيه الذاكرة، كانت شينكيانغ التيبت جزءاً من الصين، وإن كل أقليات الصين العرقية قد اندمجت اندماجاً سعيداً. وهم أيضاً واعون للمعاملة المفيدة التي تتلقاها الأقليات العرقية، وهو نوع من العمل الإيجابي الذي توظفه بكين لتحاول أن تبقي الأقليات سعيدة. وهم طبعاً، أي، الصينيون في الشرق، يقرؤون كثيراً من التقارير الإخبارية عن كل مراكز التسوق الجديدة الرائعة تلك التي يجري بناؤها من أجل شعب الويغور المحظوظ. وهكذا فهم حين يزورون شينكيانغ أو التيبت، يحتارون في الغالب من الاستقبال البارد، وأحياناً من العداوة النشيطة، التي يتلقونها من أهل التيبت أو من الويغور. وهم يسألون: ألسنا نعطيكم كل شيء؟ ألستم تنالون سياسات مفيدة؟ أليس مسموحاً لكم أن تنجبوا طفلين لا واحداً، وأن تصلوا إلى الجامعة بعلامات امتحان أقل؟

وهناك قصة مشهورة من القرن الثامن عشر، يقصها الطرفان كلاهما الهان والويغور وهي تمثل تمثيلاً كاملاً التفاعل بين الطرفين، حتى هذا اليوم.

كان الإمبراطور شيانلونغ، في أثناء الاستيلاء على شينكيانغ في الخمسينيات من 1750، قد سمع عن فتاة ويغورية تدعى إبارهان. وكان يقال إن جسدها يطلق عطراً خاصاً به، فأمر شيانلونغ بأن تُحضر إلى بكين لتكون جزءاً من الحريم الملكي. وصارت إبارهان تعرف باللغة الصينية باسم المحظية العطرة.

www.ibtesama.com/vb

وأعطاها الإمبراطور حجرة رائعة وحديقة جميلة، ولكنها قضت أيامها تبكي من أجل وطنها. ثم بنى لها الإمبراطور بعد ذلك واحة مصغرة لتذكرها بقريتها في الوطن، ولكنها كانت ما زالت غير قابلة للمواساة. فبنى لها مسجداً وسوقاً وسرادقاً كانت تستطيع أن ترقى عليه وتنظر باتجاه الغرب، ومع ذلك ما زالت غير سعيدة. وأخيراً، سألها ما الذي كان سيجعلها سعيدة، وقالت إنها كانت مشتاقة إلى عطر الشجرة التي تورق أوراقها من فضة وفاكهتها من ذهب. وهكذا أرسل شيانلوغ إلى كاشغر في طلب النبات المعروف باسم الزيزفون، أو شجيرة الرمل الفضية الأوراق، وكما يقص الصينيون الحكاية، صارت المحظية المعطرة أخيراً راضية.

ويقص الويغور الحكاية نفسها، ولكنها بنهاية مختلفة. ففي نسختهم، تمشي إبارهان في شقتها في المدينة الممنوعة في بكين مع خناجر صغيرة مخبأة في أكمامها فيما لو حدث ودعاها الإمبراطور إلى غرفته الإمبراطورية للنوم. وفي النهاية تنتحر بدلاً من مواجهة هذا العار.

بالنسبة إلى الصينيين، ترمز المحظية المعطرة إلى الكيفية التي صار فيها الشعب التركي المتوحش في الغرب متصالحاً أخيراً مع كونه جزءاً من عالم الصين المتمدن والمتفوق تفوقاً لا حدود له. وبالنسبة إلى الويغور فهي ترمز كيف أنهم مع الشعوب التركية الأخرى لم يقبلوا الحكم الصيني قط ولن يقبلوه أبداً.

ولو كنت ستهدم كل المباني الويغورية أيضاً، فهناك، مع ذلك، قسمان من الحياة في أورومجي سيمكثان بعد ذلك. الأول هو الرائحة، رائحة الخبز المبسوط، ورائحة لحم الضأن المشوي، ورائحة البهارات. والثاني هو الموسيقى، ولكنها ليست موسيقى النغمات المقيسة، والمرتبة لصين الهان، بل هي أشد الإيقاعات بريّة، التي تبعث على النوم المنطلقة من السوق (البازار). كلاهما يتحرك كالدوامة في الهواء على الشارع الرئيسي بقرب إيرداوشياو. والرجال الويغور غير الحليقين يشوون كباب لحم الضأن المغموسة بالبهارات الحمراء اللامعة على نيران الفحم المفتوحة، وإذا لم تكن من قبل متفكراً في الطريق غرباً باتجاه آسيا الوسطى من أورومجي، فإن مجرد نفحة من الهواء هنا سوف تنقلك إلى هناك. وعلى الطريق على بعد أكبر، كان يتمدد أربعة

www.ibtesama.com/vb

موسيقيين من الويغور بشكل كسول على مقعد، يصنعون ضجة تبدو غير متناسبة مع الطاقة التي يصرفونها. وكل الموسيقيين الأربعة يلبسون قبعات ملونة ويغورية، ثلاثة منهم ينفخون في نوع ما من الأدوات الموسيقية الهوائية الويغورية، وواحد يضرب على زوج من الطبول الصغيرة. وفجأة، يبدأ أمامهم رجل ويغوري متوسط العمر يلبس بدلة وربطة عنق بالرقص رقصاً جنونياً في الحر. ويبدو وكأنه قد خطا قبل قليل إلى الخارج من واحد من مباني المكاتب المحيطة بالمكان في ساعة تناوله لغدائه. وربما يكون الرجل ثملاً. أو ربما هو يطلق البخار، يخفف مشاعره المكبوتة. ويتجمهر جمهور من الناس وأنا أقف بينهم، وأراقب الرجل يدور مثل درويش مكتب في رصيف الممشى الجانبي.

وهكذا، وأخيراً، إلى مكان من الجمال السامي. الصين بلاد جميلة جداً، ولكنني أفترض أن الطريق 312 لا يشهد حقاً على أفضل ما فيها. والشرق والوسط منبسطان، منبسطان، منبسطان. والجبل المزهر، بالقرب من شيان، مؤثر وسحري رائع. وهضبة التيب في شياهو جميلة بطريقة من نوع بري. وهضبة الراسب الطفالي ترابية أرضية وحقيقية. وغوبي، طبعاً، لها جمالها الخاص الطبيعي، المفتوح انفتاحاً واسعاً. ولكنك إذا كنت تريد جمالاً طبيعياً رائعاً مؤثراً تأثيراً بهيجاً، تقف إلى الخلف وتحدق فيه في حدود ساعات قليلة من الطريق 312، فليس هناك سوى محلات قليلة يمكن مقارنتها ببحيرة السماء.

هناك ثلاث سلاسل جبال تمتد عبر شينكيانغ مثل أصابع مفرطة الامتداد من الغرب، وبين السلاسل الثلاث يوجد حوضان. جبال ألطاي تسير على طول الحد الشمالي لشينكيانغ. وجبال بامير وبعدئذٍ جبال كونلون تسير على طول الحد الجنوبي لشينكيانغ مع الهند التيبت، وتقطع جبال السماء فرجة عبر الوسط. وتقع بحيرة السماء على الجانب الشمالي من جبال السماء، على مسافة سياقة ساعتين ونصف شمال شرق أورومجي.

كنت أستكشف المدينة مع سائق سيارة أجرة من الصينيين الهان كان اسمه ون، وكان قد أراني واحداً من أقطاب رحى النقل في أورومجي، وهو مساحة موقف ضخم

www.ibtesama.com/vb

تحمل فيها الشاحنات بالمنتجات لتتجه نحو الشرق إلى شنغهاي ونحو الغرب إلى آسيا الوسطى. اللافتات مكتوبة باللغة الصينية، وباللغة الويغورية وباللغة السيريللية.

ويخبرني السائق ون أن والديه قدما إلى المنطقة في أول الأمر بصفة أعضاء في مؤسسة شينكيانغ للإنتاج والإنشاء، المعروفة في الصين، وهي نوع من وكالة تطوير شبه عسكرية تشكلت في الخمسينيات من 1950، ومكونة من صينيين هان من الشرق من الذين كانوا عسكريين وفلاحين معاً. وكانوا قد قورنوا بجماعة الإسكان في أمريكا في القرن التاسع عشر *، أو يوصفون أحياناً بأنهم «مستوطنون». أرسلوا لحماية الحدود المثبتة حديثاً للجمهورية الشعبية ولتحويل الصحراء إلى أرض خضراء.

مازالت مؤسسة شينكيانغ للإنتاج والإنشاء موجودة وهي دولة صغيرة في حد ذاتها، وهي أكبر رب عمل ومالك للأراضي في شينكيانغ. وهي منظمة مثل وحدة عسكرية، وتمتلك أربع عشرة فرقة، وكل فرقة لها أفواجها وسراياها، وتدير العديد من معسكرات العمل حول شينكيانغ. وفي أثناء السنوات الماوية، آوت المعسكرات السجناء السياسيين من الشرق، ولكن حين تناقصت أعدادهم، فقد صارت المعسكرات تحتوي على المجرمين العامين بشكل رئيسي وعدد قليل من الويغور الانفصاليين. وحين تغيرت الصين، تغيرت مؤسسة شينكيانغ للإنتاج والإنشاء أيضاً، ومثل كل المشروعات التي تملكها الدولة، فهي تنوعت إلى كل أنواع الأعمال حين غطست البلاد مباشرة إلى اقتصاد السوق.

مئات الآلاف من الصينيين الهان الذين قدموا إلى الغرب مع مؤسسة شينكيانغ للإنتاج والإنشاء كانوا مشبعين إشباعاً عميقاً بالتعاليم الشيوعية عن التضحية من أجل الأرض الأم. سائق سيارتي الأجرة يتحدث عن والديه وكيف أنهما «أكلا المرارة» طوال عقدين، في الخمسينيات من 1950، والستينيات من 1960، حين كانا يحاولان أن يبنيا الاشتراكية في شينكيانغ.

* هي شركات للإسكان تنشأ للحصول على قطع كبيرة من الأراضي وتحسينها ثم تقسيمها إلى (نمر) أو قسائم وتوزيعها على الأعضاء المساهمين وجمع الأموال اللازمة لهذا الغرض. انظر المعجم القانوني، (المترجم).

www.ibtesama.com/vb

هناك الآن مئات الآلاف من الجيل الثاني من الصينيين الهان وهم أناس مثل ون، والعديد من الجيل الثالث أيضاً، الذين تشكل شينكيانغ الوطن لهم، وفي الحقيقة أن مؤسسة شينكيانغ للإنتاج والإنشاء لا تحتاج إلى تشجيع المستوطنين إلى المجيء بعد الآن. فالإغراءات الاقتصادية من استثمار المال الحكومي هنا تجلب ما يكفي من الهان المهاجرين من دون حاجة إلى المزيد من الهجرة القسرية. وفي الحقيقة، صارت أورومجي تقريباً مغناطيسا للمهاجرين بقدر ما هي شنغهاي. مركز مدينة أورومجي غابة من المباني المكتبية الجديدة، والطرق، والفنادق، وإنشاءات كافية لتنافس مدناً رئيسية تقع على بعد ألفي ميل إلى الشرق منها. ويقول السائق ون: «كل هذا كان حقولاً». وهو بكلامه هذا يكرر كالببغاء كلام كل سائق سيارة أجرة في كل مدينة سبق لي أن زرتها في أي زمان عبر الصين ونحن نتوجه عبر ضواحي البلدة نحو الطريق إلى بحيرة السماء.

زوجة السائق ون موظفة لدى شركة كبيرة من أورومجي كانت قد بنت قبل مدة قليلة أعمالاً حديدية وفولاذية في طاجكستان، وتورد الفولاذ من أجل إعادة إعمار أفغانستان. كانت تعمل بالقرب من العاصمة الطاجيكية، دوشانبه، بعمل محاسبة طوال عام تقريباً وهي تكسب مالاً جيداً، حسب ما يقول.

ونتسلق صاعدين في الجبال الخضراء الناضرة الريانة، وفي نهاية الطريق، قرب القمة، توجد منطقة موقف ضخم للسيارات ومدخل إلى نظام سيارات الكابل الصغيرة، الذي يأخذ السياح، كل اثنين في المرة الواحدة، ليصعدوا إلى البحيرة. والمنطقة تجيش بالسياح الهان الصينيين.

وأركب سيارة الكابل إلى القمة وهناك توجد فجأة أجمل بحيرة صغيرة سبق لي أن رأيتها في أي زمان. تعطي الشعور وكأن كتلة من جبال مونتانا روكي قد انقذفت في وسط الصين الشمالية الغربية. وهي محاطة من ثلاثة جوانب بتلال مكسورة بأشجار الصنوبر الجميلة، وتمتد البحيرة لمسافة ميل تقريباً، ويلوح فوقها جبل الله، وهو ما زال مغطى بالثلج في شهر آب/ أغسطس، ويمتد متطاولاً في السماء إلى ارتفاع ثمانية عشر ألف قدم تقريباً.

www.ibtesama.com/vb

جموع من السياح الصينيين مجتمعون كلهم في بقعة واحدة، إلى جانب صخرة ضخمة كان قد نُحِت عليها الحرفان الصينيان لبحيرة السماء، وهما تيان تشي. وهناك خط طويل من الناس ينتظرون ليقفوا إلى جانب الحرفين وتلتقط لهم صورة ضوئية. والزوارق الآلية تزمجر عبر الماء، وأزيز محركاتها يرجع الصدى في كل أنحاء البحيرة التي لولا ذلك لكانت بحيرة وادعة مسالمة. وتغلبني الحاجة إلى الهروب من الجمهور. وهكذا أنطلق على الطريق الصغير الذي يقود صاعداً إلى الجانب الشرقي من البحيرة، وفي غضون خمس دقائق تقريباً لا يوجد هناك أي شخص.

وتصير الطريق ممراً، وبعد المشي طوال ساعة، أجد صدفة لافتة كبيرة، تقرأ فيها خيام رشيد. ورشيد، كما يتبين بعد ذلك هو قازاقي رجل أعمال يتحدث الإنجليزية جيداً (والصينية) ويؤجر أماكن في خيمه القازاقية التقليدية، المعروفة باسم يورت، وذلك بشكل رئيسي للأجانب حملة حقائب الظهر. وأطرح حقيبتي اليومية وأتوقف عن التقدم إلى مسافة أبعد على طول شاطئ البحيرة وشمس الأصيل تختفي خلف الجبال.

ترتفع التلال المبرقشة من كل جانب من البحيرة، مجموعة من ألوان الأخضر المتباينة. والأشجار الصنوبرية مرتبة في أشرطة طويلة وعريضة نزولاً في جوانب الجبل. والأشجار المتساقطة الأوراق، على النقيض، تبدو أنها تنمو في عناقيد، وفي عقد صغيرة من الأخضر الأكثر بريقاً الذي بدأ قبل قليل يفكر في التحول إلى اللون الأصفر.

شخص ما قد وضع جلد غنمة مذبوحة حديثاً على الصخور في جانب البحيرة ليجف. والفطر ينمو من كتل الخشب المتحللة. والطحلب موجود في كل مكان، والهواء النظيف لتتنفس، والصمت. ومن حين إلى آخر تقفز عنزة صاعدة في جانب التل فوق ممر على جانب البحيرة. ويحوم صقر فوق الرؤوس، ثم يخفق بجناحيه نحو قمة كل شجر التنوب الطويل. وأجد بقعة من العشب بين بعر الماعز بين الممر والبحيرة، وأجلس ساكناً بلا حركة طوال ما لا بد أنه كان على الأقل نصف ساعة، أراقب فيها الطائر العظيم.

www.ibtesama.com/vb

وفي نهاية الأمر، يطير الصقر مبتعداً، فأنهض وأعود إلى خيام رشيد لتناول العشاء. إنه طاسة بسيطة ولكنها لذيذة من المعكرونة الطويلة واللحم، تؤكل مع اثنين آخرين من حملة حقائب الظهر هما أيضاً يلجأان إلى الجبال، ليرتاحا من رحلتهما عبر الصين. لا يحدث أي شيء مطلقاً في ذلك المساء، وهو أمر رائع في حد ذاته. ويهبط الليل، وأتجول نازلاً إلى البحيرة وحيداً وأقف في الظلام، أنظر إلى الأعلى إلى النجوم، مثلما أعمل دائماً. وننام وأقدامنا متجهة نحو وسط الخيمة الدائرية، تحت بطانيات قازاقية سميكة وفرها رشيد ضد صقيع ليل الصيف.

لم يكن الضوء بعدُ قد انسل بعيداً بشكل كامل والسيارة تنطلق من محطة أورومجي لتبدأ رحلتها التي تدوم ست عشرة ساعة إلى الحدود. وفيلم الكونغ فو كان قد بدأ يومض من قبل، ورجل ويغوري مسن له لحية صغيرة يجلس قائم الجسم وساقاه متصالبان على السرير خلفي، يداه مرفوعتان إلى الأعلى وهو يرتل صلواته المسائية. والركاب كلهم تقريباً وبشكل حصري من الويغور، وحين أتفاعل معهم أشعر أنني محرج قليلاً بسبب قسرهم على التحدث بالصينية. قطاف ضخم من البندورة (الطماطم) مرئي في ضوء المساء، ومحمل في شاحنات على جانب الطريق، وربما يكون في طريقه إلى زجاجات للكاتش أب من أمريكا.

العالم الأمريكي الكبير بآسيا الوسطى أوين لاتيمور - الذي سوف يتهمه في الخمسينيات من 1950 عضو مجلس الشيوخ الأمريكي جوزيف ماكارثي بكونه الجاسوس السوفييتي الأول في الولايات المتحدة - قام في العام 1927 بالرحلة نفسها مع زوجته ومع خادم صيني اسمه موسى. كانوا على ظهور الخيل، متجهين غرباً، قبل أن يقطعوا الجنوب عبر شينكيانغ الجنوبية إلي كشمير البريطانية. ويصف لاتيمور في كتابه عن الرحلة، (بلاد التتار العليا)، كيف مر بهم، القنصل السوفييتي العام، وهو يقود السيارة الوحيدة في شينكيانغ وهم راكبون خارجين من أورومجي.

ويصف لاتيمور بلدات الغرب القفر على طول الطريق خارج أورومجي في تلك الأيام: «أعداد سائقي العربات بدولابين الكارّة، والباعة المتجولين، وباعة السلع الرخيصة، والمتعاملين ببيع المواشي، وتجار الخيول، ورجال القوافل التي تمر من

www.ibtesama.com/vb

حين إلى حين آخر، ومستطلعي أنباء سباق الخيل للمراهنة، واللصوص، والأشقياء (البلطجية)، والمتشردين الواضحين ازدادوا برجال القبائل، من المنغول والقازاق معاً، من النوع الذي يغويه المجيء إلى مثل هذه البلدة، وهم: المسرفون والسكارى... والجو العام هو جو تَنَمّر الأشقياء، والتبجح، والحركة الماكرة، والخداع المعيب». وختم لاتيمور بالقول إن البقاء على قيد الحياة كان يتطلب «لساناً حاضراً، ووجها جسوراً بلا حياء من نحاس، ويفضل وجود زوج من العيون في قفا رأس كل إنسان».

كان واحداً من أواخر الأجانب الذين سافروا في طرق القوافل القديمة على ظهور الجمال أو الخيل. وكان مراسل التايمز في لندن بيتر فليمنغ قد جاء عبر شينكيانغ بعد سنوات قليلة، ولكن اليابانيين، بعد ذلك، غزوا الصين وجاءت الحرب، ثم إن الشيوعيين استولوا على السلطة في العام 1949 وحولوا كل شيء بوساطة سككهم الحديدية وبطرقهم. إن الإصلاحات السياسية التي أدخلها ماو والإصلاحات الاقتصادية التي أدخلها دينغ شياوبنغ غيرت الصين إلى الأبد، وإن الطريق السريع بمساراته الأربعة التي تعصف نحو الغرب خارجة من أورومجي هو طريق حديث ومناسب على نحو مخيف، على الرغم من أنه لا يضج (بعدُ) بأزيز المرور حتى الآن. بعد وقت قليل سيكون الطريق 312 طريقاً سريعاً بأربعة مسارات طوال الطريق حتى الحدود.

ماذا كان أوين لاتيمور سيفعل بهذا الطريق وهو متجه إلى الغرب بعد ثمانين عاماً؟ لقد استغرق منه الطريق ستة أيام ليركب إلى شيهيو، وهي على بعد 140 ميلاً إلى الغرب من أورومجي. وقطعها القنصل العام السوفييتي في سيارته في يومين. حافلتي الصقيلة الزرقاء المعدة للنوم، وكلمات الإجازة المريحة مكتوبة بحروف إنجليزية كبيرة على طول جانب الحافلة، تصل بلدة كويتون، القريبة جداً من شيهيو، في أربع ساعات على طول الطريق السريع. وكله آمن وكفء للغاية. لقد روض الحزب الشيوعي العديد من الصحارى ومن جبال شينكيانغ، على الرغم من أنه لم يكسب بعد قلوب شعب المنطقة وعقوله حتى الآن.

www.ibtesama.com/vb

بعد ساعات قليلة، تضيق المسارات الأربعة إلى اثنين، والقرى الصغيرة تعانق الطريق، وهو يندفع ببطء نحو الغرب في الظلام. وخلف قطاعي الإسكان الضيقين وبينهما، لا يوجد إلا القليل غير الصحراء المفتوحة على اتساعها. كل أولئك المئات من الملايين من الناس في الصين محشورون في النصف الشرقي منها، وهذا النصف فارغ تقريباً. وتعتصر السماء المتجهمة بظلمة متزايدة آخر ومضات من مقاومة اليوم وأنا أغط في نومي على سريري لآخر مرة.

كانت الصحراء قد تبخرت في الوقت الذي صحوت فيه، وهناك بحيرة كبيرة خضراء إلى جانب الطريق. والطريق 312 خرج أخيراً من الصحراء إلى سلسلة من التلال الجميلة، قبل الحدود بقليل تماماً. إنها ليست تماماً مثل رؤية المحيط الهادئ بعد سانتا مونيكا عند نهاية الطريق 66، ولكنه تغيير موضع ترحيب من الصحراء من آخر ألف وخمس مئة ميل. ويدعى هذا الامتداد من الماء باسم بحيرة سيرام، وهناك خلفية جميلة من الجبال خلفها.

وفي الوقت الذي كنت فيه أبدي إعجابي بالمنظر من سريري، تباطأت حافلة الركاب وانتفضت فجأة للوقوف. مرة أخرى تعطلنا، بجانب البحيرة تماماً. وتمر الشاحنات الزرقاء الكبيرة من ريح الشرق من جانب سيارتنا الجريحة، وهي تنفخ أبواقها حين مرورها بنا. وفي هذه اللحظة، أريد فقط أن أصل إلى الحدود، وهكذا ففي الوقت الذي يتشاور فيه سائقانا حول أفضل مسار للعمل، أقرر أن أتابع وفق خطتي بالطريقة المعتادة، وأخرج وأسافر متطفلاً مجانياً في آخر ساعات قليلة من الرحلة.

ويلتقطني سائق شاحنة. وهو صيني من الهان، وهو تقريباً صورة كربونية طبق الأصل عن سائق الشاحنة ليو، الذي كان قد منحني ركوباً من بلدة الممر النجمي (ستاري غورج). اسمه ميو، وقد جاء طوال الطريق من شنغهاي أيضاً. وهو ابن مهاجرين صينيين من الهان جاءا مع مؤسسة شينكيانغ للإنتاج والإنشاء في الخمسينيات من 1950 للمساعدة في تطوير الغرب، على الرغم من أنه بعمله سائق شاحنة ربما كان يقوم بتطوير الغرب بشكل أكبر مما سبق أن فعل والداه.

www.ibtesama.com/vb

نتبادل أطراف الحديث والطريق يتلوى شديد الميلان نازلاً من التلال، وهو محصور على واحد من الجانبين بحاجز فولاذي لمنع السيارات من الاختفاء بعيداً عن الحافة. والغابات من أشجار الصنوبر الأخضر الغامق تصطف على جانبي الطريق، تدهش المسافر، الذي ترعرعت عيناه معتادة على وهج الصحراء.

وأخيراً، نصل كورغاز، بلدة صغيرة موحشة تعطي الشعور بالفراغ، وهي الموجودة في الحقيقة من أجل عبور حدودها فقط إلى كازاخستان. مازال الوقت باكراً، والشوارع هادئة. وأنا أمشي بحقيبة ظهري الثقيلة مسافة ميل أو ما يقارب ذلك من محطة حافلات الركاب إلى العبور، ماراً بحامية الجيش، على طول شارع يسمى تسمية مناسبة: طريق أوراسيا.

إلى جانب الطريق قبل عبور الحدود تماماً توجد فسحة من الأرض منفتحة على اتساعها مع لافتة تعلن أن شيئاً ما يسمى مركز كورغاز الدولي للتجارة يوشك أن يرتفع من بين أنقاض الهدم. وتشير اللافتة إلى طموحات البلدة.

الطريق المناسب للسلع الصينية
لتدخل بنجاح إلى آسيا الوسطى

العبور نفسه لا يترك أثراً في النفس نوعاً ما: بوابة معدنية قديمة واسعة، مدهونة بالأحمر والأبيض، أمام مبنى بالآجر الأبيض لا يزيد ارتفاعه عن خمسة أدوار كتبت عليه بحروف ذهبية كبيرة الحروف الصينية التي تعني عبور حدود كورغاز. رجلان صينيان في الزي الموحد الأخضر وعليهما كتفيات حمراء للرتب يقفان داخل البوابة، يسمحان بالدخول فقط لمن سيعبرون الحدود. وهناك سوق صغير على يمين البوابة. والتجار يبيعون مجوهرات وحلياً صغيرة، وسيوفاً، وفرواً، وأطعمة روسية وألعاباً صينية. وهنا أيضاً، توجد طاقة، وأمل بالتحسين أتخيل أنا، وربما بشكل غير منصف، أنه قد لا توجد على الحدود في كازاخستان.

حين أصل البوابة الحمراء والبيضاء، ألتفت خلفي وأدرك...أن هذه هي. هذه هي نهاية الطريق 312، وهي نهاية رحلتي. وتشير قراءة حجر مؤشر إلى جانب الطريق

www.ibtesama.com/vb

إلى 4824 كيلو متراً. لقد سافرت تقريباً ثلاثة آلاف ميل من شنغهاي، ويا لها من رحلة كانت طويلة وغريبة.

لقد شهد الطريق على كل شيء: فقر الريف، والثروة المتنامية للمدن، وطبعاً الناس الذين يسافرون على طول الطريق نفسها. إنه موصل للأمل ولليأس، يجلب الهروب والاختيار لأماكن لم يسبق لها أن عرفت إلا القليل من الاثنين.

الطريق 312 كان مصدر تحويل لي أيضاً، وساعدني على أن أرى الكثير جداً مما لم أكن أعرفه. ولكنه ليس هو نفسه بالنسبة إلي. إنه مختلف جداً. لقد توصلت إلى محبة الطريق 312 في كل طرقه الانفصامية، ولكنني أجنبي محايد. أنا أستطيع أن أغادر. وأنا الآن أغادر. وهو ليس رومانسياً خيالياً كثيراً تماماً بالنسبة إلى الناس الذين يجب أن يمكثوا.

قلة من الناس الصينيين يلتقطون صوراً أحدهم للآخر أمام البوابة الحمراء والبيضاء. وأريد أن أسألهم: «هل قطعتم كل الطريق من شنغهاي ؟» وأسلم آلة التصوير الخاصة بي لواحد منه وأطلب منه أن يلتقط لي صورة، وأنا أقف أمام معبر الحدود. ذكرى نهائية.

وعلى كل حال كنت أتوقعه أن تكون أكثر تأثيراً دراماتيكياً، وأن إشارة موسيقية ما قد تتصاعد في الخلفية وقائمة الاعتراف لأهل الفضل تندرج في بيان. ولكن الموسيقى الوحيدة هي إلحاح التجار في السوق، والعروض المهموسة لصرافي العملة: «اصرف عملة، اصرف عملة».

وتغمرني فجأة موجة من العاطفة وتجتاحني لدى وصولي إلى نهاية الطريق، وفعلياً نهاية زماني في الصين. وأقف هنا مفكراً إلى الوراء في رحلتي وفي كل الناس الذين قابلتهم، ولا أكاد أصدق أنها قد انتهت. ربما يكون هذا هو ما كان يشعر به المرء في السفر إلى الغرب في الولايات المتحدة في التسعينيات من 1890: من دون معرفة ماذا أعد المستقبل للبلاد العظيمة التي رأيتها قبل قليل، ولكن مع الشعور تماماً بالامتياز المحض لمشاهدة مخض التاريخ وحركته، وتحول أمة، وبروز قوة جديدة، تأخذ مكاناً

www.ibtesama.com/vb

مرة فقط في كل ثلاثة أجيال أو أربعة. ومهما يحدث للصين في المستقبل، إن عشت أنا بما فيه الكفاية لأرزق بالأحفاد وسألوني، «هل كنت هناك، يا جدي؟ هل رأيت الصين فعلاً وهي تنهض؟» فسوف أقول لهم: «نعم. أنا رأيتها. أنا كنت هناك».

وآنئذٍ أدرك أنني لا أريد أن أمكث دقيقة واحدة أطول. أود أن أخرج من هنا، لأصعد إلى طائرة، ولأذهب لأرى أسرتي. وأضع حقيبة ظهري في سيارة أجرة تنتظر، يمتلكها مهاجر مزاحم من مقاطعة هينان على بعد ألفي ميل إلى الشرق، ويقود السيارة بي مسافة خمسين ميلاً أو ما يقاربها إلى مطار ينينغ، لرحلة الطيران الطويلة عائداً إلى المدينة الزمردية إلى مدينة شنغهاي.

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb

23
الطريق مطروق

حين ترى الصين من الجو، تدرك ضخامة ما تحاول الحكومة في بكين أن تفعله. إنها لا تبني بلداً، إنها تبني قارة. إن بليوناً ونصف البليون من الناس يسكنون في أوروبة وفي شمال أمريكا وجنوبها، وينقسمون إلى أكثر من خمسين دولة ذات سيادة، ويعيش شعب صيني من بليون ونصف البليون من الناس تقريباً في دولة واحدة ذات سيادة. فالتحدث عن بناء الصين الأمة بالنَّفَس نفسه مثل بناء ماليزيا الأمة أو المكسيك الأمة كذلك، هو، مع الاحترام المستحق للماليزيين وللمكسيكيين، حديث غير معقول.

وأراه كله موضوعاً تحتي في الطيران القصير من ينينغ إلى أورومجي، وبعدئذٍ والشمس تغرب، على رحلة طيران لأربع ساعات من أورومجي إلى شنغهاي. وعلى الرغم من أنني صرت مرتبطاً بالطريق 312 لأنني سافرت غرباً على طوله، فأنا سعيد في أنني لا أرجع إلى شنغهاي براً على نفس الطريق.

وأخيراً، أصل متأخراً في تلك الليلة إلى مطار شنغهاي الأصغر والهنونغ كونغي الأقدم، وهكذا لا يكون علي أن أركب القطار المغناطيسي المرفوع مرة ثانية عائداً إلى المدينة. ولكنني، مع ذلك آخذ سيارة أجرة عالية السرعة للركوب على طول الطريق السريع المرفوع المسمى بليد رنر من طريق يانان وهو يقطع المسافة عبر المدينة على ارتفاع خمسين قدماً فوق الأرض.

وأقيم في هذه المرة، في فندق السلام، على شارع البند. الباعة المتجولون مازالوا هناك، بعد منتصف الليل، يعرضون الساعاتِ، والنساءَ، ومضارب لعبة الغولف. وفرقة الجاز أنهت عزفها في الوقت الذي أسجل فيه وصولي في الفندق، وأنا لا أمتلك القدرة على مجرد المشي متأخراً في الليل على طول شارع البند.

www.ibtesama.com/vb

في اليوم التالي أنام متأخراً، سعيداً بأني لن أركب سيارة إلى مكان ما. وأمضي يوماً كسولاً في شنغهاي، يتضمن ركضاً في النهار لآخر مرة على طول شارع البند والعديد من أكواب القهوة الطويلة الخالية من الدسم. وفي المساء أذهب إلى مطعم نيو هايتس مرة أخرى وأنظر عبر نهر هوانغبيو، وأفكر كم هو بعيد هذا كله عن صحراء غوبي.

القوارب التي تنقل الفحم على طول نهر هوانغبيو مازالت تنتقل صعوداً ونزولاً، ولافتات النيون التي تضيء ضفتي النهر تبدو وكأنها قد تضاعفت في أثناء غيابي بعيداً لمجرد شهرين. أغمض عيناً وسوف يفوتك الكثير من الصين الجديدة. ولافتة لشركة آمواي تتوهج برسالتها، وأنا أفكر بالباعة الذين قابلتهم قبل أسابيع في جانغييو (معكرونة طويلة بلحم الحمار ليست بعد على قائمة الطعام في مطعم نيو هايتس.) هناك حركة في كل مكان، ومتابعة للصحة ومتابعة للسعادة، وشنغهاي تندفع بسرعة عبر نفق الزمان إلى المستقبل. وأكتب في دفتر ملاحظاتي، «شنغهاي هي أمريكا»، وأقف هناك أتنفس فقط في جو هواءٍ حلو مر.

من المستحيل أن تكون محايداً بشأن الصين. بعض الأجانب يكرهونها من اللحظة التي تطأ فيه أقدامهم هنا. وآخرون يحبونها حباً جماً فيغرسون فيها جذوراً ولا يذهبون إلى الوطن أبداً. وأنا أعجب إن كانت البلاد الأخرى تقسم الناس انقساماً على هذا النحو من الشدة في عواطفهم. وبالنسبة إلي، لقد حاولت دائماً أن أحتفظ بوحدة الأضداد الخاصة بي، محاولاً أن أحتفظ بالحب والكراهية في توازن. ولكن ذلك من الصعب، وخصوصاً بصفتي صحافيا. يفترض بي ألا أهتم. ويفترض بي أن أراقب فقط. ولكن كيف أستطيع ألا أهتم حين يجري هز خمس الإنسانية أمامي ناظري، وآلاف يكسبون الملايين، وملايين يجري سحقهم ؟ وإذا كنت أبدو مشوشاً قليلاً بشأن الصين، فذلك بسبب أنني فعلاً مشوش. وإذا كنت أنت غير مشوش، فأنت إذاً ببساطة لم تكن تلقي انتباهاً.

ولكن إلى أين تقود كلها؟ فالمدينة المتغرِّبة، شنغهاي، التي كانت فيما مضى مكروهة، هي الآن النموذج الوطني المحبوب جداً الذي تحاول كل مدينة واقعة على

www.ibtesama.com/vb

الطريق 312 أن تضاهيه. الطفل غير الشرعي صار هو البطريرك، رب العائلة. ومن وجوه عديدة، الصين متحولة. إنها بالتدرج تستعيد موقعها في العالم. لقد استيقظت من البيت الحديدي للكونفوشيوسية وحطمت نفسها كي تستنقذ نفسها.

ولكن ماذا الآن؟ ماذا ستصير الصين؟

حين وصلت إلى الصين مراسلاً، بدأت أعمل خطوط زمان في رأسي حول أسئلة مثل متى ستصير الصين اقتصاد سوق كامل؟ وكم تستغرق قبل أن تصير ديمقراطية؟ وبعدئذٍ، ومثل كل مراسل هنا تجد عاجلاً أو آجلاً، أنك كلما طال بك المقام، كنتَ أقل ميلاً إلى عمل تنبؤات. وعلى الرغم من أنني انطلقت أبحث عن أجوبة، كنت مع حلول الوقت الذي أنهيت فيه رحلتي، أقترح على ناشرتي أنه قد يكون جيداً أن نترك القراء يستخرجون استنتاجاتهم الخاصة، فأشارت إلى أنه إذا كنت أنت، أيها القارئ العزيز، قد تجولت معي في رحلتي الشاقة عبر الصين تماماً، فإن أقل ما أنا مدين لك به هو بعض الاقتراحات التي تتصل بالكيفية التي قد تتطور بها الأشياء هناك في المستقبل. وعليه ها أنا ذا افعل.

في السنة السابقة، حين أخبرت المحرر الأجنبي في الراديو الوطني العام بأنني قد أرغب في ترك الصين في وقت ما في المستقبل القريب، سألني إن كنت مهتماً في أن أكون مراسلاً في القدس؟ وقلت له: إن علي أن أفكر في ذلك. سأكون مهتماً بتعلم اللغة العربية وتغطية العالم الإسلامي عند نقطة معينة. إنها، طبعاً، قصة ضخمة. ولكن ذلك في النهاية ليس هو على ما يبدو ما سيكون العمل في إسرائيل حوله. في القدس أنت تغطي إسرائيل والفلسطينيين، وتلك قصة تدور فقط في دوائر. وقلت لمحرري حين هاتفته بقراري، إن الصين قصة خطية، في طريقها إلى مكان ما، لا أحد يعرف إلى أين. لا يهم العنف الدموي في الشرق الأوسط نفسه، أو اصطحاب عائلتي الشابة لتعيش معي في وسطه، أو حقيقة أني كنت في الحقيقة منهكاً بعد ستة أعوام على الطريق في الصين وآسيا. وأخبرت محرري أنني لم أكن متأكداً إن كنتُ، فكرياً، أريد أن أتابع فقط مجرد دائرة لا نهاية لها بلا جدوى من الأحداث، قصة لا تذهب في الحقيقة إلى أي مكان.

www.ibtesama.com/vb

بعد تلك المحادثة، وفي أثناء سفري عبر الصين على الطريق 312، بدأت في التفكير حول ما سبق لي أن قلته، وأدركت أنني كنت مخطئاً، وأن الصين هي أيضا قصة دائرية. وأنما الأمر فقط هو أن الدوائر الصينية أكبر بكثير جداً. إنها تقاس بالقرون، والعقود على الأقل، لا بالأعوام أو بالأشهر. ويبدو أن تلك الدائرة قادمة وتحدث مرة أخرى.

هذا بالنسبة إلي هو في الحقيقة السؤال الكبير الذي يواجه الصين الآن، في بداية القرن الحادي والعشرين، وربما سيكون هو السؤال الذي سيقرر إن كانت البلاد ستستمر سائرة نحو العظمة. هل ستتبع نفس الدائرة لا غير مثلما كانت تتبعها كل أسرة في تاريخ الصين؟ أم هل ستكسر تلك الدائرة؟ وهل تستطيع أن تكسر تلك الدائر وتسلك مساراً مختلفاً؟

ويبدو أن التاريخ الصيني لم يمتلك أي رواية يسردها لهذا السؤال - مجرد تتابع الأسر، وكلها معزولة إحداها عن الأخرى. وكانت كل أسرة قد جاءت إلى السلطة بجدول أعمال جديد، معارضة به للفساد في الأسرة السابقة. وكانت قد قوبلت بالترحيب، وتولت القيام بالإصلاحات. لقد توسعت، وحكمت، وفرحت في العصر الذهبي لثقافتها، وبعدئذ انحدرت إلى نفس الفساد ونفس العجز مثل الأسرة السابقة لها. أحياناً استغرقت الأسرة مائة عام، وأحياناً مائتين أو ثلاث مئة عام. كان تاريخ الصين في كل زمان يدور حول توحيد البلاد ثم الانهيار فقط، ثم إعادة التوحيد ثم التعرض للغزو، والإطاحة، والانهيار، ثم إعادة التوحيد والانهيار ثانية. لماذا يجب أن يكون المستقبل مختلفاً؟

في بعض النواحي، الصين هي نفسها مثلما كانت دائماً. وهي مازالت نفس النوع من الحكومة الإمبراطورية، الأحادية الحزب التي كان سيعرفها الإمبراطور الأول منذ ألفي عام مضت. وهذا يعني أنه لا توجد أي زواجر وضوابط فعالة، وأن هناك فساداً مرعباً مثلما كان موجوداً دائماً. كان كونفوشيوس مخطئاً في نقطة واحدة محددة. بنو البشر غير قادرين على مراقبة أنفسهم وضبطها.

www.ibtesama.com/vb

وحقيقة وجود عشرات آلاف القضايا من الاضطراب الريفي في كل عام، هي حقيقة تدق بلا أدنى شك بعض أجراس الإنذار في مجمّع القيادة في بكين، تماماً مثلما تدق بعضَ أجراس الإنذار في رؤوس مؤرخي الصين. فإن لم تكن الغزوات الأجنبية، فقد كانت الثورات الفلاحية هي التي آذنت بموت كل أسرة وأعلنت عنه. والآن، فإن الحزب الشيوعي، بإهماله للفلاحين، قد صار في كل جزء منه مرتشياً وفاسداً مثل الحزب الوطني الذي ثار الشيوعيون ضده في الثلاثينيات من 1930 وفي الأربعينيات من 1940. التاريخ حتى الآن، دائري للغاية.

ولكن هناك عدة طرق مهمة جداً تختلف فيها الصين اليوم عن الماضي التي توحي أنها ربما، مجرد ربما، تكون قادرة على أن تتجنب المسير في طريق الأسر السابقة، وربما لأول مرة، تشكل رواية سردية مستمرة، تقدمية خطية للتاريخ الصيني.

أولاً وقبل كل شيء، الدولة أقوى بكثير. والطريق 312 جزء من تلك القوة. في الخمسينيات من 1950، انطلق الحزب الشيوعي في تعزيز الطرق والسكك الحديدية التي كانت قد بنيت في عهد أسرة شينغ الأخيرة وفي العصر الجمهوري. وفي التسعينيات من 1990 ومنذ العام 2000، توسع الإعمار بمعدل لا يكاد يصدق. وأسرة شينغ، منذ مائة عام، من دون الاهتمام بأي أسر جاءت قبل ذلك، لم تستطع أن تضبط كل مناطقها البعيدة. والحزب الشيوعي يستطيع، وهذا يعني أن ثورات الفلاحين أقل احتمالاً في النجاح.

والاختلاف الثاني هو أن قادة اليوم صينيون، ليسوا من المانشو أو من المنغول أو من أي مجموعة عرقية أخرى. ولذلك فهم يستطيعون أن يجسدوا الطموحات الوطنية للبلاد (وللشعب) بطريقة لم يستطعها، على سبيل المثال، حكام أسرة شينغ المانشو الذين أطيحوا في العام 1912. ومع كل المشكلات العديدة في الصين الحديثة، هناك قدر معين من الكبرياء في المكانة المرتفعة للبلاد في العالم، وخصوصاً بين السكان الحضر.

والسبب الثالث في أن الموقف مختلف هو سبب اقتصادي، وربما يكون هذا هو أهم الأسباب. مازال هناك فساد ضخم، وفجوة الثروة تتنامى، وكثير من الناس يجري

www.ibtesama.com/vb

سحقهم، وهم عاجزون لا يقوون على التغير الاقتصادي المثير للاضطراب والتقلب. ولكن ليس هناك أدنى شك في أن الاقتصاد الصيني يزدهر في العديد من النواحي، وهناك خيارات عديدة أكثر مما سبق متوافرة للناس الذين لديهم بعض الطموح في النجاح.

الطريق 312 جزء من هذا أيضاً، وظاهرة التسويق المتمهل، التي تؤثر على العديد من السلع الاستهلاكية، ظاهرة ضخمة، تبدأ فيها أسعار المنتجات عالية لا تقوى عليها سوى القلة الغنية ثم تنزل الأسعار حتى يقوى الجمهور العام على الشراء. والفلاحون طوروا عادة أن يذهبوا إلى الطريق بأعداد كبيرة اعتقاداً منهم أنه يوجد في مكان ما فوق قوس القزح الصيني، عمل في مصنع يستطيع أن يرفعهم ويخرجهم من الفقر. وكثيرون منهم وجدوا أن هذه الأعمال موجودة: وهي أعمال صعبة، وخطرة، في مصانع قذرة كالتي وصفها تشارلز دكنز، ولكنها، على الرغم من كل ذلك أعمال تمكن الفلاحين من أن يكسبوا في شهر أكثر مما كانوا يكسبونه في عام كامل من الزراعة. الطريق 312 وكل الطرق الأخرى في الصين صارت هي صمام تصريف البخار المركب على قدور الضغط الكاتمة التي لم تكن في السابق تستطيع أن تتصرف إلا من خلال الثورة.

ومع هذا التحول الاقتصادي جاءت طبقة جديدة كاملة هي الطبقة الوسطى، وهي جمهور عام حضري أكثر معرفة، وأكثر نضجاً، وأكثر وعياً، وأكثر إدراكاً لحقوقه، ولم يسبق قط أن وجد هذا الجمهور من قبل على مثل هذا المعدل في التاريخ الصيني. إنهم يمتلكون الخيارات والفضاء الاجتماعي الذي يعيشون فيه، ولا تتدخل الحكومة فيه. إنه ليس فضاء بالقدر الذي يوجد في العالم الغربي، طبعاً، ولكن الناس يمتلكون خيارات مهمة ويمتلكون مع ذلك حرية زادت زيادة مهمة أيضاً. إنهم لا يستمعون لصوت الحكومة فقط، بل يستمع أحدهم للآخر ويستمعون لأنفسهم أيضاً. ولكنهم حتى الآن، كانوا منصاعين، حيدتهم الدولة وكسبتهم من خلال وعود بثروة أكبر. أما إن كان هذا الحلف سيستمر أم لا وإن كانت الحكومة ستستطيع أن تحافظ على سعادة الطبقة الوسطى الجديدة أم لا، فهذه ستكون عوامل مقررة في مستقبل الصين.

www.ibtesama.com/vb

السبب الرابع والأخير، هو أن الصين مختلفة الآن لأن ثورة نفسية كانت قد حدثت هناك. لقد تغيرت أجزاء ضخمة من الموقف العقلي الصيني. ولم تبق الصين بعد اليوم ناظرة إلى الداخل وإلى الخلف، بل هي تنظر إلى الخارج وإلى الأمام أيضاً. لقد وضعت العلم فوق الإيمان (إلى درجة كبيرة جداً أحياناً) واطَّرحت قروناً من التقليد لكي تحقق حداثة. (يجب على الغربيين أن يحاولوا تخيل أن عليهم أن يرموا كل شيء له قيمة في تراثهم ـ الفلسفة الإغريقية، والقانون الروماني، وتعاليم اليهودية ـ المسيحية من أي نوع، بله الموسيقى الكلاسيكية وأشكال الفن الأخرى. ذلك هو ما فعلته الصين لتقاليدها الخاصة بها).

والمواقف نحو الأسرة تم تثويرها أيضاً. كانت الأسرة في العادة هي الدولة في الشكل المصغر، ورابطة الأب بالابن تعكس كالمرآة علاقة الحاكم بالرعية. أما الآن على كل حال، فإن العلاقة العمودية في الأسرة تأتي ثانياً بعد العلاقة الزوجية بين الرجل والزوجة. الشباب ينتصر على السن في المدن، ويصير الفرد أهم من الجماعة. ومرة أخرى، التغيير قاصر عن الكمال والمتساقط ضخم، وهو يجهد نسيج المجتمع إلى أقصى حد. ولكن الصين، بالمقارنة مع العديد من الدول النامية، صارت ينبوعاً للتفكير الحديث والعلمي، وللفردية المبادِرة إلى المشروعات. ويستطيع الشعب الصيني الآن أن يحلم بأحلام لم يسبق لأفراده قط أن حلموا بها، ويستطيعون أن يمتلكوا سلطة أكبر في أيديهم لتحقيق تلك الأحلام.

وهكذا فعلى العموم، يبدو لي أن الصين موجودة الآن في حالة مختلفة عن حالتها التي كانت عليها في معظم الفترات الانتقالية الأخرى في تاريخها. ولكن السؤال المطروح هو: هل القادة الصينيون يقتربون من هذه الحالة المختلفة اختلافاً كاملاً بالطريقة المختلفة اختلافاً كاملاً التي تتطلبها الحالة؟ ويجب علي أن أقول إن الجواب عن ذلك السؤال هو لا. ما لدينا في الصين هو أن مجتمع القرن الحادي والعشرين المتحرك مصفد إلى نظام سياسي لينيني الأسلوب مصاب بالتصلب الذي كان في الخمسينيات من 1950. والاقتصاد يتغير، والمجتمع يتغير، ولكن السياسات لا تتغير، وذلك قد بدأ في التسبب بمشكلات كافية في الحكم، بل في الاقتصاد كذلك، لتضع

www.ibtesama.com/vb

صعود الصين إلى العظمة الممكنة موضع التساؤل. الصين أكثر قابلية للعطب وأكثر هشاشة مما تبدو.

إن الحزب يعرف أن عليه، لكي يبقى في الحكم، أن يقوم ببعض التغييرات السياسية، وقد فعل ذلك، فسمح للرأسماليين ولأصحاب المشروعات أن يكونوا أعضاء في الحزب، بداية. وقام الحزب أيضاً ببعض الإصلاحات الإدارية. وهناك تجارب مع ترشيح أكثر من مرشح واحد للمناصب داخل التسلسل الهرمي للحزب. هناك برامج لتدريب المسؤولين القانونيين، مثل القضاة، وذلك بإرسالهم إلى الخارج. وتحاول الحكومة أن تظهر أنها تستمع للشعب، وأنها صارت أكثر استجابة، وأنها تسمح بالمزيد من الالتجاء إلى الشعب داخل نظام الحزب الواحد لكيلا تسعى الأسماء المائة القديمة إلى الالتجاء إلى الشوارع من خلال المظاهرات. لقد تم إدخال محدود للانتخابات في القرى، وهو أخفض مستوى من النظام السياسي للصين، وكان القادة الصينيون ينظرون إلى أماكن مثل سنغافورة لتكون مثالاً للكيفية التي يحكمون بها بكفاءة أكبر من دون أن يكون عليهم أن يدخلوا نظاماً سياسياً غربي الأسلوب على نحو كامل.

ولكن هذه التغييرات كلها ضمن النظام الحالي. وقد سميت العملية باسم «اللينينية التشاورية» من قبل مراقبي الصين من أمثال ريتشارد بوم من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجيلوس، الذي يقول إن الحزب يحاول أن يسهل بروز التغذية المرتدة المجتمعية المنضبطة من دون تجشم المخاطرة الكبيرة للنفخ المرتد التلقائي السياسي أو للدفع المرتد الأخطر والمنظم المناهض لنظام الحكم. ولكنهم في النهاية، بوم وعلماء عديدون آخرون متخصصون بالصين، يرون مثل هذه المحاولات في الإصلاحات في الحدود الدنيا زقاقاً مسدوداً وعملاً غير منتج. سنغافورة (سكانها 3 ملايين نسمة) تصل في مرتبتها مثل مدينة صغيرة إلى متوسطة الحجم في الصين، وإصلاح مدينة متوسطة الحجم، أو جعلها غنية بما فيه الكفاية إلى درجة لا يهتم معها مواطنوها بالإصلاح السياسي، هو أمر أسهل بكثير من إصلاح قارة (ولا تهتم أبداً بافتقاد الصين للنظام القانوني الشفاف، حسب الأسلوب البريطاني، للخدمة المدنية الذي تمتلكه سنغافورة).

www.ibtesama.com/vb

الفيل الموجود في الغرفة، أي الحقيقة الواضحة، التي لا يرغب أي قائد صيني في الحديث عنها، طبعاً، هي الإصلاح الديمقراطي نفسه. لقد جاءت الصين طريقاً طويلاً طويلاً في مائة عام. وكان المسار ملتوياً وصعباً، ولكن البلاد الآن قد حققت إلى حد كبير مبدأين من المبادئ الثلاثة للشعب التي أرساها مهندس ثورة 1912، سن يات سون. فالصين تحظى باحترام دولي (المبدأ الأول)، وعلى الرغم من أنها مازالت تعاني من فقر لديها، فهي مع ذلك تقريباً، تستطيع أن تطعم شعبها (المبدأ الثاني). ولكن الثورة لمَّا تنته، ومبدأ سن يات سون الثالث وهو إعطاء الحقوق، الحقوق السياسية، إلى الشعب لم يتحقق، وليس من الواضح أبداً أنه سيكون متحققاً في أي وقت قريب.

وهناك سببان لعدم التحقق: الأول، هو أن معظم قادة الحزب ما زالوا يؤمنون بالحق الإلهي تقريباً للحزب الشيوعي بأن يحكم وحده فقط. والثاني، هو أن كل الذين يؤمنون بالإصلاح السياسي خائفون، بسبب فشل ثورة 1912 وبسبب الحقيقة البسيطة وهي أن الصين لم يسبق لها قط أن نجحت في السير في الطريق الديمقراطي من قبل.

وكانوا خائفين أيضاً، في السنوات القريبة، من انهيار الاتحاد السوفييتي وإدراكهم أنه في الوقت الذي قد يكون فيه عدم الإصلاح خطراً، فإن البدء بالإصلاح قد يكون أخطر أيضاً. قد يكونون على حق. سل ميخائيل غورباتشوف لا غير، أو في الحقيقة انظر إلى آخر حكام من أسرة شينغ بين 1990 و 1912. لقد بادروا بالتغييرات وأنشؤوا مؤسسات جديدة في جهد منهم للإصلاح ولإنقاذ الدولة الإمبراطورية، ولكنهم بفعلهم هذا أطلقوا قوى من عقالها دمرت الدولة.

ومع ذلك، فقادة الحزب الشيوعي، باتخاذهم أسلوب «ثابتة الخطى وهي تمضي قدماً»، و«الاستقرار بأي ثمن»، وفي خوفهم الخالد من الفوضى، يدَّخرون بذلك الكثير من المشكلات لأنفسهم. إنهم يخططون للطرق الجديدة، والمباني الجديدة اللامعة، والمطارات الجديدة، والأعمدة الفعلية لتمسك بها كلها قائمة. ولكنهم يتجاهلون الحاجة إلى بناء أعمدة لأي بيت سياسي جديد سيلزم أن تكون مبنية مقدماً، وذلك

www.ibtesama.com/vb

لئلا يكرر انهيار البلاد في العام 1912 نفسه. وهذا يعني بناء الأعمدة من المؤسسات القوية والنظام القضائي المستقل، وأخذ السلطة من أيدي الرجال ووضعها في مؤسسات فعلية للحكم. ولكن المشكلة هي أن فعل ذلك سيكون، طبعاً، معادلاً لتوقيع الحزب لشهادة وفاته الخاصة.

إن الحالة تتحول إلى حالة أخطر من أن تهمل. وحين الإصرار على الاستقرار هناك نقطة تأتي بالفعل فتخلق المزيد من عدم الاستقرار، ويبدو أن تلك النقطة قد يتم الوصول إليها في وقت قريب في الصين. نيرون يعزف وروما تحترق، وما تحتاج إليه البلاد هو مخطط للتغيير السياسي التدريجي.

وفي الحقيقة، سبق أن كُتِبت وثيقة في أواخر الثمانينيات من 1980 تتفق تقريباً مع ذلك الوصف. لقد كتب مسودتها الإصلاحي الشيوعي رئيس الحزب الشيوعي جاو شييانغ (مع مساندة من القائد الأعلى دينغ شياو بنغ) وقُدِّمت إلى المؤتمر الثالث عشر للحزب الشيوعي في خريف 1987. ذلك زمان كان قبل مظاهرات 1989، حين كان قادة الصين السياسيون ينظرون إلى كل إمكانات الإصلاح السياسي. ولم تكن ورقة جاو وثيقة ثورية تعتنق الدَّمَقْرطة الكاملة، ولكنها كانت مهمة مع ذلك في وضع أول مقترحات للتحول نحو ما يدعوه ريتشارد بوم «الجماعة التسلطية الناعمة».

في ذلك الاجتماع، قبل عامين من قتل الطلاب في ميدان تيانانمين، اقترح جاو (الذي كان برأيي الشخصي واحداً من أعظم الرسميين الصينيين في الألفية الحديثة) عدداً من الإصلاحات السياسية، ومنها، مع أمور أخرى، فصل الحزب الشيوعي عن وظائف إدارة الدولة واقترح إصلاحاً لنظام الموظفين في الدولة ـ التسمية الاصطلاحية السيئة السمعة ـ لتقليل الرعاية السياسية إلى الحد الأدنى ولضمان الاعتماد على الجدارة في التعيينات والترقيات الحكومية، وشجع زيادة في صوت البرلمان وفي الاستقلال الذاتي التشريعي للبرلمان الذي كان يعمل على الموافقة المذعنة كختم المطاط، وشجع المجلس الوطني للشعب، ومجالس الشعب في كل المستويات، واقترح زيادة دور كلب الحراسة، لما يدعى بالأحزاب الديمقراطية الأخرى، وهي الأحزاب الموجودة حالياً لمجرد تزويد الحزب الشيوعي بورقة التين ليغطي مزاعمه بكون الصين دولة متعددة الأحزاب. واقترح تقوية حكم القانون.

www.ibtesama.com/vb

ولم توضع مقترحات جاو قط موضع التنفيذ. وكان من قبل ذلك قد تعرض للنقد من أصحاب الخط المتصلب بوصفه ليبيرالياً أكثر مما ينبغي حين اندلعت مظاهرات صيف 1989، وخُتِم على سقوطه في 19 أيار/ مايو، حين ذهب إلى ميدان تيانانمين ليتحاور مع الطلاب كي يغادروا الميدان. وقد احتجز تحت الاعتقال المنزلي في بكين حتى وفاته، في العام 2005. والحزب، وقد صار مذعوراً عصبياً من سقوط الشيوعية في الكتلة السوفييتية، يستمر إلى هذا اليوم في توقيف أي إصلاح سياسي ذي مغزى من النوع الذي اقترحه جاو. ولكن المشكلات مازالت هي نفسها - وفي الحقيقة، هي أسوأ كثيراً مما كانت عليه في العام 1987. ويقول العالم ريتشارد بوم، «يستطيع المرء المحاجة في أن الطريق إلى بقاء الحزب الشيوعي الصيني على قيد الحياة يجب أن يمر بشكل محتوم من خلال خطة جاو للإصلاح التي وضعها في العام 1987».

وحقيقة أن الحكومة في الوقت الحاضر لا تبدو راغبة في دراسة هذا الأمر، تطرح على كل حال، إمكانية نتيجة ثالثة للصين. وهذا السيناريو هو أن الصين لا تنفجر في الداخل ولا تصير القوة العظمى التالية ولكنها فقط تندفع إلى نتيجة مفيدة لها، وتبقى إلى حد كبير كما هي. وكان قد طرح هذه المناقشة أقوى طرح العالم المقيم في الولايات المتحدة باي مينكشين في كتابه (تحول الصين الواقع في شَرَك). ويقترح باي أن ما يدعى تحول الصين قد لا يكون تحولاً أبداً، وأن عدم رغبة الحزب الشيوعي في أن يغير نظامه السياسي يعني أن اقتصاد الصين سيبدأ بالفشل بعد البداية المبشرة بالنجاح. ويكتب ليقول: «إن حزباً ثورياً سابقاً، مثل الحزب الشيوعي الصيني، بعد أن استولى على السلطة السياسية من خلال البندقية، من غير المرجح أن يسعى إلى موته من خلال الإصلاح الطوعي»، ويضيف أن الحزب قادر قدرة كاملة على إبقاء الغطاء فوق الاضطراب الذي يغلي وتتصاعد فقاعاته. ويكتب باي: فإذا لم تقع صدمة كبيرة كافية لإحداث كارثة سياسية سريعة التطور، فإن الصين تستطيع أن تدخل في فترة من الركود الطويل. ونظراً إلى أن الكثير جداً من النمو الاقتصادي للعالم ومن استقراره يتوقف على الصين في هذه الأيام، فإن مثل هذا الاتجاه نحو الانخفاض في النشاط الاقتصادي يمكن أن يكون له عواقب كبيرة بالنسبة إلى الاقتصاد الكوني.

www.ibtesama.com/vb

والجزء الحاسم في هذا التحليل هو قوله «إذا لم تقع صدمة كبيرة». وأنا أعتقد، أنه إذا استمر كل شيء يسير بيسر نسبياً، وإذا استمر الاقتصاد في النمو (أو إن تباطأ قليلاً أيضاً)، فإن الحكومة الصينية قد تكون قادرة على أن تستمر كما هي لمدة من الزمن، من دون الكثير جداً من الإصلاح السياسي. وقد برهنت الحكومة الصينية من قبل على نفسها بأنها حرباء إيديولوجية بارعة، قادرة على أن تحول نفسها لتلائم البيئة المتغيرة. وهي قد تكون قادرة بشكل كبير على أن تستمر في تمويل نواحي عجزها وأن تبقي غطاء على الانشقاق الذي يغلي وتتصاعد فقاعاته أكثر فأكثر من الناس العاديين من الشعب.

ومع ذلك، فإن مثل هذا التحليل لا يأخذ بالحسبان إمكانية حدوث صدمة مفاجئة للنظام. والقلق الذي يساورني هو أن شيئاً ما يمكن أن يأتي من الميدان الأيسر،أي من الموقف البعيد عن المجرى العام، شيئاً ما لا يتوقعه أحد، بالطريقة نفسها التي ضربت بها الأزمة المالية الآسيوية جنوب شرق آسيا (مع أنها لم تضرب الصين) في المدة من 1997 - 1998. الصين مختلفة جداً عن تايلند وإندونيسيا، ولكن المعجزة الاقتصادية الصينية تحتوي على خطوط تصدع كبيرة تسير خلالها، وهي بالتأكيد قابلة للعطب أكثر مما تبدو. وإن انتشاراً ضخماً لأنفلونزا الطيور، على سبيل المثال، أو نقصاً عالمياً في النفط، أو زيادة كبيرة للتعرفة الجمركية على صادرات الصين إلى الولايات المتحدة، أو إقبالاً شاملاً على سحب المودعين لحساباتهم من المصارف الصينية – أيٌّ من هذه الأمور يستطيع أن يضع ضغطاً ضخماً على النظام الصيني. وأي شيء من الأشياء التي قد تشعل شرارة الانخفاض في النمو الاقتصادي، وهو النمو الذي يعتمد عليه الحزب اعتماداً كبيراً جداً من أجل شرعيته، سيكون شيئاً خطراً جداً بالنسبة إلى الحزب الشيوعي الصيني،لأن الفلاحين الغاضبين والعمال المسرحين يستطيعون، آنئذٍ، أن يبدؤوا في التسبب لبكين بمشكلات حقيقية.

بكين تحرك الدواسة بسرعة لتحاول التعامل مع كل هذه القضايا لئلا يكون لها أثر زلزالي على المجتمع الصيني، إذا حدث شيء ما من حيث لا يحتسبون وفي الزمان

www.ibtesama.com/vb

الذي لا يتوقعون. ولكن هشاشة المجتمع الصيني مثيرة جداً للقلق، وهناك قدر محدود فقط من الإصلاح الذي يمكن أن يحدث ضمن النظام الحالي.

وبمحض انعطافة غير متوقعة من القدر في التقويم، فإن التاريخ الذي قد يمكن الالتفات إلى الخلف والنظر إليه بوصفه حاسماً في تقرير ما يحدث في الصين سيأتي بالضبط بعد مائة عام من إطاحة آخر إمبراطور للصين ومن ثورة 1912 الفاشلة. ففي العام 2012، إذا سار كل شيء حسب الخطة (وليس هناك أي ضمان لذلك)، فإن الرئيس هيو جنتاو وجيله المتجنب للمخاطر سوف ينزل عن أدواره القيادية في الحزب الشيوعي في المؤتمر الثامن عشر للحزب من أجل فسح الطريق لمن يسمون الجيل الخامس من القادة. أعضاء الجيل الخامس (ماوتسي تونغ مثل الجيل الأول، دنغ شياوبنغ مثل الجيل الثاني، جيانغ زيمين مثل الجيل الثالث، هيو جنتاو مثل الجيل الرابع) ولدوا في أواخر الخمسينيات من 1950 أو في الستينيات من 1960. وهكذا فهم بلغوا سن الرشد وبدؤوا مساراتهم الوظيفية في الحكومة بعد أن بدأ عصر الإصلاح في العام 1978. كثيرون منهم عاشوا ودرسوا في الخارج، وهم ملمون بالأنظمة السياسية الغربية. ويعتقد عموماً أنهم نوع مختلف من الحيوان السياسي عن الجيل الرابع، فهم أكثر عالمية، وهم أقل عقائدية، وهم أكثر مرونة، وهم سيحتاجون إلى أن يكونوا كذلك، لأنني أعتقد أن العقد القادم بعد 2012 سيكون هو الزمن الذي ستكون فيه المشكلات، وخصوصاً مشكلات الصين الريفية، منتشرة وخطرة على نحو لا يمكن معه إهمالها أو قمعها.

وقد يكون هذا العقد أهم عقد إلى درجة كبيرة في تاريخ الصين الطويل، اللامع، والتاريخ المعذب أحياناً، حين يجب على قادة الحكومة أن يقرروا إن كانوا يريدون البلاد أن تستمر في مستقبل مختلف أفضل، أو إن كانوا مستعدين للمخاطرة بإرسال 1,3 من بلايين الناس إلى الدائرة المأساوية من التاريخ الصيني مرة أخرى.

هذه أرض مجهولة. ونحن لا نعرف إن كانوا يقدرون على فعل ذلك. ونحن لا نعرف إن كانوا سيقبلون الحاجة إلى فعله. وإذا لم يفعلوه، لا يوجد، كما يقترح باي

www.ibtesama.com/vb

مينكشين، أي ضمان من أن البديل الوحيد هو الانهيار. ولكنني لا أعتقد أن النظام الحالي يستطيع أن يستمر كما هو إلى الأبد، ولو لم يكن هناك أي حالة حاسمة كبيرة أيضاً، ولو لم يأت أي شيء من الميدان الأيسر، أي بشكل غريب أو شاذ، ويحتمل أن يؤدي العدد المتنامي من الحالات الحاسمة الصغيرة إلى إضعاف النظام وأن يقود إلى مشكلات خطيرة. وفي الأعوام التي ستتلو مؤتمر الحزب في العام 2012، فإن المزيج المكون من السخط الريفي المتصاعد ومن الجيل الجديد من القادة، وهو الجيل الذي يؤمل أن يكون القادة فيه أكثر قدرة على تقبل التغيير السياسي، هو مزيج يمكن أن يعني، ويجب أن يعني، أن بعض الإصلاح السياسي سيكون مؤسساً.

وأما الآن، فإن القادة الصينيين، مع ذلك، يعملون بجد للإبقاء على النمو الاقتصادي في الوقت نفسه الذي يشنون فيه حملة كبيرة لتشجيع الناس لينحوا نحو «مجتمع منسجم». والمشكلة هي أن النمو الاقتصادي الآن يخلق عدم انسجام بالقدر نفسه الذي يخلق فيه الانسجام.

وبالإضافة إلى المشكلات الاقتصادية، هناك ببساطة تناقضات عديدة جداً في المجتمع الصيني. فالحزب يرغب في خلق مجتمع حديث. ولكنه لا يريد أن يسمح بقيام مجتمع مدني قوي جداً من الكنائس، والاتحادات العمالية، والجمعيات، والمنظمات الاجتماعية الأخرى التي تدعو إليها الحاجة لبناء أمة حديثة. وهو لا يريد للشعب الذي يستخدم الإنترنت أن يصل إلى معلومات حساسة، ولكنه يحتاج إلى التقانة لتصير الصين البلد الحديث الذي يريده الحزب أن يكون. ويحتاج الحزب إلى أن يروج المعرفة لكي ينافس، ولكن المعرفة خطرة. ويحتاج الحزب إلى الشعب المُخوَّل المُمَكَّن لكي يصير قوياً، ولكن الحزب لا يستطيع ترك الشعب أن يكون مخولاً ممكناً جداً.

وعلى الرغم من كل التقدم الاقتصادي الحقيقي جداً، فإن هذه التناقضات يمكن أن تبدأ بالتسبب ببعض المشكلات الحقيقية جداً في الوقت الذي يصير فيه المجتمع الصيني أكثر حراكية أيضاً، وفي الوقت الذي يصارع فيه النظام السياسي صراعاً أكثر أيضاً ليستمر في المستوى نفسه. إن الحزب يحتاج إلى بعض القادة من أصحاب

www.ibtesama.com/vb

الرؤية لوضع خطة من أجل المستقبل، خطة من أجل نوع ما من التحول السياسي. ولكن في بلد مازال يُعلي قيمة الاستقرار فوق كل ما عداه، لا يبدو أن يكون ذلك النوع من الرؤية قادماً.

أقضي الصباح الأخير لي في شنغهاي في قاعة معرض التخطيط الحضري للمدينة. وتوجد لافتة في الخارج، باللغة الصينية واللغة الإنجليزية، وهي تهيئ النغم: أشعل آثاراً جديدة في روح طليعية. والمعرض الرئيسي هو نموذج مصغر للمدينة، يبين كيف أن شنغهاي ستكون من كبريات المدن في القرن الحادي والعشرين. والمعرض غير عادي. فهناك تفاصيل لميناء يانغشان الجديد في المياه العميقة، والذي سيكون قريباً أكثر الموانئ عملاً في العالم، وهو مبني على ثلاث جزر، تبعد عشرين ميلاً عن الشاطئ، ويرتبط بالأرض الرئيسية في جنوب شنغهاي تماماً بأطول جسر بحري في العالم. ثم هناك تحويل جزيرة شونغمنغ، وتبلغ مساحتها أكثر من ثلاث مئة ميل مربع من الأراضي الممتازة في وسط نهر يانغسي، إلى منطقة تقانة عالية، ومنطقة بحث وتطوير خضراء، ومنطقة سكنية، تربط مع شنغهاي بنفق مسافته أحد عشر ميلاً تحت النهر. وهناك بعد ذلك المزيد من المعارض عن «التحويل إلى المعلوماتية» لمدينة شنغهاي، وهذا يتضمن بيانات مثل هذا التالي:

نحن نعتقد أننا بمساعينا، سوف تتحقق كل أحلامنا في العام 2010. سوف يظهر في شنغهاي الرقمية منصة للخدمات العامة تكون غنية في محتواها، ويتم تقاسمها على نحو عال ومترابطة فيما بينها. وستكون المنصة معلماً يؤشر لشنغهاي حين تصير واحداً من المراكز الدولية، المالية، والاقتصادية ومراكز التجارة والشحن.

اللغة فيها مبالغة، والتنفيذ ينقصه التشاور مع الشعب بشكل مخيف، ولكن مقياس الرؤية ضخم. وإطارات الزمن طويلة، تصل إلى عشر سنوات، وإلى خمس عشرة سنة، وأنا أجد نفسي متجولاً في المعرض أحاول أن أحدق في عيون قلة من الأجانب الآخرين الموجودين هناك، لمجرد أن أستطيع أن أرفع حاجبي وأقول لهم «هذا يبعث على الخوف تماماً. أليس كذلك؟» وأنا أعرف أن من المحتمل أنهم يشعرون نفس الشعور.

www.ibtesama.com/vb

وأنت بعد أن تبدأ بالتفكير من خلال السؤال: هل يستطيع كل هذا أن يمر؟ تجد نفسك متفكراً، وماذا إذا مر؟ ماذا سيعني هذا كله لبقيتنا؟ وإذا أعادت مدن مثل شنغهاي وبكين وتيانجين وشونغشينغ صنع نفسها لتتحول إلى مراكز مصنَّعة، ومراكز بحث وتطوير متحولة للمعلوماتية حسب ما تريد أن تكون، فهل تزيد كلها في تهديدٍ للغرب؟ وإذا كانت تزيد فكيف سيكون على الغرب أن يجيب؟

من الناحية الاقتصادية، طبعاً، تعد الصين من بعض النواحي تهديداً، إذا كنت تحسب التهديد بأرقام عدد الوظائف الغربية التي خسرها الغرب لمصلحة المصانع الصينية. فالصين ما زالت هي المركز الرئيسي للتصنيع الكوني، وإذا كنت أنت واحداً من الشعب في وسط أمريكا (أو بريطانيا أو في أي مكان) من الذين انتقلت وظيفتهم إلى شنغهاي، فإن تطور الصين سبب محتوم للغضب.

وفي ضوء هذا، فإن من الحق القول إن الحكومات الغربية تحاول أن تحمي صناعاتها الخاصة بالقدر الذي يكون فيه ذلك ممكناً وعملياً. ومن الحق أيضاً استبقاء الضغط على بكين في قضايا مثل خرق حقوق الملكية الفكرية الغربية، والمحافظة على ممارسة الضغط من أجل تحسين حقوق العمال في الصين، من أجل العمال الصينيين ومن أجل إعادة نوع ما من الإنصاف إلى التنافس. مثل هذه السياسات سوف تخلق احتكاكاً مع بكين، ولكن قدراً معيناً من الاحتكاك الاقتصادي أمر محتوم والصين تنهض.

ومع ذلك، فإذا دُفِعت فكرة «تهديد الصين» دفعاً بعيداً جداً، وصارت اللغة عاطفية ومسيسة أكثر مما يجب (كما تصير أحياناً في الولايات المتحدة)، فإن هناك خطراً في خلق نبوءة العداوة التي تحقق نفسها، فيما وراء الاحتكاك المحتوم الذي ينجم عن تطور الصين. والسماح للمشكلات التي تقوم في العلاقات بأن تحدد سياستنا كلها مع الصين هو أمر تبسيطي ساذج وخطر، وذلك لأن الكثير جداً من الازدهار الاقتصادي الغربي من التسعينيات من 1990 وإلى القرن الجديد كانت تقوده الصين. وسواء أكان الصينيون الحضريون الشباب المهنيون والشركات الصينية هم الذين يشترون السلع

www.ibtesama.com/vb

والبضائع الغربية وبذلك يعطون النهضة إلى أسواق الأسهم والسندات والصناعيين، أو كانت الحكومة الصينية هي التي تشتري سندات خزينة من حكومة الولايات المتحدة وبذلك تحافظ على مستويات الفائدة البنكية الأمريكية منخفضة، فإن نهضة الصين تنفع الغرب بلا أدنى شك في عدة نواح.

في كتابه المتالق، (الصين تهز العالم)، يوضح المراسل السابق في بكين للفايننشال تايمز، جيمس كاينج، هذه النقطة بوقوفه خارج أسواق وول ـ مارت في روكفورد، في إلينوي، وسؤاله المتسوقين من وسط أمريكا إن كانوا يحسون بالشكر للصينيين من أجل كل السلع الرخيصة التي يستطيعون شراءها، ومن أجل معدلات الفائدة البنكية المنخفضة التي يدفعونها في رهونهم. وليس مثيراً للاستغراب أنه يحصل على بعض النظرات المضحكة. ولكن نقطته، ونقطتي، هي أن الصين، في الوقت الذي تؤذي فيه بالتأكيد بعض مناطق اقتصادات الغرب، هي أيضاً تعمل الكثير من الخير للجيوب الغربية بطرق أقل بكثير قابلية للتعرض للرؤية. وهكذا يجب علينا أن نتأكد من أننا، في الوقت الذي نستمر فيه في التصدي للصين بجسارة في مجالات مهمة، فإننا لا نوقع الضرر على مصالحنا الخاصة في هذه العملية.

وعلى سبيل المثال، يحتاج الغرب من الصين إلى أن نعيد تقويم عملتها لأن تخفيض قيمة اليوان في الوقت الحاضر يعطيها ميزة غير عادلة في التصنيع. ولكن اقتراح مسودات قوانين في مجلس الشيوخ يمكن لها أن تعاقب الصين بتعريفات جمركية تجارية ضخمة إذا هي لم تُقدِم على القيام بعمل إعادة تقويم ضخمة، وفورية يمكن أن ينتهي إلى أن يكون معيقاً لتحقيق الأهداف، وربما يقلل تدفق التمويل الصيني لدعم الدولار، مع عواقب جدِّية تصيب الاقتصاد الأمريكي. فإعادة تقويم مفاجئة جداً تستطيع أيضاً أن تبطئ الاقتصاد الصيني، مع وجود كل الإمكانات لحدوث عدم الاستقرار الاجتماعي الذي يمكن ذلك أن يجلبه. الصين القوية قد تطرح مشكلات بالنسبة إلى العالم، ولكن الصين الضعيفة أو المنهارة ستكون أسوأ بمرات عديدة.

www.ibtesama.com/vb

باختصار، أنا أعتقد أن علينا أن نخرج من خط التساؤل «أصديق أم عدو؟» وفي الأعوام القادمة، يمكن للصين بوضوح أن تصير واحداً من الاثنين، بناء على أي طريق ستنتهي إليه حالتها السياسية المحلية. وبالنسبة إلى الوقت الحاضر، مع ذلك، فالصين خليط من الاثنين، وذلك يعتمد على المجال الذي تنظر أنت إليه. وهكذا يجب أن تعامل بصفتها خليطاً من الاثنين، مع سياسة خارجية معقدة ودقيقة تنظر إلى حماية المصالح الاقتصادية الغربية بقدر ما يمكن، ولكنها تتجنب أيضاً الانحدار إلى الدهمائية العاطفية العلنية التي ميزت العلاقة أحياناً.

من الناحية العسكرية، تنمو الصين نمواً سريعاً أيضاً، مع أنك لن ترى الكثير من التبجح العلني عن ذلك. إن بكين تصرف تقريباً 50 بليون دولار على تحديث قوتها العسكرية في كل عام. (الولايات المتحدة تصرف أكثر من 400 بليون دولار سنوياً). ولكن الصين تبدأ من موقف متخلف جداً. ويقول الخبراء العسكريون إن الصين تتخلف عن الولايات المتحدة في تقانتها العسكرية بمدة تساوي ثلاثين أو أربعين سنة. بل إن الصين حين اشترت أو طورت تقانات جديدة كانت تعاني من مشكلات ضخمة في التنسيق بينها جميعاً. والصين لا تملك أي حاملات طائرات، والسفن الحربية في أسطولها (والذي يعطيك اسمه الرسمي: أسطول جيش التحرير الشعبي، فكرة عن الأولويات في قواتها العسكرية وأين كانت دائماً) نجحت في عبور المحيط الهادئ مرات قليلة فقط، بل نجحت أنئذٍ مع بعض الصعوبة أيضاً.

ويقول الصينيون إنهم ببساطة يجددون قواتهم العسكرية لتصل إلى مستوى مناسب لبلاد في حجم بلادهم، وسيخبرك كل صيني تتحدث إليه نفس الشيء: من الناحية الفلسفية، الشعب الصيني ليس شعباً توسعياً. ويقولون: «نحن نبني جدراناً لنبقي الآخرين في الخارج، ونحن لا نخرج لنغزو الآخرين».

أنا لست مقتنعاً أن صعود الصين سيكون سلمياً بشكل كامل. ومن المؤكد، أن التاريخ لا يقدم دروساً مطَمئنة جداً بشأن صعود القوى الصناعية الجديدة. إذا كان قادة الصين يستطيعون الإمساك بالبلاد معاً، وإذا استمر الاقتصاد الصيني بالمحافظة على الازدهار، فهناك إمكانية في الأمد الطويل أن تستطيع القومية الصينية الجديدة

www.ibtesama.com/vb

أن تؤدي إلى نوع ما من المشكلات العسكرية مع جيرانها (خصوصاً مع اليابان). أما في الوقت الحاضر، فأنا لا أعتقد أن قادة الصين يستيقظون في الصباح وهم يتساءلون: أي البلدان هي التي يستطيعون تهديدها في المنطقة؟ سواء الآن أو في عشرين سنة قادمة. أنا أعتقد أن من المحتمل أنهم يستيقظون ويتساءلون، كيف، في كل الاحوال، سنمسك بهذه البلاد معاً؟

وذلك هو السبب الذي يشعر الصينيون من أجله بأنهم سعداء للغاية (وبهدوء) بشأن الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة في العام 2001. لقد انكشف عدو أمريكا الجديد، وهو ليس الصين، وهكذا تستطيع بكين أن تركز على تعويض الوقت اقتصادياً وهو الوقت الذي هدرته حين قامت بثورة تحت الرئيس ماو. وذلك هو السبب الذي تملك الصين من أجله أيضاً مثل هذه السياسة الخارجية المهدِّئة في العديد من المناطق الكثيرة جداً، وتريد بهذه السياسة أن تتجنب استثارة قتال مع أي طرف (وخصوصاً الولايات المتحدة) لكي تركز على قضاياها الداخلية. والاستقرار محلياً والسلم دولياً هي كلمات السر عند الصين، وهي تسعى إلى تقديم نفسها بوصفها لاعباً مسؤولاً على مسرح العالم. ولذلك يجب علينا أن نكون حريصين أيضاً على ألا نبالغ في تهديد الصين العسكري (فهي تملك الحق في امتلاك قوات عسكرية حديثة، بعد كل شيء)، ولكن علينا في الوقت نفسه أن نراقب بحذر كيف تتصرف الصين نحو جيرانها.

الورقة الطائشة، أي العامل غير المعروف ولا يمكن التنبؤ به في الموقف كله، هي تايوان. وترى بكين أن الجزيرة التي يبلغ عدد سكانها 22 مليون نسمة والمقابلة لساحلها الجنوبي الشرقي هي جزء من الصين، وإذا أقدم رئيس تايواني على عمل شيء ما سخيف، مثل إعلان الاستقلال الرسمي، فإن من الممكن أن تكون هناك مشكلات حقيقية. ولكن كما سبق لي أن رأيت في بلدة كونشان، خارج شنغهاي قليلاً، فإن 17 بليون دولار مستثمرة في الأرض الرئيسية من رجال الأعمال التايوانيين تجعل هذا غير محتمل الوقوع، على الرغم من أن هناك عدداً متنامياً من التايوانيين الذين يريدون أن ينفصلوا عن الأرض الرئيسية للصين إلى الأبد.

www.ibtesama.com/vb

إذا وضعت تايوان جانباً، فأنا أعتقد، في الأمد القصير إلى المتوسط، أن هناك تهديداً أكبر من أي تهديد تطرحه الصين من الناحية العسكرية وسيكون هو تهديد الصين لبيئتها الخاصة.

إن انحطاط أرض الصين، وهوائها، ومائها قد وصل مستويات حرجة. واجتثاث الغابات، والتصحر، بله ارتفاع معدلات السرطان، وعيوب الولادة بسبب الماء والهواء الملوثين صارت بشكل متزايد مشكلات ضاغطة محلياً. وصار التلوث أيضاً سبباً رئيسياً للاحتجاج بين الفلاحين الذين تقع أراضيهم قرب المصانع. وإن فقدان النظام القانوني الفعال وقيام التناقضات في المستوى المحلي من الحاجة إلى المال الذي تنتجه تلك المصانع المسببة للتلوث يعني أن التطبيق المحلي أو فرض التنفيذ المحلي لقوانين الحكومة المركزية الصارمة على نحو متزايد هو في أحسن الأحوال غير منتظم. ومرة أخرى، تعود هذه المشكلة إلى الحاجة الملحة للإبقاء على الاقتصاد نامياً من أجل منع حدوث السخط الاجتماعي، وهي حقيقة يعيها جداً كل من المسؤولين المحليين ومسؤولي الحكومة المركزية جميعهم. وعلى قمة التلوث، هناك النقص المزمن في الماء في الصين الشمالية. وكيف يمكن لبلاد أن تستمر من دون ماء؟ العديد من أنهار الصين الكبيرة وروافدها تتحول إلى أنهار جافة نظراً إلى أن المدن الصغيرة في أعلى المجرى النهري تحول الماء الذي تدعو الحاجة إليه من أجل صناعات تلك المدن الخاصة المتنامية.

ويجري تصدير مشكلات الصين البيئية على نحو متزايد. فهناك الكثير جداً من الهواء الملوث في الصين الجنوبية إلى درجة أن هونغ كونغ يلفها في مرات كثيرة غطاء من الدخان والضباب. بل يجري أيضاً تصدير تأثيرات اجتثاث غابات الصين: لقد منعت الحكومة قطع الشجر داخل الصين، ولكنها مازالت تحتاج أطناناً وأطناناً من الخشب، ولذلك فالغابات في جنوب شرق آسيا، وإفريقية، وأمريكا اللاتينية يجري استنفادها حتى النضوب لتغذي الوحش الاقتصادي الصيني.

والصين أيضاً هي أكبر مستورد للعديد من المعادن والبضائع، التي يعمل استهلاكها هي وحدها على الإبقاء على أجزاء من اقتصاد العالم عائمة من دون

www.ibtesama.com/vb

مشكلات. منها المعادن الخسيسة، والبتروكيماويات، ومواد الطعام، وأي شيء وكل شيء يجري امتصاصه لإرضاء الطلب الصيني. ويجري فتح مناجم في أستراليا لتزويد الصين فقط.

وأخيراً، فبالإضافة إلى كل المواد الضارة التي تضخها الصين إلى الخارج، هناك قضية ما تضخه الصين إلى الداخل: فهناك الحاجة إلى النفط، وإمكانية النزاع الناشئة من تلك الحاجة. فكي تبقى الصين على اقتصادها مستمراً، وبناءً على ذلك لكي تبقي على شعبها سعيداً، يجب عليها أن تستمر باستيراد المزيد من النفط. لقد تجاوزت الصين من قبلُ اليابان بوصفها ثاني أكبر مستهلك لمنتجات النفط بعد الولايات المتحدة. وطلب الصين يرتفع بمعدل 10 أو 15 بالمائة في العام، ومخرجاتها من النفط ترتفع بمعدل 2 بالمائة فقط تقريباً. وتضاعفت واردات الصين من النفط بين عام 2000 و 2005. والقسم الكبير من أسباب الارتفاع الضخم في أسعار النفط الكونية في أثناء ذلك الوقت كان هو القسم الناجم عن الطلب الصيني المتزايد.

والمشكلة هي أن العالم صار معتمداً على الاقتصاد الصيني المزدهر إلى الدرجة التي ما بقينا نستطيع معها أن نحتمل بالنسبة إلى الصين ألا تستمر بالمحافظة على استهلاكها بهذه الطريقة، على الرغم من أنه استهلاك ينزل الخراب الفادح بالبيئة.

وهكذا، فهنا تناقض واحد أخير يضاف إلى الكوم: وهو أننا نحتاج من الاقتصاد الصيني أن يتباطأ في الوقت نفسه الذي نحتاج منه أن يبقى مزدهراً.

في قلب شنغهاي تماماً، ويدعم تقاطع اثنين من الطرق السريعة المرفوعة وهما من أشد الطرق ازدحاماً، يقوم عمود فولاذي ضخم، يبلغ سمكه خمس عشرة قدماً. وقد حُفِر على العمود بشكل نافر تنين صيني ضخم ملتوٍ. وهو يمتد من أسفل العمود تماماً إلى القمة تماماً ويبلغ بالتأكيد خمسين قدماً طولاً على الأقل. ويبدو التنين غير مؤتلف نوعاً ما مع ما حوله. لأن أي جزء آخر تقريباً من نظام الطرق المرفوعة الجديدة في شنغهاي يمكن أن يكون في لوس أنجيلوس أو في شيكاغو، ولكن من غير المحتمل أنك سترى تنيناً ملفوفاً حول عمود مثل ذلك في مدينة أمريكية. يبدو أن هناك الكثير من التاريخ متجمع حول ذلك العمود، والكثير من الذكريات، وتراث حضارة كاملة عَلِقت

www.ibtesama.com/vb

في دوامة جسم التنين الطويل النحيل وذنبه الكاسح. في وسط مدينة تحاول، أن تكون حديثة جداً وتنجح في ذلك، يبدو أن العمود يقول: «نحن مازلنا هنا، نحن أحفاد التنين، مازلنا هنا، ومازلنا صينيين».

من الزمن الذي وصلت فيه القوى الغربية وبدأت بالطغيان على الصين في القرن التاسع عشر، كانت هذه البلاد عازمة على الوقوف في العالم وعلى أن تصير قوية من جديد. وكان الصينيون راغبين في فعل هذا بأي تكلفة، وأخيراً يبدو أنهم ينجحون. ولكن التكلفة كانت عالية. فالحزب الشيوعي وجه اللوم إلى التعاليم والفلسفات التقليدية عن ضعف البلاد، وشن هجوماً شرساً على نحو غير عادي على الثقافة الصينية، واستأصلها من الناحية العملية.

في الوقت الذي يكون فيه مفهوماً وجود بعض خيبة الأمل بشأن إضعاف قوة التقاليد الصينية، لم يكن الشيوعيون بحاجة إلى شن هذا الهجوم الغاضب. فتايوان، واليابان، وكوريا الجنوبية، تطورت جميعها من الناحية الاقتصادية على الرغم من أنها مجتمعات مستندة إلى الكونفوشيوسية أيضاً. ولكن الحزب الشيوعي اعتقد أن كل شيء كان يجب أن يُرمى. والآن بعد أن مرت العاصفة المجنونة من التدمير الماوي، يستفيد الاقتصاد الصيني بلا شك من غياب الاعتراضات الأخلاقية، والدينية والتقليدية التي تستطيع أن تبطئ سعيه إلى الثروة. ولكن الثقافة الصينية دمرت، وأحياناً، يعجب المرء، بصفته محايداً من الخارج، إن كان قد أبقي على أي شيء من الثقافة الصينية. في محاولة لكسر سلاسل التاريخ واستعادة الصين لعظمتها الماضية، هل قام الحزب الشيوعي بالتدمير الكامل للتراث التاريخي للبلاد، وبتدمير نفس جوهر الصينية التي كان يحاول حسب ما يفترض أن ينقذها؟

وأنا ألحظ التنين على العمود ثانية ركبت سيارة أجرة تحت الطرق السريعة المرفوعة لأقابل يو شا، مذيعة برنامج الحديث في الراديو التي شاركتها في طبق من البتزا قبل أن أبدأ رحلتي. ونتقابل في مقهى بار في مقاطعة شوجياهوي الحيوية، مقابل الكنيسة الكاثوليكية الضخمة تماماً. وأخبرها بشأن التنين، وتبتسم. وأسألها عن ذلك الجوهر الصيني الذي لا يمكن تعريفه، وإن كان ما زال موجوداً أو أنه كله قد

www.ibtesama.com/vb

اختفى تماماً. وأقول لها، إنك لا تشعرين به في الوقت الحاضر، وبالنسبة إلى محايد خارجي يأتي وهو يريد أن يخبرُ الصين، لا ليخبر صورة كربونية عن الغرب، فإن ذلك يبدو محزناً قليلاً. ولكن يو شا تمتلك مقارنة أخرى.

وتقول: «أنا أعتقد أن الصين مثل بيت جميل قديم يوشك أن ينهدم. والناس يسكنون فيه، وبعضهم يريد أن يقيم توسعات أو يقوم بعمل تجديدات. ولكنهم في النهاية لا يشعرون بالراحة وهم يعيشون في البيت القديم، إنه لا يلائمهم، وهكذا فقد قرروا أن يهدموه. ويمشي السكان المقيمون تمشية أخيرة واحدة عبر البيت، وفجأة يجدون شيئاً ما ثميناً جداً، بعض الكنوز التي لم يعرفوا أنها كانت موجودة هناك من قبل. وحين كانوا سيهدمون البيت، حينها فقط فكروا أن ينظروا. هذا ما أريد أن يحدث مع الصين في السنوات القليلة التالية، قبل أن نهدم كل شيء، نعيد اكتشاف شيء ما ثمين في غرف البيت القديم، شيء ما صيني، شيء ما مخبوء ينتظر ليعاد اكتشافه».

وهي لا تستطيع أن تضع أصبعها تماماً على هذا الشيء وماذا سيكون، لا تستطيع إلا أن تقول إن الشعب الصيني، على الرغم من التغريب، لن يتغير بشكل كامل. إنها تقول ببساطة إنه في غضون سنوات قليلة، بعد أن يكون كل واحد قد هدأ قليلاً، وحين تكون المطاردة المسعورة خلف المال أقل، سوف يود الناس أن يبدؤوا معاودة اكتشاف صينيتهم. وهي تقول إن هذا قد بدأ يحدث من قبل الآن قليلاً.

وتستمر في القول وهي تركز على كلماتها بعد أن تتوقف لترتشف شاي الفاكهة الخاص بها: «كثيرون من الشعب الصيني لا يعرفون ما هي الصين، إنهم ينظرون إليها من خلال عيون غربية. ولكنني أعتقد أننا إذا سرنا مساراً غربياً كاملاً، فلن ننجح. نحن نحتاج إلى أن نجد طريقاً يستبقي شيئاً ما من الجوهر الصيني. كثيرون من الناس يوافقونني. إنهم فقط لا يعرفون أين ينظرون. وأنا لا أعني العودة إلى الماضي، ولكنني أعني استبقاء عنصر من المدخل الصيني. فنحن إذا رأينا ما نخسره، فربما سنستعيده آنئذٍ. إننا في هذه المرحلة المؤلمة جداً والصعبة جداً من التحول، وهي المرحلة التي ضعفت فيها سلطة القيم القديمة ولم يترسخ ويثبت فيها بعد نظام القيم الجديدة. ولكنني أعتقد أننا نستطيع أن نجد طريقنا الخاص بنا، وهو طريق سيكون صينياً على نحو خاص».

www.ibtesama.com/vb

إن يو شا، مثل الكثيرين جداً من الصينيين، تأخذ بالرأي طويل الأمد، وهي تتحدث على أساس عقود قادمة. وعلى الرغم من كونها شابة، وعصرية، ومتغربة جداً كما هو واضح، فهي لا تؤمن من الناحية السياسية، أن مستقبل الصين سوف يتبع المثال الغربي أيضاً، ولا هي ترى أيضاً أن على الصين أن تفعل ذلك. وتقول: «لا أرى أن النظام الديمقراطي، ونظام تعدد الأحزاب، هو النظام الأفضل بالنسبة إلى الصين. وأنا لا أقول إن ذلك لن يحدث قط، ولكني فقط لا أرى أنه سيحدث بالضرورة».

وأسألها أخيراً عن كل الدعاية الجديدة التي يدفع بها الحزب الشيوعي، وكم منها تبدو على نحو مثير للدهشة دعاية كونفوشيوسية، وكأن الحزب قد نسي بغضاءه للصين القديمة ويقوم هو نفسه بالبدء بشيء ما من النهضة ليحاول غرس بعض الأخلاق في المجتمع. إن مفاهيم الرفاهية المعتدلة والانسجام والحملة الحديثة التي شجعت المسؤولين على «حكم الأمة بالفضيلة» كلها مفاهيم كونفوشيوسية.

وتقول يو شا إنها لا تحب شعارات الدولة. وتقول: «إنها خارجية. إنها لا تدخل إلى داخل الشخص، كي يستطيع أن يتصرف بناء عليها، ويكون متحولاً بها».

وتريد يو شا كثيراً جداً أن تكون صينية. وهي صينية، طبعاً، ولكنها تريد أن يكون ذلك الجوهر الصيني جزءاً منها ومن مستقبل بلادها على نحو أكبر، وبطريقة أعمق، طريقة يبدو أنها قد وضعت مؤقتا في غير مكانها. وفي الوقت الذي مازال فيه الناس الريفيون العديدون منهمكين في توفير الحاجات الأساسية من إطعام عائلاتهم، يبدو الأمر في المدن وكأن المزيد المزيد من الناس يشعرون بهذه الطريقة، وذلك بصفته رد فعل على الهجوم المفاجئ للمادية الغربية التي أشبعت الصين وزادت الإحساس المتزايد للقومية وللكبرياء الوطني الذي رجع معها.

قبل مائة عام، اعتقد كثيرون من المثقفين الصينيين أنه كان على الصين أن تدمر نفسها من حيث هي ثقافة لكي تنقذ نفسها بوصفها أمة. أما الآن، فإن تلك المشاعر معكوسة نوعاً ما. وبعد قرن من التحطيم الثقافي للقيم المتوارثة والعادات القديمة، يقول كثيرون من الشعب الصيني الحضري، «كفى! نحن نريد أن نكون صينيين ثانية. ونحن نريد أن ننقذ أنفسنا من حيث نحن ثقافة، ونحن نريد أن ننقذ هويتنا الصينية،

www.ibtesama.com/vb

وربما نستطيع آنئذٍ فقط أن نعاود اكتشاف أنفسنا بصفتنا أمة». هذه العملية ما زالت إلى حد كبير تمر في مرحلة انتقالية، لأن البلد نفسه يمر في حالة انتقالية، ومن العسير رؤية ما الذي سيتكشف في الطرف الآخر ومن الذي سيصير معروفاً. ولكن رؤية بعض الشعب الصيني وهم يحاولون استصلاح التراث الذي كان أجدادهم وآباؤهم سعداء في اطِّراحه (أو قيل لهم أن يطَّرحوه) هو أمر فاتن ورائع. وربما لن تكون الصين في النهاية مختلفة جداً عن اليابان وعن كوريا الجنوبية، ستكون مليئة بأناس عصريين هم أيضاً مواطنون فخورون ببلادهم الخاصة بهم وورثة فخورون بتقاليدهم الخاصة بهم، مع معرفة بأنفسهم تحدد من هم وإلى أين هم سائرون. ومن الناحية المثالية سيكون ذلك نوعاً من الحل لأزمة الهوية الصينية التي امتدت طوال قرن ونصف، التي قضت على الكثير جداً من الآمال وقضت على الكثير جداً من النفوس.

في اليوم التالي أطير عائداً إلى بكين لأودع توديعاتي الأخيرة. وقبل أن أطير إلى لندن أجري في ماراثون بكين، متمايلاً في مشيتي عبر أربع ساعات ونصف من أداء أقل من أن يترك أثراً ملحوظاً. والناس الصينيون يهتفون لي في كل خطوة من مسافة 26.20 من الأميال عبر مدينتهم. «أسرع، أسرع، يا رجل المحيط، فأنت تستطيع أن تفعلها!»

أتطلع بشوق إلى رؤية أسرتي بعد صيف طويل من الافتراق، وفي وجوه عديدة أعرف أن الوقت قد حان لأغادر الصين. ولكني أعرف أنني سأفتقدها وأشتاق إليها: الحماسة، والتفاؤل من المدن واليأس من الريف، ومجرد الإثارة لأمة في حالة انتقال صاخبة. وسوف أفتقد المكالمات على هاتفي الخليوي الجوال في ساعات متأخرة من الليل من الفلاحين الغاضبين أو العمال المسرحين. وسوف أفتقد الطاقة ومآزق الحياة والموت، والأمل والمأساة، وهي الأمور التي يكون كل شيء فيها مهماً أهمية كبيرة جداً. وسوف أفتقد الامتلاء بالأمل والشوق إلى مستقبل أفضل. في الغرب، يفترض أن مستقبلنا الأفضل هو هنا من قبل الآن، ولذلك فالحياة لم تبق هي نفس الرحلة فعلياً. نحن قد وصلنا محطتنا الأخيرة (هكذا نرى)، وهكذا جلسنا، ورفعنا أقدامنا إلى الأعلى واسترخينا، وصببنا لأنفسنا مشروباً كبيراً. في فرنسا، يحدد القانون ساعات

www.ibtesama.com/vb

العمل للعمال بخمس وثلاثين ساعة من العمل أسبوعيا. وكثيرون من الصينيين يعملون ذلك في يومين.

وأهم من ذلك كله فسوف أفتقد الشعب الصيني وأشتاق إليه، الشعب الصيني الرائع. فالقلب الصيني كبير جداً، جداً للغاية، ولكنه كان دائماً محصوراً جداً ضمن حدود، أولاً بالثقافة الكونفوشيوسية، وبعدئذٍ بالشيوعية. أما الآن، ووسط كل المشكلات، ولأول مرة يشعر كأن القلب الصيني الكبير، الكبير سوف يمتلك بعض الحيز ليتوسع ولينمو.

قال الرئيس ماو مرة إن الشعب الصيني كان صحيفة بيضاء من الورق كان يستطيع أن يكتب عليها كلمات الاشتراكية. وأنا لم يسبق لي قط أن وافقت على ذلك البيان. وبالتأكيد فإن الفكرة الجوهرية كلها بشأن الشعب الصيني قبل العام 1949 هي أن الصينيين لم يكونوا صفحات فارغات بيض ولكنهم كانوا صفحات قد كتب الكثير جداً من الكتابة عليها. صفحات من التاريخ، وصفحات من التعاليم الكونفوشيوسية هي التي جعلت من الصعب عليهم أن يستجيبوا حين وصلت القوى الغربية لتكتب كلماتها الخاصة المختلفة جداً فوق صفحاتهم.

بعد ثلاثين سنة من الماوية العسكرية، وبعد ستين عاماً هي مجمل حكم الحزب الشيوعي، بعدها فقط يصير الشعب الصيني صفحة بيضاء من الورق، وذلك لأن ماو فعل الكثير جداً لمحو (أو لتمزيق) ما كان مكتوباً هناك من قبل. وطبعاً، هناك الكثير من الكتابة التي مازالت باقية. فأنت لا تستطيع أن تمسح كل شيء من الماضي. ولكن الفكرة الجوهرية هي أن الصينيين الآن يكتبون على الورقة بأنفسهم.

هل تستطيع الحكومة أن تغير النظام السياسي وتستمر مع ذلك ممسكة بالبلاد متحدة معاً؟ هل نستطيع أن يكون لدينا صين قوية موحدة وصين مُغيّرة؟

أنا آمل ذلك، من أجل الشعب الصيني. هل يمكن أن يكون هناك أي شعب في العالم يستحق أن ينجح أكثر من الصين، وأن يرى في حياة أفراده الرفاهية والحرية التي نأخذها نحن في العالم الغربي أمراً مسلماً به ويشعر بهذه الرفاهية والحرية؟

www.ibtesama.com/vb

لا أعتقد ذلك. لقد عانى الشعب الصيني طويلاً جداً، وأطول جداً مما يجب، والآن، على الرغم من كل نقائص بلادهم يقف الكثيرون جداً من الشعب على حافة التذوق لأول مرة لنوع ما من التقدم.

والحق أن لدي بعض نواحي القلق الكبيرة بشأن الصين وبشأن مستقبلها. وأنا مستعد أن أذهب إلى حد بعيد جداً لأقول إنني خائف إلى حد معين. فلدى الصين مشكلات أكثر مما يدرك الناس في الغرب، والإمكانات الخاصة بالتقدم ملونة تلويناً خفيفاً دائماً بالثمن الباهظ الذي يدفعه الخاسرون في مجمل عملية الإصلاح الاقتصادي. ومهما يحدث في الصين، فلدي شعور بأن تطور البلاد سوف يستمر في كونه ركوباً يتحرك في طريق كثير الحفر والمطبات.

وإذا لم يبدأ الحزب الشيوعي بعمل الإصلاحات السياسية، فأنا أخشى أننا حين النظر إلى العام 2020، فإن ذلك الركوب في الطريق يمكن أن يصير كثير الحفر والمطبات جداً، في الوقت الذي تصير فيه الضغوط والتناقضات في المجتمع الصيني كبيرة جداً.

ويكمن دائماً في أعماق ذهني الخوف من أن ثِقل ألفي عام من التاريخ الإمبراطوري مكدس ضد إمكانية الإصلاح الديمقراطي. إنني خائف من أن أساليب الإمساك بالدولة معاً هي أساليب غير متوافقة مع السماح للدولة بالتغير، وأن الصين الموحدة، إمبراطورية موحدة، سوف تستمر في كونها أهم للقادة من إمكانية صين متغيرة. وأنا أخشى أن الدولة الصينية، التي كانت دائماً أهم من الفرد، قد تنتهي في النتيجة إلى خيانة الشعب الصيني خيانة شاملة مرة أخرى.

ولكنني في النهاية لا أستطيع أن أكون متشائماً على نحو كامل، وبعد أخذ كل شيء بالحسبان، لا أستطيع أن أنهي هذا الكتاب بنغمة متشائمة. ربما لأنني رأيت بأم عيني طوال عشرين عاماً (وعلى طول الطريق 312) إلى أي مدى وصلت الصين. والمؤلف الصيني الكبير لو شيون سأل كل هذه الأسئلة من قبل في الأيام السوداء بعد انهيار ثورة 1912. وفي العام 1921 كتب قصة قصيرة سماها «بيتي القديم». وفيها

www.ibtesama.com/vb

يصف لو كيف يعود إلى بلدته في الوطن بعد عشرين عاماً بعيداً عنها ويقابل رفيقه القديم في اللعب، الذي بقي لصيقاً بالقرية في الوقت الذي كان الراوي قد ابتعد عنها وصار متعلماً وحضرياً. ويشعر لو شيون بوجود جدار غير مرئي بينهما، ويسود القصة إحساس من التشاؤم، على الرغم من أن ابن أخيه وابن صديقه انسجما انسجاماً جيداً وهو يأمل أنهما يستطيعان أن يمتلكا «حياة جديدة، حياة لم يسبق لنا قط أن خبرناها».

ويقلق لو شيون من أن أمله قد يكون في غير محله، لأنه واعٍ إلى مدى كبير بالسحب الذي يقوم به إلى الوراء ماضي الصين، وبالسحب الذي يقوم به تراثها ويقوم به تاريخها الذي لا مفر منه. ولكنه يتوجه عائداً إلى المدينة من وطنه القديم ويفكر، وهو يذهب، فيما كنتُ أنا أفكر فيه وأنا أسافر على طول الطريق 312، وهو نعم، هناك فرق الآن، وهناك سبب للأمل وسط كل المشكلات. فالصينيون الآن أكثر جداً مما كانوا عليه في العشرينيات من 1920، يبدؤون بطريقة صغيرة جداً في أن يكونوا مسؤولين عن مصائرهم الخاصة. فهم يكتبون كلماتهم الخاصة بهم على رقُمهم، وسوف يتقرر مستقبلهم ولكن دور القضاء والقدر، أو الإمبراطور أو قوى الطبيعة سيكون أقل فأقل. الصينيون، كما يكتب لو شيون في خاتمة قصته، يصنعون مستقبلهم الخاص، بصورة منقوصة، بصورة مؤلمة، ولكنها على طول الطريق على نحو يبعث على الأمل.

> لا يمكن القول إن الأمل موجود، لا، ولا يمكن القول إنه غير موجود. إنه تماماً مثل الطرق في مناكب الأرض. وذلك لأن الأرض، في الواقع، لا طرق فيها بداية... ولكن حين يسلك كثير من الناس سبيلاً واحداً، فإنه يصير طريقاً مطروقاً.

www.ibtesama.com/vb

شكــر

بدأ هذا الكتاب الحياة في شكل سلسلة إذاعية من سبعة أجزاء في الراديو الوطني العام التي أذيعت في شهر آب / أغسطس 2004. (وتستطيع أن تسمع السلسلة في موقع:

WWW.npr.org/programs/morning/features/2004/aug/china_road

وبعد عام من رحلتي من أجل السلسلة الإذاعية التي دامت أسبوعين، سافرت على طول الطريق 312 مرة أخرى في صيف العام 2005، وفي هذه المرة سافرت طوال شهرين. ولذلك فإن (طريق الصين) هو مجمل الرحلتين على طول الطريق، زائداً رحلة عودة قصيرة إلى شنغهاي ونانجينغ. وعلى الرغم من أن ذلك أوقع الأذى في حساسياتي الصحفية، فلم يكن هناك أي سبيل آخر لعمله.

ومثل كل المؤلفين، فعلي الكثير من ديون الاعتراف بالجميل. وأول هذا الدين هو لرب عملي، الراديو الوطني العام، وعلى وجه الخصوص لكبير المحررين الأجانب، لورين جينكينز، الذي كان دعمه لسلسلة الإذاعة وللكتاب نموذجاً للتشجيع الذي منحني إياه دائماً. وأود أيضاً أن أشكر باربارا ريهم، وتيد كلارك، وكيفين بيزليي، وبوب دنكان، وهيئة المكتبة المرجعية للراديو الوطني العام، وهوغو بوثبي في مكتب الراديو الوطني العام في لندن. والشكرالكبير يذهب إلى محررتي في راندوم هاوس، سوزانا بورتر، التي أعطتني توجيهاً ممتازاً عن الكتاب، بل هي ضحكت من نكتي من حين إلى آخر. والشكر أيضاً إلى وكيلتي في واشنطون، غيل روس، التي خاطرت ووكلت أمرها إلى الحظ مع مؤلف لأول مرة، ولمديرها المبدع، هووارد يون، الذي أعطاني مُدْخلاً حاسماً في وقت حرج.

وكثيرون من الأكاديميين ساعدوني على طول الطريق، ومن جملتهم ريتشارد بوم في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجيلوس وأندرو ناثان في كولومبيا. وروبي بارنيت، من كولومبيا أيضاً، الذي قرأ كل الفصل الخاص عن التيبت وأوقفني مباشرة على عدد

www.ibtesama.com/vb

من النقاط المهمة. وقرأ جيمس ميلوورد في جورجتاون كل النصف الثاني من المسودة، وكان عوناً كبيراً من خلال ملاحظاته عن الويغور وشينكيانغ. وأتقدم بشكري بشكل خاص إلى جون فلور من جامعة نورث كارولينا في تشارلوت، الذي قرأ المسودة كلها، وأعطاني بكرم بالغ من وقته ومن معرفته في تعليقاته. وغني عن القول إن أي أغلاط أو هفوات تبقى بعد ذلك فهي كلها مني.

وفي الصين، استفدت من المحادثات مع العديد من الأصدقاء في مؤسسات الصحافة الأجنبية. وأود أن أشكر على نحو خاص جيمس كينج، وروبرت وينغفيلد ـ هيز، وجيمس مايلز، وجيم ياردلي، وتشارلز هتزلر، وهولي ولیامز، وأنتوني كوهن، ولويزا ليم، ومايك ليف، وهنري تشو، وجون بومفريت، وآدم بروكز، ودنكان هيويت، وفرانك لانغفيت. إن قلة من الصور هي مني، ولكن معظمها ـ كل الصور الجميلة، في الحقيقة ـ كان قد التقطها باتريك فريزر، الذي سلك بعدي الطريق. له مني شكر كبير. (ويمكن مشاهدة عمل باتريك الساحر على الموقع:

www.patrickfraserphotography.com

وهناك أيضاً المزيد من صور باتريك على موقعي على الشبكة:

(www.robgifford.com)

والشكر أيضاً لبوب كاب، وبينو فينغ، وغريغ باركر، وكيرت سيلليس، وتوني لامبرت، وميلا رونتال وكيترين ماك كيرنان.

هناك كثيرون من الصينيين الذين يجب أن أشكرهم، وبشكل خاص أولئك الذين فتحوا لي بيوتهم وقلوبهم على طول الطريق 312. بعضهم يرغب في أن يبقى مجهولاً، وهناك عدة أسماء في الكتاب غيرتها لأحمي هوياتهم. وأنا أعيش في أمل من أجل مجيء يوم لا يبقى ذلك بعده ضرورياً. ومساعِدَتي ليانغ يان، سافرت معي طول الطريق 312 من أجل رحلة الإذاعة، وأضافت كمية ضخمة لفهمي لكل شيء، مثلما تفعل دائماً. وقد قمت بالرحلة الثانية وحدي. وأعطتني ياسيمن غيو مساعدة كبيرة في البحث في شنغهاي.

www.ibtesama.com/vb

إنني شاكر إلى الأبد لجميل والديّ، غراهام وجيرالدين، اللذين وضعاني أولاً على الطريق الصحيح. لقد قدما بعض الاقتراحات الممتازة مثلما فعل والدا زوجتي، روز ماري ولويد. وابناي آمي ودانييل، منحاني تشجيعاً لا نهاية له في أثناء تخطيطي وكتابتي للكتاب، على الرغم من أنه أبعدني عنهما طوال فترة طويلة من الزمن. وأنا فخور جداً بهما وأعترف أنني أحب أن أكون قد أنجبت أطفالاً كانوا قد صنعوا في الصين.

وأكثر من الجميع يذهب شكري إلى زوجتي، نانسي، التي عاشت كل لحظة من هذا الكتاب، وكل شيء حدث قبله. إن حبها، وإيمانها، وحكمتها، وصبرها، بله مهاراتها بعمل محررة، مسكوبة كلها في كل صفحة، وكل كلمة، مما كتبته، تماماً مثلما هي مسكوبة في كل ركن من حياتي. لقد جعلت أشياء عديدة للغاية ممكنة ولا تغيب عن الذاكرة معاً، وهذا الكتاب مهدى إليها مع الكثير، الكثير من الحب.

آر. كي. جي
لندن
آذار / مارس 2007

www.ibtesama.com/vb

masry3
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb

مسرد كتب مختارة

Barnett, Robert. *Lhasa: Streets with Memories.* Columbia University Press, 2006.
Beautiful book about the many layers of the Tibetan capital, and the many layers of Tibet's tragic history to be found there.

Buck, Pearl. *The Good Earth.* Washington Square Press, 2004; first published in 1931.
The classic novel of one farmer's life and loves, set against the tumultuous, changing canvas of 1920s China.

Cable, Mildred, with Francesca French. *The Gobi Desert.* Macmillan, 1944.
One of the great China travel books, written by two middle-aged English missionaries.

Cable, Mildred, and Francesca French. *Through Jade Gate and Central Asia: An Account of Journeys in Kansu, Turkestan and the Gobi Desert.* Constable & Co., 1927.
Another book of Gobi travels from two of the intrepid Trio.

www.ibtesama.com/vb

Economy, Elizabeth. *The River Runs Black: The Environmental Challenge to China's Future.* Cornell University Press, 2004.
Shocking summary of China's environmental meltdown.

Fleming, Peter. *News from Tartary: A Journey from Peking to Kashmir.* London: Jonathan Cape, 1936.
Intrepid young journalist travels across a disintegrated China in the 1930s.

Goldstein, Melvyn C. *The Snow Lion and the Dragon: China, Tibet, and the Dalai Lama.* University of California Press, 1999.
Excellent, short summary of the Tibet Problem from the doyen of Tibet-watchers.

Hessler, Peter. *River Town: Two Years on the Yangtze.* HarperCollins, 2001.
Timeless, personal account of teaching for two years in the late 1990s in a town on the Yangtze River.

Hopkirk, Peter. *Foreign Devils on the Silk Road: The Search for the Lost Cities and Treasures of Central Asia.* Oxford University Press, 1980.
The definitive account of Aurel Stein and the other "robbers" of Dunhuang.

Jenner, W.J.F. *The Tyranny of History: The Roots of China's Crisis.* Penguin, 1992.
Shockingly negative but staggeringly brilliant analysis of China's political culture.

Kynge, James. *China Shakes the World: A Titan's Rise and Troubled Future—and the Challenge for America.* Houghton Mifflin, 2006.
Award-winning analysis of how a hungry China is shaking the world economically.

Levathes, Louise. *When China Ruled the Seas: The Treasure Fleet of the Dragon Throne, 1405–1433.* Oxford University Press, 1997.
The amazing story of Ming dynasty admiral Zheng He.

www.ibtesama.com/vb

Lu Hsun. *Selected Stories*. W. W. Norton, 2003.
A great introduction to some of Lu Xun's best short stories (using the old spelling of his name).

Macartney, Lord George (ed. J. L. Cranmer-Byng). *An Embassy to China: Being the Journal Kept by Lord Macartney During His Embassy to the Emperor Ch'ien-lung 1793–1794*. Folio Society, 2004.
Beautiful reproduction of the original diary, including watercolors painted by the embassy's artist, William Alexander.

Millward, James A. *Eurasian Crossroads: A History of Xinjiang*. Columbia University Press, 2006.
The definitive academic history of Xinjiang, China's Muslim Northwest.

Pei, Minxin. *China's Trapped Transition: The Limits of Developmental Autocracy*. Harvard University Press, 2006.
Excellent, quite academic analysis of why China won't be able to make the transition to multiparty democracy.

Pomfret, John. *Chinese Lessons: Five Classmates and the Story of the New China*. Henry Holt, 2006.
The dean of China correspondents tells the story of his twenty-five-year love affair with China.

Spence, Jonathan. *The Chan's Great Continent: China in Western Minds*. W. W. Norton, 1999.
Fascinating tour of how Westerners have seen China through the ages.

Spence, Jonathan D. *The Search for Modern China*. W. W. Norton, 1999.
The definitive modern history of China from the master of the genre.

Studwell, Joe. *The China Dream: The Quest for the Last Great Untapped Market on Earth*. Atlantic Monthly Press, 2002.
In-depth look at Westerners' obsession with the China market.

www.ibtesama.com/vb

Taylor, Howard, and Mrs. Howard Taylor. *The Biography of James Hudson Taylor.* Hodder and Stoughton, 1995.
Biography of one of the greatest missionary figures of nineteenth-century China.

Terrill, Ross. *The New Chinese Empire: And What It Means for the United States*. Basic, 2004.
Very well researched and well written analysis, linking China's past, present, and future.

Tu Wei-ming, ed. *The Living Tree: The Changing Meaning of Being Chinese Today.* Stanford University Press, 1991.
Academic but highly readable tome that digs deep into the search for a modern Chinese identity.

Tyler, Christian. *Wild West China: The Taming of Xinjiang.* Rutgers University Press, 2004.
A more journalistic history of Xinjiang.

And a couple of good websites:
http://afe.easia.columbia.edu/chinawh/
Kenneth Pomeranz and Bin Wong's website about how China was far ahead of the West and how it fell behind.

http://xiakou.uncc.edu
John Flower's excellent, detailed website exploring the many layers of life in one village in the mountains of Sichuan province.

www.ibtesama.com/vb

المراجع

Abbott, J. E. (1998). *Quality team learning for schools: A principal's perspective.* Milwaukee, WI: ASQ Quality Press.

Blase, J., & Kirby, P. C. (1992). *Bringing out the best in teachers: What effective principals do.* Newbury Park, CA: Corwin Press.

Bransford, J., Brown, A. L., & Cocking, R. R. (Eds.). (2000). *How people learn: Brain, mind, experience, and school.* Washington, DC: National Academy Press.

Brown, J. L., & Moffett, C. A. (1999). *The hero's journey: How educators can transform schools and improve learning.* Alexandria, VA: Association for Supervision and Curriculum Development.

Cook, W., Jr. (1986). *Certification program and strategic planning.* Arlington, VA: Cambridge Management Group, Inc. and AASA.

Covey, S. R. (1989). *The seven habits of highly effective people.* New York: Simon & Schuster.

Darling-Hammond, L. (1997). *The right to learn: A blueprint for creating schools that work.* San Francisco: Jossey-Bass.

DuFour, R. (2002). The learning-centered principal. *Educational Leadership,* 59(8), 12–15.

DuFour, R. & Eaker, R. (1998). *Professional learning communities at work: Best practices for enhancing student achievement.* Bloomington, IN: National Educational Service and ASCD.

Elmore, R. (Winter, 2000). *Building a new structure for school leadership.* Washington, DC: The Albert Shanker Institute.

Evans, R. (1996). *The human side of school change: Reform, resistance, and the real-life problems of innovation.* San Francisco: Jossey-Bass.

Fullan, M. (1993). *Change forces: Probing the depths of educational reform.* London: Falmer Press.

Fullan, M. (1999). *Change forces: The sequel.* London: Falmer Press.

Fullan, M. (2001). *Leading in a culture of change.* San Francisco: Jossey-Bass.

Fullan, M., & Stiegelbauer, S. (1991). *The new meaning of educational change.* New York: Teachers College Press.

Glickman, C. D. (1993). *Renewing America's schools.* San Francisco: Jossey-Bass.

Glickman, C. D. (2002). *Leadership for learning: How to help teachers succeed.* Alexandria, VA: Association for Supervision and Curriculum Development.

Hall, G. E., & Hord, S. M. (1987). *Change in schools: Facilitating the process.* Albany, NY: SUNY Press.

www.ibtesama.com/vb

Hall, G. E., & Hord, S. M. (2001). *Implementing change: Patterns, principles, and potholes*. Boston: Allyn & Bacon.

Jacobs, H. H. (1997). *Mapping the big picture: Integrating curriculum and assessment K–12*. Alexandria, VA: Association for Supervision and Curriculum Development.

Joyce, B., & Showers, B. (2002). *Student achievement through staff development*. Alexandria, VA: Association for Supervision and Curriculum Development.

Lieberman, A., & Miller, L. (1999). *Teachers—transforming their world and their work*. New York: Teachers College Press.

Lightfoot, S. L. (1983). *The good high school: Portraits of character and culture*. New York: Basic Books, Inc.

Marzano, R. J. (2003). *What works in schools: Translating research into action*. Alexandria, VA: Association for Supervision and Curriculum Development.

McDonald, J. P. (1996). *Redesigning school: Lessons for the 21st century*. San Francisco: Jossey-Bass.

McTighe, J. (2003). *A summary of underlying theory and research base for Understanding by Design*. Unpublished manuscript.

McTighe, J., & Thomas, R. (2003). Backward design for forward action. *Educational Leadership (60)*5, 52–55.

National Staff Development Council. (2001). *Revised standards for staff development*. Oxford, OH: National Council for Staff Development.

Rossman, G. B., Corbett, H. D., & Firestone, W. A. (1988). *Change and effectiveness in schools: A cultural perspective*. Albany, NY: SUNY Press.

Sarason, S. B. (1990). *The predictable failure of educational reform: Can we change course before it's too late?* San Francisco: Jossey-Bass.

Sarason, S. B. (2002). *Educational reform: A self-scrutinizing memoir*. New York: Teachers College Press.

Schlechty, P. C. (2001). *Shaking up the school house: How to support and sustain educational innovation*. San Francisco: Jossey-Bass.

Schmoker, M. (1996). *Results: The key to continuous school improvement*. Alexandria, VA: Association for Supervision and Curriculum Development.

Schmoker, M. (2003, February 12). Planning for failure? Too much of schools' "improvement planning" misses the mark. *Education Week (22)*, 21.

Senge, P. (1990). *The fifth discipline: The art and practice of the learning organization*. New York: Doubleday.

Senge, P., Kleiner, A., Roberts, C., Ross, R. B., & Smith, B J. (1994). *The fifth discipline fieldbook: Strategies and tools for building a learning organization*. New York: Doubleday.

Senge, P., Cambron-McCabe, N., Lucas, T., Smith, B., Dutton, J., & Kleiner, A (2000). *Schools that learn: A fifth discipline fieldbook for educators, parents, and everyone who cares about education*. New York: Doubleday.

Sergiovanni, T. J. (1994). *Building community in schools*. San Francisco: Jossey-Bass.

Sergiovanni, T. J. (2000). *The lifeworld of leadership: Creating culture, community, and personal meaning in our schools*. San Francisco: Jossey-Bass.

Sparks, D. (2002). *Powerful professional development for teachers and principals*. National Staff Development Council.

Sparks, D., & Hirsh, S. (1997). *A new vision for staff development*. Alexandria, VA: Association for Supervision and Curriculum Development, and Oxford, OH: National Staff Development Council.

www.ibtesama.com/vb

Spillane, J. P., Reiser, B. J., & Reimer, T. (2002). Policy implementation and cognition: Reframing and refocusing implementation research. *Review of Educational Research, 72*(3), 387–431.

Van den Berg, R. (2002). Teachers' meanings regarding educational practice. *Review of Educational Research, 72*(4), 577–625.

Wasley, P. A. (1991). *Teachers who lead: The rhetoric of reform and the realities of practice.* New York: Teachers College Press.

Wiggins, G. P., & McTighe, J. (1998). *Understanding by design.* Alexandria, VA: Association for Supervision and Curriculum Development.

Williams, B. (Ed.). (1996). *Closing the achievement gap: A vision for changing beliefs and practices.* Alexandria, VA: Association for Supervision and Curriculum Development.

Yero, J. L. (2002). *Teaching in mind: How teacher thinking shapes education.* Hamilton, MT: MindFlight Publishing.

Zmuda, A., & Tomaino, M. (2001). *The competent classroom: Aligning high school curriculum, standards and assessment—a creative teaching guide.* New York: Teachers College Press.

www.ibtesama.com/vb

حصريات يوليو 2014

www.ibtesama.com/vb